الجغرافيا السياسية

بين الماضي والحاضر

الحداثة

النشأة

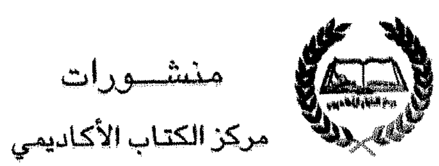
الحدود

التطور

السكان

عدنان صافي

جامعة الاسكندرية





الجغرافيا السياسية

بين الماضي والحاضر

عدنـــــان صـــــافي

جامعة الأسكندرية

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٩/٨/١٤٧٨)
رقم التصنيف : ٣٢٠,٩١

مركز الكتاب الأكاديمي
للنشر والتوزيع (الأردن - عمان)

ش الملك حسين – مجمع الفحيص التجاري – سوق الكتاب الجديد
تلفاكس : ٤٦١٩٥١١ ص.ب : ١٠٦١ عمان (١١٧٣٢)

الأهداء

إلى روح والدي.....رمز التضحية والوفاء

إلى والدتي ...رمز الحب والحنان

إلى أخي أحمد ...رمز الأخوة الصادقة

إلى زوجتي ....رفيقة الدرب

إلى أولادي: هيثم ، سوزان، اسماء، محمد، آلاء، عمر

مع خالص محبتي

عدنان



محتويات الكتاب

المقدمة

تعتبر الجغرافيا السياسية فرعاً جغرافياً هاماً قائماً بذاته استقر عليها الرأي بين الأكاديميين الجغرافيين وهي بذلك تشبه غيرها من فروع الجغرافيا التي تتطلب التكامل المعرفي بين المناهج العلمية والعديد من فروع المعرفة لكي تستقي في النهاية المذاق الجغرافي المميز للجغرافيا السياسية.

إلا أن بعض الباحثين في الجغرافيا السياسية نظروا إليها من زاوية أخرى فأعتبروها جزء من الجغرافيا التاريخية في صورة ديناميكية ترتبط بانماط التجمعات السياسية عبر التاريخ ومن ثم كان البحث عن العوامل المشكلة لهذه الأنماط السياسية المنفردة أو المجتمعة من أهم المسائل الجدلية في دراسة الجغرافيا السياسية وذلك بإعتبار أن العوامل بحذ ذاتها كثيرة ومتنوعة يتصل بعضها بطبيعة الأرض التي يقوم عليها النمط السياسي والإنسان الذي يشكل جوهر هذا النمط ، أضف إلى ذلك الصراع الحربي والسياسي في أوروبا إبان النصف الأول من القرن العشرين الذي مثل محورا للتغير الجغرافي في دراسة هذا الفرع من الجغرافيا.

ومن ثم فقد كانت دراسة خريطة أوروبا السياسية منذ مطلع هذا القرن ركيزة العمل الجغرافي لا سيما وأن هناك صلة وثيقة بين القوى الفاعلة في هذه الخريطة والوضع السياسي في قارتي أفريقيا وآسيا الذي شهد تطورا ملحوظاً في الربع الأخير من هذا القرن، وقد تناولت في كتابي هذا خمسة أبواب أحتوى كل واحد منها على ثلاث فصول مترابطة حاولت

فيها قدر المستطاع ايصال القارئ الكريم عبر هذه القنـــوات إلـــى نظـــرة مستقبلية نحو القرن الحادي والعشرين، حيث تدرجت به من نشأة الجغرافيـــا السياسية إلى التطور ثم المناهج الدراسية فيها إلى تركيب الدولة والســـكان الذين يمثلون العنصر الأساسي في الجغرافيا السياسية إلى التعريف بـــالحدود واقاليم التخوم إضافة إلى الحدود المرتبطة بالظواهر الطبيعية والبشرية حتى النظرة الموضعية إلى القرن الحادي والعشرين، إضافة إلى توضيح الفـــرق بين الجيوبولتيكا والعلوم السياسية من جهة والجغرافيا السياسية مـــن جهـــة أخرى لا سيما وأن الكثير من الناس يخلطون فيما بينها في محاولة لتوضيح الصورة حول هذه المفاهيم.

راجيا من الله العلي القدير أن يجعل هذا الجهد المتواضـــع صدقـــةً جاريةً وعلماً ينتفع به.

والله من وراء القصد

المؤلف

عدنان صافي

الباب الأول
مدخل إلى الجغرافيا السياسية

الفصل الأول : ماهية الجغرافيا السياسية
الفصل الثاني: مناهج الدراسة في الجغرافيا السياسية
الفصل الثالث : الجيوبولتيكا (قديما وحديثا)



الفصل الأول
ماهية الجغرافيا السياسية

نظرة ناقدة

لا يوجد فرع من فروع الجغرافيا الحديثة يتناوله الجذب والشد مثل الجغرافيا السياسية ولا يوجد فرع من فروع الجغرافيا البشرية حدث حوله جدل ونقد وسوء فهم مثل الجغرافيا السياسة. وكذلك لم يحدث جدل ونقد حول احد كبار الجغرافيين مثل ما حدث لفريد ريك راتزل مؤسس الجغرافيا السياسية، الذي نشر خلاصة افكاره عام ١٨٩٧ في كتابه المسمى الجغرافيا السياسة "Politische Geographie"

أن هناك فارقاً كبيراً بين الجغرافيا السياسية وبين علم السياسة برغم ان الموضوع في أسسه العامة مشترك:

الدولة : فالدولة بالنسبة للجغرافيا السياسية عبارة عن عنصرين اساسيين هما الأرض والشعب وعنصر ثالث هو نتاج التفاعل بين الأرض والناس. وتشتمل دراسة الأرض على كثير من عناصر الدراسة الجغرافية الطبيعية على رأسها المكان الجغرافي والأقاليم الطبيعية للدولة. كما تشتمل دراسة الشعب على عناصر كثيرة من الدراسة البشرية تبدأ بالسكان والنشاط الاقتصادي وأنماط السكن والمدن والتكوين الحضاري للناس من حيث سلالاتهم ومجموعاتهم اللغوية والدينية وتنظيمهم الطبقي. أما العلاقة بين الأرض والناس فهي شديدة التعقيد والتشابك

وتعطي في النهاية سلامة تكوين الدولة أو عناصر قوتها وضعفها. وفي هذا المجال يضع الجغرافي السياسي نصب عينيه حدود الدولة كإطار محدد للوحدة الأساسية في الجغرافية السياسية، برغم ما تتعرض له الحدود من تغيرات، وبرغم ان خطوط الحدود في أحيان كثيرة خطوط افتعالية ترتضي لزمن معين. ويؤدي هذا الى عدم ثبات الوحدة الأساسية في علم الجغرافية السياسة الأبد. ويعطي للجغرافية السياسية ديناميكية دائمة. وفي هذا يقوم الجغرافي بدراسة الدولة داخل علاقاتها بالمجتمع الدولي المجاور والبعيد. ويعطي هذا بعدا جديدا في دراسة الجغرافيا السياسة. وواضح من هذا العرض القصير الفارق الكبير بين هذا العلم وعلم السياسة الذي يسعى الى ايجاد التناسق بين علاقات بينما تحلل الجغرافية السياسة العلاقة بين الظروف الجغرافية الطبيعية والبشرية داخل الدول.

ونظراً لأن الجغرافيا السياسة، والعلوم السياسية عامة، تتناول موضوعات شائكة، بالإضافة الى صعوبة وجود الموضوعية المطلقة في الوثائق والدراسات التاريخية فإن الكاتب في الجغرافيا السياسية أو العلوم السياسية عامة لا يمكن ان يتجرد تماماً من صفة الموضوعية للأسباب التالية:

أولاً: العواطف والانتماءات القومية الوراثية (أو المكتسبة للمهاجرين من دولة الى اخرى) تجعل الكاتب موضوعياً في الموضوعات البعيدة عن المكان الجغرافي لقوميته، أو البعيدة عن الاتصالات السياسية والتاريخية بقوميتة، بينما يصبح غير موضوعي بدرجات متفاوتة فيما يختص بغالبية العناصر التي يدرسها في مشكلة سياسية تمس من قريب انتماءاته القومية. فالجغرافي السياسي الألماني

لا ينظر الى مشاكل ألمانيا السياسية بالنظرة نفسها التي ينظر اليـــها الفرنســـي او الإنجليزي أو الأمريكي.

ثانياً: هناك انتماءات ومشاعر عاطفية فوق القومية المحـــدودة وتتعداهـــا الى عواطف الارتباط بتجمع حضاري معين مثل الانتماء الى حضـــارات العـــالم الصناعي او الغربي او الى حضارات العالم الثالث او المتخلف والنامي. فالكـــاتب السياسي الغربي ينظر من زاوية حضارته ومنجزاتها نظرة شـــاملة دون التوقـــف عند تفصيلات أحداث في علاقة هذين العالمين سواء كانت ضارة أو مجحفة بحـــق شعوب العالم الثالث، أو مفيدة ومريحة لأصحاب المستعمرات من دول الحضـــارة الغربية الصناعية. وفي الوقت نفسه يقف هذا الكـــاتب طويـــلاً امـــام منجـــزات الحضارة الغربية في دول العالم الثالث الحالية، بينما يقف الكاتب السياسي الـــهندي او العربي مثلاً وقفات طويلة أمام البربرية الاستعمارية في كثير من مواقفـــها، او أمام الاستنزاف الاقتصادي الطويل، وينظر الى تركيب الاقتصاد المزدهـــر فـــي العالم الصناعي الغربي حالياً على أنه أسس دون شك على أعمال ملايين العمـــال الجائعين من ابناء العالم الثالث التي قد موها كرها او طواعيـــة غـــير مباشـــرة بواسطة اجبار حكام خاضعين للحكم الاستعماري بالإضافة الى استغلال الـــثروات الطبيعية من أجل اثراء اصحاب المستعمرات حكومات وشعوب.

ثالثاً: تتعدى النظرة فوق القومية المشاعر العامة لأصحاب الحضـــارات الغربية في أحيان كثيرة لتتطرف مشاعر عنصرية مرتبطة بالرجل الأبيض ككـــائن سام، وعلى غيره من العناصر ان تخدمه دون محاسبة او اعتراض في مقـــابل ان يرعى بعض مصالحهم الضرورية في مجرد البقاء على قيد الحيـــاة. مثـــل ذلـــك

الكتاب السياسيين في الدول العنصرية كجنوب أفريقيا وورود يسيا والكثـــير مـــن الكتاب السياسيين في امريكا. وقد بلغت مثل هذه المراحل من العنصرية اشدها في حالتين:

الأولى : الكتابات العنصرية الجرمانية التي تمجد سيادة الجرمـــان علـــى كل البشر بما فيهم بقية السلالات البيضاء.

والثانية : الكتابات السياسية العنصرية الصهيونية التي تمجد ســيادة مـــا يسمونه بالسلالة اليهودية على العالم.

وقد كان من الطبيعي ان تتناحر هاتين العنصريتيـــن المتطرفتيـــن فـــترة ' يلة من الزمن، وان تخلف الثانية الأولى بعد هزيمتها لأن كلا منهما اتخذ لنفسه ختلفاً في محاولة تحقيق هدفه للسيطرة العالمية: فالجرمانية ســخرت كـــل ب الألماني ضد العالم وهي بدون شـــك طاقـــات محـــدودة بالمكـــان ر العدد البشري مهما كانت أشكال التقدم التكولوجي التي وصـــل إليـــها

والثالثة :سخرت وتسخر طاقات مختلفة من أماكن جغرافية كثيرة وشعوباً ـية لكي تخدم الابقاء على الدولة الإسرائيلية في فلسطين. وفي نظري فإن هـــذه الدولة لا تمثل كل التجسيد لأهداف العنصرية الصهيونية، بل هي جزء مـــن هـــذه الأهداف تمثل ركيزة تمتد منها جسور على المستوى العالمي يربط اليهود ظاهريـــاً ومادياً ويربط معه بالفعل أجزاء كثيرة في العالم.

والرابعة: تختلف نظرة الكتاب السياسيين الى الأمور باختلاف انتماءاتـــهم الايديولوجية فالكاتب الاستعماري العتيق يختلف عن الامبريالي المعاصر وكلاهمـــا يختلف عن الكاتب الماركسي في تحليل الأحداث السياسية. ويتفق هـــؤلاء جميعـــاً

في أن الاقتصاد والتجارة بصورته العامة هو محرك اساسي للتخطيط السياسي، ولكنهم يختلفون في تحليل كل الظواهر الاجتماعية الاقتصادية المؤدية الى تكوين الدولة وتشكيل الأحداث السياسية وقيام الثورات ونشأة القوميات. ويختلفون نظرياً في تحليل القوى التي تساعد على بقاء النظام الاستعماري أو الامبريالي أو الاشتراكي.

فمثلاً الكاتب السياسي الأمريكي ينظر الى مشكلات أوروبا فيما بين الحربين العالميتين نظرة مختلفة الى مشكلاتها فيما بعد الحرب العالمية الثانية. والسبب في هذا راجع الى أن امريكا قد انعزلت عن المشكلات الأوربية حسب مبدأ مونرو في أعقاب الحرب الأولى بينما نجدها منغمسة الى أقصى حدود الانغماس في المشكلات الأوروبية فيما بعد الحرب الثانية.

فمبدأ مونرو كان ينظر الى أن حدود أمريكا هي حدود الاطلنطي، وأن انتصار الحلفاء الغربيين على ألمانيا القيصرية قد أدى الى تأمين أوروبا الغربية وبالتالي الى تامين المحيط الأطلنطي وتامين حدودها. وكذلك كان يمكن أن يكون الحال بعد هزيمة القوى الجرمانية الهتلرية في الحرب العالمية الثانية لو لا عالمين جديدين كل الجدة في التخطيط السياسي الأمريكي جعلاها تمد حدودها الأمنية عبر الاطلنطي الى أوروبا بل وعبر الباسيفكي والهندي أيضاً. وهذان العاملان هما:

العامل الأول: ان مصدر الخطر على الأمن الأمريكي الذي يطلق عليه تعميما الأمن الغربي لم يعد الرقعة المكانية المحدودة الموارد الطبيعية والبشرية والتكنيكية التي تحتلها ألمانيا، والتي زاد من ضعفها تقسيمها الى ألمانيا الشرقية والغربية كوحدتين متنافرتين تؤديان الى هدر جزء كبير من طاقتها في الصراع

الايديولوجي والاقتصادي. بل أصبح مكمن الخطر على الأمـــن الأمريكـــي هـــو الاتحاد السوفيتي سابقاً. في الرقعة المكانية الهائلة ذات الطاقات الكبيرة مـــوراداً وسكاناً والتي تتبرعم فيها قوى تكنيكية ليس من السهل نضوبها متي بدأت تثبـــت وتتعمق جذورها وتتأصل. وهي بذلك قوى مشابهة الى حد غريب لتبرعم القـــوى التكنيكية الأمريكية على سطحها الأرضي الواسع ومواردها الطبيعيـــة والبشـــرية الكبيرة. فالفرق الكمي والكيفي والمكاني وأضح بين ألمانيا كقوة سياســـية أوربيـــة وروسيا الاتحادية كقوة عالمية. ومن ثم كان لابد للوجود الأمريكي من الظـــهور في كل أجزاء العالم المحيطة بروسيا لا سيما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتقنيـــة الى دويلات مما اضعف مكانتة كقوة عالمية تقف في وجـــه الولايـــات المتحـــدة الأمريكية قاطبة، وليس في أوروبا وحدها.

وعلى هذا الضوء يمكن ان نفسر سلسلة الأحلاف التي انشـــأتها أمريكـــا لتطويق الاتحاد السوفيتي. حلف الاطلنطي في أوروبا الغربية والجغرافية والبحـــر المتوسط ومضايق البحر الأسود، الحلف المركزي في الشـــرق الأوســـط، حلـــف جنوب شرق أسيا من باكستان الى الفلبين واستراليا.

العامل الثاني: ان مبدأ مونرو – برغم ما يبدو ظاهرياً من انـــه إخـــلاد أمريكا الى الراحة بعيداً عن ضجيج الصـــراع السياســـي الأوروبـــي وثـــورات المستعمرات ومشكلاتها في أفريقيا واسيا- ألا أنه في حقيقة الأمر لم يكن كذلك.

فمبدأ مونرو وسياسة العزلة الأمريكي لم يكن الا بمثابـــة ســـتار دولاري أقامته امريكا حول الأمريكتين جميعاً. منع هذا الستار المنافسة المالية والقـــدرة الاستثمارية الأوروبية الغربية الى حدود بعيدة من الدخول في امريكـــا الوســـطي والجنوبية: وجعلها حقل احتكاري مفتوح امام الاســـتثمارات الأمريكـــي وحدهـــا:

اشترت امريكا الأراضي والمزارع واحتكرت جانباً كبيراً من مقدرات الإنتاج الزراعي النقدي في كثر من دول أمريكا اللاتينية (الفواكة والبن والكاكاو والبطاطا والسكر والكولا). وضمنت أمريكا لنفسها كافة الأمتيازات في استغلال الثروات التعدينية في المكسيك وفنزويلاً (البترول) وبيروشيلي (النحاس) (القصدير).

ولا تزال الاحتكارات الأمريكية قوية في أمريكيا اللاتينية، الى جانب المواصلات والنقل والتجارة – وذلك رغم المعارضة الثورية (كوبا) والقوية (شيلي) والسرية (بقية امريكا اللاتينية) في هذا الميدان الاحتكاري.

وفي الحقيقة إذن لم يكن مبدأ مونرو طوال العشرينات والثلاثينات من هذا القرن سوى فترة تدعيم للامبريالية في "بيتها" الأمريكي الواسع. وبعدما أتخمت أمريكا برأس المال بدأت تنطلق في اخريات الثلاثينات عبر الاطلنطي آسيا واستراليا، وفي الشرق الأوسط (البترول) وبدايات صغيرة في أفريقيا (المطاط والحديد في ليبيريا). ولكن هذه الانطلاقة فاجأتها الحرب العالمية الثانية.

وقد ترتب على هزيمة ألمانيا واليابان، وخروج أوروبا مفلسة مخربة الفرصة الذهبية امام رأس المال الأمريكي القوي فقام بدور هائل في إعادة بناء اقتصار أوروبا الغربية عامة، وألمانيا واليابان خاصة. وبذلك دخلت أمريكا شريكا فعلياً في كثير من المؤسسات الصناعية الأوروبية واليابانية اللامعة وأصبح لها- بالضرورة – اهتمامات أمن أكيدة في هذه المنطقة الصناعية من العالم. هذا بالإضافة الى التغلغل الأمريكي الاقتصادي في أجزاء كثيرة من أفريقيا كوريث او شريك لرأس المال الاستعماري القديم في الكنغو وجنوب أفريقيا والمستعمرات البرتغالية، وفي آسيا دخلت أمريكا بهذه الصفة في اندونسيا والهند الصينية

وغيرهما من الدول الأسيوية الجنوبية – فضلاً عن صراعات الاحتكارات الأمريكية مع الاحتكارات الأوروبية في ايران والخليج العربي ومناطق البترول في شمال أفريقيا.

صحيح أن هناك صراعات بين رأس المال الفرنسي والأمريكي، وصراعات أخرى أقل حدة بين رأس المال الألماني الياباني المهجن بالأمريكي وبين رأس المال الأمريكي، إلا ان التفصيلات لا تغير من الصورة العامة: بروز المصالح الأمريكية في أوروبا وغيرها قد أدى إلى نبذ مبدأ مونرو تماماً بعد أن استوفي أغراضه وأرسى قواعد الأمبريالية الأمريكية الحديثة في العالم.

وعلى هذا النحو تتغير نظرات وتحليلات كتاب السياسة لموضوع العلاقات الأمريكية الأوروبية في فترة نصف قرن نتيجة لتغير ايديولوجي اقتصادي في البناء والتركيب السياسي الأمريكي.

خلاصة القول : فإنه من الصعب استخراج قوانين او مبادئ عامة في الجغرافيا السياسية او العلوم السياسية يمكن تطبقها في عدد من الموضوعات المختلفة نظراً للاختلافات الشديد بين المقومات البيئية الطبيعية والمزاج البشري والتراكيب الحضارية والاقتصادية وغير ذلك من عوامل تكوين الدولة – الى جانب الانتماءات المختلفة للسلالة او الحضارة او الأيديولوجية.

وبالرغم من تكرار مصطلح " مشكلة" في كتابات الجغرافيا السياسة، إلا انه لا يجب ان يتبادر الى إذهاننا ان هناك حلولا لهذه المشكلات على نحو ما نجده من حلول في عالم الأبحاث الفيزيائية او الكيميائية مثلاً. ذلك أن مشكلات الجغرافيا السياسية تتناول علاقات بشرية وأرضية غاية في الدقة والتعقيد نتيجة

لتراكمات التراث التاريخي والاجتماعي والحضاري الى جانب علاقات الاقتصـــاد والتجارة المتشابكة، وفوق كل هذا علاقات المكان.

ومن ثم فان " مشكلة" اقلية او حدود لا تعني وجوب إيجاد حل سليم لـــها، إنما هو – إذا خلصت الجهود المبذولة– حلا سليما في وقت وظروف معينة فقــط. ولهذا فإن " المشكلة" نفسها يمكن ان تعود الى الظهور مرة اخرى وتحت ضغــوط ظروف ودوافع مختلفة قد تستوجب حلا من نوع مخالف تمامـــا للحـل الســابق اقراره في الماضي.

فريدرك راتزل
مؤسس الجغرافيا السياسية

في منتصف القرن السابع عشر كتب وليام بنى وهو طبيب بريطاني كتاباً أوضح في كثير من البراعة العلاقة بين الدولة ونظمها ونموها وبين البيئة الجغرافية. فقد تكلم عن المساحة المثالية للدولة التي تستطيع أن تسيطر عليها وتبسط نفوذها في أرجاء هذه المساحة ويمكن للسكان استغلالها على الوجه الأكمل وفطن الى أهمية المدن الكبرى في ربط وتوجيه السكان نحو مراكز القوة والجذب في الدولة وذكر أهمية كثافة السكان وغنى الدولة وانتشار العمران حتى تصبح الدولة وحدة سياسية متماسكة في الداخل وقوة لها اعتبارها في الخارج.

وبعد وليام بن بقرنين صدر كتاب الجغرافيا السياسية Politische Geographic (١٨٩٧) الذي الفه العالم الجغرافي الالماني فريدريك راتزل F. Ratzel استاذ الجغرافيا في جامعة ليبزنج. ويعد هذا أول كتاب منهجي في الجغرافيا الحديثة يتناول الموضوع السياسي من الجغرافيا - إذ ان راتزل قد اعتبر الجغرافيا السياسية جزء لا يتجزأ من ميدان البحث الجغرافي. وقد نشر راتزل مقالاً بعنوان " القوانين السبعة للنمو الأرضي للدولة". والقوانين السبعة هي:

١- ان رقعة الدولة تنمو بنمو الحضارة الخاصة بالدولة. فكلما انتشر السكان وحملوا معهم طابعاً خاصاً للحضارة فإن الأرض الجديدة التي يحتلها هؤلاء تزيد مساحة الدولة.

٢- ان نمو الدولة عملية لاحقة لمختلف المظاهر الخاصة بنمو السكان ذلك النمو الذي يجب ان يتم قبل أن تبدأ الدولة بالتوسع وهو بهذا يسلم بصحة نظرية أن العلم (الراية) يتبع التوسع التجاري.

٣- يستمر نمو الدولة حتى تصل الى مرحلة الضم وذلك بإضافة وحدات صغرى اليها.

٤- ان حدود أي دولة هو العضو الحي المغلف لها والذي يحميها (الحدود لا توضح سلامة الدولة فحسب بل أنها توضح مراحل نموها).

٥- تسعى الدولة في نموها الى امتصاص الأقاليم ذات القيمة السياسية بمعنى ان هذه الأقسام إما ان تكون سهولاً او مناطق ساحلية أو مناطق تعدينية او ذات قيمة في إنتاج الغذاء).

٦- ان الدوافع الأولى للتوسع يأتي للدولة البدائية من الخارج. معنى هذا أن الدولة الكبرى ذات الحضارة تحمل أفكارها الى الجماعات البدائية التي تدفعها زيادة عدد السكان الى الشعور بالحاجة الى التوسع.

٧- إن الميل العام للتوسع والضم ينتقل من دولة الى أخرى ثم يتزايد ويشتد. فتاريخ التوسع يدل على أن الشهية تزداد نتيجة لتناول الطعام.

الخلاصة :

أن راتزل يرى في الدولة كائن حي تدفعه الضرورة للنمو عـــن طريـــق الحصول على الأعضاء التي تعوزه حتى ولو دفعه هذا الى استخدام القوة. وهـذا الرأي هو نظرة بيولوجية بحتة للدولة.

وفي كتابة " الجغرافيا السياسية" كان فريدريـــك راتـــزل أول مـــن درس علاقات المكان والموقع دراسة اصولية للدول المختلفة. ولهذا السبب وحـــده يعـــد راتزل مؤسس الجغرافيا السياسية عن جدارة.

ولقد كان راتزل يكتب في أواخر القرن الماضي متأثراً بالجو العلمي العـلم المشحون بكل ثقل النظرية التطورية في العلوم الطبيعية. ولهذا نراه ينظـــر الـــى الجغرافيا السياسية على انها فرع من فروع العلوم الطبيعية. ونراه يؤسس فكـــرة المكان على أنها عنصر مؤثر ومتأثر في ذات الوقت بالصفات السياسية للجماعـــة او الجماعات التي تسكن المكان. وأما الموقع فإنه يراه العنصر الذي يلون المكـــان بصبغة تجعله دائم الاختلاف عن غيره من الأماكن، ومن ثم يصبغ الدولة بصبغـــة مغايرة لغيرها من الدول.

ولا شك أن أفكار راتزل التطورية قد ظهرت بوضوح في القوانين السـبعة التي سبق ذكرها. والتي تحدد الدول في أماكنها ومواقع هذه الأماكن ومصدر هـذه القوانين التطورية في آراء راتزل نابع من اعتقاده ان الدولة كائن عضوي: هـــي كينونة بيولوجية جذورها في الأرض، وكينونة معنوية وخلقية مستمدة من ارتبـــاط الإنسان بأرض يعمل فيها ويتغذى على مصادرها ويحتاج الى حمايتها (وحمايـــة حياته).

وعلى العموم فإن قوانين راتزل السبعة كانت اساساً قوانين خاصة بالمكان والموقع. فنشاطات الإنسان وصفاته وكثافة السكان في الدولة ليست – في نظره – سوى نتاج الموقع والحجم والبيئة الطبيعية والحدود – وفوق كل هذا نتاج المكان.

وقد أعطى راتزل للحدود السياسية أهمية خاصة معتبراً اياهـا العضـو الخارجي للدولة (كالجلد بالنسبة لجسم الأحياء) وهي بذلك تعطي للبـاحث الدليـل على مراحل نمو الدولة أو ذبولها وقوتها أو ضعفها.

ولعل من اهم ما اعطاه لنا راتزل من تراث هو تلك الرابطة التي أوجدهـا بين المساحات القارية الكبيرة للدول وبين القوة السياسية. ففي رأيـة ان المسـطح الكبير (المكان) هو طاقة سياسية يمكن أن تظهر وتبرز مع حسن استخدامها. ولقـد كان راتزل متأثراً بشدة في ذلك من مثال حي: نمو الولايات المتحدة كقوة كبـيرة داخل إطار من " المكان" الكبير. وكان بذلك يشعر أن دور أوروبا سوف يتضـاءل وأن تاريخ السياسة العالمية سوف تسيطر عليه في القرن العشرين الدول العملاقـة المساحة التي تحتل مكاناً كبيراً من القارات مثل أمريكا وروسيا واستراليا.

وبعد راتزل تعرضت الجغرافية السياسية للكثير من النقد والجـدل حـول الموضوع والمنهج ورفض عدد من الأساتذة أن تصبح الجغرافية السياسية جـزءاً من الدراسة الجغرافية بقدر كونها ملحقاً من ملاحق دراسة الأرض. وعلى الرغـم من ان فردريك راتزل جغرافي الماني إلا أن الجغرافية السياسية لم تجد بين عـدد كبير بين الجغرافيين الالمان استجابة وتحمساً بقدر مـا وجـدت فـي الأوسـاط الجغرافية الأخرى خاصة الولايات المتحدة. ولكن عدداً من الجغرافييـن الالمـان المتحدثين بدأوا يهتمون بالجغرافية السياسية بعد فترة الأعراض عنها وهي الفترة

التي نشأت فيها وازدهرت فكرة الجيوبولتيكا ثم فشلت وسقطت بعد الحكم النـازي الذي استغل الجيوبوليتكا كجزء من سياسة السيطرة والتفوق الجرماني.

ومن أهم الجغرافيين الالمان المحدثين الذين تناولوا الجغرافيـا السياسـية بالدراسة والبحث الاستاذ هاسـنجر M. Hassinger والأسـتاذ أوفربـك H. Overbeck وقد عارض الجغرافيون الالمان فكـرة الجغرافيـة الحتميـة التـي أظهرت في كتابات راتزل السياسية والجغرافية عامة وفي هـذا المجـال كتـب هاسنجر يقول:

" أن هدف الجغرافية السياسية عند راتزل هو شرح وتصوير الدولة علـى أنها كينونه حية مرتبطة بالأرض وعلى أنها جهاز متغير مـع حركـة التـاريخ. وهكذا فإن المكان والموقع والتغيرات التي تطرأ على الشكل السياسي للمكان هـي في نظر راتزل عوامل اساسية جوهرية بينما يقف العامل البشري الذي يتمثل فـي صورة الشعوب في خلفية الصورة.

وعلى هذا الأساس فإن هاسنجر في دراسته لراتـزل يوضـح كيـف أن المكان، في نظر راتزل يلعب دوراً هاماً ولكنه ليس العامل الوحيد الذي يجـب أن تنظر اليه الجغرافية السياسية وبعبارة اخرى فإن هاسنجر يعترف بأهمية المكـان ويضيف اليه عوامل بشرية أخرى لها دورها في الأوضاع السياسية للدولة والـى جانب مبدأ راتزل " أن كيان الدولة يمنح أقاليمها قوى معينة" يضيـف هاسـنجر مبدأ أخر " الدولة تستمد قواها من أقاليمها" وذلك في إطار العلاقة المتبادلـة بيـن الدولة والمكان.

ويرى الأستاذ اوفربك أن راتزل قد أكد دور العوامل المعنوية والإداريـة للبشر الى جانب عاملي المكان والموقع. ويقول اوفربك ان راتزل قد اشـار الـى

هذه العوامل اشارات خفيفة في كتابة الأساسي في الجغرافية السياسية ولكـــن دور هذه العوامل الأخرى تبدو واضحة وقوية في دراساته التفصيلية مثـــل دراســات وأبحاثه السياسية عن دول حوض البحر المتوسط والولايات المتحدة وكاليفورنيـــا. ففي كتاب راتزل الأساسي عن الجغرافية السياسية تطغى على راتزل فكرة الدولـــة كائن مربوط الى الأرض، ومن ثم فإن راتزل كان يعالج موضوعـــات الدولـــة ومشكلاتها على أساس مناهج البحث في العلوم الطبيعيـــة. ولـــهذا فـــإن المكـــان الطبيعي كان يظهر عند راتزل على أنه العامل الأساسي وحجـــر الزاويـــة فـــي الجغرافيا السياسية.

ولا شك أن سقوط الكثير من الدول في الماضى والحاضر وكان راجعـــاً الى ان هذه الدول قد تعدت " مكانها" الجغرافي، أو راجع الى تصـــورات خاطئـــة عن تنظيم المكان " الجغرافي للدولة". وفي الحالتين تكون النتيجة ســـقوط الدولـــة لأنها أصبحت غير قادرة على تحمل أعباء إضافية في حالة التوسع المســـتمر، أو لأنها أفسدت المكان الجغرافي في حالة إعادة تنظيم المكان ممـــا يـــترتب عليـــه تخريب في الإنتاج ومراكز القوة في الدولة.

وهكذا تبرز دراسات هاسنجر واوفربك وغيرها ان راتزل لم يكـــن فـــي واقع الأمر متحيزاً تماماً لفكرة المكان، وأن كان في أحيان يؤكـــد علـــى العـــامل الطبيعي بحيث يطغى على إشاراته العديدة لعوامل اخـــرى تلعـــب دورهـــا فـــي الجغرافيا السياسية.

وفي هذا يقول جوستاف فوشلر هاوكه ان راتزل قد حذر من التغالي فـــي فهم دور المكان والموقع في الجغرافيا السياسية، وأن صفـــات الشـــعوب تســـاهم مساهمة فعالة في إعطاء الدولة القيمة السياسية التي لها. ويؤكد هاوكه ان راتـــزل

لم يتغاض عن قيمة العامل الاجتماعي وان لم يبرز ذلك على النحو الذي نعرفه اليوم، خاصة بعد ان تطورت وتمت كثير من معارفنا ومناهجنا الجغرافية وغير الجغرافية مثل علم الاجتماع والانتروبولوجيا والجغرافيا الاجتماعية.

والواضح ان راتزل كان على علم باهمية المجتمع وتأثير المظاهر الحضارية والايديولوجية على تكوين الدولة، كما كان واضحاً لدية فكرة أن الدولة تتأثر بوظيفة المكان على مر الزمن.

ويمكننا ان نختتم الكلام عن راتزل بما ذكره الجغرافي الفرنسي ديمانجيون A. Demangeon مقدراً جهود راتزل العلمية: لقد كان راتزل اول من أدرك تعقيد حياة الدولة ووظائفها وأعطى لدراستها الطابع العلمي. وإلى جانب ذلك يتفق كل الدارسين على أن فريدريك راتزل حمل عبء القيام بأول دراسة اصولية في الجغرافيا السياسية.

الفصل الثاني
مناهج الدراسة في الجغرافيا السياسية

أن دراسة المحيط السياسي من الناحية الجغرافية يعتمد على المسح والتحليل داخل الإطار الكارتوجرافي. وهناك وسائل ومداخل متعددة للقيام بهذه المهمة. وقد رأي رتشارد هارتسهون R. Hartshon أربعة مداخل أو مناهج منفصلة بوضوح عن بعضها في ميدان الجغرافيا السياسية:

١- تحليل القوي الخاصة بالدولة

٢- الدراسة التاريخية

٣- الدراسة المورفولوجية

٤- الدراسة الوظيفية

وتشير فكرة دراسة تحليل القوى الخاصة بالدولة الى تحليل وحدات القوى السياسية وعلاقاتها بعضها بالبعض الاخر. وهذه الوحدات السياسية تتحدد في المكان بمساحات معينة وتتأثر أشكالها الداخلية بواقع وجودها في مكان معين كما تحدد علاقاتها بالوحدات السياسية الأخرى أيضاً بواقع مكانها الجغرافي. أما الجغرافيا السياسية التاريخية فإن اهتماماتها تنصب اساسا على الأقاليم السياسية في الماضي، في حين يفحص المنهج المورفولوجي المساحات تبعاً للشكل والهيئة واخيراً فإن المدخل الوظيفي يهتم بالوظائف والأعمال التي تدور في المساحات السياسية.

١- المنهج التحليلي

ان تحليل القوى السياسية هو منهج يستخدمه الجغرافيين وغير الجغرافيين من دراسي الموضوع السياسي. بل أن بعضهم يعتبر الجغرافيا واحدا من مصادر القوى في العلاقات الدولية. ومثل هذا المنهج على سبيل المثال - يقسم القوى داخل الدولة الى خمس مكونات هي الجغرافيا والاقتصاد والسياسة والمجتمع والجيش. ويحدد أصحاب هذا التقسيم المكون الجغرافي بإنه يشتمل على:

١- الموقع

٢- الحجم

٣- الشكل الذي تتخذه مساحة الدولة

٤- مدى ما تقدمه المشتملات الثلاث السابقة من بعد او قرب، عزلة او اتصالا بالمجتمع العالمي

٥- درجة خصب التربة ونسبة الصالح منها للزراعة والإنتاج الزراعي.

٦- تأثير المناخ على الإنتاج الزراعي العام وعلى صلابة وطاقة الناس.

٧- واخيراً احتياطي الموارد الطبيعية في الدولة.

لكن هذا يمثل بدون شك وجهة نظر ضيقة للجغرافيا لأن الجغرافيين عادة لا ينظرون الى العامل الجغرافي كعنصر محدد لقوة الدولة. فالمنهج الجغرافي المتكامل في الجغرافيا السياسية يقيم العناصر الجغرافية بالإرتباط بالظاهرات السياسية البارزة. وفيما يلي قائمة من العناصر الجغرافية المتكاملة.

١- البيئة الطبيعية: وتدخل فيها عدة عناصر جغرافيا متكاملة مع بعضها البعض على رأسها أشكال السطح، المناخ، التربة، النبات الطبيعي، المجاري المائية والبحيرات الخ.

٢- الحركة والانتقال: ويدخل فيها اتجاه حركة النقل للبضائع والأشخاص والتيارات الفكرية.

٣- المواد الخام والسلع المصنعة ونصف المصنعة: وتشمل على المواد والسلع المنتجة فعلاً بالإضافة الى تلك المرتقب حدوثها في المستقبل (الكشوف عن المعادن، الابحاث الزراعية والصناعية، التوسع والتخطيط الاقتصادي عامة).

٤- السكان: دراسة ديموجرافية شاملة بالإضافة الى مميزات الشعب النوعية والايديلوجية.

٥- التركيب السياسي: ويشتمل على دراسة نظم وأشكال الإدارة وأهداف الحكم ومثله الفعلية وليست مجرد النظرية والعلاقات السياسية الداخلية والخارجية.

والأمثلة كثيرة لتطبيق هذه القائمة من العناصر الجغرافية المتكاملة والمتداخلة. وفيما يلي بعض نماذج لهذه الأمثلة.

فيما يتعلق بالبيئة الطبيعية دراسة لأطوال السواحل في النرويج وتناسب ذلك مع :-

أ- مناطق السماكة الغنية،

ب- فقر اليابس النرويجي، وارتباط هذه المجموعة من العناصر لتفسير تأثيرها على توجيه النرويج نحو دولة معتمدة على السماكة وحياة البحر ومن ثم التجارة والنقل البحري.

ولقياس بعض أشكال الحركة والانتقال يمكن ان نتعرف على مدى إرسال راديو القاهرة الموجه لأفريقيا وتأثيرها على الحركات الوطنية الحديثة في تلك القارة، أو حرب الإرسال التلفزيوني عبر الفضائيات وتأثيرها المباشر على سكان مناطق الحدود.

وفيما يختص بالخامات والسلع يمكن مثلاً قياس موارد الفحم والحديد في أوروبا الغربية على ضوء أمثل استخدام لها في دول أوربا الغربية كوحدات سياسية منفصلة. فالمصلحة القومية تحتم على ألمانيا استغلال موارد السار الفحمية من اجل صناعات الرور بينما الاستغلال الأمثل هو تشغيل فحم السار لصناعات اللورين الفرنسية نتيجة للقرب المكاني بين هاتين المنطقتين. فهنا إذن نجد تعارض بين التركيبات السياسية والاقتصادية. لكن لعل ما تسعى اليه أوروبا الغربية من ائتلاف او اتحاد في صورة من الصور يعكس القوة التي أصبحت التركيبات الاقتصادية تمارسها فوق قوى القومية. ولكننا في النهاية يجب أن نرجع مصدر القوة المتزايدة للتركيب الاقتصادي الى قوى خارجية اقتصادية سياسية تتمثل في النمو الكبير لكل من الولايات المتحدة وروسيا ، والى نمو القومية والتنمية الاقتصادية في كثير من دول العالم الثالث.

ويتضح من هذا التداخل الشديد بين التراكيب الاقتصادية السياسية والعوامل التاريخية في توجيه العناصر المختلفة داخل الوحدات السياسية.

والأمثلة كثيرة على دور السكان في القوى السياسة، وخاصة في مناطق الحدود، ففي الدول الأفريقية الكثير من التداخل السكاني اللغوي والحضاري مما قد يؤدي الى ظهور مشكلات عديدة في حدود الدول الأفريقية في المستقبل.

وبالمثل نجد ان غالبية إقليم خوزستان الايراني من العرب مما يؤدي باستمرار الى علاقات مشدودة بين ايران والعراق.

وكذلك فإن الكثافة السكانية العالمية في البيئات الفقيرة تؤدي الى مشكلات عديدة اقتصادية وسياسية داخل الدولة. مثال ذلك الفقر مع التزاحم السكاني في جنوب إيطاليا الذي يؤدي الى الكثير من المشكلات الاجتماعية الاقتصادية داخل إيطاليا. ومثل آخر احتياج جنوب أفريقيا الى الأيدي العاملة من دولتي ليسوتو وسوازي ومستعمرات موزمبيق. ويترتب على ذلك الكثير من المشكلات الاجتماعية الاقتصادية في جنوب أفريقيا ويؤدي الى اعتماد متبادل بينها وبين جيرانها. ونتيجة لسيطرة الاقلية الأوروبية على الحكم سيطرة غاشمة فإن ميزان القوى السياسية في هذا الجزء من أفريقيا قد يتعرض لهزات عنيفة في حالة تغير أشكال الحكم في الدول الأفريقية المجاورة لجنوب أفريقيا.

وأخيراً فإن التركيب السياسي والتنظيم الإداري يكون عنصراً هاماً في تحليل الأوضاع السياسية الداخلية. من الأمثلة على ذلك ان تنظيم الدوائر الانتخابية في بريطانيا يؤدي الى اعطاء أهمية سياسية للمناطق الريفية صغيرة السكان أكبر من وزنها الحقيقي. وقد ادى هذا التنظيم الى بقاء السكان في هذه الدوائر الفقيرة المراعي لأنهم يكسبون كسبا مضاعفاً. تخفيف الضرائب عليهم لفقر الموارد. وجذب السياح والمصطافين والمتنزهين في العطلات الأسبوعية مما يعطيهم دخولاً إضافية مقابل بعض الخدمات، وأخيراً الأهمية السياسية التي تعلقها عليهم الأحزاب السياسية. ولولا ذلك لكان السكان قد هجروا هذه المناطق لأنها غير مجزية اقتصادياً .

والى جانب هذه العناصر الجغرافية، فإن الجغرافيين يخصون بالدراسة موضوع المكان كعنصر سادس بارز. وهم يدرسون داخل عنصر المكان علاقات الموقع وشكل الدولة وحدودها، ويدرسون ايضاً تأثير المكان على العلاقات الداخلية والخارجية للدولة.

وخلاصة القول في المنهج التحليلي الجغرافي أنه ليس من الصعب جمع العناصر الجغرافية فكلها موجودة وفي متناول الباحثين، لكن الصعب هو نوعية هذه العناصر ووزنها بالنسبة للعلاقات السياسية الداخلية والخارجية للدولة والمشكلة التي نجدها شائعة في كثير من كتابات الموضوع السياسي يتوه ويختفي وسط خضم الدراسة التحليلية لكافة العناصر الجغرافية الطبيعية والبشرية بغض النظر عن الأهمية النسبية لهذه العناصر. والحقيقة إذن انه يجب أن نبحث عن العناصر التي يمكن تطبيقها بنجاح حتى لا تتحول الجغرافيا السياسية الى شيء شبيه بالجغرافيا الإقليمية. وفي ذلك يقول فريمان T. W. Freeman " لم يعد هناك صراع بين الجغرافيا السياسية والإقليمية فكلاهما أصبح مساعداً للآخر، وذلك نتيجة للإبحاث السياسية للدول الجديدة في أوروبا (بعد الحرب العالمية الأولى) "........ وتأثير الدراسات الجيدة لبومان L. I. Bowman الأمريكي، وايمانويل ديمارتون L. De Martonne الفرنسي وماكندر H. J. Machinder الإنجليزي وسفيتش J. Cvijue اليوجسلافي.

ومن الأمثلة على صعوبة التمييز في ثقل وزن العناصر الجغرافية ودورها في المنهج التحليلي الجغرافي في السياسة إننا أصبحنا اليوم شديدي الاهتمام بالأرقام والمساحات للتدليل على لقوى النسبية للدول والأحلاف والتكتلات السياسية. مساحات الدولة ومساحات الأراضي القابلة للزراعة والاستغلال وأرقام

الفعلي والمرتقب واحتياطي الموارد والسكان والطاقة العسكرية.... الـخ. وعلـى هذا تظهر الصين والهند على مسرح القوى العالمية إذا نظرنـا الـى الموضـوع السياسي من زاوية الوزن السكاني العددي.

صحيح أنه يجب علينا ان نهتم بالمساحات والأرقام، ولكن ليس كما يفعـل الأخصائيون. فالواجب على الجغرافي أن يبحث عـن العلاقـات ذات المغـزى فالإعداد الرقمية تترجم الى الكثافة السكانية. وهذا يعنـي ربـط الرقـم السـكاني بالمساحة الزراعية التي تعكس لنا صورة أشكال سطح الأرض وعلاقاتها بالمنـاخ والجريان النهري والنبات الطبيعي – اي تعكس لنا خلفية الايكولوجيـا الطبيعيـة للمنطقة أو الإقليم أو الدولة وقيمتها في إنتاج الغذاء.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد. بل أننا نترجم إعداد السكان مرة أخرى الـى كثافة السكن المدينى. فذلك في مجموعة يعكس لنا صـورة للتقـدم التكنولوجـي وإنتاج الصناعة والخدمات وبالتالي يعطينا صورة عامة عن توزيع مصادر الدخـل القومي عامة: زراعة او زراعة وصناعة وخدمات او صناعة وخدمـات حسـب كثافة المدن ومصادر الثروة. وبعبارة أخرى يدخل في التحليل الرقمـي عنصـر المواد الخام وإنتاج السلع.

والمنهج التحليلي هو منهج دراسة مقارنة عام وقد طبـق بنجـاح علـى دراسة الدولة الواحدة ويمكن أن يطبق أيضاً على مستوى أعلى من الدولـة– أي على مستوى إقليمي لدراسة الدينامية في منطقة واسـعة. ولكـن يستحسـن فـي الدراسة المقارنة أن تحول الأرقام المجردة الى أرقام قياسية او نسبية Index.

ويوضح الجدول رقم (١) هذا النوع من الدراسة، علـى أن نـأخذ فـي الإعتبار ان النسب في كل عمود تتخذ أصغر رقم كرقم اساس – مثـلاً مسـاحة

أوروبا البحرية او الهند تصبح واحد صحيح وتنسب المساحات الأخرى الى هــــذا الأساس، فتصبح مساحة الولايات المتحدة ثلاث مــــرات قــدر مســـاحة أوروبــا البحرية. وينطبق هذا على كل الأعمدة عدا عمود الكثافة السكانية الــــى مســـاحة الأرض الزراعية. فهنا تصبح أعلى كثافة هي الأساس (الصين) ويعنــــي ذلــك أن كثافة السكان في الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتي يمكن ان تزيد اكـــثر مـــن تسع مرات لتصبح قدر الكثافة السكانية في الصين. وبعبارة أخرى فإن هذا يوضح أن بإمكان سكان امريكا أو روسيا أن يتزايد دون ان نصل الى مشــــكلة تضخـم السكان في الصين. ويعطينا ايضاً معلومات عن إمكان الزيادة بصورة كبيرة فـــى كندا بينما لا تحتمل أوروبا البحرية زيادات كبيرة.

ملاحظة:

الأرقام التي توجد بين القوسين في النسب تعنى ان هذا هو رقم الأســــاس في العمود، وقد يتعدد رقم الأساس لتقارب الأرقام الفعلية.

الأرقام كلها لسنة ١٩٩٦

جدول رقم (١)

قائمة بالعناصر الجغرافية الاساسية في تحليل القوى الدولية

الدولة	المساحة الكلية مليون ميل مربع	عدد السكان بالمليون	مساحة الأرض الزراعية / الاف الأميال	كثافة السكان الأرضي الرزاعية	عدد سكان بالمليون	% سكان المدن الي كل السكان
الولايات المتحدة	٣،٦٠	٢٥٨	٧٠٠	٣٦٨	١٧٩	٧
اوروبا	١،٢٢	٣٥٠	٢٨٥	١٢٢٨	٢١	٦
روسيا	٦ ٦	١٤٩	٧	٢١٢	٧٢	١٨
الصين	٣ ٧١	١ ١٧٥	٣٣	٣٥٩	١٥٧	١٣
الهند	١ ٢٦	٩	٥٢	١٧٣٠	١٥٣	١٧
كندا	٣،٨٥	٢٧ ٨١٥	١٤٥	١٤١	١٨	٥

البرازيل	٣،٢٨	١٥٦،٤ ٦	٢١	٧٤٤	٦٠	٣٨
نفس المعلومات مترجمة الى ارقام قياسية / Index						
الولايات المتحدة	٣	١٤	٤،٩	١٣،٤	١٤،٣	٥
اوروبا البحرية	(١)	١٩،٤	٢	٢،٣	١٧،٥	٤،٣
روسيا	٥،٥	٨،٥	٤،٨	١٠	٥،٨	٣،٤
الصين	٣،١	٦٥	٢،٣	(١)	١٣،٠	١
الهند	(١)	٤٩،٩	٣،٦	٥،١	١٢،٦	١،٢
كندا	٣،٢	١،٥	(١)	٢٥،٥	١،٥	٤،٨
البرازيل	٢،٨	٨،٦	١،٤	٦،٣	٤،٨	٢،٦

لكن مثل هذا التحليل لا يعطينا معلومات شاملة، ويختفي منه تقدير لكثير من العناصر غير المادية مثل القوى الايديولوجية والدوافع والأهداف السياسية لكل وحدة سياسية. لكن قيمته الأساسية في أنه يعطينا الإطار الفعلي الذي ندرس داخله تلك العناصر الأخرى.

لكن علينا الانغالي كثيرا في تقدير قيمة الدراسة الرقمية. فمثلاً يمكن ان تتخذ أرقام أو أرقام قياسية للصلب أو الالمنيوم او البترول او كلها معاً لتحليل قوي الدولة. لكن أي أرقام تلك يقع عليها اختيارنا: هل هي أرقام الإنتاج أم أرقام طاقة الإنتاج الممكنة؟ إذ أن هناك إمكانات للطاقة الإنتاجية مثلاً لمصنع صلب او الومنيوم او معنل تكرير بترولي، لكن المصنع لا يشغل الى الطاقة العليا لأسباب متعددة سياسية او اقتصادية او عمالية.

فإذا اخترنا أرقام الطاقة الممكنة – وهي احسن مؤشر لقياس الإمكانات الفعلية، كما انه يمكن ان ينظر اليها على انها موارد مخزونة – إذا اخترنا هذه الأرقام، فهل هناك اساس موحد بين الدول لقياس هذه الإمكانية؟ بطبيعة الحال لا توجد مثل هذه المقاييس، ومن ثم تصبح الدراسة النسبية خاضعة لعدم الموضوعية بين الدول.

وإذا أخذنا ارقام الإنتاج الفعلي فإن ذلك يعطينا القوة الفعلية للدول في فترة زمنية محدودة جداً. وهي لا تكفي لقياس القوى الدولية لأنها تتغير من وقت لآخر ، وبسرعة إذا أريد لها ذلك. ففي الإمكان زيادة إنتاج معين بسرعة نتيجة الظروف السياسية او الاقتصادية او العسكرية الموجودة. ولهذا يختل تقديرنا في قياس القوى المرغوبة. ويجب ان نضيف الى ذلك أيضاً ان هناك قدر من عدم الموضوعية في نشر أرقام الإنتاج لعدد من السلع الاستراتيجية كالصلب أو البترول ...... الخ، بدوافع سياسية أو دعائية إعلامية نتيجة الصراعات الحارة والباردة بين التكتلات السياسية المختلفة.

ومع ذلك فإن الأرقام الموجودة فعلاً، سواء في مجال الإنتاج الفعلي أو الإمكانية الإنتاجية، هي في مجموعها اساس لا بأس به لدراسة القوى الدولية وتعطينا مؤشرات طيبة عامة مع بعض التحفظات. فليس امامنا غيرها.

وما ذكرناه من تحفظ على أرقام الإنتاج والإمكانية الإنتاجية ينسحب بصورة مختلفة على المقاييس الأخرى مثل مقياس درجة السكن المديني. وكما سبق ان ذكرنا فإن المدينة عادة تعكس عدداً من الظروف الخاصة بالدولة.

١- مساهمة الصناعة والخدمات في الدخل القومي بدرجة تزيد في الدول التي تزيد فيها نسبة السكن المديني.

٢- درجة التكامل والترابط القومي وذلك أن سكان المدينة يحتلون مساحة محدودة بينما يتبعثر سكان الريف على مسطحات واسعة، ومن ثم يسهل:

أ- الحكم الإداري المركزي

ب- التعليم

ج- الخدمات الصحية والاجتماعية

د- وفوق كل هذا يسهل تكوين الرأى العام وتشكيله بصورة اسرع مما يمكن عند السكان الريفيين ليس فقط لأن سكان المدينة تجمع سكاني مزدحم في مساحة صغيرة سهلة الاتصال (بواسطة شبكة الطرق والمواصلات الكثيفة في أجزاء المدينة) ولكن هناك ايضا التكوين الدينامي لشخصية سكان المدن بالقياس إلى سكان الريف الذين يتسمون ببطء الحركة في التغير السياسي نتيجة روح المحافظة التقليدية. ولا شك ان هذه الدينامية عند سكان المدن راجعة في كثير من أصولها الى تنوع الإنتاج والأعمال وزيادة الكفاءة الإنتاجية التغير نتيجة التكنولوجي والتعليم المهني - بينما يوجد ذلك في الريف برغم استخدام الآلات والمكائن الحديثة.

٣- وفي الواقع نجد تفسيرات متعددة لدور المدينة والريف في الاستقرار السياسي او الثورات السياسية الداخلية. ففي رأي مدرسة سياسية يعطي للمدينة بما فيها من دينامية وحرية في الرأي، وثقل في القوى العمالية وغير الصناعية - دور فعال في الحركات السياسية التي تؤدي الى تغير اساليب الحكم وأنواعه وفي اراء مدرسة اخرى ان الدول التي تتمتع بنسبة عالية من السكن المديني تتمتع باستقرار سياسي.

وكلاً من التفسيرين له وجاهته. لكن علينا ان نعرف أن انطباق هذا التفسير أو الأخر مرتبط بالظروف التاريخية والزمنية والاقتصادية في أجزاء العالم المختلفة. فلاشك ان المدينة كان لها دور حاسم في التغيرات السياسي من الإقطاع الى الرأسمالية في أوروبا الغربية. ولا شك أيضاً ان الماركسية في

أوائل هذا القرن كانت تنظر الى القوى الدينامية للعمال وأصحاب الأجـور أنـها العامل الحاسم في قيادة التغير السياسي من الرأسمالية الى الاشتراكية. ولا يـزال هذا منعكساً في التركيب الحزبي في أوروبا والمناطق الأوروبية الأصل من العـالم الجديد. فالأحزاب الراديكالية وذات المسحة الاشتراكية (بأي صورة من الصـور) تجد مراكز قوتها الأساسية في المدن وبين تكتلات العمالة الكثيفة مثـل المنـاجم ومدن المناجم - بينما تجد الأحزاب المحافظة ومراكـز قواهـا بيـن الريفيين وأصحاب الايديولوجيات البورجوازية في المدن هم أصلاً وفي مجموعهم هجـرات حديثة من الريف، أو لا تزال تربطهم بالريف انتماءات اقتصادية اجتماعية وثيقة.

ويظهر الثقل السياسي في الوقت الحاضر لسكان المدن بصفة عامـة فـي كثير من مناطق ودول العالم الثالث.

ولكن استراتيجيات الثورات قد تغيرت كثيراً منذ ظهور حرب العصابـات وحركات المقاومة في أوروبا والاتحاد السوفيتي خلال الحكم النازي القصير. فلقـد برز الفلاحون وسكان الريف كعنصر سياسي هام في التركيب السياسي الى جـانب القوى العمالية ولهذا نجد الكثير من ثورات العالم المتخلف الراهنة تعتمـد علـى سكان الريف كجزء لقوى التغيير والثورة في المدن. مثال ذلك الثورة اليسارية فـي كوبا وحركة الفيتكونج في فيتنام والقوران الثوري في ريـف أمريكـا اللاتينيـة. وثورة اطفال الحجارة في فلسطين التي كان لها اكبر الأثـر فـي ظـهور دولـة فلسطين بعد خمسون عاماً من الاحتلال الاسرائيلي.

ويجب أن نضيف هنا أن من أهم أسباب التغير فـي ايديولوجيـة سـكان الريف سرعة وسائل الاتصال ونقل الأخبار بالإذاعة والصحف والتلفزيـون ممـا ساعد على سرعة تكوين الرأي العام والثوري. وكذلك فإن الأوضاع الاقتصاديـة

المتردية بالنسبة للمنتجات الزراعية وانخفاض أسعارها في السوق جنبا الى جنب مع ارتفاع أسعار السلع المصنعة والفوائد الاقتصادية الاجتماعية لنقابات العمال – كلها عوامل ادت الى ضعف دخول الريفيين مع ارتفاع المعيشة. وهذا يجعل منه قوة قابلة للقيام باعمال ايجابية من اجل التغير السياسي: الثورة

وهكذا فإن سكان المدن عامة – نتيجة لما يتمتعون به من تأمينات ورخاء نسبي جاءهم نتيجة كفاحهم المستمر – قد أصبحوا أقل ثورية مما كان في النصف الأول من هذا القرن. لكن هذه الثورية ما زالت قائمة طالما بقيت المسببات الاقتصادية المسببة لها كالبطالة وكساد الإنتاج.

ومع ذلك فإن الرأي الاصوب، والذي لا تختلف حوله الآراء كثيراً، هو انه ما زال للمدينة دورها القيادي في التشكيل السياسي والتغيرات السياسية المختلفة. فسكان الريف عامة ما زالوا اميل الى روح المحافظة والجمود على فكر معين متى استوعبوه وسكان المدينة دائمي الحركة الفكرية بحكم المساحة الصغيرة والتجمع العددي الكبير والتواجد داخل مصدر الفكر والدعوة.

وكذلك فإن المناطق المدينية الكبيرة أقل استقرارا في مجموعها من المناطق الريفية ويكفي أن نقارن بين عدم الاستقرار المستمر في المدن الكبرى كنيويورك ولندن وباريس وبين الاستقار النسبي في المدن الزراعية الصغيرة. ويرجع ذلك في الحقيقة الى عاملين جوهريين يؤديان الى نتيجة واحدة.

١-عدم الاستقرار في السوق الدولي نتيجة المنافسة الصناعية العالمية يؤدي الى ذبابات كثيرة في سوق العمالة ومن ثم تحدث البطالة او انخفاض الأجور.

٢- ان المدن الكبيرة - بما فيها من قوى الجذب السكاني – كثيراً ما تفيض سكانا عن قاعدتها الإنتاجية ومن ثم تحدث البطالة ايضا، ويؤدي ذلك بالحكومات

الى محاولة انشاء مشروعات لاستيعاب العمال الزائدة، ولكن ذلك دون جدوى إذ سرعان ما يفيض السكان مرة اخرى على قاعدة المـوارد الإنتاجيـة، ولا شك ان للتخطيط أهمية في هذا المجال ولهذا فإن تخطيط تحديد الهجرة الـى المدن – كما يحدث في بعض الدول الاشتراكية – يؤدي الى نتـائج افضـل نسبياً.

وعلى هذا النحو فإن تحليل القوى على ضوء العنـاصر سـالفة الذكـر ليست أمراً سهلاً. فهناك اولاً مشكلة صحة الأرقام والنسب المنبنيـة عليـها فـي محاولات تحليل القوى. وهناك ثانياً الدراسة النوعية التـي لا تظـهر مـن وراء النسب والأرقام، وهي كما رأينا على جانب كبير من التعقيد. ولهذا كله نعود الـى تأكيد أن المنهج التحليلي يعطينا فقط اطاراً عاماً وأساساً طيباً لا غنى عنـه فـي دراسة الموضوع السياسي.

٢-المنهج التاريخي

يركز هذا المنهج اهتماماً كبيراً حول الجغرافيا السياسية التاريخيـة مـن اجل فهم اعمق لمشكلات الماضي وتكوين خلفية تحليلية لمشكلات الحاضر.

ومثل هذه الدراسة تتناول بالبحث نمو الدولة من القلـب الـى الأطـراف والأساليب التي اعتمدت عليها في جذب أو ضم الأقاليم المختلفة حتـى حدودهـا الراهنة، وتحدث هذه الدراسة على ضوء الظروف الطبيعيـة والحضاريـة فـي المنطقة، الى جانب الكثير من علاقات الأرض بالدولة النامية مثـل دور بعـض العوائق الطبيعية (الجبـال – المسـتنقعات – الأنـهار والبحـيرات – الحافـات والانحدارات ...... الخ) في حماية الدولة النامية كحدود يتوقف عندهـا النمـو ام

يتخطاها الى حدود اخرى. ومن العلاقات الأخرى بين الأرض والدولة مدى سهولة الاتصال من القلب الى الأطراف – وبعبارة أخرى تأثير مركزا او عاصمة الدولة بالنسبة لبقية اراضي الدولة.

وهذا المنهج التاريخي وأن كان يلقي ضوءا على سير التاريخ السياسي للدولة، إلا أن قيمة معظم الدراسات في الجغرافيا السياسية التاريخية مرتبط بتفسير أحداث الماضي بما صادفها من ظروف طبيعية وتكنولوجية وعلاقات الدول وشخصيات الحكام والقادة في إطار زمني معين. ولهذا فإنه لا يمكن ان نتخذ من مثل هذه الدراسات مؤشراً لما يحدث اليوم، أو ان نسقط نتائج هذه الدراسات على نشاطات الدول المعاصرة، فالتاريخ لا يعيد نفسه الا في بعض الشكل الخارجي فقط بينما يمتلئ بالمفارقات والملابسات لتعقد العلاقات الإنسانية والأرضية الناجمة عن التغيرات التكنولوجية من ناحية والايديولوجية من الناحية الأخرى.

وعلى هذا فإنه ليس ضرورياً ان نعرف تاريخ اليهود والدول اليهودية في الشرق القديم لكي نفهم جذور المشكلة الفلسطينية الحالية واوضاعها واتجاهاتها فدراسه الدولة اليهودية القديمة أمر جيد في حد ذاته، لكنه غير مفيد كمؤشر لما هو حادث اليوم. ويكفي أن هناك اكثر الفي من سنة تفرق بين الماضي والحاضر في رقعة فلسطين الجغرافية. والفارق الزمني له اعتباره الكبير في الدراسات الإنسانية لأن الإنسان ليس نمطياً في بنائه الاقتصادي والاجتماعي والسياسي أي أنه ليس كممالك النمل والنحل التي لم تتغير في تركيبها لملايين السنين.

والعامل الزمني له تأثيره المهيمن على المكان. وليس ذلك بمعني أن المكان يتغير ولكن علاقات المكان هي التي ينتابها التغيير. فرقعة المعمور قد اختلفت كثيراً عما كان معروفاً منذ الفي سنة. والدول التي كانت موجودة في الماضي قد اختلفت تماماً وحلت محلها قوى عالمية جديدة. والاتصالات العالمية والمعارف التكنولوجية مختلفة عما كان في الماضي وخلاصة القول ان انقطاع تاريخي جغرافي سلالي حضاري اقتصادي يفصل ويفرق تماماً بين ما كان وما هو حادث في أرض فلسطين الحالية. ولهذا فإن الجغرافيا السياسية لمشكلة فلسطين الحالية يجب ان تركز تماماً على وقائع اليوم وعلاقات الناس والدول داخل الشرق الأوسط وخارجه وارتباط ذلك بالتأثيرات الاقتصادية لكل من العرب واليهود على المستوي العالمي الاقتصادي ومدى استقطاب الرأي العام العالمي وانحيازه في كل دولة على حدة الى أحد أطراف الصراع العربي الاسرائيلي من بين عوامل اخرى كثيرة.

والحقيقة أن بعض مؤيدي المنهج التاريخي ينتهون من دراساتهم الى وضع قواعد ومبادئ عامة يخضعون له الدول في نموها وتوسعها. لكن مثل هذه القواعد والمبادئ تشكل اخطر منزلق تنتهي اليه الجغرافية السياسية. ذلك لأنها " تحدد" و " تحتم" اتجاهات وميول ومحاور للنمو والتوسع لا تحيد عنها الدولة في نموها. وفوق هذا فإن المبادئ تنمط الدولة بمراحل لا تحيد عنها كما لو ان العلاقات المكانية والمواقع الجغرافية ثابتة جامدة.

وهذا غير صحيح بالمرة. إن أن كل شيء يتغير على مر الزمن نتيجة تغير الطاقات البشرية وما يترتب عليه من تغير حقيقي في قيمة المكان وأهمية الموقع الجغرافي.

ومن ثم فإن اسقاط هذه القواعد والمبادئ المستمدة من احـــداث المـــاضي على حاضر الأمور يؤدي بالحكام والزعماء الذين يلتزمون بها الى أخطاء حياتـــهم وحياة شعوبهم.

فكون انه كان لليهود دولة ما في الماضي فـــي مكـــان معيـــن لا يعنـــي بالضرورة عودة هذه الدولة اليهم لأنها ماتت من زمن بعيد، وليس من الحتـــم ان تعود الى الحياة مرة أخرى – على الأقل في المكان القديم نفسه لأن كل العلاقـــات والموازين الطبيعية والبشرية والتقنية قد تغيرت تماماً.

وهذا هو أول اخطاء الدعوة الصهيونية كدعوة سياسية. فالمكـــــان الـــذي طالبت به غير خال من السكان والعالم المحيط بها معاد لها. ولـــــهذا فـــإن قيـــام اسرائيل وبقائها سيظل معتمداً على القوة لفترة طويلة. وهذا – كما تعرف لا يكـوّن دولة ذات استقرار حقيقي.

وقد استغلت الدعوة الصهيونية التشابه التاريخي الشكلي بيـــن الاضطـــهاد الذي وقع على اليهود قديماً وفي العصر الحديث لتبرير لإقامة الدولة اليهودية مـــن أجل التخلص من أسباب الاضطهاد. لكن هذه الدعوة قد فشلت للأسباب التالية:

١- أن الاضطهاد الذي وقع على اليهود في الماضي يختلف كما ونوعاً عـــــن ذلك الذي وقع لهم في العصر الحديث. ففي الماضي لم يكن التمييز الـــــذي وقـــع ضحيته العبرانيون سوى تمييز حضاري بحت. فالعبرانيون – كغيرهم من البـــدو والساميين – كانوا قبل ظهور الديانة الجديدة مجرد رعاة متجولون علـــى هـــامش مصر الصحراوي ويخضعون للحملات التأديبية إذا ما قاموا بعمليـــــات غـــزو او سلب أو اخلال بالأمن . ومع تقبل بعضهم للديانة الجديدة (إذ اننا نعتقد ان عـــددا من المصريين قد قبلوا ايضاً الدين الجديد) فإن الاضطهاد قد تحول الى مرحلـــة

جديدة دخل فيها عنصر حضاري جعل العبرانيين نقيض حضــــاري للمصرييــن. ومن ثم كانت بداية الهجرة خارج حدود مصر. وقد ضمت هذه الــــهجرة اعــداداً اخرى من البدو في سيناء وجنوب الأردن الحالية – وهي معروفة باسم البتراء.

وبذلك تحولت الهجرة العبرانية من مصر الى شكل معتاد كثير الحدوث في المناطق الصحراوية. فهي في جذورها لم تكن سوى واحدة من حركات البــدو الساميين في هذه المنطقة، ارتبطت نواتها في البداية بتعاليم الديانة الجديدة. ولكــن بني اسرائيل سرعان ما نفضوا عنهم جوانب جوهرية من تعاليم الديانة ومؤسســها ما زال بعد على قيد الحياة– أي في مرحلة مبكرة جداً من بداية الهجرة. وحينمــا دخلوا فلسطين ابقوا على الإطار الديني واضافوا تدريجيا من تاريخــهم وســيرهم الكثيرمما سطر في اسفارهم.

ولم تكن الهجرة نحو فلسطين متعمدة بدليل اختلاف خط الهجرة وتذبذبــه من مكان لآخر في صحراء البتراء. ولكنها كأي هجرة سامية كان هدفها الســيطرة على مصادر غنية بالغذاء. بدلاً من المصادر الهامشية التي تقدمها أعشاب أقــاليم الإنتقال الصحراوية. ولما كانت صحراء البتراء وسيناء تقع بين منطقتــي جــذب غنية في مصر وفلسطين، ولما كان المصريون يطاردون هذا المجتمــع الجديــد، فإنه لم يبق امام التجوال العبراني سوى فلسطين التي كانت مقسمة الـــى امــارات وشعوب مختلفة متناحرة مما أعطي للهجرة الجديدة الفرصة للدخول والسيطرة.

٢- أما الهجرة الحديثة لليهود الى فلسطين فتختلف جذريا في أسبابها وتوجيهـــها عن الهجرة القديمة. فاليهود منذ فترة طويلة موزعين على دول كثــيرة فــي الشرق والغرب ولا يكونون تجمعاً حضارياً في مكان واحـــد. والاضطــهاد الذي عاشوه في أوروبا لم يكن راجع الى أسباب حضارية، بل الـــى حــرب

اقتصادية بينهم وبين الشعوب الأوروبية التي عاشوا فيها مما ادى الى استفحال اضطهادهم.

وفضلاً عن ذلك فإن الهجرة الحديثة لم تكن عشوائية كما كان في الماضى، بل مخططة وموجهة عمدا نحو فلسطين كموقع ارضي له علاقاته المركزية في عالم اوائل القرن الحالي. فالهدف السياسي هو جذور الدعوة الصهيوينة العالمية: محاولة ايجاد مركز ارضي لهم على مشارف طريق الشرق

الصهيونية العالمية: محاولة ايجاد مركز ارضي لهم على مشارف طريق الشرق

والغرب التاريخي في اوائل هذا القرن (قناة السويس) وبذلك يضيف اليهود لانفسهم قوة اقتصادية سياسية جديدة الى جانب سيطرتهم على كثير من حيلة راس المال في العالم الغربي.

٣-وبمجرد الصدفة البحته فان هذا المكان الاستراتيجي الذي هدفت اليه الصهيونية كان مرتبطاً بتاريخ اليهود القديم. ولا شك ان ذلك كله قد ادى الى قوة في الدعوة الصهيونية. فهي تبدو ومدعمة بحجج تاريخية. فلو كانت الدولة العبرانية القديمة كانت قد نشأت في اوغندا مثلاً – وهي التي كانت من بين المناطق التي اقترحها الانجليز على زعماء الصهيونية لاقامة الوطن القومي اليهودي – فإننا نعتقد ان الصهيونية ما كانت تتوقع تأييدا مماثلاً لذلك الذي حدث بين الساسة اليهود. بل اعتقد ان الصهيونية كانت وسوف تجد صدى ديني فقط بين اليهود وهكذا فإن عدة ملابسات جغرافية وتاريخية واقتصادية قد ساهمت في قوة الدعوة الصهيونية.

٤-وليس من شك ان الدعوة الصهيوينة قد ارتبطت في اذهان اليهود العاديين، وعند الراي العام الغربي بأن فلسطين سوف تكون مأوى ليهود العالم اجمع. ولكن

ليس من شك ايضاً في أن زعماء الصهيونية لا يتصورون فعلاً انه بامكان فلسطين ان تأوى كل يهود العالم الذين يبلغ عددهم قرابة ٤,٧ ١مليوناً من الأشخاص[1] . فهي الآن تستوعب حوالي أربعة ملايين من اليهود. ولحل هذا التناقض بين الأهداف العامة للسياسة الصهيونية وبين واقع الأمر نجد احد احتمالين:

أ- أن الخطر الصهيوني يستهدف التوسع الأرضي الى أبعد مدى ممكن داخل المنطقة العربية ولكن ذلك سوف يتم تدريجياً. وعلى هذا الضوء يمكن ان نفسر التوسع المستمر في بناء المستعمرات الذي يزداد يوماً بعد يوم في فلسطين المحتلة وذلك خلال ربع القرن الماضي في فلسطين وجيرانها من الدول العربية والذي ما يزال مستمراً حتى اليوم.

ب- أن المخطط الصهيوني لا ينوي بالفعل نقل كل يهود العالم الى فلسطين. إذ لا يعقل ان تضحي الصهيونية بالمراكز القوية في عالم المال والاقتصاد والسياسة والعلم والتكنولوجيا التي يحتلها اليهود في الدول الغربية بصفة عامة وأوربا الغربية والولايات المتحدة بصفة خاصة.

---

(١) - توزيع اليهود العددي على قارات العالم (١٩٩٦)

امريكا الشمالية	٥,٩٥٠,٠٠٠
اوروبا	٣,٠٢٥,٠٠٠
آسيا	٤,٨٠٠,٠٠٠
أمريكا الجلوبية	٧٠٥,٠٠٠
أفريقيا	١٦٨,٠٠٠
اوقيانوسيا	٧٤,٠٠٠
المجموع	١٤,٧٢٢

ويبدو أن الاحتمالين مكملين لبعضهما وأن السياسة الصهيونية عامة تنفذ المخططين معاً ، خاصة وأن بقاء اليهود في العالم الغربي يضمن لاسرائيل قوة مالية ودعائية واقتصادية واضحة ويكون جسراً دائماً بين اسرائيل والعالم بما لهؤلاء اليهود من نفوذ مؤثر في شتى مجالات الحياة العامة في العالم الغربي.

وهم بذلك احتياطي عددي ومعنوي ومادي لاسرائيل وبعبارة اخرى هم اسرائيل عبر البحر.

ولسنا هنا بصدد مناقشة موضوع اسرائيل ككل لكننا بصدد ان نوضح أن اسرائيل اليوم ليست ولا تمت بصلة سلالية او حضارية الى الدولة العبرانية القديمة، وأن التشابه بينهما سطحي وراجع فقط الى رابطة الدين والمكان. ويكفي أن نعرف ان إسرائيل الحالية لا تعيش على مواردها المكانية المحلية بل لا بد من ان تمتد موازناتها الى المساعدات والمعونات الخارجية، بينما كانت الدولة اليهودية القديمة تعيش على مصادر الثروة المحلية فقط. وعلى هذا فإن التفسير التاريخي لاحداث السياسة يلقى بعض الضوء على الماضي ويختلف جذرياً عن الحاضر بعلاقاته المختلفة.

أن الحتم التاريخي يمتد بمبادئه في أحيان لكي يستخلص قواعد جغرافية وبيئية تفسر نمو الأمم والدول الى حدود لا تستطيع ان تمتد بعدها.

ومن الأمثلة على ذلك أنه يحلو للبعض ان يفسر توقف الدولة الإسلامية العربية عند معركة تور – بواتيه في فرنسا بان العرب والإسلام غير متكيف مع بيئات غير البيئة الطبيعية للنطاق الصحراوي وهوامشة. وبذلك فإنه توقف وانسحب حينما خرج حدود تلك البيئة الى غرب أوروبا. ولكن مثل هذه الدعوة الحتمية تحتاج الى تعديلات اخرى إذا اريد تطبيقها على انتشار الإسلام الى بيئات

أخرى غير البيئة الصحراوية واستقراره فيها مثل المناطق الاستوائية في أفريقيا وجنوب شرق آسيا والبيئة الموسمية في الهند وبيئات اخرى في القوقاز والبلقان واسبانيا.

إن التعنت الحتمي التاريخي الجغرافي لا يحسب حساباً للكثير من العناصر البشرية والحضارية والتكنولوجية، بل لا يحسب حساباً للمصادفات التاريخية ايضاً.

وفي حالة توقف الإسلام عند معركة تور- بواتيه يجب علينا ان نطرح عدداً من الأسئلة .

هل كان التوغل العربي حرباً حقيقية أم مجرد مغامرة عسكرية؟

ما القوة العددية للعرب في تلك المعركة؟

هل بدا لهم ضرورة مواصلة القتال بعد هزيمتهم ام وجدوا ما يثبط هممهم؟

وعلى ضوء ان العرب دخلوا اسبانيا عام ٧١١م وان هزيمتهم في فرنسا كانت عام ٧٣٢م فإنه يعطينا خلفية واضحة لمعركة تور- بواتيه. ففيما بين التاريخين عشرون سنة فقط. هل كانت حاسمة في تدعيم سلطات العرب في اسبانيا بحيث تصبح قاعدة أمامية لمزيد من التوسع في فرنسا؟

لو كان هناك تصميم مسبق على التوسع الى فرنسا فإن هزيمة العرب في تلك المعركة لم تكن كافية لوقف التيار العربي. ففي الحروب تحدث انتصارات وهزائم متعددة قبل أن يتحدد مصير الحرب لصالح واحد من الفريقين المتصارعين. ومجرد هزيمة واحدة لا تنهي حرباً حقيقة. ولهذا يجب أن نقول ان تور- بواتيه لم تكن سوى مواجهة هامشية بين العرب والفرنجة - مجرد احتكاك عسكري بعيد عن صور المواجهة حقيقة. وقد كان في الإمكان أن تصبح حملة

طارق بن زياد على اسبانيا مماثلة لمواجهة تور-بواتيه. لكن تصادف النجاح او الفشل في مثل هذه المواجهات الهامشية تؤدي الى تغير جذري في النتائج بصورة لا تتناسب اطلاقاً مع حجم المواجهة الإستراتيجية. كثيراً من المعارك الحاسمة كسبها او خسرها موقف مغامر من أحد الضباط لا يرضى عنه القائد العام كتكتيك عسكري أصولي.

أن الأديان لا تعرف حدودا بيئية. والإنسان في مجموعه ايضاً لا يعرف حدودا بيئية لانتشاره ، بل هو دائم التكيف مع الايكولوجيات الطبيعية المختلفة وربط الإسلام بالعرب نظرة ضيقة جدا. فالدولة العربية الإسلامية خارج الجزيرة العربية لم تنطوى على طرد او ابادة السكان الأصليين وحلول العرب محلهم. بل ان هناك ردود العرب المسلمين الذين استقروا هنا وهناك بين منغوليا والاندلس وبقية الدولة الإسلامية تكونت من تحول السكان الأصليين الى الإسلام. وكذلك كان يمكن ان يكون الحال في فرنسا وبقية أوروبا: رواد من مسلمي العرب وسكان فرنسيين او غيرهم يتحولون الى الدين الجديد. وهكذا تسقط حجة الحتميين التاريخيين والجغرافيين للإسلام أن حدوداً بيئية لا يتعداها!

٣- المنهج المورفولوجي

يدرس هذا المنهج مشكلات الدولة السياسية من حيث الشكل بحيث تنطوي الدراسة على مجموعة من العناصر الجغرافية تنتظم تحت عنوانين رئيسيين هما النمط والقالب، والتركيب أو البناء.

وتشير الدراسة النمطية الى الترتيبات والتنظيمات التي يكونها الإرتباط السياسي للوحدات والأقاليم التي تكون الدولة، والى الإرتباطات السياسية للدولة

ككل في التكتلات السياسية الإقليمية من ناحية والإتجاهات والتحالفات العالمية من ناحية ثانية.

أما التركيب او البناء فإنه يشير الى الظواهر المكانية التي تشترك فيها الوحدات السياسية مثل مراكز الثقل السكانية والاقتصادية داخل الدولة، العاصمة، مكونات الدولة، الحدود السياسية، مشكلات خاصة بالدولة كخطط التنمية ومشكلات السكان والاقتصاد والأقليات. وتدرس هذه العناصر أيضاً على مستوى الدراسة المقارنة بين الدول المختلفة.

ومن الأمثلة على الدراسة السياسية على ضوء المنهج المورفولوجي نمط الدولة الايطالية. فموقع إيطاليا يمكن أن يدرس داخل تنظيم اقليمي أوسع هو الاتحاد الأوروبي الاقتصادي. فلقد كسبت إيطاليا كثيراً نتيجة عضويتها للسوق الأوربية المشتركة. مثلاً صناعة الصلب في شمال إيطاليا ربحت مميزات كثيرة من بينها تخفيض اسعار النقل للحديد الخردة على السكك الحديدية من فرنسا الى تورينو.

وموقع إيطاليا كشبه جزيرة طويلة تمتد داخل البحر المتوسط قد جعلها تنتمي الى حلف الاطلنطي كوسيلة من وسائل الدفاع المشترك. وترتب على ذلك بروز مهمة، وأهمية إيطاليا كقاعدة وركيزه لاساطيل الحلف في البحر المتوسط. وقد كان لانسحاب فرنسا من القيادة العسكرية لهذا الحلف ضعف في القوى البحرية في هذا البحر، وزاد من أعباء إيطاليا البحرية. وفي مقابل ذلك أصبح الاسطول الايطالي يحظي بنصيب كبير من الدعم والعتاد والتدريب داخل الحلف.

هذا فيما يختص بالدراسة النمطية لإيطاليا. ومن بين مظاهر البناء والتركيب الجيوبوليتيكي في إيطاليا نجد المشكلات التالية:

١-مناطق التركز السكاني والاقتصادي:

يتركز في حوض نهر البو في شمال إيطاليا

(أ) الصناعة

(ب) مناطق الإنتاج الزراعي

(ج) نسبة لا بأس بها من السكان مع كثافة سكانية عالية.

ولقد كان لوقوع هذا الحوض على أطراف الألب اثره في حصول الإقليم ككل على مصدر اقتصادي للطاقة المولودة من المساقط المائية والسدود. وفي هذا يجب ان نأخذ في الأعتبار فقر إيطاليا الطبيعي في مصادر الفحم الحجري بانواعه. والى جانب ذلك نجد أن حوض البحر يرتبط بواسطة مجموعة من الممرات الطبيعية والإنفاق الاصطناعية بقلب أوربا وشمالها عبر جبال الألب. ومن ثم لهذا اثره الواضح في سهولة الاتصال والتجارة مع شمال وغرب أوربا. وعلى هذا فإن مجموعة من الظروف الطبيعية المرتبطة بالموقع وعلاقات المكان والمناخ الملائم والتربة الفيضية والمساقط المائية قد أدى الى أن يصبح شمال إيطاليا عامة مركز الثقل الإنتاجي الزراعي والصناعي والتجاري والسكاني والحضاري، وذلك على عكس بقية إيطاليا التي تتكون من عدة أحواض نهرية صغيرة تمثل جيويا وسط وحول سلسلة جبال الابنين فضلاً عن المناخ غير المنتظم وقلة المياه لمدة طويلة خلال الصيف.

ولطبيعة الحال تزداد الحالة سوءاً كلما توغلنا جنوباً في شبة الجزيرة الايطالية حتى نصل الى أسوء الظروف (بالنسبة لإيطاليا) في أقصي الجنوب وصقلية.

٢- العاصمة:

روما مدينة كبيرة ذات تاريخ طويل. لكنها اليوم تقع بعيـــدة عــن القلــب الاقتصادي والسكاني لإيطاليا. وفضلاً عن ذلك فإنه لا يوجد في إقليـــم المحيــط مصدر من مصادر العمالة الصناعية. ولهذا فإن الحياة الاقتصادية في روما تقــوم على العمالة الحكومية والإدارية والسياحة وصناعة السينما وعدد من الصناعـــات الاستهلاكية كالملابس والموضة والأغذية.

وقد ترتب على عدم وجود العمالة الصناعية ضعف بارز في الإنتمـــاءات السياسية اليسارية عامة في منطقة روما – هذا الى جانب وجود الفاتيكـــان التـــي تؤثر بطريقة او اخرى على تدعيم الأجنحة السياسية المعادية لليسار الايطـــالي. وترتب هذا ايضاً ان منطقة روما اهدأ كثيراً مـــن منـــاطق الشـــمال الصناعيـــة اليسارية، ومن مناطق الجنوب كثيرة القلاقل بسبب الفقر الذي يؤدي بالسكن الـــى التطرف الايديولوجي بين أقصى اليسار واقصى اليمين.

٣- الحدود الايطالية:

لقد ظلت إيطاليا الشمالية مصدرا من مصادر عدم الاســـتقرار السياســـي المستمر مما كان يؤدي الى تذبذب خط الحدود. وبعد الحرب العالمية الثانية كـــان أكبر تعديل في حدود إيطاليا هو ذلك الذي انتاب المنطقة الشمالية الشرقية حينمـــا أعطيت يوغسلافيا شبه جزيرة استريا وميناء احرا في تريستا منذ عام ١٩٥٣.

وفي منطقة الحدود الفرنسية الايطالية عدلت الحدود في مساحات ضيقـــة لصالح فرنسا، وكانت المناطق التي انتابها التعديل هي: ممر سان برنار الصغـــير الذي يشرف على طريق بريانسون – مودانا. هضبة مون كنيس التي تشرف علـــى

السكك الحديدية الايطالية بالطاقة الكهربائية في منطقة ليجوريا والبيدمونت الجنوبية.

كل هذه المناطق في الواقع كانت المراكز التي هاجمت منها القوات الفاشية الايطالية جنوب فرنسا خلال بدايات الحرب الثانية. ومن ثم فإن استيلاء فرنسا عليها كان وسيلة من وسائل تأمين حدودها استراتيجيا.

وأخيراً فإن مشكلة التيرول الايطالي: وخاصة لا تزال تشكل مصدرا من مصادر القلق السياسي بين النمسا وإيطاليا ونتيجة وجود عدد كبير من النمساويين في التيرول الذي ضم لإيطاليا بعد الحرب العالمية الأولى.

٤- مشكلات جنوب إيطاليا:

سبق أن ذكرنا ان جنوب إيطاليا يمثل منطقة ضعف اقتصادي وتخلف اجتماعي بالنسبة لشمال إيطاليا. وبرغم بعض المشروعات الصناعية التي تقيمها الحكومة في الجنوب لتحسين أحواله الاقتصادية (وهي مشروعات غير مربحة كثيراً إذا نظرنا إليها من ناحية الأماكن الصناعية المثلى)، إلا أن أهم مورد اقتصادي للجنوب يتمثل في تصدير الأيدي العاملة الى شمال إيطاليا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة. وينظر كثير من زعماء الجنوب بعين السخط على شمال إيطاليا الذي يحظى بالنصيب الأوفر من الاستثمارات الصناعية والتجارية.

وعلى هذا النحو كان لشكل الدولة وبنائها المرتبط بعلاقات المكان والظروف الطبيعية المختلفة اثره في هذا التركيب غير المتكافئ بين الشمال والجنوب.

٤- المنهج الوظيفي

يهتم هذا المنهج بدراسة وظيفية منطقية ما او إقليم كوحدة سياسية. وكل منطقة أو وحدة سياسية تتكون من عدة وحدات سياسية أصغر وخاضعة لسلطان الوحدة الكبرى. ولا بد أن تكون للأقسام السياسية الصغرى مرتبطة إرتباطاً قوياً بالدولة اكثر من ارتباطها ببعضها البعض او بدولة خارجية. فلكي تقوم الدولة بوظائفها على الوجه الأكمل، فإنه يلزمها أن تكون الوحدة السياسية لكل أقسام الدولة واضحة وقوية ومتناسقة في كل نواحي الحياة الاقتصادية والاستراتيجية، وفي علاقة الدول ككل بالدول الخارجية.

وعلى هذا المنهج الوظيفي يركز على دراسة القوى المركزية للدولة، أو مراكز تقوية الدولة، أو تلك التي تؤدي الى ضعف معين فيها يختص بالمساحة والمكان.

إن وظيفة الدولة في مجال التجارة الخارجية هو الإبقاء عل ميزان تجاري لصالح الدولة وصالح المنتجات الوطنية. ولهذا تفرض كل دولة قوانينها الخاصة على التجارة الخارجية. وتشتمل هذه القوانين على القواعد الجمركية، والمساعدات التي تقدم من أجل تشجيع صادرات معينة والتشريعات التي تمنع دخول او خروج سلع معينة. وهذه القوانين عامة ترمز الى وظيفة الدولة في مجال التجارة الخارجية.

فمثلاً تقود رغبة بريطانيا في تسويق سلعها، وخاصة السيارات والكيميائيات الى أوروبا الغربية، الى دخول السوق الأوروبية المشتركة – برغم أن ذلك يؤدي الى إضعاف علاقات بريطانيا التجارية مع الولايات المتحدة، ويجعلها خاضعة لقوانين الائتلاف الأوروبي الاقتصادي اكثر من خضوعها

لمصالحها الخاصة. ولكن يبدو ان العلاقة التجارية مع أوروبا الغربية – بحكم القرب المكاني والثقافة السكانية احسن لبريطانيا من مجرد محافظتها على تجارتها الأمريكية.

وعلى وجه العموم فإن القوانين الخاصة بالتجارة لا ترضي كل فئات المنتجين داخل الدولة الواحدة المتعددة الإنتاج، فمثلاً رفعت الولايات المتحدة الجمارك على وارداتها من القمصان الرجالية اليابانية لكي تحمي إنتاج القميص الأمريكي المركز في منطقة الساحل الشرقي الأمريكي. ويؤدي ارتفاع سعر القميص الأمريكي الى توسع بالنسبة لسوق العمل الأمريكي في شرق الولايات المتحدة (نظراً لرواج الصناعة وتزايد إنتاجها بعد اختفاء المنافس الياباني). ولكن هذه النتيجة الجيدة في القسم الشرقي ليس لها نظير في منطقة الساحل الشمالي الغربي الأمريكي حيث لا توجد صناعة كبيرة للقميص. ولهذا فإن سكان المنطقة الغربية عامة سوف يقاسون من ارتفاع سعر القميص بدون أن يكون هناك تعويضاً مماثلاً لما حدث في الشرق.

ومثال آخر عكس هذه الحالة تماماً. فسكان الساحل الشمالي الغربي الأمريكي يطلبون من الحكومة إصدار تشريعات تحمي حرفة ومنتجات السماكة الأمريكية في هذه المنطقة من منافسة التونه والسلمونه الياباني وعلى هذا فإن ارضاء منطقة ما او صناعة ما لا تؤدي الى ارضاء سكان كل مناطق الدولة أو كل صناعاتها. فالمنطقة الوسطي من الولايات المتحدة غير راضية على الحد من منافسة الإنتاج الياباني في مجال القمصان والأسماك على حد سواء. وهي في الوقت نفسه تشجيع المساعدات الأمريكية لليابان لأن ذلك يشجع ويرفع واردات اليابان من الأدوات الميكانيكية من امريكا – وهي الصناعة التي تظهر بوضوح

في المنطقة الوسطي من امريكا – وبعبارة أخرى فإن هذه المساعدات الأمريكية سوف تعود بالنفع على سكان المناطق الوسطى وتزيد من طاقتهم الإنتاجية في الوقت الذي ينظر فيه سكان شرق وغرب الولايات المتحدة الى المساعدات الأمريكية لليابان بنظرة غير راضية لأن هذه المساعدات ترفع من قدرة اليابان على منافسة إنتاجهم.

وبنفس الطريقة فقد بدأت اليابان بغزو السوق الأمريكية عن طريق اغراق السوق بالسيارات اليابانية التي تنافس المنتجات الامريكية مما حدا بالولايات المتحدة إلى انتاج سيارات مماثلة للسيارات اليابانية اليابانية بالإضاقية إلى القوة والمثانة وبالتالي التنسيق بين الدولتين وما زيارة الرئيس الأمريكي لليابان في أوائل عقد التسعينات الا لتذليل هذه الصعوبات والحد من نسبة هذا التنافس الاقتصادي على كافة الصعد.

المكان عنصر جغرافي متغير.

بالرغم من ان المناهج الأربعة تختلف اختلافاً كبيراً فيما بينها إلا أنه تلتقي في عنصر واحد هو " المكان" ولا شك أن المكان يلعب دوراً هاماً او حاسماً في كثير من الظاهرة الجغرافية والسياسية. ولكن علينا أن نأخذ في الإعتبار أن المكان– برغم أنه عنصر ثابت في حقيقتة المجردة – إلا انه عنصر متحرك ومتغير بصفة مستمرة في ارتباطاته بالإنسان لأن الإنسان في جوهره عنصر متحرك.

لهذا يجب ان نكيف " المكان" بعلاقاته. وبذلك فإن " علاقات المكان" هي أهم ما يجب ان يدور حوله البحث في العلوم الجغرافية عامة والبشرية والسياسية بصفة خاصة. لأنها تعبر عن " المكان" المتحرك والمتغير ابداً.

وقد اكد هالفورد ماكيندر H. Mackinder دور التغير بالنسبة للمكان في دراساته الجيوبوليتية حينما عدل مرتين نظريته الخاصة بقلب العالم فقد تكلم عـن عنصر الإنسان المتحرك " Man – Travelling " element ليعبر عن الحركة المستمرة للإنسان والأفكار والمنتجات. وكذلك تكلم جان جوتمـان J.Gottman عن عامل الحركة Circulation (Movement factor) على أنه يساعدنا علـى فهم الدوافع والملزمات المؤيدة الى خطط وسياسيات معينة. ولكن الحركة تسـمح بالمرونة والتغيير في الخطط والقرارات.

وقد أكد جوتمان ان الحركة والأفكار القومية همـا القـوة الرئيسـة فـي الجغرافيا السياسية. ويفهم جوتمان الحركة على انها تشمل المواصـلات والنقـل بكافة أشكالهما، والتجارة الدولية. ويقول أنه بدون حركة لا توجد علاقات دوليـة على الإطلاق.

وتشتمل دراسة الحركة على ثلاثة اوجه هي الطريق الذي تتخذه الحركـة، وميدان الحركة (يشمل كل منطقة الحركة من البداية الى النهاية)، وأخيراً وسـيلة الحركة (البر والبحر والجو). وتحديد الحركة على هذه النحو يعطينا على الفـور انطباعاً صحيحاً عن ان الحركة في دقائقها ومشتملاتها عنصر أو عـامل شـديد التغير، وأنه يجلب معه تغيرات جذرية على " المكان" فيحيله من عنصـر ثـابت الى عنصر نشط متحرك ومتغير.

وخلاصة ما يتفق عليـه المتخصصـون فـي الجغرافيـا السياسـية ان موضوعات هذا العلم الأساسية هي:

١- دراسة علاقات المكان داخل الدولة:

- إقليم القلب والأطراف.

- علاقة المدن الرئيسة بأقاليمها.
- علاقة المدن الرئيسة بعضها بالبعض الآخر.
- التنظيم الإقليمي الداخلي (المحافظات) وحدودها.
- مراكز الثقل السياسية في الدولة .
- التركيب السكاني والسكن والاقتصادي والمواصلات.
- العلاقة بين الدولة والأقليات (سلالية – لغوية – دينية – اجتماعية).

٢- دراسة علاقات المكان بين الدول:

- الحدود السياسية الأرضية والمائية والجوية.
- نوع الحدود الأرضية (طبيعية – بشرية).
- مشكلات الحدود والعلاقات الدولية.

٣- دراسة أنماط الدول:

- من حيث المساحة (الدول العملاقة – الدول الصغيرة – الدول القزمية). (الدول الجيوب ودول المدينة القديمة دول الجبال والممرات – دول الأنهار والسهول – دول الجزر – دول البحر الواحد والدول المطلة على اكثر من بحر – الدول الداخلية – الدول الحاجزة – الدول العالمية).

التكتلات الدولية

(الاحلاف الكبرى – التجمعات الاقتصادية للإمبراطوريات القديمة – التجمعات الاقتصادية السياسية الأوروبية).

الفصل الثالث

الجيوبوليتكيا (قديما وحديثا)

أن جوهر الجيوبوليتكيا هو تحليل العلاقات السياسية الدولية علـى ضـوء الأوضاع والتركيب الجغرافي. ولهذا فإن الآراء الجيوبوليتكية يجب أن تختلف مـع اختلاف الأوضاع الجغرافية التي تتغير بتغير تكنولوجية الإنسان وما ينطوي عليـه ذلك من مفاهيم وقوى جديدة لذات الأرض. وفي هذا قال مـاكيندر " لكـل قـرن جيوبوليتكية . والى اليوم فإن نظرتنا الى الحقائق الجغرافيـة مـا زالـت ملونـة بمفاهيمنا المسبقة المستمدة من الماضي (لتلك الحقائق) وذلك لأغراض عملية.

وعلى هذا فإن نظرتنا الى الأوضاع الجغرافية في هذا القرن هـي تلـك القائمة على الترابط بين توزيع أشكال سطح الأرض وانماط الحركة. بينما كـانت النظرة في القرن الماضي منبنية على توزيع الكتل القارية فقط. وفيما قبل القـرن التاسع عشر كانت النظرة الى الأوضاع والحقائق الجغرافية نابعة من التوزيعـات المناخية وأشكال السطح الإقليمية. وتشير المناقشات الجارية بين المختصين الـى أن أسس النظرة الى الإوضاع والحقائق الجغرافية في القرن القادم سوف ترتكـز على توزيع الكتل السكانية والتكاملات الاقتصادية اكثر بكثير مما يعطي لها مـن وزن في الوقت الحاضر.

لكن ما هو هدف وغرض التحليل الجيوبوليتكي؟ يرى بعض البـاحثين ان التنظير الجيوبوليتكي قد يخدم أغراض البحث التـاملي أو اغـراض تخطيـط السياسة والدعاية أو غير ذلك من الأغراض السياسية العملية. مثال ذلـك أعمـال الجيوبوليتكيين الالمان في خلال العهد النازى.

والحقيقة أن الأفكار الجيوبوليتكية قديمة قدم الفكر الإنساني في حضاراته العليا القديمة. ولعل أقدم فكرة صريحة وصلت الينا هي أفكار الفيلسوف الأغريقي أرسطو الذي أكد أن موقع اليونان الجغرافي في الإقليم المعتدل (المناخي) قد أهل الأغريق الى السيادة العالمية على شعوب الشمال (البارد) والجنوب (الحار) (ارسطو في كتاب السياسة). وعلى أيه حال فإن الجيوبوليتكا تخدم كافة الأغراض العلمية والعملية من وجهة النظر المشار اليها سابقاً. على شرط إلا يشوه الكاتب عمدا تفسيره ونظرته الى الاوضاع الجغرافية. وهذا يتطلب من الكاتب الا يكون مشاركا او داعياً للتطبيق العملي لاتجاهات فكرية أو سياسية معينة. لكن السؤال الأخطر هو: هل يمكن للكاتب ان يتحرى الموضوعية الدقيقة في الكتابة؟

يقوم التحليل الجيوبوليتيكي على موضوعين أساسيين:

الأول: وصف الوضع الجغرافي وحقائقه كما تبدو بالإرتباط بالقوى السياسية المختلفة.

الثاني: وضع ورسم الإطار المكاني يحتوى على القوى السياسية (الدول ٩ المتفاعلة والمتصارعة) .

ومن الصعب – في الوقت الحاضر – ان نحاول القيام بمثل هذا التحليل بالقياس الى سهولة ذلك في الماضي. وذلك راجع الى تداخل الأطر المكانية للقوى والتكتلات الدولية الحالية وما يتبع ذلك من استمرار لعملية ادخال او اخراج واحدة من القوى داخل حلف أو آخر. وبذلك لا يمكن وضع حدود مكانية واضحة وفاصلة – إذ لا بد ان تعتريها التداخلات الزمانية من آن الى اخر.

ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك ان الحدود المكانية للكتلتين الشرقية والغربية في أوروبا كانت خلال الخمسينات واضحة كل الوضوح في صورة خط حاد فاصل بين ألمانيا الغربية من جانب وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا من جانب آخر - بينما يتميع الخط الفاصل تميعاً يجعل الأمور غير واضحة المعالم في منطقة النمسا باسرها، ومنطقة يوجسلافيا بأسرها. ويعود الخط الى الوضوح متمثلاً في الحدود المشتركة بين بلغاريا من جانب، واليونان وتركيا من جانب آخر واليوم - مرورا بالستينات - نجد بداية تميع واضح في خطوط الفصل المكاني للكتلتين نتيجة الوحدة الألمانية، والتقارب المسبق بين ألمانيا الغربية والاتحاد السوفيتي وبولندا وتوقيع اتفاقيات الاعتراف بحدود بولندا الجديدة على الاودر والنيسه. فتفاعل القوى السياسية يغير الإطارات المكانية بصورة سريعة على مر الزمن يصعب معها تنظير محدد في التحليل الجيوبوليتيكي.

في الماضي كانت المحاولات الجيوبوليتكية ممكنه. فحتى نهاية القرن التاسع عشر كانت القوي الدولية الرئيسة عبارة عن إرتباطات بالامبراطوريات الاستعمارية الأوروبية. فمركز هذه القوى كان محددا بمنطقة ضيقة في أوروبا ودول البحر المتوسط البحرية. وفي خلال ثلاثة الآف سنة كانت مراكز القوى العالمية عبارة عن " قلوب صغيرة" تنقلت من مكان الى آخر في الشرق الأوسط وأوروبا : مصر - العراق - فارس الغربية - الأغريق - قرطاجة - روما - بيزنطة - بغداد (الخلافة العباسية) - القاهرة (الفاطمية والمملوكية) - الاستانه (العثمانية) اسبانيا والبرتغال - فرنسا - إنجلترا - هولندا - ألمانيا.

هذه المراكز السياسية على مر الزمن تزامنت او تلاحقت الواحدة تلو الأخرى بعد صراع زمني. وكانت هذه في مجموعها تكون " العالم ذو الأهمية "

في رأي جيمس فيرجريف. فهذا العالم – بموقعه – واوضاعه الجغرافية الخاصة مكن شعوبة وسكانه من ان يطوروا وينموا موارد بلادهم المحلية أولاً، ثم التوسع بعد ذلك الى أقاليم وموارد خارجية في مناطق أقل نموا وتقدماً.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر وجد بعض الجيوبوليتيكيون ان " العالم ذو الأهمية" لم يعد قاصرا على أوروبا الغربية والوسطى، بل تمدد ليشمل الكتل الأرضية في نصف الكرة الشمالي بين درجات العرض ٣٠و ٦٠. ووجد آخرون أن هذا النمط السائد لم يعد قاصرا على دول سواحل أوروبا الغربية بل أخذ ينتقل تدريجياً الى داخلية القارات في العروض ٣٠-٦٠ شمالاً : أو بعبارة أخرى، أخذت مراكز القوى تظهر في كل من الولايات المتحدة وروسيا.

ولكن في الوقت الحاضر لا نستطيع ان نتفق مع تحديدات السابقين على أن ما بين درجتي العرض ٣٠-٦٠ هي مراكز القوى العالمية . فالأساس الحالي المرتبط بالتكتل السكاني عددياً والموارد الاقتصادية ورغبات الشعوب والايديولوجيات القومية وغيرها تجعل من المستحيل على الباحث ان يقول أن النطاق الشمالي سيظل محتكراً لمراكز القوى العالمية. وعلى هذا فإننا نجد بوادر ظهور مراكز قوى عالمية تمثلها الهند والصين والبرازيل. وفوق هذا يمكننا ان نطرح سؤالاً للمستقبل عن مراكز قوى أخرى في العالم العربي ككل او في جزء منه.

ومن ثم فإن اصطلاح " العالم ذو الأهمية" لم يعد وجوده بالوضوح الذي كان عليه في اوائل هذا القرن. ولكن هل يعني هذا أنه لا يمكن تبين مناطق من العالم ستظل في ظل دول قوى اخرى؟ هل أصبح أو سيصبح العالم متكافئاً تماماً؟

إن الإجابة على هذا التساؤل لا يجب ان تكون جازمة وملزمة لكن الحقائق الجغرافية تضع امامنا احتماليات كثيرة.

فلا شك ان هناك مناطق اسهل اتصالاً بالموارد الاقتصادية الهامة من غيرها بحكم التنظيم العام لأشكال السطح والعلاقة المكانية. وهناك مناطق تتمتع بكفاءة أعلى (تكتيك) في استخدام الموارد. ولمثل هذه المناطق احتمالات بقاء واستمرار لنفوذها الذي تبسطه على أجزاء من العالم بحكم حقائق الجغرافيا الطبيعية والحضارية معاً.

الفكر االجيوبوليتيكي القديم:

ارتبطت الأفكار الجيوبوليتيكية القديمة عامة بالظروف الجغرافية المحيطة بشعب او مملكة أو مفكر. ويبدو ان السياسات القديمة: عشائرية أو على مستوى القبيلة بالنسبة للرعاية وأمثالهم من المتحركين، او الإمارات او الدول التي كونت الحضارات العليا القديمة في الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط – هذه السياسات كانت تقودها وتسيطر عليها فكرة الوحدات الجغرافية المتكاملة مثل الأودية النهرية – وادي النيل الأدنى الذي تكونت فيه الدولة المصرية القديمة وما بين النهرين الذي تكونت فيه دول سومر واكاد وبابل وأشور، ووادي الأردن الذي اختاره لوط وقومه حينما انفصلوا عن ابراهيم الخليل وقد فضل الأخير ان يقيم حياة اساسها التجوال في التلال والهضاب المعشوشبة.

وفي عهود هذه الدول القديمة ظلت الصحاري والجبال مناطق متميزة بوضوح خارج الدولة او داخل نفوذها السياسي غير المباشر. وقد كلف هذا تلك الدول أن تقيم حدودا ومعسكرات لاجنادها في أقاليم الحركة المستمرة للرعاة

لاجبارهم على احترام الدولة واقامة علاقات تجارية فقط، أو لاخماد ثوراتهم وحركاتهم الغازية التي قلما تهدأ. وبرغم ذلك اجتاح الرعاة بابل وممالك العراق القديم مرات، واجتاحوا مصر في صورة الهكسوس.

ولا شك ان الكفاح المستمر بين الأخضر والأصفر قد أدى الى تغيرات مستمرة في التركيب السياسي والعسكري لدول الشرق الأوسط. ولكن ذلك لم يكن كل أشكال الصراع. فقد ظهرت دول قوية في الهضاب المحيطة، وخاصة في هضبة ايران (ميديا والأخمينيين) وهضبة الاناضول (الحيثيين). وعلى سبيل المثال انتهي الصراع بين العراق والفرس بسقوط دولة بابل الثانية وامتداد الامبراطورية الفارسية على كل انحاء الشرق الأوسط. أما الصراع بين مصر والحيثيين فقد الجأ المصريين على تقرير سياسة جيوبوليتيكية اساسها فرض الصراع على ارض بعيدة عن مصر. ولهذا يحتل المصريون ساحل اللفانت حتى اقدام جبال طوروس ويؤمنون المنطقة كلها حتى حدود المملكة الحيثية في هامش الهضبة . وبذلك أصبحت جيوبوليتيكية الفراعنة في الدولة الحديثة تشمل الامتداد الأرضي الخصب على طول ساحل البحر المتوسط، بينما كانت سياساتهم فيما قبل ذلك تجعل لهم حدودا حتى سيناء فقط.

أما الفكر الجيوبوليتيكي الأغريقي فقد انبنى على فكر نظري في مجموعة عكس الأفكار السياسية العملية لدول الشرق الأوسط. ولعل ذلك مرتبط بالصراع المستمر لهذه الدول بينها وبين بعضها، وبينها وبين قوى الرعاة في الصحاري والهضاب المحيطة. أما الأغريق فلم يكونوا دولة بالمعنى المفهوم، إنما دويلات تلتئم في تركيب حضاري شامل أساسه الاقتصادي التجارة البحرية الواسعة من البحر الأسود الى البحر المتوسط الغربي والشرقي.

لهذا فالجيوبوليتيكا الأغريقية مرتبط بأقاليم مناخية عامة وعالمية – عكس الأفكار الإقليمية البيئية المحددة لدول الشرق الأوسط.. وأقدم ما وصل الينا هو خريطة هيكاتيوس Hecateus (ق. السادس ق. م.) التي قسمت العالم اقليمين مناخيين : البارد ويشتمل على أوروبا وشمال آسيا، والدافئ المشتمل على آسيا وأفريقيا. وفي رأيه ان الإقليم الدافئ اكثر ملائمة للسكن وتكوين القوى الدولية. وفي القرن الخامس ق. م . نجد بارمينيدس Parmenides يقسم العالم الى خمسة أقاليم مناخية: إقليم شديدة الحرارة وإقليمين شديدى البرودة وإقليمين معتدلين. وقد بنى ارسطو سياسته على تقسيمات بارمينيدس وقال أن الإقليم المعتدل الذي يسكنه الإغريق هو الإقليم الذي يحمل في طياته بذور القوة.

وأخذ آخرون يفسرون التغايرات السياسية بين المدن والدول على ضوء أشكال السطح المختلفة. فاقليم اتيكا – الذي برز على سطح السياسة الإغريقية فترة طويلة – فقد نمى سياسيا وازدهر حضاريا نتيجة الظروف الطبيعية التي جعلته آمنا من الغزو . وعلى هذا أصبحت اتيكا مكانا يلتجئ اليه لفقره الطبيعي في مواردة المحلية . ويرى ثيوسيدوس Thucydides ان هذه الظروف عكس غنى اقليم هيلاس الذي جعله مسرعاً مسرحاً للصراع.

وقد رأى الجغرافي الروماني سترابو Strabo أن القوى العالمية مركزة في الأقاليم القارية الكبيرة– وليس الهوامش البحرية – وأن أوروبا هي مركز هذه القوى. ويرى سترابو أن الجزء المسكون من العالم يتكون من ثلاث كتل قارية هي أوروبا وليبيا وآسيا، وأن اذرع المحيط وخلجانه وبحاره وبحره تشكل هذه القارات، وأن أوروبا هي أكثر الثلاثة ملائمة للنمو والأزدهار الفكري والاجتماعي.

ولعل سترابو كان أول من أشار في تقسيمه الى " العالم ذو الأهمية" الـذي حدده بامتداد من " اعمدة هرقل" (جبل طارق) الى خليج المحيط الشرقي (البنغـال) ومن ايرنا (ايرلندا) الى سينامون (سيلان: سيريلانكا) .. اما الأراضي التي تقـع على حدود ذلك الإقليم غير مسكونة .... ولا تهم الجغرافـي .... فـالعلم بـها لا يعطي أية معلومات يمكن الإفادة منها سياسيا، خاصة إذا كانت جزرا لا يسـتطيع سكانها أعاقتنا أو افادتنا تجارياً.

وفكرة وجود اكثر من عالم واحد مسكون بالناس، ومن ثم إمكان وجـود أكثر من نواة للقوى العالمية، فكرة لم يلق إليها بالا الإغريق او الرومـان حتـى سترابو. لكن بذور الفكرة نجدها في أفكار شائعة عن القارة المفقـودة " اتلانتـس" كما ورد ذكرها في جمهورية افلاطون على أنها كانت الدولـة المثاليـة القويـة القادرة على رد أي دولة أخرى من قارة أخرى. ولكن الروماني ميلا Mela يؤكد ان الإقليم المعتدل الجنوبي مسكون. وكذلك شاعت باستمرار فكرة وجـود ارض جنوبية عظيمة Terra australis وبرغم ذلك كله فإن أفكـار سـيادة أوروبـا القارية لم تتزعزع.

وقد رفض الجغرافي بطليموس فكرة أن هناك محيط كامل مـن البحـار حول الجزيرة الأرضية وجعل الأرض تمتد شمالاً وجنوباً وشرقاً فـي أراضـي مجهولة . وكان الجغرافيون القدماء عامة يتخذون مظهراً طبيعياً واحداً على أنـه حد لإقليم من الأقاليم. فقد قسم هيرودوت آسيا الى أشباه جزر Actae واسـتخدم الخلجان حدوداً . وفضل استرابو أن يستخدم الفواصل الأرضية حـدوداً كـبرزخ السويس بين آسيا وليبيا، وطوروس بين آسيا وأروبا.

لكن الجغرافي الروماني بليني Pliny (الكبير) رسم صورة جيوبوليتيكية فريدة للإمبراطورية الرومانية، متخذ طرق الحركة البرية والبحرية لتحديد الإمبراطورية. واوضح ان روما تمد نفوذها الإقليمي في إتجاهات مختلفة حول البحر المتوسط في صورة اتفاق متكامل مع امتداد الطرق الرومانية. وفي بعض الأحيان تنتهي هذه الطرق الى عائق نهري مثل نهر الراين او الدانوب او الفرات والنيل. وعلى هذا النحو تصبح نهايات نظام الطرق الرومانية إطارا يحدد الدولة من أطرافها القصوى، بينما هناك إطار آخر داخلي متمثل في طرق الملاحة في البحر المتوسط التي سيطرت عليها روما تمام السيطرة طوال مجدها.

وفي العهد الإسلامي نجد الجغرافيين العرب يهتمون اساساً بالجغرافيا الوصفية والإقليمية والفلكية ورسم الخرائط. ولكن في إطار الجغرافيا الإقليمية لكل دولة أو اقليم على حدة كانت تبرز المعالجات المختلفة القدر لموضوعات الجغرافيا السياسية. وعلى وجه العموم فإن النظرة الجيوبوليتيكية العربية والإسلامية كانت تقسم العالم المسكون (وهو النصف الشمالي من الأرض) الى قسمين رئيسيين هما أوروبا في الشمال وأفريقيا وآسيا في الجنوب. وهم في الحقيقة لم يميزوا بين أفريقيا وآسيا بل اعتبروها كتلة قارية واحدة. ويفصل بين هذين القسمين البحر المتوسط والأسود، ويقتربان في منطقتي جبل طارق وبحر مرمرة. وقد قوى هذا التقسيم انقسام حضاري مماثل: عالم إسلامي عربي الطابع في معظمة جنوب وشرق هذا البحر، وعالم مسيحي أوروبي في شمال هذا البحر. والاستثناء الوحيد كانت الخلافة الإسلامية في أسبانيا.

وعلى هذا النحو كان الأفكار الجيوبوليتيكية العربية عامة موجهة نحو السيطرة القارية السياسية، والسيطرة التجارية (البحرية والبرية الى المحيط

الهندي وشرق آسيا ووسطها وأفريقيا الزنجية) على الهوامش. وبهذا نستطيع أن نقول أن ثمة اختلاف بين الإمبراطورية الإسلامية في أوجها والإمبراطورية الرومانية في أوجها. ولكن هذا الاختلاف يرتبط بموقع القلب والتوجيه القارئ فروما كانت ترتكز على القارة الأوروبية والبحر المتوسط، بينما بغداد ترتكز على العالم الأفرو آسيوي والمحيط الهندي. وبذلك كانت القاعدة الإسلامية كبيرة وامتدادتها الأرضية شاملة لمسطح أرضي وبحري وأسع بالمقارنة بروما. وفيما عدا هذا الاختلاف فإن الطرق البرية والبحرية الإسلامية كانت عصب الامتداد الإمبراطوري في كل اتجاه. وكانت الكتلة الأرضية الوسطى هي الحلقة التي تكون الإطار الداخلي للإمبراطورية الإسلامية. وحدود هذه الكتلة كان جبال طوروس وهضبة أرمينيا وجبال القوقاز وبحر الخزر (قزوين) في الشمال، وساحل البحر المتوسط الشرقي والجنوبي حتى برقة، ثم الإطار الصحراوي الذي يحف ببرقة ومصر، والبحر الأحمر والقرن الأفريقي والبحر العربي حتى بلوخستان في الغرب والجنوب بينما كانت إطراف السند وخوراسان واما بين النهرين تكون الحدود الشرقية لهذا القلب الداخلي. والى جانب ذلك كانت هناك حدودا اخرى تمثل الحلقة الخارجية للعالم الإسلامي تمتد غرباً الى اسبانيا وشمال غرب أفريقيا، وجنوباً حتى موريتانيا وسواحل افريقيا الشرقية وشرقا الى الهند وتركستان حتى حدود الاستبس.

واخيراً نجد النظرة الجيوبوليتيكية القارية التوجيه منذ الحضارات العليا في الشرق الأوسط والبحر المتوسط والعالم الإسلامي قد تغيرت جذرياً على أثر الكشوف الجغرافية، وتحول مركز القوى الى أقاليم الهامش الأوروبي الغربي (البرتغال واسبانيا – هولندا – فرنسا – بريطانيا). وذلك بعد أن اتضح سهولة

ومرونة الطريق البحري بعيداً عن التصارعات العسكرية والسياسية للدول القارية لإسلامية، وبعيداً عن متاعب النقل البري وعلى هذا نمت السيطرة البحرية وتسلطت على الأفكار الجيوبوليتيكية، بعد نجاحها في تكوين الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية الواسعة منذ ق ١٦.

الفكر الجيوبوليتيكي الحديث:

جاءت محاولات الجيوبوليتيكا الحديثة مع تطور العلوم الجغرافية. وقد كان الفيلسوف الالماني " ايمانويل كانت" أول من عالج من المحدثين هذا الموضوع السياسي العالمي فاعرب عن اعتقاده بأن وجود " الدولة العالمية" أمر مؤسس على طبيعة الأشياء . وقد ايد هذا الاعتقاد بالأدلة التالية:

١-ان الطبيعة قد حبت الإنسان بإمكانية السكن والعيش في كل إجزاء العالم.

٢-ان الطبيعة قد بعثرت الإنسان نتيجة استمرار الحروب مما أدى الى سكن الناس في معظم الجهات القابلة للسكن

٣- ان العاملين السابقين معا قد اجبرا الإنسان على أن ينهي حروبه دائماً بعقد الصلح وإقامة السلام. ولقد رأى " كانت" أن الدول الأوروبية دائمة الحروب فيما بينها بسبب رغبة هذه الدول في إخضاع بعضها البعض، ومن ثم فإن إيجاد اتحاد اوروبي من الدول المستقلة الحرة يمكن أن يؤدي الى إحلال السلام في العالم (نتيجة لأن أوربا في عصر " كانت " تسيطر على أقدار العالم السياسية).

وعلى عكس الإتحاد العالمي للدول كما رآه كانت فـــي صـــورة الدولـــة العالمية" ، فإن مؤسسي الجغرافيا الحديثة قد اكدوا على مفهوم الإقليمية المرتبطـــة بالأنماط الإقليمية وقد أصبحت هذه الأفكار الإقليمية أسس الجيوبوليتيكا الحديثة.

وتأخذ الأفكار الحديثة في الجيوبوليتيكا العالم على أنه ينتظم في أنماط مـن توزيعات اليابس والماء وخطوط تصل هذه التوزيعات فيما بينـــها. فعلـــى ســـبيل المثال ترى أحدى الأفكار الجيوبوليتيكية أن التركيز يجب أن يصب على الكتلـــة القارية المتكونة من اور آسيا وأفريقيا معاً. فهنا ٥٦% من مساحة اليابس العالمي، ٨٤% من سكانه، وحول هذا التكتل الأرضي الكبير مسطحات مائية واسعة تبلـــغ ثلاثة أضعاف مساحة اليابس. هذه هي فكرة " الجزيـــرة العالميـــة " وواضـــح ان مركز ثقل هذه الفكرة يرتبط باكبر مساحة من الأرض اليابسة.

وفكرة أخرى تركز على النصف الشمالي من الكرة الأرضية: أورو آســيا وشمال أفريقيا وأمريكا الشمالية والوسطى. وهنا نجد ٦٠% من مســـاحة اليـــابس الأرضي و ٩٠% من السكان. والتركيز هنا على مسطحات الماء والـــهواء التـــي تربط آسيا بأمريكا. وهناك أفكار أخرى عالمية مثـــل تلـــك التـــي تركـــز علـــى الاطلنطي على أنه رابط بين الأمريكتين وأوروبا وأفريقيا معـــاً باعتبـــار هـــذه القارات الأربع والمحيط الذي يربط بينهم هي التكتل الأرضي ذو الأهمية المغـزى في العالم. ولا شك ان هذه الفكرة تستمد جذورها من العلاقات التجارية وخطـــوط الاتصال البحري والجوى الكثيفة التي تتمركز في الاطلنطي بالقيـــاس الـــى بقيـــة المحيطات.

وقد ترتبت على هذه الأفكار نظريات استراتيجية مختلفـــة. فاســتراتيجية الجزيرة العالمية تؤكد ان من يحكم قلب أوروآسيا قـــد يحكــم العــالم. ويرتبـــط بالجزيرة العالمية كفكرة جيوبوليتيكية نظرية استراتيجية أخرى مغايرة تماماً لفكــرة قلب العالم. تلك هي الاستراتيجية الخاصة بالتحكم في أطراف الجزيرة العالميـــة المتمثلة في اشباه الجزر الضخمة حول أوروآسيا: أوروبا (كشبه جزيرة لآســـيا) والشرق الأوسط والهند وجنوب شرقي آسيا. وتقول هذه النظرية أن من يحكم هــذه الأطراف قد يحكم العالم. ونظرية ثالثة تقول أن حكم العالم القطبي قد يؤدي الـــى النفوذ العالمي. والى جانب هذه النظريات نجد نظرية تقف موقف التوفيق بينـــهم، فلا هي تطالب بحكم قلب الجزيرة العالمية ولا قطبها أو أطرافها، ولا تدعو الــــى السيطرة العالمية. بل ترى هذه النظرية ان في الإمكان أحداث تعادل فـــي مــيزان القوى العالمية بين قوتين أو ثلاث على المستوى العالمي.

وبغض النظر عن هذه النظريات وتفصيلاتها فإن ما يجب ان نتذكره هـــو ان كل الاستراتيجيات في الماضي والحاضر ترتبط بظــروف الزمـــان والتكنيــك الذي يصله الإنسان، كما يرتبط بالإوضاع الجغرافية.

وأصول النظريات الحديثة ترجع الى القرن الماضي على يـــد مؤسســـي الجغرافيا الحديثة: الكسندر فون همبولت وكارل ريتر. وقد أكد كـــلا مـــن هذيـــن العالمين ان هناك علاقات متبادلة بين الإنسان والدولة والمحيط الطبيعـــــي. وقـــد طور كارل ريتر (١٨٠٤) أفكار في صورة تقسيمات إقليمة داخل الكرة الأرضيـــة الموحدة. فهو أولاً يقسم العالم الى قسمين أساســـيين الأرض (القـــارات) والمـــاء

(المحيطات) والحدود بين هذين القسمين هو دائرة عظمى تمر من بيرو الى جنوب آسيا. ثم قسم ريتر اليابس الى قسمين هما العالم القديم والجديد. ويتميز العالم القديم بتشابه مناخي كبير لأنه يمتد امتداد كبيراً مع درجات الطول اي من الشرق الى الغرب على طول دوائر عرضية محدودة. أما العالم الجديد فتظهر فيه اختلافات مناخية أكبر لأنه يمتد من الشمال الى الجنوب امتداد كبيرا.

وعلى هذا النحو يتناول ريتر القارات كل على أنها وحدة طبيعية كاملة، واخيراً يصل الى أقسام ذات شخصية داخل كل قارة. وكذلك قسم ريتر المحيطات الى حوضين هما الاطلنطي والباسيفيكي. وقد فسر الجغرافي الفرنسي ارنولد جوية A. Guyotآراء ريتر في منتصف ق ١٩، ووصف أن العالم القديم بإنه عالم الجبال والهضاب وإن سهولة محدودة الاستغلال، بينما يتصف العالم الجديد بثروة السهول. كذلك قال في مجال المفاضلة بين المحيطين الأطلنطي والباسيفيكي، أن الأول هو أكثر ملاحه، وأن حوضه تسوده البحار الداخلية وأن سواحله ذات انحدارات هينة، بينما الباسيفيكي في رأيه هو أكثر المحيطات محيطاً وانحدارات سواحله سريعة وعنيفة.

وقد كان "جوية " اول جغرافي حديث يؤكد أهمية الموقع المركزي للقارة الأوروبية داخل المحيط " الذي هو في الحقيقة الطريق الرئيسي في العالم وقد نبعت افكار جوية الجيوبوليتيكية من ريتر الى القارات على أنها كل متكامل طبيعي. وواحد من أهم أفكار جوية في هذا الموضوع هو ان زعامة العالم اخذه في الانتقال من أوروبا الى امريكا الشمالية. والمبدأ الثاني عنده ان القارات تنتظم

في ثلاث مجموعات مزدوجة واحدة الى الشمال والثانية جنوبيها، وان الشمالية تعطي الجنوبية حضارتها ومدينتيها، كما انه يعتقد ان آسيا كانت مهد الحضارة وان أوروبا المكان الذي نضجت فيه الحضارة وان امريكا الشمالية هي نقطة النهاية العظمي لهذه العملية الحضارية. وكذلك أعرب جوية عن اعتقاده – في اسلوب صوفي غامض – بأن وحدة السلالة وروابط الديانة المسيحية والقرب المكاني هي الأسس التي تجذب وتصنع وحدة القارات الشمالية.

القوي القارية في الجيوبوليتيكا : (١) ماكيندر والجزيرة العالمية:

مر بنا من قبل ان عبء انشاء الجغرافيا السياسية قد قام على مجهودات راتزل الجغرافية. وفي مجال الجيوبوليتيكا نجد لراتزل مكانة كبيرة ايضاً. فهو اول من درس وعالج المكان والموقع معالجة اصولية مقارنة بين الدول. وكذلك سبق ان شرحنا بشيء من التفصيل مجمل اراء راتزل الجغرافية . ولكن يمكننا ان نعيد تأكيد ما ذكره راتزل من وجود روابط قوية بين القوى القارية والقوى السياسية. فالمساحة الكبيرة والموارد التي تتيحها المساحة تلعب دوراً هاماً عند راتزل في نشأة وتدعيم القوى السياسية. ومثل هذه المساحات الكبيرة لا توجد الا في الدول القارية ذات الأمتدادات الضخمة كالولايات المتحدة وروسيا واستراليا – بالمقارنة بدول أوروبا الغربية ذات المساحات الصغيرة والموارد المحدودة.

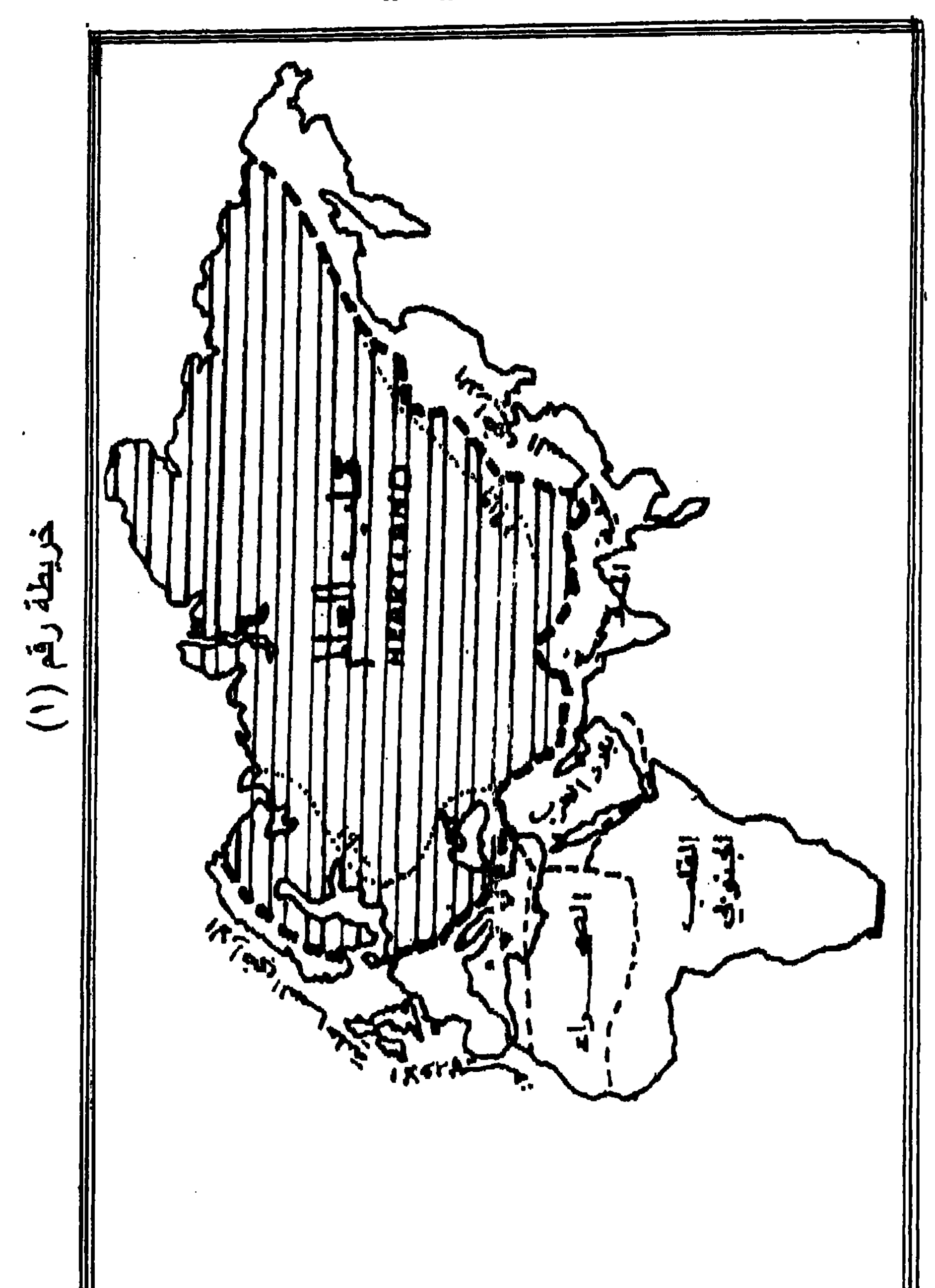
لكن هالفورد ماكيندر H. Mackinder كان هو الذي ربط بين المساحات الضخمة والموقع المكاني في جزء من قارة واحدة اعطاها المكانة الأولى في العالم. وقد ارتبط اسم ماكيندر بنظرية قلب العالم Heartlandوهي

النظرية التي شغل بالبحث فيها والنشر حولها طيلة النصف الأول من قرننا الحالي. وكان لهذه النظرية تأثيرها الواضح على الجيوبوليتيكا الالمانية من حيث أنها دفعت الالمان الى ايجاد ردود ومبادئ لتنفيذها لصالح ألمانيا.

وقد كان ماكيندر متعدد التعليم والاتجاهات، فقد درس البيولوجيا والتاريخ والقانون والطبوغرافيا والاستراتيجية والجغرافيا. وهذا يوضح ويفسر اهتماماته بالمتشابهات التاريخية والدراسات الايكولوجية التي قادته إلى الجغرافيا، وأخيرا إلى العمل الدبلوماسي .ولعل مصدر جذري من مصادر تفكيره اعتقاده بأن الانسان يملك المبادأة وليست القوى الطبيعية وأن القوى الطبيعية هي التي تتحكم في المبادآت الإنسانية تحكما كبيرا.

وقد بدأ ماكيندر نظرية " الهرتلاند" ١٩٠٤ حيث رأى ان الجزء الداخلي من أوروآسيا هو مركز العالم سياسيا (انظر خريطة ١) .

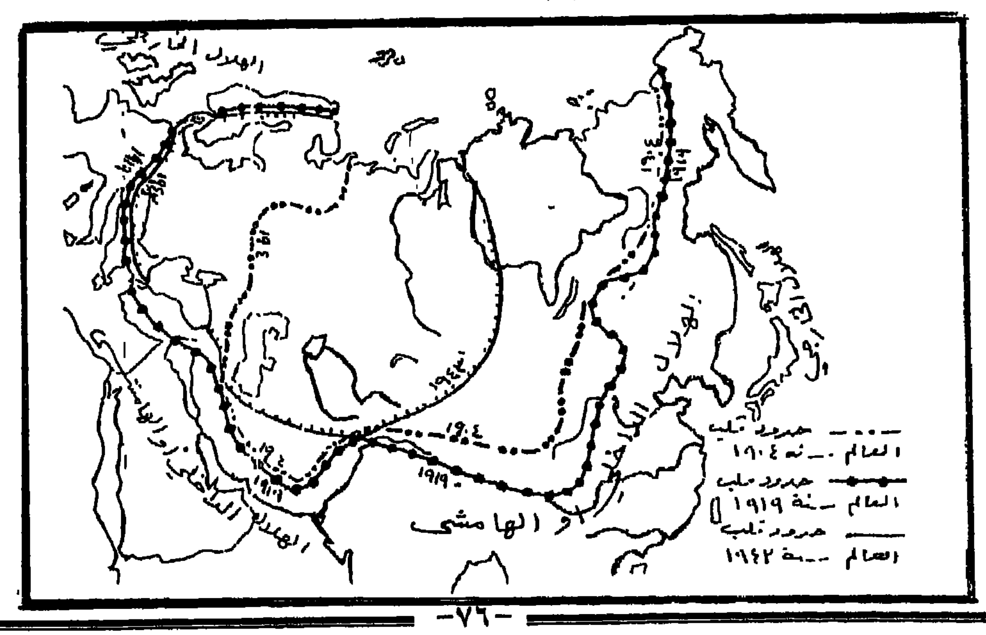
خريطة رقم (١)



عالم ماكيندر ١٩١٩

وقد حذر من ان حكم قلب أكبر كتلة أرضية في العالم يمكن ان يعطـــي الأســس التي تتبني عليها السيطرة العالمية. وقد شعر ماكيندر أن في إمكان القــوة التــي تحكم قلب العالم – سواء كانت روسيا أو ألمانيا او الصين – ان تنـــافس بنجــاح الدول البحرية وأن تتغلب عليها. ولم تمض أحد عشر سنة على أقــوال مـــاكيندر الأولى حتى أكد جيمس فيرجريف J. Fairgrieve في كتابة " الجغرافيا والسيطرة العالمية (١٩١٥) بقوة ان الصين في موقع ممتـــازة للسـيطرة علــى داخليــة أوروآسيا.

ولا شك ان من محاسن ماكيندر – التي لم يتنبه اليها كثير من النقاد – انه كــان دائم التغيير في حدود قلب العالم ونظرته للعالم ككـــل. ولقــد كـــان مـــاكيندر – كجغرافي – على علم تام بأن استغلال الإنسان لمحيطـــه الطبيعـــي كـــان دائـــم التغيير،وأن المحيط الطبيعي كان ايضاً يتغير، وأن ذلك يســـير ببـــطء وتوضـــح خريطة ١– حدود قلب العالم عند ماكيندر ١٩١٩.ويتضح من مقارنة هذه الحــدود بحدود ١٩٠٤ (أنظر خريطة رقم٢) .



عالم ماكيندر ١٩٠٤-١٩٤٢

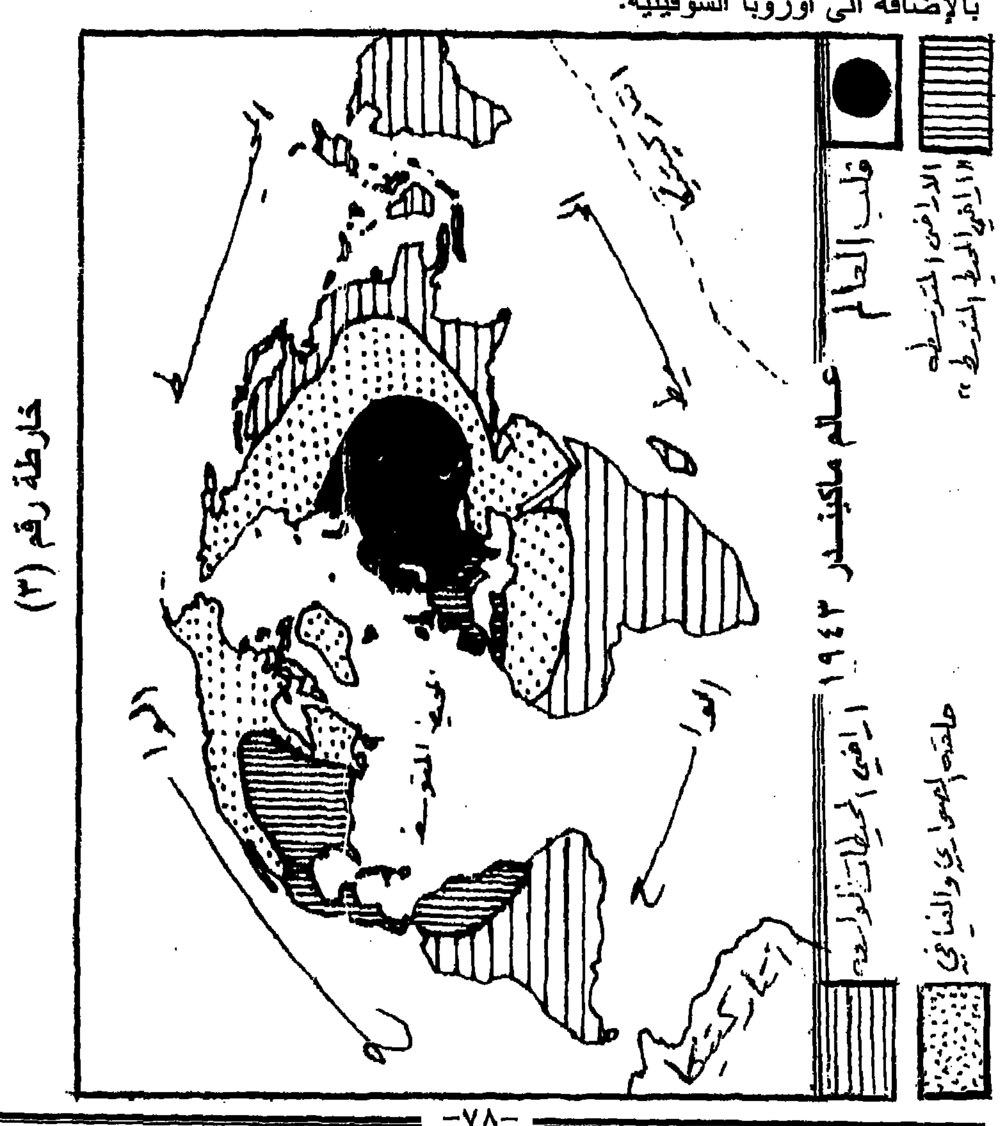
ان ماكيندر قد ادمج في قلب العالم التبت واعالي انهار الصين والهند من منغوليا والتبت. كذلك اضاف أوروبا الشرقية والوسطي الى قلب العالم كإضافة ذات قيمة استراتيجية . وقد أخذ ماكيندر في اعتباره تغيرات وسائل النقل واستحداثها والنمو السكاني والصناعي.

ونتيجة لهذا النمو في المواصلات والسكان والصناعة شعر ماكيندر أن البلطيق والبحر الأسود قد أصبحا جزءاً من قلب العالم. وهذه البحار وأحواضها النهرية تكون جزءاً من السهول الأوروآسيوية الكبرى.

وفي بحثه عام ١٩١٩ أعلن ماكيندر " ان من يحكم شرق أوروبا يحكم الهرتلاند، ومن يحكم الهرتلاند يتحكم في الجزيرة العالمية، ومن يتحكم في الجزيرة العالمية يتحكم في العالم" وعلى هذا أصبحت المناطق الحاجزة بين الجرمان والسلاف. من استونيا الى بلغاريا، في راي ماكيندر مفتاح السيطرة العالمية. وهي بذلك مناطق مفتوحة لكل من النفوذين الالماني والروسي.

وفي سن الـ ٨٣ اعاد ماكيندر أفكاره عن جيوبوليتكية العالم في مقال نشره عام ١٩٤٣. وفي هذا المقال نجد ماكيندر يخرج حوض لينا (سيبيريا الشرقية) من الهرتلاند الذي أصبح يتكون من سيبيريا الوسطى والغربية (حدود حوض الينسي وانجارا في الشرق) بالإضافة إلى وسط اسيا السوفيتية كلها

وأوروبا السوفيتية وشرق أوروبا وحوض البلطيق. وبعبارة اخرى نجـــده يركـــز الهرتلاند في الأراضي الجديدة التي كسبها الاتحاد السوفيتي في نطاقي الاســـتبس والغابات المخروطية بتحويلها الى قلب الدولة الزراعـــي والصنـــاعي الجديـــد - بالإضافة الى أوروبا السوفيتية.



خارطة رقم (٣)

كذلك نجد ماكيندر يعطينا مفهوماً جديداً في التغير الذي طرأ على العالم: فهو هنا يتكلم عن المحيط الاطلنطي الشمالي على أنه المحيط المتوسط او الأوسط Midland Ocean رابطاً بذلك أراضى أوروبا الغربية وشمال غرب أفريقيا بمعظم مناطق العمران في الولايات المتحدة وكندا وأمريكا الوسطي والكاريبي وفنزويلا في وحدة عضوية جديدة هي وحدة او إقليم الاطلنطي الشمالي. ويعطي ماكيندر لهذا الإقليم الجديد أهمية مماثلة للهرتلاند وقوة مواجهة له.

ويعطي ماكيندر أقاليم آسيا الموسمية وحوض الاطلنطي الجنوبي أهمية مستقبلية واخيراً. يصف إقليماً خامساً بإنه " العباءة الخالية Mantle of Vacancies وهو ذلك الإقليم الخالي او شبه الخالي من السكان والنشاط **حلقة الصحاري والفيافي والقفاز الرملية او القطبية في كل من شمال وشرق سيبيريا وشمال كندا وغرب الولايات المتحدة** : وتفصل هذه الحلقة الفارغة بين مركزي الثقل الشماليين: الهرتلاند واراضي المحيط المتوسط من اراضي الأهمية المستقبلية المتناثرة داخل المحيط الكبير او الواسع : امريكا الجنوبية وأفريقيا الزنجية وآسيا الموسمية واستراليا المحيطية.

ولعل أهم ما يمكن ان نفسره من تغيرات اراء ماكيندر في ١٩٤٣ عنها في ١٩٠٤، ١٩١٩، أنه نقل الأهمية الجيوبوليتيكية للهرتلاند من مجرد الاعتماد على الموقع والتكتل الأرضي وسهولة الحركة للقوى القارية الى الاعتماد على الناس والعمران والموارد والخطوط الخلفية للحركة.

وفي الحقيقة لا نجد نظرية فرد واحد قد أثارت العرض والنقد الذي اثارته نظرية ماكيندر خلال هذا القرن. لكن ما هي قيمة نظرية ماكيندر الفعلية في هذا الخضم من التغيرات الاستراتيجية والنظريات الجيوبوليتيتكية؟

في كثير من الآراء التي تعرض مؤخرا لما كينــدر ان الــهرتلاند ليــس مؤهلاً لحكم العالم تأهيلاً تاماً فالى جـــانب الــهرتلاند والحركــة إلا ان توســط الهرتلاند يجعله عرضة لائتلاف الهوامش ويركز الضرب عليــه كــهدف محــدد بواسطة الاسلحة الجوية الحديثة. أي أن توسط الهرتلاند له مزايا وعيوبه.

لكن الى جانب هذه النقطة الاعتراضية فإننا نجد اعترافــا صريحــاً مــن جانب واضعي الاستراتيجيات الحديثة في الدول الغربية والاطلنطية بأن مــاكيندر كان على حق في رائه. فاولا لم تتمكن ألمانيا مــن الســيطرة علــى الأراضــي الحاجزة بين الجرمان والسلاف، وأصبحت هذه الأراضي من البلطيق الى البلقــان كلها في دائرة النفوذ السوفيتي المؤهل – بحكم موقعة في الهرتلاند – لحكم هــذه الأراضي. واصبح الاستراتيجيون الغربيون ينظرون الــى العــالم اليــوم نظــرة ماكيندر اليه طوال النصف الأول من هذا القرن. ومن ثــم فــإن الاســتراتيجية الغربية باحلافها العديدة: حلف شمال الاطلنطي، حلف المركزي ، حلــف جنــوب شرق آسيا، ما هي الا محاولات من جانب هذه الاســـتراتيجية لتطويــق القــوى السوفيتية – وبعبارة اخرى محاولة لاستخدام الهامش لتطويق الــهرتلاند محاولــة لمنع الهرتلاند السوفيتي من السيطرة العالمية.

وبعد كل ما قيل عن ماكيندر، فإن هناك أحداث أخرى تجعلنا أقل وثوقــاً من مجمل اراء ماكيندر والمحاولات النظرية والتطبيقات الاستراتيجية التــي دارت وتدور حولها. فهناك تساؤلات عديدة يجب أن نطرحها نجمت عن تطور الأحــداث منذ ١٩٤٣، ومنذ الخمسينات التي أنشأت فيها احلاف الغــرب العســكرية حــول الهرتلاند. ومن اهم هذه التساؤلات ما يلي:

١- ما هو دور الصين في الصراعات العالمية بعد تحولها الى قوة يسارية كبرى. هل نستعيد آراء جيمس جريف عن إمكاناتها العالمية في التحكم في الهرتلاند الآسيوي؟

٢- ما هو مصير الاحلاف الغربية نتيجة لنشأة الاتحاد الاوروبي . هل يؤدي هذا الى تكوين قوة ثالثة في العالم الشمالي وتغير وحدة شمال الاطلنطي عبر المحيط المتوسط؟

٣- ما هو مصير الاحلاف الغربية نتيجة فشل حملة فيتنام وانفصال بنجلادش؟

٤- ما هي القوى التي تعمل في أكثر مناطق حلقة الفيافي والصحاري حساسية وخطورة ونعني بها منطقة الشرق الأوسط؟ ما هي النتائج التي يمكن ان تنتهي اليها صراعات الشرق الأوسط المتعددة على المستوى العربي والمستوى العربي الإسرائيلي، والمستوى الأمريكي الروسي والمستوى الأوروبي الغربي، والمستوي العالمي؟

٥- ما هي نتائج ظهور القوميات الفنية الجديدة في جنوب آسيا والشرق الأوسط وأفريقيا وأمريكا اللاتينية؟

٦-ما هي نتائج انهيار الاتحاد السوفيتي وبقاء امريكا وحدها في الساحة كقوة عالمية مهيمنة؟

٧-ما هو المصير الذي ينتظر عالمنا العربي بعد انتهاء حرب الخليج، والحصار الأمريكي الجائر للشعب العراقي.

على ضوء هذه التساؤلات المتعددة المعقدة وغيرها من المشكلات الدوليـــة الأخرى يمكن ان نقول ان فكرة الهرتلاند – برغم ثقلها – إلا أنها مـــن البســـاطة بحيث تكاد أن تلغي دور المناطق الأخرى في الصراعات العالميـــة. ولـــو كـــان ماكيندر بيننا فإنه ربما إعاد صياغة أفكاره مرة رابعة الى احتمال تكوين ائتـــلاف شمالي يشمل الهرتلاند والمحيط المتوسط.

القوى القارية في الجيوبوليتكا

١- الجيوبوليتكا الالمانية:

لقد كان رودلف كيلين المؤرخ والعالم السياسي السويدي (١٨٦٤-١٩٢٢) هو أول من بدأ استخدام مصطلح الجيوبوليتكا. وقد كتب كيلين كتابين أولهما نشر في ليبزيج عام ١٩١٧ باسم " الدولة كمظهر من مظاهر الحياة " والثاني نشره عام ١٩٢٠ باسم " الأسس اللازمة لقيام نظام سياسي". وفي هذين الكتابين نجد كيلين يستخدم خلفية كبيرة من (١) الفلسفة العضوية. (٢) فلسفة هيجل (٣) الكثير من الآراء المتعارضة التي تظهر من كتابات راتزل وماكيندر.

وقد طور كيلين ابحاثه الى ما عرف فيما بعد باسم نظرية الدولة وقد قسم الدراسات المرتبطة بالدولة الى الموضوعات التالية:

ا- السياسة الأرضية: الجيوبوليتكا Geopolitik

ب- السياسة الشعوبية : اثنوبوليتكيا Ethonpolitik

ج- السياسة الاجتماعية Sozialpolitik

د- السياسة الاقتصادية Oekopolitik

هـ- السياسة الإدارية Kratopolitik

وقد نقل عن راتزل أفكار الدولة ككائن عضوي تكون الأرض التي تعيش عليها الجسد وتكون العاصمة القلب والرئتان، وتكون الطرق والأنهار الاوردة والشرايين ومناطق التعدين والإنتاج الزراعي هي بمثابة الأطراف . وأن أهم ما تعني به الدولة هو القوة، وأن حياة الدولة تعتمد على التربية والثقافة والاقتصاد

والحكم وقوة السلطان. وفي رأية ان الجغرافيا يجب ان تسخر لخدمة الدولة، والتي هي الفرص الأسمى للدراسة، وبذلك تتحول الجغرافيا في مجملها الى جيوبوليتكا. وخلاصة القول أن أفكار كيلين كلها ليست جديدة، بل عالجها آخرون من قبله، وأن كان هو أول من نادي بقوة يجعل الدراسة موجهة توجيها خاصة لخدمة الدولة، وهو ما سنجد له تطبيقاً عملياً على يد مؤسس الجيوبوليتكا الالمانية كارل هاوسهوفر وأبنه البرخت.

كارل هاوسهوفر K. Haushofer ومدرسة ميونخ:

بدأ هاوسهوفر حياته ضابطاً في الجيش القيصري الالماني، وذهب الى اليابان معلماً للمدفعية في الفترة ١٩٠٨- ١٩٠٩. وكان لهذه الرحلة اثر كبير على تكوينة السياسي والعسكري (ذهب بحراً عبر قناة السويس، وعاد برا بطريق سيبيريا). وخدم خلال الحرب العالمية الأولى ووصل الى رتبة جنرال. وبعد الحرب تقاعد ولكنه كان قد حصل على درجة الدكتوراة عام ١٩١١، مما ادى الى تعينه استاذ للجغرافيا والتاريخ الحربي في جامعة ميونخ سنة ١٩٢٠ وفي عام ١٩٢٤ أسس معهد ميونخ للجيوبوليتكا و مجلة السياسة التي ظلت تنشر آراءه السياسية وجذبت معه مجموعة من كبار اساتذة الجغرافيا الالمانية مثل ايريخ أوبست E. Obst واوتوماول O.Maull ، وجوستاف فوشلر هاوكه G. F. Hauke ، واوتويسن O. Jessen وغيرهم كثير، بالإضافة الى البرخت هاوسهوفر.

وقد تأثر هاوسهوفر كثير باراء كل من سبقوه في كتابات السياسة الأرضية العامة وخاصة راتزل وكيلين وماكيندر وماهان. وأخطر ما كان في فلسفة هاوسهوفر السياسية هي الدعوة الى التوسع الالماني والصراع والحرب الشاملة.

واكثر المصطلحات الجديدة التي عبرت عن آراء مدرسة ميونخ (التي تصادف أنها ايضاً كانت مهد ومكان ولادة النازية الهتلرية) هي مصطلحات توسيعية او ذات صبغة استراتيجية حربية. ومن أكثر المصطلحات شيوعاً تلك التي تعبر عن فكرة " المجال الحيوي Lebensraum " التي تدعو لأن يكون لألمانيا (وغيرها من القوى التي أهلها هاوسهوفر للنمو) مجالاً تمد فيه جذورها الاقتصادية والسياسية . كذلك كان مصطلح " الكفاية الذاتية الاقتصادية" من المصطلحات الشائعة في كتابات هذه المدرسة في فترة بناء ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى.

والى جانب هذه المصطلحات نجد ثلاثة مبادئ اساسية تتردد دائماً في كتابات مدرسة ميونخ وتحدد الاستراتيجية العامة لهذه المدرسة. تلك المبادئ هي:

١- مبدأ الدولة العملاقة أو الكبري " الذي دعا اليه فريدريك راتزل.

٢- مبدأ " الجزيرة العالمية " الذي طوره ماكيندر في كتاباته ١٩٠٤، ١٩١٩.

٣- مبدأ ازدواجية القارات: واحدة في الشمال والأخرى في الجنوب، ويكونان معاً كتلة اقليمية قارية ذات اكتفاء ذاتي - فالشمالية تقدم المصنعان والجنوبية هي مجالها الحيوي في إنتاج الخامات والتسويق.

تفاعلت هذه المبادئ الثلاثة معا وكونت الخطوط الرئيسية لأفكار (هاوسهوفر. ففي رأية ان عالم الغد (بالنسبة) له يجب ان يسير على نمط الدول الكبرى، وهو يتوقع ان تكون هذه هي الموجة السياسية المستقبلية. ونحن نعتقد ان توقع هاوسهوفر في محله. فالإتجاه العام - بعد نصف قرن من كتاباته - هو تكوين مقدمات الدولة الكبرى في أنحاء عديدة من العالم، وخاصة أوروبا ذات التاريخ الطويل في التركيبات الدولية صغيرة المساحة (كتلة السوق الأوروبية الغربية، وكتلة دول الكوميكون في شرق أوروبا . وفي هذا المجال نجد نوايات

غير ناضجة لتكتلات إقليمية في أفريقيا والعالم العربي لأسباب داخلية وخارجية معاً).

لكن هاوسهوفر كان ينظر الى الدولة الكبرى من زاوية قومية بحتة، وليست زاوية تشاركية بين الشعوب والدول (كما هو حادث الآن). ولهذا يرى أنه محتماً أن تبتلع ألمانيا الدول الصغري غرب وشرق ألمانيا، وانه لا بأس من تنفيذ ذلك بقوة السلاح لتأمين سيطرة ألمانيا الكاملة على أوروبا القارية.

ورأي هاوسهوفر في جزيرة ماكيندر العالمية الإطار العام المكاني للسيطرة الالمانية وتكوين نظام عالمي جديد. وقد كان لمدرسة ميونخ هدفين جوهريين في الجزيرة العالمية: الهدف الأول السيطرة على روسيا لتأمين الحكم الالماني على كل أوروآسيا والهدف الثاني تدمير الامبراطورية البريطانية وقوتها البحرية لتأمين السيطرة الالمانية الكاملة على كل الجزيرة العالمية (أوروآسيا – أفريقيا).

لكن تحقيق هذين الهدفين لا يستدعي بالضرورة الحرب الشاملة فقد كان هاوسهوفر يرى ان الدول القارية تمتلك مميزات جوهرية بالقياس الى القوى البحرية. ومن ثم كان ينظر الى تحقيق اتحاد او تحالف الماني روسي على أنه حجر الزاوية في تكوين نواة الوحدة الأوروآسيوية التي تشتمل على إضافة تكتل واسع آخر يتكون من الصين واليابان. وفي الحقيقة نجد ان كارل هاوسهوفر لم يأل جهداً خلال منشوراته وابحاثه في العشرينات والثلاثينات من أجل الدعوة الى صداقة المانية سوفيتية، ودعوة الى اليابان ان تطور علاقاتها مع كل من الصين والاتحاد السوفيتي.

لقد اثرت أفكار واتزل عن الرابطة الموجودة بين القوى الدولية الكبرى والمسافات القارية الكبيرة على الجيوبوليتيكيين الالمان تأثيراً مباشراً تجلى في ظهور مبدأين أولهما فكرة أوروبا الكبرى. وثانيهما فكرة الإقليم الكبرى . ولقد

تكلم هؤلاء السياسيون عن شرق أوروبا على أنها جزء ارضي واقع تحت تـــأثير القوانين الجيوبوليتكية الأوروبية، ومن ثم دعوا الى وحدة أوروبية لكافـــة ارجـــاء القارة على انها شيء وراثي ومن طبيعية الأشياء. وحدود أوروبا في الشـــرق- كما خططه هؤلاء السياسيون – هو خط يمتد من مصب نهر الدينستر الى بحـــيرة بيبوس (تشود حالياً) الواقعة على حدود جمهورية اســـتونيا الســـوفيتية. وبعبـــارة اخرى كان الحد الشرقي لأوروبا هو خط حدود الاتحاد السوفيتي عام ١٩٣٩.

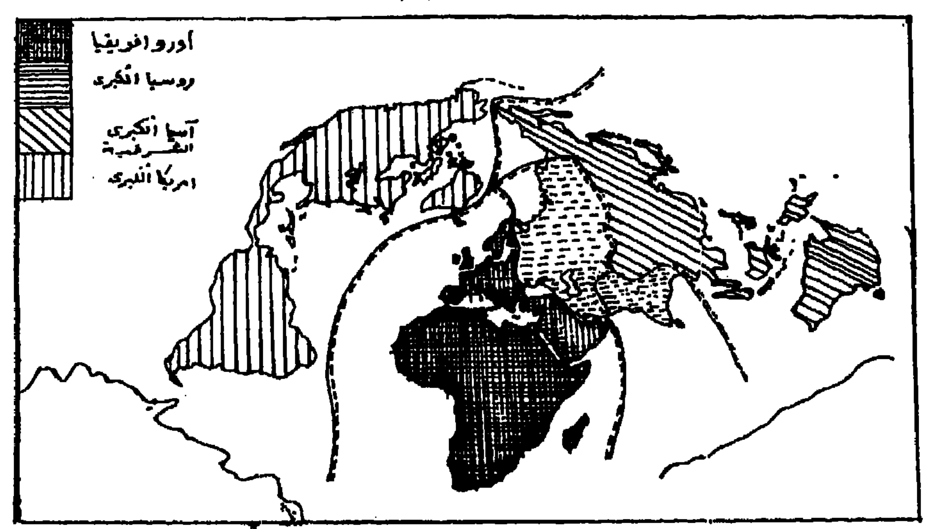
وقد اعتبر هاوسهوفر ان الإتحاد السوفيتي هو بداية آسيا. ولهذا فإنـــه رأى ان أوروبا – بما فيها دول شرق أوروبا السلافية (بولندا وتشيكوسلوفاكيا والبلقـــان) – يجب ان تتحد تحت زعامة ألمانيا وذلك كشرط اساسي لامكان قيام اتفاقات مـــع الاتحاد السوفيتي على مصير أوروآسيا كلها. اي أن ألمانيا يجب أن تقوى مســـاحياً بحيث تغطي كل أوروبا لكي تستطيع ان تكون في موقف القوة حين التفاوض مـــع الاتحاد السوفيتي – بعبارة اخرى نجد في هذا تأكيداً واضحاً لمبـــدأ راتـــزل عـــن ارتباط الدولة الكبيرة والمساحة الكبيرة.

وعلى هذا النحو نرى هاوسهوفر وزملاءه يعتنقون مبدأ الاســـتيلاء علـــى شرق أوروبا كمفتاح لقوة ألمانيا وامكانها اجبار روســـيا – دون حـــرب – علـــى الجلوس مع الالمان للتفاوض بشان حكم اورو آسيا. هنا ايضاً نجـــد واحـــداً مـــن مبادئ ماكيندر يلعب دوره في أفكار مدرسة ميونخ السياسية. فقد سبق لمـــاكيندران أكد دور شرق أوربا كعنصر حاسم في التأثير على مصير قلب العالم.

وكان ماكيندر يرى ان احتمال استيلاء الالمان علـــى شـــرق أوروبـــا او استيلاء الروس عليها عامل ممهد لتدعيم نفوذ الدولة المنتصرة في التحكم في قلـــب العالم. وبعبارة اخرى كان ماكيندر يرى ان شرق أوروبا هو مفتاح التحكـــم فـــي الجزيرة العالمية لأنها العتبة المؤدية الى قلب العالم.

وفي هذا المجال يجب ان نذكر ان مدرسة ميونخ لم تطالب أبـدأ بحـرب شاملة تدخلها ألمانيا ضد الاتحاد السوفيتي سابقاً ، بل أن هاوسهوفر كان يتشـكك في إمكانيات وقدرات استراتيجية حرب الصاعقة الالمانية ضد المساحة الضخمـة والموارد الكبيرة للأتحاد السوفيتي. فان كانت هذه الاستراتيجية قد نجحت في بـلاد ذات مساحة محدودة كبولندا وفرنسا الا ان نصيبها من النجـاح فـي المسـاحات السوفيتية الواسعة امر محفوف بالمخاطر. (انظر الخريطة رقم ٤)

خارطة رقم (٤)



الأقاليم الرئيسية الكبرى في الفكر الجيوبولتيكي الألماني

وقد اقترحت مدرسة ميونخ الجيوبوليتيكية نظاماً جديداً للسيطرة على القارات في صورة مفهوم الأقاليم الكبرى Pan Regions الأقاليم الكبرى من:

أمريكا الكبرى: وتضم كل دول الأمريكيتين تحت زعامة الولايات المتحدة.

اورو أفريقيا: وتضم كل أوروبا عدا الاتحاد السوفيتي وكل أفريقيا وكل العالم العربي الآسيوي وتركيا وذلك تحت الزعامة المشتركة لبرلين وروما.

روسيا الكبرى: وتضم معظم الاتحاد السوفيتي عدا شرق سيبريا، كما تضم ايضاً ايران وافغانستان والهند كلها (بما في ذلك باكستان الحالية). وكان مصير روسيا الكبرى معلقاً باتفاقات روسيا مع ألمانيا واذا لم يحدث هذا الأتفاق فإن كل روسيا الكبرى كانت ستصبح جزءاً من الامبراطورية الالمانية.

آسيا الشرقية الكبرى: وهذه تضم اليابان وشرق روسيا الاتحادية والصين وجنوب شرق آسيا وبورما واندونيسيا واستراليا ومعظم عالم المحيط الهادي تحت زعامة اليابان ويلاحظ ان هذه الأقاليم الكبرى تسير وفق مبدأ القارات المزدوجة الشمالية والجنوبية حسب ما اشرنا اليه من قبل. وكانت مدرسة ميونخ ترى انه لا بد من وجود مناطق فاصلة بين الدول الكبرى داخل التقسيمات القارية وأن هذه المناطق ونظام الإكتفاء الذاتي للدول الكبرى سوف يؤدي الى ايجاد التوازن الدولي المرغوب.

ولا شك ان هاوسهوفر لم يتمكن من ايجاد صيغة التوازن اللازمة بين أقاليمة الكبرى الثلاثة في العالم القديم (أورو أفريقيا وروسيا الكبرى وآسيا الشرقية الكبرى) وبين العالم الجديد (أمريكا الكبرى). ولهذا يرى أنه لا بد من اتحاد كل أقاليم العالم القديم للوقوف على قدم المساواة مع العالم الجديد. ويعني

هذا أن بذور الحرب بين ألمانيا واليابان كانت واردة عند أصحاب مدرسة ميونخ على انها احتمال مستقبلي من أجل السيطرة العالمية.

وفشل فكرة الأقاليم الكبرى أمر واضح لأنها لا يمكن ان تتحقق الا بالحرب. كما أن القارات الجنوبية في كل إقليم كبير ليست بعيدة البعد الكافي عن مراكز القوى الأخرى في القارات الشمالية، وبالتالي يمكن ان تمارس قوة اخرى شمالية دوراً هاماً على قارة جنوبية تابعة لقوة شمالية غيرها. فمثلاً أمريكا الجنوبية لا تبعد عن امريكا الشمالية بمسافة أقل كثيراً من بعدها عن أوروبا، بل انها أقرب الى أورو أفريقيا منها الى أمريكا الشمالية. وبذلك يمكن لاورو أفريقيا ان تمارس نفوذا متزايدا في أمريكا الجنوبية يناهض وينافس النفوذ الذي تمارسه أمريكا الشمالية عليها. وبالمثل أفريقيا كجزء مكمل لاورو أفريقيا ليس بعيداً بعداً كافياً عن روسيا الكبرى بحيث يمكن للنفوذ الروسي أن يمارس دوراً منافساً في أفريقيا لدول اوروبا على وجه العموم، وألمانيا على وجه الخصوص. وكذلك الهند تقع قريبة من آسيا الشرقية الكبرى اكثر من قربها للاتحاد السوفيتي.

هذا عن المبادئ العامة لمدرسة ميونخ السياسية. اما عن المبادئ الأساسية التي شكلت المنطلق الأساسي للجيوبوليتكيا الالمانية فقد تلخصت في عدة اعتبارات أهمها ما يلي:

١- **الدولة كائن حي** (راتزل) ومن ثم جاء تشخيص هاوسهوفر للأمراض التي تشكو منها الدولة مبنياً على مشكلة الأرض التي تحتلها. ولهذا ظهر مبدأ " المجال الحيوي" للدولة الذي يدعوها الى التوسع الأرضي من أجل إيجاد حلول لأمراضها السكانية والاقتصادية والعسكرية، ويحسن موقعها وعلاقاتها المكانية الأرضية.

١-**مبدأ الكفاية الاقتصادية للدولة.** وهذا المبدأ يقوم على عدة مقـــاييس رســمها هاوسهوفر وزملاءه كشروط أساسية لمقومات الدولـــة القويـــة. وقــد أكــدت النظرية على أربعة مقاييس هي :

(أ) عدد وفير من السكان.

(ب) نسبة مواليد مرتفعة .

(ج) تماثل وتشابه تام بين دم السكان (السلالة).

(د) توازن عادل بين سكان الريف والمدن. والمقياس الأول والثـــاني مفـــهومان تستند اليهما الدولة لتدعيم قواها وتجديد هذه القوى بارتفاع نسبه المواليـــد. ولـــهذا يأتي المقياس الرابع مؤيداً لهذا الاتجاه. فها وسهوفر لا يحبذ السكن المدني كثـــيراً لأنه بطبيعته يؤدي الى انقاص نسبة المواليد، كما أن قلة سكان الريف سوف تقلـل بالضرورة مدى تحكم الناس في إنتاج التربة الزراعية بمعناها الواسع. وبذلـــك يشترك العاملان معا في تقليل قوة الدولة العسكرية وتجديد هذه القوة وفـــي تقليـل الإنتاج الزراعي العام مما يؤدي الى اضعاف الكفاية الذاتية للدولة. وأخـــيراً فـــإن المقياس الثالث يريد أن يفترض ان تجانس الشعب سلاليا هو أحد دعامـــات قـــوة الدولة. لكن هذه النظرة الضيقة (السلالة فقط) تعبر عن منطلق عنصري يرتبـــط بسيادة الشعب الجرماني – وهو في ذلك مؤيد للعنصرية النازية تمام التأييد[١].

(١) في هذا المجال لا يفوتنا ان نذكر ان مدرسة ميونخ قسمت الشعوب الـــى شـــعب ســـيد Herrenvolk (وهو الشعب الالماني) وشعوب مساعدة او معاونة Hilfenvolk ، وهم بقيـــة الشعوب الأوروبية . اما النازية فكانت ترى أقساماً أخرى للناس. اعلى البشر مرتبـــة هـــم الجرمان النورديون، يليهم السلافيين يوالشرقيين في مرنبة دون البشر ثم الزنـــوج أنصـــاف قرده واخيرا اليهود كجماعة طفيلية تحتل الدوك الأسفل في السلم الاجتماعي.

لكن الكفاية الذاتية للدولة الكبرى يجب أن تمتد الى مسطحات كبيرة من اليابس الأرضي في صورة الاقتصاد الكبير (مكانيا) Grossraum Wirt Schaft . ولهذا نجد الدعاية والمصالح الالمانية تتوغل في كثير من اجزاء القارة،وخاصة في جنوب شرق القارة – بلغاريا ورومانيا، وفي وسط القارة. والاهتمام بالبلقان عامة في نظر الاقتصاد الالماني راجع الى أنه كان في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية يكون منطقة إنتاج الأغذية والموارد الأولية، وهي ما تحتاجه ألمانيا الصناعية وبذلك فإن التكامل الاقتصادي بين الصناعة والزراعة – في نظر الجيوبوليتكيين – كان يتمثل خير تمثيل في الارتباط بين ألمانيا والدول المتخلفة صناعياً وعلى رأسها دول البلقان. وتجدر الإشارة الى أن ٨٠% من مصادر بلغاريا فيما قبل الحرب كانت تتجه الى ألمانيا ، وكذلك كانت المجر داخلة في دائرة النفوذ الاقتصادي الالماني بدرجة كبيرة،كما كان لبترول رومانيا أثره في جذب المصالح الالمانية. وكانت ألمانيا تدفع مقابل المواد الأولية التي تحصل عليها من دول البلقان سلعاً صناعية المانية بأسعار أعلى من الأسعار العاليمة كثيراً مما جعل النانيا مدينة مزمنة لدول البلقان. وهكذا أدت الروابط الاقتصادية الالمانية المتغلغلة في البلقان بمعظم دول المنطقة الى الانضمام الى الحلف الالماني راضية أو مكرهة. وفي هذا كتب الأستاذ اوتو ماول قائلاً " أن التغلغل الاقتصادي الكامل له تماماً نفس الأثار المترتبة على الاحتلال العسكري"

٣- العواصم والتأثيرات النفسية:

أهتمت مدرسة ميونخ بموضع العواصم على انه دليل على قوة واستقرار الدولة. ولهذا فإن عدداً من الدول نقل عواصمه من مكان الخطر الى مناطق أكثر حماية في الداخل. وأهم الأمثلة على ذلك نقل العاصمة من اسطنبول الى انقرة ومن سان بطرسبرج (لنجراد الى موسكو. ويمكننا ان نضيف الى ذلك ما حدث

مؤخراً من نقل العاصمة الباكستانية من كراتشي الى اسلام أباد، والعاصمة البرازيلية من ريو ديجانيرو الى برازيليا) ولكن يجب أن ننظر الى هذه العملية من زاويتين: الأولى ما أوردته مدرسة ميونخ من أسباب استراتيجية، والثانية ان نقل العواصم من الأطراف الى الداخل دليل على اعتناء الدولة بالتنمية الداخلية لبلادها.

وترى مدرسة ميونخ ان للعواصم تأثير نفسي على الشعوب. فسقوط العاصمة يؤدي الى اشاعة اليأس بين السكان - خاصة إذا كانت العاصمة في موقع جغرافي متوسط وجيد. مثل بلريس أو موسكو.

وترى هذه المدرسة ان سقوط باريس قد عجل بسقوط فرنسا ولهذا نجد الالمان يحاولون الحصول على موسكو ، وفي مقابل ذلك وقف السوفيت الى النهاية ما نعين سقوطها مما كان له اثره الكبير في ضعضعة العزيمة الالمانية وتقوية الإرادة السوفيتية.

٤- استراتيجية المواقع والاستراتيجية العسكرية:

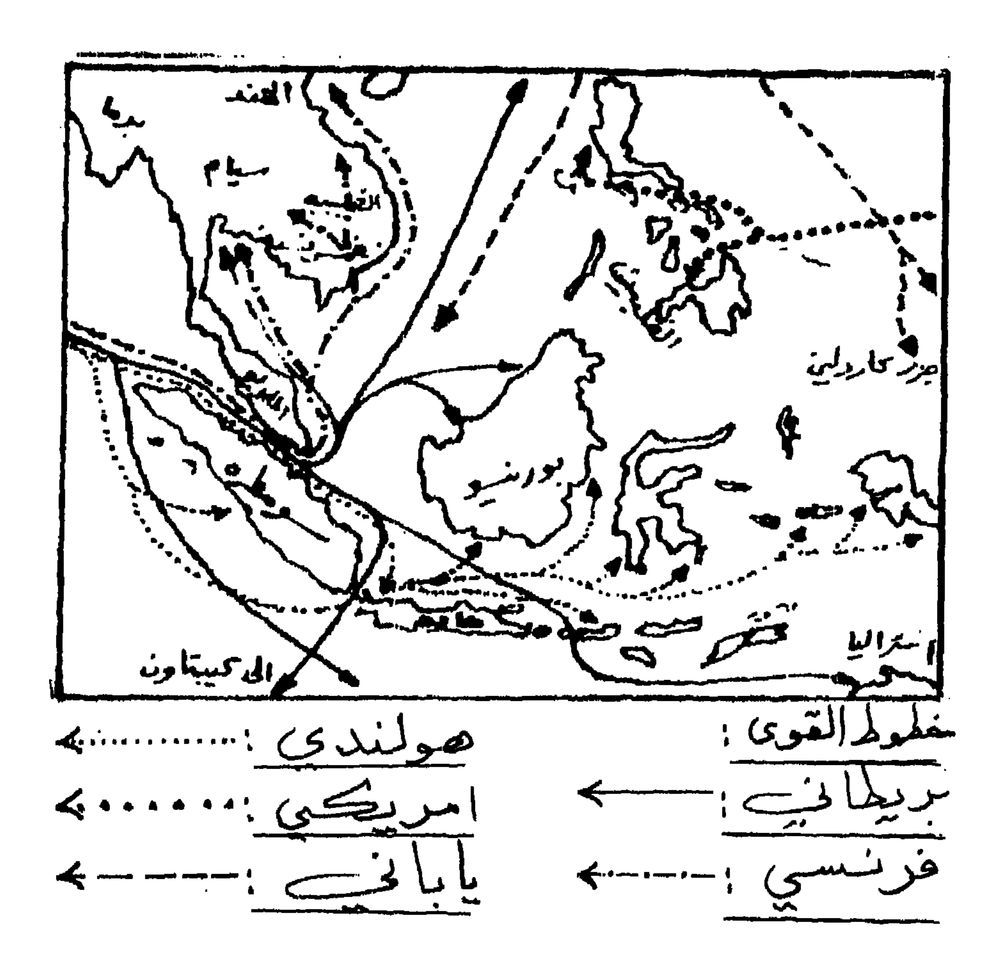
في المجالات العسكرية كانت مدرسة ميونخ ترى أن القوة برغم انقسامها الى القوات البرية والبحرية والجوية إلا ان للقوة البرية دوراً حاسماً لأنها هي التي تستولي على المجالات الأرضية. ولكن ذلك لا يقلل من دور البحرية والقوات الجوية، وان كانتا - في نظر هاوسهوفر - قوات مكملة للقوة البرية.

ويرى ان القواعد الحربية قد أصبحت تفقد قيمتها الإستراتيجية التي كانت لها في الماضي فلم يعد لجبل طارق او لسنغافورة الأهمية التي لكل اسبانيا او ماليزيا. وعلى هذا النحو فإن التحكم في قناة السويس دون التحكم في مصر يصبح قليل الأهمية. ومن هنا فإن المناطق التي تقع فيها هذه القواعد الحربية او البحرية تصبح أهم من الناحية الإستراتيجية من قيمة القاعدة ذاتها.

٥- مناطق الصدام بين الدول المتنافسة:

يرى هاوسهوفر ان نفوذ الدول المتصارعة على السلطة تنتهي الى مناطق حساسة هي مناطق الاحتكاك الحقيقي بين نفوذ دولتين. وفي مثل هـذه المناطق غالبا تبدأ المعارك السياسية او العسكرية. وقد ضرب هاوسهوفر مثالا لذلك بالفلبين بين دائرتي النفوذ الأمريكية واليابانية . وحينما ينشغل اليابانيون بأمور سياسية او عسكرية داخلية او بعيدة عن الفلبين نرى مطالب أهل الفلبين من أجل الاستقلال عن أمريكا تشتد وتظهر على مسرح السياسة المحلية الفلبينية. لكن هـذه المطالب سرعان ما تخبو وتحل محلها مظاهر الولاء نحو أمريكا حينما تصبح روح التوسع العسكري الياباني تجاه الفلبين ملموسة وواضحة. وليست مناطق الصدام وحدها هي التي تظهر في كتابات هاوسهوفر وغيره، بل مصطلحات أخرى متعددة مثل مجالات الدفع Zerrungsraeume ونطاقات الخطر Gefahrenzonen ومناطق الاهتزاز Schuetterzonen ،وخطوط القوى Kraftlinien . والأخيرة توضح اتجاهات القوى المتصارعة في أقاليم الصدام (انظر خريطة ٥)

خـــارطـــة رقـــم (٥)



نمط الأفكار الجيوبولوتيكية الألمانية

خطوط القوى في البحر المتوسط الاسيوي الجنوبي عام ١٩٣٨

والملاحظ أن هاوسهوفر الأب والإبن ومدرسة ميونخ عامة لم تضع فقط تصوراً نظرياً لسياسات الأرض كما فعل ماكيندر وغيره، بل اتبعوا هذا التصور بمبادئ تطبيقية في نظرهم من أجل تنفيذ ما افترضوه من صور. ولهذا تخلو كل الكتابات الجيوبوليتيكية العلمية من مبادئ تطبيقية، بل إنها تصور إمكانيات الماضي والحاضر على ضوء العلاقات الأرضية حسبما يرى الكاتب. اما مدرسة ميونخ فقد كانت حقاً محاولة تنفيذية لمخططات نظرية تعسفية أريد لها التطبيق بالقوة العسكرية وحدها. ولهذا فشلت هذه المدرسة فشلاً ذريعاً ونقدت نقداً مراً. وذلك بالرغم من ان الكثير من الكتابات العلمية لهذه المدرسة كتابات جغرافية ممتازة. فمثلاً ذكر بالبرفت هاوسهوفر في كتابه الذي لم يكتمل بعنوان " الجغرافيا السياسية العامة والجيوبوليتيكا" ان هناك في الجغرافية السياسية والجيوبوليتكا حقيقة اساسية يجب تركيز الدرس عليها، الا وهي مسالة العلاقة المتغيرة بين المحيط المكاني للإنسان وبين أشكال الحياة السياسية.

وخلاصة القول أن الجيوبوليتكا الالمانية كانت مليئة بالتناقضات الجغرافية لأنها كانت لا تعرف حدوداً علمية تنتهي اليها. وهي بارتباطها بالتطبيق العملي للسياسة التوسعية الجرمانية، لم يعد يهمها ان تواجه بالنقد العلمي وبذلك فقدت العنصر الأساسي في تكوينها كنظرية علمية.

القوى البحرية في الجيوبوليتكا:

على عكس راتزل وماكيندر وهاوسهوفر ومدرسة ميونـــخ الذيـن تبنـوا افتراض سيطرة متعاظمـــة للقـوى الأرضيــة، نجـد مجموعــة أخـرى مـن الجيوبوليتيكيين الذين يرون للقوى البحرية افضلية تمكنهم من السيطرة العالمية.

وأقدم هؤلاء الجيوبوليتكيون المحدثين هو الأميرال الفردماهـــان A. T. Mahan (١٨٤٠-١٩١٤) القائد البحري الأمريكي، والذي نال شـــهرة واسـعة كمؤرخ واستراتيجي بحري ممتاز. لم يكن ماهان إذن جغرافيا لكنه تعـرض فـي دراساته للموقع الجغرافي واثره في نمو السيطرة البحرية. وهو حينما يكتب عــن القوة البحرية فإنه يعني القوة العسكرية التي يمكن نقلــها بـالبحر الــى المكـان المطلوب، دون أن يعني مجرد الأسطول البحري. ومن ثم فإن التحكم في البحــار يعني لديه التحكم في القواعد البرية التي تتميز بالمواقع الاســتراتيجية المتحكمـــة في النقل البحري والقواعد البحرية التي تحميها أشكال السواحل من جهة وعمــق خلفيتها الأرضية من جهة ثانية.

وتصبح كتابات ماهان عن السيطرة البحرية مهمة ذات طـــابع جغرافــي حينما يتناول العالم كله في نظرة إستراتيجية . وقد أعــرب عــن ذلــك الإتجــاه الجغرافي الجيوبوليتيكي لأول مرة في كتابه " مشكلات آسيا" المنشـــورة ١٩٠٠، الذي يركز فيه على مشكلات اورو آسيا . وقد شعر أن قارات العالم الشمالية هــي مفتاح السيطرة العالمية، وأن قناتي السويس وبنما هما الحـــدود الجنوبيــة لعــالم الشمال المتميز بتكاثف الحركة التجارية والسياسية العالمية.

ويؤكد ماهان ان أورو آسيا هي أهم جزء في العالم الشمالي، وأن روسيا تحتل موقعا أرضيا مسيطرا في آسيا، وأكد انها ذات منعة ضد المهاجمين، بل شعر أن من غير الممكن مهاجمتها. ومع ذلك فهو يرى في هذا الموقع الأرضي المنيع مساوئا معينة أهمها انها كتلة أرضية محبوسة.

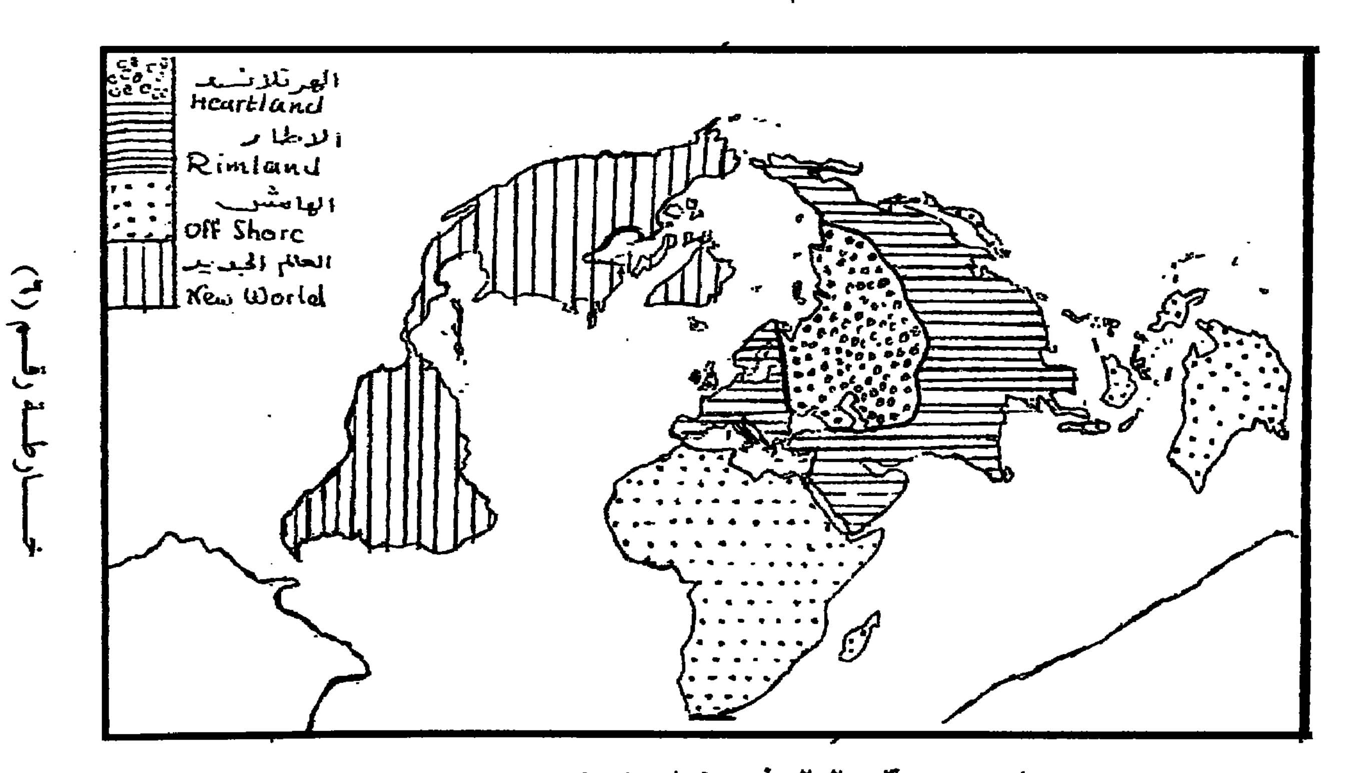
ويصف ماهان المناطق الآسيوية بين درجات العرض ٣٠، ٤٠ شمالا بإنها نطاق الاحتكاك والصراع بين روسيا وبريطانيا – بين القوى الأرضية والقوى البحرية. وبما انه يرى في القوى البحرية مفتاح السيطرة العالمية فإنه – بناء على ذلك يتنبأ بأن مكان كل من بريطانيا وأمريكا المتحالفتين الحصول على السيادة العالمية باستخدامها (احتلال) قواعد عسكرية تحيط بأورو آسيا نظرا لتفوق الحركة البحرية على الحركة الأرضية.

بل إن ماهان قد تنبأ بأن تحالفا بين الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا واليابان قد يحدث في يوم من الأيام ضد روسيا والصين معا. وعلى هذا فإن باستطاعتنا ان نقول أن ماهان قد كتب قبل ماكيندر بأربع سنوات عن اهمية الجزيرة العالمية (أورو آسيا) وعن الهرتلاند (روسيا) ، لكنه توصل الى نتائج عكسية تماما لما توصل اليه ماكيندر من نتائج. ولعل ذلك مرتبط بشخص ماهان كرجل بحر يؤمن باستراتيجية البحار قبل كل شيء. كما اننا لا نعفي ماهان من تأثره بالأحوال السياسية التي عاصرها، حينما كانت بحرية ذات عنق أرضي) وأكبر اسطول بحري حربي وتجاري في العالم، وقواعد حربية هامة عند مداخل البحار وعلى طول شرايين التجارة البحرية العالمية كما ان تنبؤه ببزوغ نجم أمريكا يرتكز هو الاخر على كونها بلاد شاسعة في صورة جزيرة ضخمة آمنة من أحداث وقوى أورو آسيا.

والحقيقة أن ماهان قد قام بدور كبير في الدعوة الى إنشاء اسطول أمريكي قوى، وشق قناة بنما والحصول على قواعد بحرية أمريكية فى الخارج (احتلال الفلبين ١٨٩٨ بعد الحرب مع اسبانيا، وكذلك فرض حمايتها على جزيرة كوبا واحتلال جزر جوام وهاواي في وسط المحيط الهادي واحتلال بورتوريكو لتأمين مدخل الملاحة في البحر الكاريبي). وبذلك فإنه قد أثبت أن الآراء الجيوبوليتيكية يمكن ان تعمل لخدمة مصالح الدولة - تماماً كما فعل هاوسهوفر ومدرسة ميونخ. لكن الفارق بين هامان الجيوبوليتكا الالمانية ربما يكمن في هزيمة ألمانيا!.

ويمكننا ان نعد نيكولاس سبيكمان N. Spykman خليفة ماهان في استراتيجيته التي تناهض الهرتلاند وسيادته. لكنه لا يتفق مع ماهان في سيادة القوى البحرية. بل نراه في كل أفكاره يتأثر تأثراً عميقاً بماكيندر في كل شيء سوى النتائج السياسية (انظر خريطة ٦)

عالم سبيكمان ١٩٤٤



تطور حدود قلب العالم في سنوات ١٩٠٤ – ١٩١٩–١٩٤٣

خارطة رقم (٦)

لقد كان سبيكمان يخشى من سيطرة ألمانيا على القارة الأوربية ومن ثم على الهرتلاند الأورو آسيوي، وبذلك يمهد الطريق للسيطرة العالمية الجرمانية لهذا كان هدفه

وقد رأى سبيكان في " الهلال الهامشي " الذي يحيط بالهرتلاند عند ماكيندر مفتاح السياسة العالمية. ولهذا يسمي هذه الأراضي " الإطار Rimland او الحافة التي تضم أوروبا البحرية (الغربية) والشرق الأوسط والهند وجنوب شرق آسيا والصين . هذا الإطار يتمتع بعدد كبير من السكان ومصادر ثروة غنية بالإضافة الى استخدام البحر كخطوط حركة أساسية للتجارة والحرب.

وفي الحقيقة نجد سبيكان يتبنى كل أراء ماكيندر لكنه يعكس النتائج في قول مأثور مشابه لقول ماكيندر ويغايره. فهو يقول: من يحكم الاطار يحكم اورو آسيا، ومن يحكم اوروآسيا يتحكم في مصير العالم. ولكن تقطع الإطار وتقسمه بين القوى الأوربية والأمريكية يجعل مستحيلاً ان يقوم الإطار بهذا الدور اما إذا امكنت دولة واحدة من السيطرة عليه فإن دور الإطار سيصبح واضحاً في الحصول على السيطرة على العالم. وهو يخشى ان تتمكن ألمانيا من السيطرة على الإطار بعد أن تحتل أوروبا الغربية . ويصف سبيكمان الهرتلاند بإنه حقاً قلب الكتلة الأرضية الكبيرة. لكنه قلب ميت لأنه حبيس الإطار من ناحية والتندرا والمحيط القطبي من ناحية ثانية. كما انه قليل الثروات باستثناء التركستان والاورال لأن بقية القلب يتكون من أراض موحشة جافة او تحتلها مساحات شاسعة من الغابات المخروطة الصقيع الدائم.

لكن نتائج سبيكمان تتميز بعدم الكفاية والبعد عن الإمكانية العمليــة فمــن الواضح ان منطقة الإطار لا يمكن ان تكون قوة واحدة. كما ان الإطار ليس سوى نطاق هامشي مهدد من الهرتلاند في الداخل والقوى الهامشية البحرية off shore من الخارج وبريطانيا واليابان وشمال أفريقيا من مصر الى الغرب. ولهذا إذا كـان لقوى الإطار ان تنجح في تكوين وحدة أوربية غربية، فإن هذا النجاح يتوقف على أن أوروبا المتحدة سلطانها المطلق على البحر المتوسط كلــه والشــرق الأوســط كخطوة أولى ثم السيطرة على بقية أفريقيا واستراليا كخطوة ثانية تمهيداً للخطـــوة الحاسمة وهي الاستيلاء على بقية الإطار في آسيا الجنوبية والشرقية.

وواضح مدى صعوبة هذه الإمكانية التي تجعلها فـــي بـــاب المســـتحيل. وبفرض أن المستحيل يمكن ان يحدث فإن ذلك لا يدخل بـــاب الإحتماليـــة إلا إذا كان هناك اتفاق وتفاهم بين هذه القوة الأوروبية المتوسعة وبين قوة الـــهرتلاند أو القوة الأمريكية. وفي مثل هذه الحالة هي توافق إحـــدى القوتيـــن (الـــهرتلاند أو أمريكا) على مثل هذا التوسع دون ان يصيبها شيء منه؟ فإذا أصابت جزءاً مـــن الإطار، فإن فكرة تكوين قوة واحدة تسيطر على الإطـــار كلـــه فكـــرة لا يمكـــن تحقيقها.

وعلى الصورة نفسها يمكن ان نقول ان الصين قـــد يمكنـــها ان تســـتولي على جنوب آسيا وشرقها، لكنها لن تتمكن من الاستيلاء على الإطار في الشـــرق الأوسط او أوروبا دون اتفاق مع الهرتلاند.

أن أهمية الإطار اليوم لا تقع في إمكان قيامه كقوى موحدة، بل فـــي أنـــه يقع تحت تأثير المنافسة بين القوى الخارجية عنه: أمريكـــا واليابـــان وبريطانيـــا والاتحاد السوفيتي. بل أن أفريقيا جنوب الصحراء واستراليا تقع أيضـــاً ضمـــن

مجال هذه المنافسة. ودور أفريقيا في هذه المنافسة والصراع أصبح يتضح بجلاء كلما مر الوقت. وقد سبق لما كيندر أن اطلق على أفريقيا اسم الهرتلاند الثاني. لكنها حتى الأن مازالت مرتبطة بعلاقات سياسية استراتيجية اقتصادية بدول الإطار.

وهكذا فإن بقاء الإطار مقسماً بين دول عديدة مستقلة أو محايدة او داخلة فتلك دول اخرى يبقى على توازن القوى العالمية ويمنع تكوين قوة واحدة تسيطر على العالم. لكن ليس معني هذ ان الإطار مؤهل السيطرة العالمية على النحو سابق الشرح. وفي الوقت الحاضر نجد خطوط الحركة الداخلية بين الإطار والقوى الداخلية الكبرى كالصين اقوى من القوى البحرية التي يمكن ان تدعم دول الإطار دون تدخل القوى الداخلية. ولنا على ذلك مثالين في آسيا الشرقية والجنوبية الشرقية. فإن القوى البحرية الأمريكية، تدعمها قواعدها الضخمة في اليابان والفلبين وحلف جنوب شرق آسيا، لم تستطيع ان تمنع خطوط الاتصال الأرضي الداخلي بين الصين والاتحاد السوفيتي وكوريا الشمالية او فيتنام الشمالية. وقد ظلت كل من كوريا وفيتنام الشمالية مركزاً لقوى مناهضة بنجاح للقوى الأمريكية البحرية والجوية والأرضية. وهذا دليل واضح على أن القوى البحرية قد نالت أكثر مما هي عليه من مميزات في آراء كل من ماهان وسبيكمان.

ان تغلغل النفوذ الصيني عبر الخطوط الحديدية الى سنكيانج (تركستان الصينية) والنفوذ الصيني الى التبت وكوريا وفيتنام ليعبر عن قوى كبيرة من قوى الإطار في إتجاه الداخل. لكن يقابل ذلك ايضاً القوى السوفيتية المتقدمة من الهرتلاند صوب التركستان ولعل الخط الحديدي الجديد يربط سنكيانج بتركستان

الروسية اكثر من الصين. على أي الحالات فإن ماكيندر في عام ١٩٠٤ قد أشار الى إمكانية نمو القوى الصينية صوب الداخل. وأن نطاق الهضاب الشاسعة والجبال العالمية والصحاري الواسعة في منغوليا والتبت وحوض تاريخ وجبال كون لون وغيرها تعد عائقاً طبيعياً أمام منافسة السوفيت الجديدة. وبذلك فإن الصين هي الدولة الوحيدة من دول الإطار التي يمكن ان تتوسع داخليا على خطوط الإنتقال والحركة الى مساحات كبيرة، بينما لا يمكن لأوروبا ان تتوسع في الأراضي المقابلة لها من الداخل لأنها تقع تحت الضغط المباشر للهرتلاند والقوة السوفيتية الجديدة؟

القوى الجوية في الجيوبوليتكيا:

ان نمو عصر الطيران والفضاء قد أدى الى أنواع مختلفة من الآراء حول التشكيل الجيوبوليتيكي لعالم أواسط واواخر هذا القرن.

وواحد من هذه الآراء كان رأى جورج رينر G.Renner في ١٩٤٤ الذي قال ان الطرق الجوية قد ربطت بين الهرتلاند الأورو أسيوي وهرتلاند اصغر في أمريكا الشمالية عبر المنطقة القطبية . وبذلك فإن تشكيلاً جديداً للهرتلاند بواسطة الطيران قد جعله يمتد في نصف الكرة الشمالي عبر المنطقة القطبية. لكن هذا الهرتلاند الجديد يتصف بإنه مهدد بالخطر من إحدى القوتين اللتان تحتلانه: الاتحاد السوفيتي الذي كان يهدد بقية الهرتلاند في أمريكا والعكس صحيح. لكن رينر يقول ان الهرتلاند الجديد يمكن أن يكون قاعدة السيطرة العالمية لأنه يتميز بالقرب المكاني من بعضه بواسطة خطوط الطيران وإمكانيات

النقل البحري والبرى أيضاً. وبذلك تتحول المنطقة القطبية الشمالية الى بؤرة الحركة ومن ثم تصبح مفتاح النفوذ العالمي.

وهناك رأي آخر نادي به الكسندر دي سفيرسكي A. de Seversky في بحث باسم " القوة الجوية" مفتاح البقاء (١٩٥٠) . وقد رسم سفيرسكي خريطة ذات مسقط قطبي ووضع فيها الأمريكتين جنوب القطب واورو آسيا وأفريقيا في شكال القطب. وعلى هذا فإن أول تقسيم استخدامه سفيرسكي هو التقسيم المتعارف عليه: العالم القديم والعالم الجديد. وفي هذه الخريطة يتضح ان السيادة الجوية الأمريكية تشتمل على كل الأمريكتين بينما منطقة السيادة الجوية السوفيتية تغطي جنوب وجنوب شرق آسيا وأفريقيا جنوب الصحراء الكبرى.

لكن منطقتي النفوذ الجوي تتلاقي وتتصادم في مناطق اخرى هي أوروبا الغربية وشمال أفريقيا والشرق الاوسط فضلاً عن ان نفوذ القوة الجوية الروسية يغطي أمريكا الشمالية، وبالمثل تغطي القوة الجوية الأمريكية الهرتلاند الأورو آسيوي. ويرى سفيرسكي ان مناطق تداخل القوة الجوية للدولتين هي مناطق الحسم في اي معركة بينهما. ومن ثم سفيرسكي يرى للقوة الجوية الأثر الحاسم في كسب السيطرة او السيادة على العالم.

وآراء سفيرسكي يمكن أن نعدها استكمالاً لآراء رينر السابق شرحها، لكنها تختلف عنها في نتيجتين هامتين لكنهما غير مؤكدتين. واول هذه النتائج غير المؤكدة ينبع من مسقط الخريطة التي اعتمدها سفيرسكي في بحثه. فإن المسقط القطبي الذي استخدمه قد أدى الى أبعاد أفريقيا عن أمريكا الجنوبية بصورة لا وجود لها في الطبيعة، ومن ثم فإن هذا الإبتعاد قد جعل كل من القارتين في حوزه

القوة الجوية للسوفيت والأمريكيين على التوالي. بينما في الحقيقة تبعد أفريقيا عن الولايات المتحدة بالمقدار الذي تبعد به أمريكا الجنوبية عنها.

والنتيجة الثانية التي توصل اليها سفيرسكي مرتبطة بمبدأ ان السيطرة الجوية تقود فوراً الى السيادة العالمية. فلقد تكلم سفيرسكي عن الدولتين الكبيرتين فقط مع بعض إشارات خفيفة الى قوى بريطانيا الجوية. لكن كلامه يحمل معه بذور نقده. ذلك أن أي دولة – كبيرة أو صغيرة، في النصف الشمالي أو الجنوبي من الأرض – يمكنها ، إذا تجمعت لديها الأسباب التي تجعل منها قوة عسكرية جوية قوية، وإذا تكونت لديها الرغبة الأكيدة في النمو والسيطرة السياسية، ان تحصل على السيادة العالمية. مثلاً يمكن لاستراليا او البرازيل أو الأرجنتين ان تحقق السيادة، خاصة وأننا في عصر تطورت فيه القاذفات الجوية والصواريخ عابرة للقارات. لكن هذه الأفكار عامة تناسب إمكانية ان يدمر السلام الجوي للدولتين المتعاديتين الدولتين معاً. فالمسألة ليست مجرد هزيمة وأحد منهما ويصبح الأخر مسيطراً على أجواء العالم. ويجب ان نضيف الى ذلك في الوقت الحاضر تعاظم أسلحة الدمار النووية والصاروخية من قواعد برية وطائرات حاملة للقنابل النووية وغواصات حاملة ايضاً لهذه الأسلحة المدمرة. وكلها عوامل أدت الى توازن كبير في القوى الدولية إذ أنها أدت الى منع الحرب الشاملة حتى الآن.

ومع ذلك فإن تفوق السلاح الجوي العادي ما يزال له دور فعال في الحروب الصغيرة. ولكنه لا يلعب الدور الحاسم وحده. ومن ثم فإن نجاح الحروب الصغيرة يتوقف على تكامل كل الأسلحة الجوية والبحرية والبرية

وبالإضافة الى المميزات التي يحصل عليها طرف أو آخر من أطراف النزاع في المواقع الاستراتيجية التي يسيطر عليها او يحتلها.

ولهذا فهناك كتاب يعتقدون ان السلاح الجوي لم يضيق بعد ثالثا للقوى البرية والبحرية ، وإنما يعدونه إضافة تكاملية لابعاد القوى البرية فقط. وبعبارة أخرى فإن القوة الجوية ليست في حد ذاتها عامل حاسم وجديد في الحروب ينهي دور القوى البرية والبحرية.

يتضح من هذه الدراسة للجيوبوليتيكا ان هدفها الأول هو دراسة الأوضاع العامة للكتل القارية وإعطائها أهميتها السياسية بالنسبة لموضوع واحد وجوهري هو السيادة العالمية وبذلك فإن الجيوبوليتيكا علم سياسي أساساً يستمد جذوره من الجغرافيا وحقائقها ، ويعمل على الإفادة منها لخدمة خطط سياسية معينة في غالبية الأحوال. ولهذا فإن هناك فروقاً كثيرة بين الجيوبوليتيكا والجغرافيا السياسية يمكن ان نجعلها فيما يلي:

١- الجيوبوليتيكا ترسم خطة لما يجب أن تكون عليه الدولة، بينما تدرس الجغرافيا السياسية كيان الدولة الجغرافي.
٢- تضع الجيوبوليتيكا تصوراً لحالة الدولة في المستقبل بينما تقنع الجغرافيا السياسية برسم صورة الماضي والحاضر.
٣- الجيوبوليتيكا تتسم بالتطور والحركة بينما تميل الجغرافيا السياسية الى الثبات.
٤- تحاول الجيوبوليتيكا ان تجعل الجغرافيا وحقائقها في خدمة الدولة، بينما الجغرافيا السياسية ليست سوى صورة للدولة.



الباب الثاني
تركيب الدولة كوحدة جغرافية سياسية

الفصل الأول : عناصر تركيب الدولة

الفصل الثاني : المقومات الطبيعية

الفصل الثالث : حياة الدول



الفصل الأول
عناصر تركيب الدولة

الدولة هي موضوع الجغرافيا السياسية الأول والأساسي. والدولة هي الوحدة الأساسية في النمط السياسي العالمي. كل دولة مظهر قائم بذاته، غير متكرر في اي صورة من صور الدول الأخرى. الدولة إذن مظهر متفرد بكل وحدة سياسية لأن لكل دولة مظاهرها المتفردة غير المتكررة في الموضوعات التالية:

١- الموقع وعلاقات المكان تميز كل دولة عن غيرها بظروف وعلاقات مختلفة.
٢- المظاهر الطبيعية لأرض كل دولة متغايرة عن غيرها.
٣- اختلاف المساحة المسكونة والمستغلة داخل كل دولة تترتب عليه نتائج خاصة في كل دولة.
٤- اختلاف علاقات كل دولة بالوحدات السياسية الأخرى على المستوى الإقليمي والعالمي.

وهذا التفرد الوظيفي لكل دولة على حده لا يلغي ان كافة الدول يجب ان تمتلك خمسة عناصر أساسية لقيامها واستمرارها. وهذه العناصر هي:

١- مساحة من الأرض تحدها حدود متعارف عليها (أو متنازع عليها)
٢- نظام حكم إداري كفء لضمان سيادة الدولة على مسطحها (الأرضي والمائي والجوي).
٣- شعب مقيم بصفة دائمة (بغض النظر عن الهجرة من او الى الدولة).
٤- بناء اقتصادي أيا كان شكله.

٥- نظام من النقل وخطوط للحركة داخل اراضي الدولة

ولا شك ان الدول تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً في درجة امتلاكها لعنصر او اكثر من العناصر الخمسة السابقة. فهناك دول ذات مساحات عملاقة على رأسها روسيا، ودول ذات إعداد سكانية هائلة على رأسها الصين، ودول ذات موارد قوية ومتعددة على نوع أو آخر من مصادر الثروة وأخيراً دول ذات شبكه نقل كثيفة واخرى تفتقر الى خطوط الحركة الاساسية.

وتوضح الجداول التالية بعض هذه الحقائق في اختلاف الدول فيما بينها:

نماذج لاحجام الدول – عناصر متفرقة

الحجم المساحي		الحجم السكاني	
الدولة	المساحة (مليون كم٢)	الدولة	عدد السكان بالمليون
روسيا	١٧,٠٧٨,٠٠٠	الصين	١,١٧٥,٠٠٠
كندا	٩,٩	الهند	٩٠٠,٥٤٣
الصين	٩,٥٧٩,٠٠٠	روسيا (موسكو)	١٤٩,٠٠٠
الولايات المتحدة	٩,٣	الولايات المتحدة	٢٥٨,٠٠٠
البرازيل	٨,٥	اندونيسيا	١٩٥,٠٠٠
استراليا	٧,٧	اليابان	١٢٤,٠٠٠
الهند	٣,١٦٦,٠٠٠	البرازيل	١٥٦,٤٠٦
السودان	٢,٥٠٥,٨١٥	نيجيريا	١٠٥,٠٠٠
الجزائر	٢,٣٨١,٠٠٠	المانيا	٨٠,٧٦٩
السعودية	٢,٤٠٠,٠٠٠	بريطانيا	٥٨,٠٠٠
جمهورية مصر	١,٠٠٠,٢٥٠	سنغافورة	٣,٠٠٠
الأردن	٠,٠٨٩,٢٨٧	الكويت	١,٣١٨,٠٠٠
الإمارات العربية	٠,٧٥,١٥٠	مالطة / لكسمبورج	٠,٥
اسويسرا	٠,٠٤١	ايسلندا	٠,٤
بلجيكا	٠,٠٣	تايوان	٢٠,٨١١,٠٠٠
هولندا	٠,٠٤	جنوب أفريقيا	٤٠,٦٧٧,٠٠٠
لكسمبورج	٠,٠٠٣	السويد	٨,٧١٢
مالطه	٠,٠٠٠٣	سويسرا	٦,٩٧٧
موناكو	٠,٠٠٠٠٠١	الفلبين	٦٥,٧٧٥

الإحصائيات المذكورة أعلاه لعام ١٩٩٦م

جـــــدول رقـــم (٢)

جـــــــدول رقـــم (٣)

حجم السكان غير الزراعيين

الكويت	%٩٩	ألمانية الغربية	%٨٩	الاتحاد السوفيتي	%٦٧
بريطانيا	%٩٦	السويد	%٨٨	مصر / لبنان	%٤٥
الولايات المتحدة	%٩٤	تيوزيلندا	%٨٧	الصين	%٣٧
بلجيكا	%٩٤	الدانمرك	%٨٥	الهند	%٣٠
هونج كونج	%٩٣	الارجنتين	%٨٢	السودان	%٢٢
سنغافورة	%٩٣	شيلي	%٧٤	نيجيريا	%٢٠
هولندا	%٩١	اليابان	%٧٣	اثيوبيا	%١٢
استراليا	%٩٠	فنزويلا	%٧١	تنزانيا	%٥
سويسرا	%٩٠	جنوب أفريقيا	%٧١		

والى جانب ذلك فإن هناك تغيرات كبيرة بين ترتيب الـدول فـي حصـة الفرد بالنسبة للإنتاج القومي العام. فهناك سويسرا التي تحتـل المرتبـة الأولـى بحوالي ٣٤,٠٤٠ دولارا أمريكي للفرد سنويا من قيمة الإنتاج القومي العام تليـها السويد ٢٥,٨٦٣ ثم الولايات المتحدة ٢٣,١٠٠ ولا تظهر دول اخرى لها قيمتـها الاقتصادية العالمية الا في مراتب متأخرة فألمانية الغربية تحتل المرتبـة السـابعة والكويت المرتبة التاسعة، بينما تحتل مستعمرة صغـيرة أمريكيـة (بورتوريكـو) المرتبة الثالثة عشر. وتنخفض انصبه الفرد كثيرا في معظم دول العالم الى ما بيـن ٥٠,٥٠٠ دولارا في السنة.(أنظر الجدول ص ٢١٣)

وعلى هذا النحو تختلف أقدار الدول وقلما ترتبط عدة عناصر معا لتعطـي لدولة ما اهمية رئيسية في العالم. ولكن كل ذلك لا يلغـي أن هنـاك دول كـبرى وصغرى ودولا متقدما واخرى متخلفة تكنولوجيا، ودولا مستقلة تماما واخرى فـي

مراحل مختلفة من الإرتباط التام (مستعمرات) أو الارتباط الاقتصادي بدول اخرى. وبرغم عوامل الاختلاف هذه فإن الدولة هي الدولة سواء كانت من هذا النوع او ذلك أو ذات عمق تاريخي او جديد كل الجدة بحكم علاقات الاستعمار الحديث.

ولهذا كله فالدولة – كما قلنا – هي الموضوع الأول والأساسي في الجغرافيا السياسية التي تحاول ان تلقي الضوء على كل مكونات الدولة الطبيعية والبشرية في تفاعلها معاً لإعطاء البناء السياسي لوحدة من وحدات الأرض السياسية.

ماهية الدولة:

فالدولة إذن هي أعقد الإنظمة الإنسانية الاقتصادية والاجتماعية معاً لكي يكون للدولة كيانها فالمفترض أنها تفرض سيادتها على ارض معينة، لكن الحياة السياسية عامة لاى دولة تخضع بدرجات متفاوتة لصفات المجتمع التي تتحدد بواسطة البيئة الطبيعية التي ينمو فيها الشعب ويتكون، وما في هذه البيئة من مصادر للثروة – سواء كانت هذه المصادر مجرد الموقع المكاني او اي من أشكال مكونات الثروة الاقتصادية الأخرى.

ويري الكثير من الكتاب ان الدولة لا تعني مجرد مساحة من الأرض ومجتمع يعيش على هذه الأرض، بل أنها حقيقة اجتماعية اقتصادية مستقلة عن السلالة والعلاقات السلالية واللغوية والدينية الى آخر ذلك من مكونات الشعوب.

وبذلك فإن مهمة الجغرافيا هي دراسة الدولة ككائن عضوي نشأ عن تجمع إنساني معين على سطح جزء من الأرض.

الفصل الثاني
الأسس الجغرافية للدولة

١- المقومات الطبيعية

تشتمل الأسس الطبيعية للدولة على عدة عناصر هامة على رأسها الموقع والحجم والشكل، الى جانب المناخ والتضاريس والتربة والجغرافيا الحيوية: مصادر المياه والحياة النباتية والطبيعية، وأخيراً مكونات الموارد المعدنية للدولة.

أن تشابك وترابط هذه العناصر معاً تعطي للإنسان حدودا يمارس خلالها انشطته الاقتصادية في كل منطقة على حدة. ولكن من بين هذه العناصر يبرز واحد او أكثر لكي يعطي للإقليم صفاته الأساسية مثل تربة اوكرانيا الخصبة او بترول دول الخليج العربي وبرغم ذلك فإن هذه الصفات لا تظهر من تلقاء نفسها بل لا بد من مستوى حضاري معين يسمح للناس ان يحسنوا استغلال هذه المصادر . ومثل ذلك المواقع الطبيعية للدول او تجميع مصادر القوى والطاقة الى آخر ذك من الظروف التي تظهر أولاً تظهر بالارتباط بالمستوى الحضاري والتكنيكي للشعوب.

١- الموقع:

يكون الموقع اهم عنصر طبيعي في مكونات الدولة الطبيعية. وتتناول المواقع عدة عناصر منها الموقع الفلكي . والى الآن لم تظهر في العروض القطبية او الآستوائية دولا ذات أهمية سياسية إقليمية كبيرة. فهل يرتبط ذلك

بعنصر المناخ الردئ بمعانيه المختلفة؟ لا شك ان في ذلك بعض الحقيقة، لكن هناك عناصر أخرى من أهمها ابتعاد هذه النطاقات عن خطوط الحركة الدائمة الموغلة في القدم – أي أنها كانت في عزلة شبه تامة عن التيارات التجارية والاجتماعية والحضارية.

هناك ايضاً ارتباط من نوع آخر بالمواقع. فمعظم مصادر الفحم العالمية تقع بين درجتي العرض ٤٠، ٦٠ شمالاً. أي العروض المعتدلة. ولهذا ارتباط النمو الصناعي خلال القرن لماضي والحالي بدول معينة تقع في هذه العروض. لكن تعدد مصادر البترول في نطاقات أكثر جنوبية من نطاق الفحم (الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وفنزويلا واندونيسيا وبعض مناطق أفريقيا المدارية) يمكن ان يؤدي الى أساس جديد لنمو صناعي غير الفحم في دول العروض المعتدلة. لكن تصنيع البترول واستهلاكه حتى الآن ما زال – بطبيعة شركات إنتاجه – حكرا على الدول الصناعية التقليدية. ومثل هذا ينطبق على الموارد الذرية التي يوجد قدر كبير منها في المناطق المدارية الأفريقية. فلو انتقلت الصناعة الى الطاقة الذرية يمكن ان يصبح للدول المدارية شأن غير شأنها الحالي. لولا الاحتكارات الصناعية التقليدية ايضاً.

ولعلاقة اليابس والماء دورٌ آخر في أهمية الموقع. فالمناطق الجزرية والساحلية عامة أقل قارية في مناخاتها من المناطق الداخلية، وأكثر قربا من مواصلات بحرية سهلة ورخيصة مما يشجع النشاط البحري التجاري. وحالة بريطانيا فريدة في ذلك المجال. لكن يكفي ان تعرف ان الكثير من دول العالم كانت تتصارع وتحارب من اجل الحصول على واجهة بحرية حتى ولو كانت ضيقة مثل بولندا (١٩١٨– ١٩٣٩) او الأردن أو زائير. فالواجهة البحرية هي

في حد ذاتها جائزة تعطي استثمار مستمراً لاقتصاديات الدولة مواصلات قومية حتى ساحل البحر، وربما مواصلات بحرية قومية أيضاً. وكلاهما يقلل كثيراً نفقات النقل ورسوم الجمارك او الأرصفة البحرية في حالة الدول غير البحرية.

وإذا كان ذلك هو الحكم العام، فإن الواجهة البحرية كانت غالباً نقطة الانطلاق للدول الاستعمارية في اتجاهات معينة: مثال ذلك واجهة فرنسا البحرية على البحر المتوسط أدت الى انطلاقها تجاه شمال أفريقيا واهتمامات متزايدة بقناة السويس وحوض البحر المتوسط عامة.

لكن الواجهات البحرية تختلف اختلافاً كبيراً في قيمة كل منها. فهناك واجهات بحرية ميتة أو شبه ميته مثل سواحل روسيا او كندا او الاسكا على المحيط الشمالي. وذلك بالمقارنة بواجهات بحرية ضيقة لهذه الدول على بحار مفتوحة الحركة: البلطيق والأسود وبحر اليابان بالنسبة للإتحاد السوفيتي، او مصب سانت لورنس وقناة الهدسن – موهوك وساحل كولمبيا البريطانية بالنسبة لكندا.

وعلى هذا فإن الواجهة البحرية لا تقاس أهميتها بطولها بل بقيمتها المتعددة الأطراف (بحار خالية من الجليد، وتطل على مسارات الحركة البحرية التجارية العالمية) . ومن ثم فإن معظم واجهات الدول على المحيط الاطلنطي أهم من واجهاتها البحرية الأخرى أن وجدت: مثال ذلك واجهة المكسيك والولايات المتحدة على الاطلنطي أهم من تلك على الباسيفيكي.

ويقودنا هذا الى تعدد الواجهات البحرية فهناك دول عظيمة الإنتاج لكنها تعاني من امتلاكها لواجهة واحدة، مثل ألمانية الغربية بواجهتها على بحر الشمال

(ولكن لحظها الحسن فإن هذه الواجهة تطل على مسارات الحركة الثقيلة في المحيط الاطلني) بينما تتمتع فرنسا بثلاث واجهات بحرية مهمة: بحر المانش وخليج بسكي والبحر المتوسط. وفيما بين هذه الواجهات الثلاث نجد الواجهة الشمالية أهم لعلاقاتها بعالم الصناعة الأورو أمريكي، تلهيا الواجهة المطلة على البحر المتوسط التي تشرف على حركة بحرية كثيفة في ذلك البحر وقناة السويس، وكلها تجلب خامات صناعية ممتازة منذ القدم زاد عليها البترول الخام.

وتبلغ قيمة الواجهات البحرية أقصاها حينما تصبح مهمة لعدد من الدول المجاورة بالإضافة الى أهميتها بالنسبة للدولة ومصالحها القومية. مثال ذلك الواجهة البحرية اللبنانية التي تخدم لبنان وتجارة الترانزيت لعدد آخر من الدول العربية، او واجهة تنزانيا البحرية بالنسبة لمصالح زامبيا وزائيري الاقتصادية.

ومن بين عناصر الموقع ايضاً المميزات ذات الحدّين بالنسبة للدول الجزرية القريبة من الدول القارية الكبيرة. مثال ذلك اليابان وبريطانيا، فكلاهما يتميز بان موقعه الجزري يعطيه متعة استراتيجية ويجعلهما قادرين على التأثير السياسي والاقتصادي والعسكري في أوقات مختلفة على دول القارة المواجهة. لكن هذه الميزة تنعكس في حالة نمو الدول القارية الكبيرة وتصبح قادرة على مواجهة هذه الدول الجزرية بالحرب والاحتلال.

وأخيراً فإن من أهم ما يحتويه الموقع هو علاقات الدول المكانية المتجاورة عبر خطوط الحدود. والحدود تثير دائماً مشكلات الدفاع والهجوم والمراكز الاستراتيجية والعلاقات الاقتصادية بين الجيران. ومن ثم الحدود دائمة التغيير مع نمو سيادة الدولة أو ضياعها. وخير مثال لذلك هو دولة بولندا التي

تغيرت حدودها كثيراً خلال القرون الماضية والقرن الحالي، وكذلك حدود فرنسا وألمانية المشتركة، وحدود يوغسلافيا وإيطاليا والنمسا.

٢- حجم الدولة:

لا شك ان لمساحة الدولة ميزة استراتيجية خاصة وميزات اقتصادية عامة فالدولة ذات المساحة الكبيرة تتصف بمميزات عسكرية تجعل غزوها واحتلالها صعب للغاية. مثال ذلك الصين التي حاربت العسكرية اليابانية خلال الثلاثينات ونجحت بفعل عوامل مختلفة أهمها مساحتها الكبيرة وخير الأمثلة يعطيه لنا الاتحاد السوفيتي ووقوفه صامداً – بمساحته وحجمه الكبير– أمام غزوة نابليون وغزوة هتلر.

كذلك تتميز المساحة الكبيرة بإمكانيات تجنب الضغط السكاني وتوزعه على أقاليم متعددة إذا ما كانت الظروف الإنتاجية تسمح بذلك مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي واستراليا بينما مساحة مصر الكبيرة معظمها (٩٦%) معاد للسكن بدرجات كبيرة.

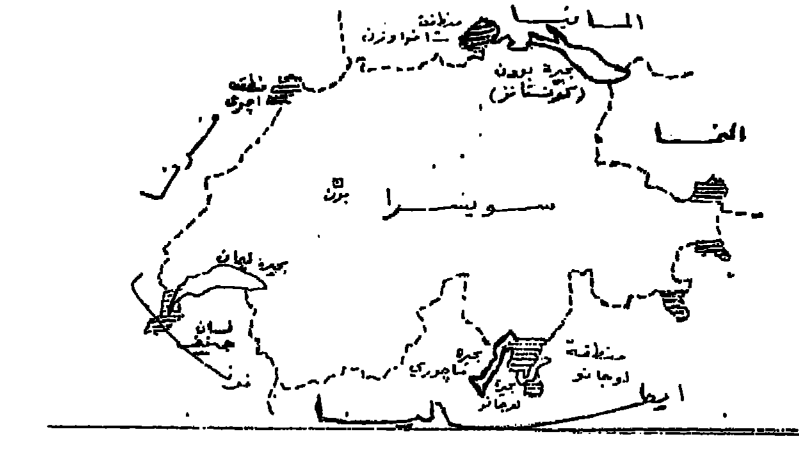
وأخيراً فإن من مميزات المساحات الكبيرة إمكانية مستقبلية في الحصول على موارد زراعية او رعوية، او مصادر للثروة المعدنية مما يشجع على نمو النظام الاقتصادي وقوته.

وفي مقابل هذه المميزات فإن الحجم الكبير قد يعاكس الإشراف المباشر لسيادة الدولة في كل إجزائها الواسعة، ويتطلب لذلك خطوط اتصال كثيرة سريعة لتمكن السلطة السياسية من القبض على ناصية الأمور. ومن الأمثلة عل ذلك ضعف النفوذ الصيني على أقاليمها الخارجية البعيدة مثل منغولياً والتركستان الصينية (سنكيانج).

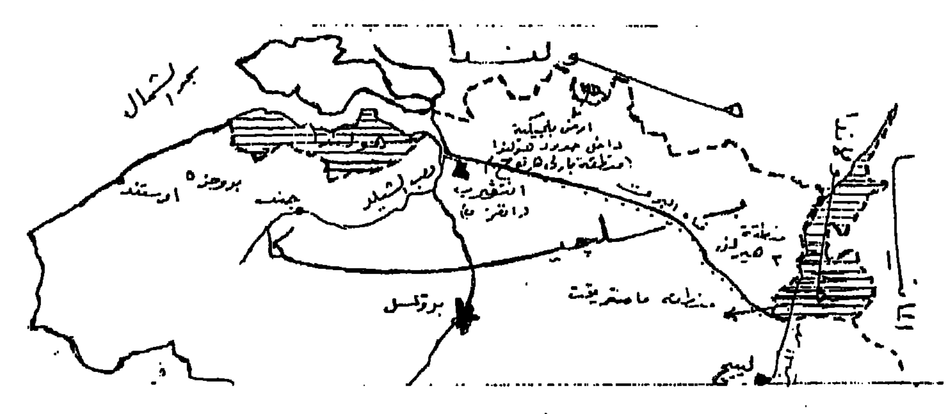
٣- شكل الدولة

يؤثر شكل الدولة على استراتيجيتها العسكرية سواء للمحافظة على الإدارة القومية او الدفاع العسكري. فالدولة التي تمتد في صورة شريحة طويلة مثل شيلي او النرويج تجد صعوبة في الدفاع عن نفسها لطول المسافات التي تقطعها القوات من مراكز التجمع العسكري. وكذلك تجد الدولة التي تمتد أجزاء منها في صورة شرائح طولية داخل الدول المجاورة صعوبة في الدفاع عن هذا الجزء المنعزل. مثال ذلك لسان كابريفي التابع لناميبيا والذي يقع بين انجولا البرتغالية وزامبيا في الشمال وبين روديسيا وبوتسوانا في الجنوب . وبالمثل نجد اللسان الافغاني الشمالي الشرقي الممتد بين الاتحاد السوفيتي في الشمال وباكستان وكشمير في الجنوب وسنكيانج الصينية في الشرق. وبصورة مماثلة نجد السنة متبادلة لكل من سويسرا وألمانية، وسويسرا وإيطاليا، واللسان السويسري في مقاطعة جنيف الذي يتوغل داخل الأراضي الفرنسية، ومنطقة شافها وزن السويسرية التي تمتد داخل الحدود الألمانية. (انظر مجموعة الخرائط ، ٧،٨،٩،١٠)

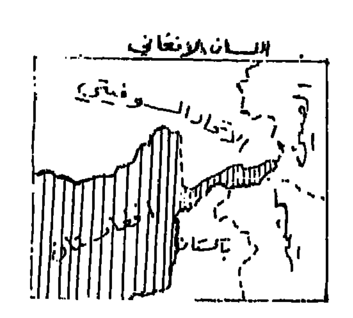
ولا شك ان التداخل في حدود الدول – سواء كان في صورة السنة او مناطق معزولة داخل الحدود الأخرى، تؤدي الى ضعف عام في الدولة في تلك المناطق الهامشية ما لم يكون السلام مستتباً بحيث تصبح هذه المناطق صعبة الاتصال ذات اتصالات سهلة مع الوطن الأم عبر أراضى الدولة المجاورة ويتم ذلك باتفاق معين بين الدولتين خاص بتلك المناطق، او تتفق عدة دول على تأمين هذه الامتدادات الاصبعية. وبدون شك فإن أحسن أشكال الدولة هو ذلك الذي يتجنب الشرائح الطولية والحدود المتداخلة.

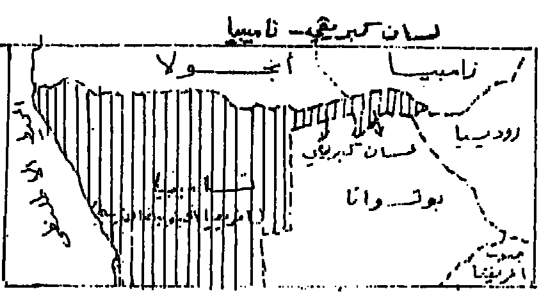


خـــارطـــة رقـــم (٧)



خـــارطـــة رقـــم (٨)





خـــارطـــة رقـــم (٩) أنماط من الحدود المتداخلة خـــارطـــة رقـــم (١٠)

٢- المقومات البشرية

حينما تكلم ارسطو عن الإنسان على أنه حيوان سياسي فإنه قد فتح كشفاً هاماً في الجغرافيا البشرية إذ تعرفنا ان أي مجتمع بدائي يمتلك عناصر من التنظيم الاجتماعي اعقد عادة من أشكال الاقتصاد والحياة البسيطة التي يحياها.

منذ العصور الحجرية عاش الإنسان في عشائر انتظم فيها المجتمع المحلي، ترتبط كلها باصل واحد حقيقي او اسطوري. في بعض الأحيان يصبح المؤسس نصف إلّه قوى وطاقات تعمل من أجل اسعاد النسل في حدود وإطار التنظيم المتعارف عليه: وهو تنظيم اجتماعي اقتصادي سياسي ديني معاً. وهذه التنظيمات لم تعش في عزلة دائماً. فعند الرعاة تنظم العشائر في وحدات أعلى واكبر هي القبائل. وبعض القبائل كانت قد تطعمت بالنظام الإقطاعي، وبعضها تعيش بالحكم الاوتوقراطي المتوارث، وبعضها تعيش على أنظمة حكم استشارية (ديموقراطية). وعند الزراع كان مجتمع القرية هي أول شكل تنظيمي للدولة، يحكمه زعيم او مجلس رؤساء العائلات.

١- عدد السكان كأساس للدولة:

الدولة تمثل شكلاً أكثر تعقيداً من مثل هذا التنظيم. وفي خلال التاريخ زاد عدد الدول باستمرار لأن طموح كل الشعوب كان يؤدي بهم الى تكوين دولة عندما يصلوا الى مرحلة معينة من المدينة والقوة. فكلما كان عدد أفراد التجمع كبيراً ونشاطهم متنوع تشتد الحاجة إلى تنظيم مركب. وكان الاعتقاد ان العدد الصغير لمجتمع ما يؤدي الى تنظيم سياسي بسيط يعتمد على النسب والقرابة

كالعشيرة والقبيلة، بينما يؤدي التكوين الكبير لمجتمع متجانس سلاليا أو لغوياً او دينياً الى تكوين دولة حينما يصل هذا المجتمع الى درجة معينة من المدينة العليا. لكن الواقع يشير الى أن وجود الدولة لا يعتمد على مثل هذه العوامل. فالنرويج تكون دولة برغم ان سكانها نصف التجمع السكاني لباريس . وفي نفس الوقت لم يكون الاوكرانيون او المانشوريون دولا برغم ان تعداد كل منهما يزيد عن ٤٠ مليونا إلا بعد تفكك الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٩٠.

٢- السلالة كأساس للدولة:

الوحدة الاثنية قد تشجع على ولادة دولة، مثل المجر او بلغاريا او تايلاند لكن دولاً عديدة تتكون من عدة شعوب وسلاسلات مثل الولايات المتحدة والبرازيل حيث نجد كافة سلالات العالم متمثلة في مواطني هاتين الدولتين.

كذلك لوحظ أن الدولة حينما تنشأ وتنمو تحاول ان توجد لنفسها طابعاً أثنيا اوسلالياً بصورة مصطنعة، واكبر دليل هو ألمانية النازية التي ادعت لنفسها سلالة آريه نقية بعد أن كانت ألمانية قد توحدت في دولة مركزية واحدة منذ ١٨٧٠ ثم تفككت بعد الحرب العالمية الثانية وعادت إلى الوحدة ثانية سنة ١٩٩١م.

٣- اللغة كأساس للدولة:

وحدة اللغة ليست بالضرورة حافزاً لتكوين دولة. بل أنه من النادر ان نجد لغة واحدة داخل أي دولة مع استثناء السويد او النرويج او اسبانيا والبرتغال. وعلى عكسها نجد القطالونية تنتشر فى إقليم البرانس الشرقي الفرنسي توجد في

وادي داوستا Val D'Aosta في الألب الايطالية، الفلمنك توجد في شمال فرنسا مروراً بالحدود البلجيكية. وفي أوروبا دول منذ القدم تتكلم لغتين او ثلاثة: بلجيكا فلمنك ؟ والون سويسرا : الماني فرنسي ايطالي رومانش.

منذ البداية يبدو ايضاً ان اللغة لم تكن عنصراً اساسياً في تكوين الدولة، بل على العكس نجد ان تدعيم سلطان الدولة قد أدى الى توسيع نطاق لغة الحكام أو إقليم الحكم المركزي على حساب بقية اللغات فانتشار الإغريقية في شرق البحر المتوسط لم يتم الا بعد تكوين دولة الأسكندر وما تبعها من دول إغريقية كالبطلمية في مصر. وكذلك تبعتا اللاتينية انتشار نفوذ وسيطرة روما على بقية إيطاليا التي كانت تتكون من عدد من اللغات الهند وأوربية وغيرها من غير الهند وأوربية. وفي الحرب البولونية لم تكن كل قوات روما التي حاربت هانيبال تتكلم اللاتينية.

كذلك نلاحظ تغيراً في اللغة مرتبطاً بتغيرات الحدود. فالفرنسية انتشرت شرقاً حينما امتد نفوذ الدولة الى الشرق. ففي نهاية العهد الكارولينى (ق. ٥-١٠ شرلمان ق ٩) كانت الحدود الألمانية والفرنسية غرب نهر الميز وجنوب السوم، وفي ق ١٦ وما بعد حرب الثلاثين عاماً تقدمت الفرنسية بقوة صوب الشرق والشمال الشرقي في إتجاه اللورين والالزاس والفلاندرز. وفي العهد الكارلوني أيضاً كانت الحدود الألمانية في الشرق تقف عند نهر الألب والسالي ثم زحفت بعد عدة قرون شرقا الى الاودر على حساب السلافية. بعبارة أخرى كان هناك زحف سياسي لغوي من الغرب الى الشرق في السهل الأوروبي على عكس الزحف الشرقي – غربي البربري خلال نهاية العصر الروماني.

وقد فرضت دولة الصين لغتها ونفوذها وحضارتها على سلالات مختلفة، وبنفس الطريقة انتشرت العربية في مساحات شاسعة من آسيا وأفريقيا. وفي مصر تغيرت اللغة عدة مرات حسب نوع الحكم فمنذ انتهاء الحكم الفرعوني تحولت الى الإغريقية ثم القبطية في العهد الروماني ثم العربية . وفي العادة لا تمتد مساحة اللغة بنفس السرعة التي تمتد بها مساحة الدولة. والدول الكبرى القديمة كانت تتكون اصلاً من عدة شعوب ولغات كالإمبراطوريةالفارسية او الرومانية او العربية وغالباً ما يستخدم المهزومين لغة الحكام، ولكن في أحيان نجد العكس وتنفصل الأمم عن بعضها غالباً باستخدام لغات منفصلة، خاصة إذا كتبت هذه اللغة. وكثيراً ما يتسبب الوطنيون او الكتاب والأدباء في فصل لغة عن أخرى او تحويل لهجة عامية الى لغة قومية مثل الايطالية التي نشأت كلغة كتابة بعد جهود عدد من الأدباء أهمهم الشاعر المشهور دانتي الليجيري.

٤- الدين كأساس للدولة:

لم يكن الدين ايضاً عاملاً موحداً لنشأه الدولة، فالدولة العثمانية كانت تمثل الخلافة الإسلامية لكنها كانت تحكم مسيحين ويهود. ولا شك ان بعض الدول حاولت ان تجعل الوحدة الدينية سائدة داخل حدودها كنوع من دعم السلطة لكن ذلك لم يكن تاماً ولا ناجحاً. ففي العصور الوسطي حاولت بعض دول أوروبا ان تكون موحدة دينياً أمام موجة الإصلاح الديني وظهور البروتستانية لكن كان على الدول في النهاية أن تتقبل وجود عدة أديان ومذاهب كما هو الحال في سويسرا.

وخلاصة القول أن الامبراطوريات التاريخية الكبرى: الرومانية – العثمانية – العربية – النمسا والمجر كانت تضم داخل حدودها تجمعات مختلفة سلالية ولغوية ودينية.

أين تنشأ نواة الدولة جغرافياً

بعض الدول لا تنشأة في الأصل في مناطق جغرافية محددة فبعض المناطق تصبح مهداً لدولة تقوم بالتوسع فيما بعد في الحوار . بعض أشباه الجزر كانت ايضاً مهيأة لقيام الدول، خاصة إذا كانت محمية بالجبال التي تعزلها عن الخارج: اسبانيا إيطاليا الهند. في أحيان قوى الإنسان صناعياً الحواجز المانعة باسوار من الحجر أو الطين المجفف. كذلك أقدم دول العالم قامت في وديان محمية مع مجاري او مجري نهري دائم: مصر – العراق – السند – الصين في هونان وشنسي . كلها نشأت في مناطق جافة او تحيط بها الصحاري على ضفاف النيل – الفرات – السند – هوانجهو.

ومع ذلك فليس مجرد وجود الحواجز المانعة مؤديا من تلقائه الى نشأة الدولة فلم تنشأ دولة في المناطق القطبية او التاييجا. فالعزلة الشديدة وقلة السكان وتبعثرهم ومرحلة الاقتصاد المتخلفة لم تؤد الى نشأة مثل هذه الدول الشمالية. وعلى عكس ذلك نجد مناطق محدودة قد شاركت فيها اكثر من دولة. جزيرة هسبانيولا تضم جمهوريتي هايتي والدومنيكان. وايرلندا ليست كلها دولة واحدة واسكندنافياً تضم السويد والنرويج وايبريا تضم اسبانيا والبرتغال مقابل ذلك تمتد ايطاليا بعد شبه الجزيرة لتحتل سهل لمبارديا الغني وتصل الى الألب وهو جزء

من وسط أوروبا طبيعياً وحضارياً ولهذا فالدولة لا تحتاج الى سلالة او لغة أو دين واحد لنشأتها وبالمثل لا تحتاج الى وحده إقليم واحد. فكثير من الأمم تنشأ وتنمو على حدود المدنيات المختلفة حيث نجد موارد اقتصادية مختلفة عن بعضها ومكملة لبناء الدولة. نطاقات الاحتكاك توجد بين سكان السهول والجبال، او الزراع والبدو، أو بين مجتمعات التجارة على ضفاف الأنهار او شواطئ البحار وسكان المناطق الداخلية، أو بين سكان الغابات وسكان الاستبس والسفانا، او بين رعاة السفوح العليا وزراع الوديان السفلي.

يقول بلوتارخ ان دولة اثينا نشات بعد الاضطرابات في ٦١٢ق. م نتيجة لتفاهم سياسي اجتماعي وبالارتباط بالتقسيم الجغرافي لإقليم اتيكا Attica وقد ادي هذا الى تجمع رعاة السفوح العليا (فقراء يرغبون في انشاء حكم ديموقراطي) مع الزراعيين في السهول (الذين يضمون معظم الاسر الغنية ويميلون الى حكم او ليجاركي) مع بحارة الساحل وسماكي وتجار كانوا يريدون ويسعون لتحقيق نوع من الحكم الوسط بين الطرفين وان كانوا اميل الى تأييد نمط حكم ديموقراطي . والسؤال كان: كيف يمكن ربط السكان الذين ينتمون الى ثلاث مناطق جغرافية ربطاً سياسياً برغم تفرقهم في تركيبهم السياسي الأصلي؟ بعض الدول كروسيا والصين نشأت عند مناطق التقاء الزراع ورعاة الحيوان. عاصمة الصين ومركزها السياسي كان دائماً قرب حافة الاستبس والزراعة. وذلك لكي يواجه الحكام برابرة الغرب والشمال ويحمون الزراع في الجنوب والتجار. وكانت العاصمة أما Si- Ngan أو Lo- Yang او بكين. وفي هذا النطاق الحيوي بنى السور العظيم بين ٢١٤ – ٢٠٤ ق. م.

دول أخرى قامت عند التقاء طرق التجارة التي تأتي بمـــوارد ومصـــادر مختلفة في آسيا نشأت امبراطورية المغول في ق.١٢٠ على طريق القوافـــل الـــذي يربط الصين وأوربا اما عن الطريق المرتفع الذي يخترق بوابـــه زونجاريـــا، او بحذاء طريق القوافل من بكين الى اورجـــا – شـــينا – اركوتســـك. هنـــا نشـــأت امبراطورية جنكيز خان ثم توسعت شرقاً الى الصين وغرباً الى أوروبا. عاصمتـــه كاركوم على المجري الاعلي لنهر Orkhon أصبحت مركزاً سياسياً هاماً فـــي ق. ١٣.

في أوربا ق. ١٥ نشأت دولة برجانديا على طول الطريق العـــابر علـــى وادي الساؤون عند تقاطع طرق المتوسط والفلاندرز والمانش وجنوب ألمانية.

كلما استطاعت الدولة ان تتكامل وتضم نشاطات اقتصادية مختلفـــة فـــإن احتمال بقائها فترة زمنية كبيرة هو احتمال كبير. فالدولة التي ترتبط بنشاط واحـــد تمر بمخاطر الضعف والتمزق. ويمكننا ملاحظة ان الامبراطوريات التي اقامتـــها الرعاية لم تعمر طويلاً كما هو الحال بالنسبة لامبراطوريـــة الزراعيـــة. فقبـــائل الرعاة الذين يجبرون على التنقل من مراعي الى اخـــرى موســـمياً لا يمكـــن ان يرتبطوا بالأرض أو يربطوا أهمية خاصة لحدود إقليم كما يفعل الـــزراع وكمـــا يرتبطون بالأرض. ولهذا فالرعاة كان ينقصـــهم فكـــرة الأرض – وهـــي حجـــر الزاوية في مفهوم الدولة. ولهذا فامبراطوريات الرعاة كانت عبارة عـــن دول ذات حدود متغيرة متذبذبة دائماً في نزاع ولا تقوم الا باستمرار وجود قوة عســـكرية. بينما عاشت الدول المستقرة برغم هزائم عنيفة منيت بها ، وعانت اقتطاع بعـــض

اراضيها دون ان تفقد شخصيتها وكيانها. في حين كان يكفي لكي تتـهدم ممـالك الرعاة وامبراطورياتهم بضعة هزائم حاسمة.

وصحيح أن الزراعة هي رمز الاتحاد بين الإنسان والأرض، وبذلك فهي عنصر قوى في بناء الدولة، الا ان ذلك لا ينطبق على كافة أنواع الزراعة. فالزراعة المدارية الواسعة التي لا تأخذ في الحسبان عمل مدخرات من الحبوب والغذاء وتترك الإنسان تحت رحمة المجاعات ليست عاملاً مساعداً لبناء الدولة لأن الدولة يجب أن تنظم أشكال الإنتاج.

تنظيم الدولة:

نلاحظ عنصرين في الدولة

(١) تجمع من الناس من مختلف السلالات لكنهم جميعاً عند مرحلة حضارية معينة.

(٢) مساحة ما من الأرض أيا كانت أشكالها التضاريسية.

والمجموعة الإنسانية هي المسؤلة عن تكوين الدولة التي تعتمد على القدرات التنظيمية للمجتمع. ويقول بيربيلو أن الأوربين كجماعة نشطة وعاملة ومجدة قد أقامت في استراليا وجنوب أفريقيا دولاً بينما السكان الأصليين كانوا غير قادرين على ذلك واكتفوا بحياة عشائرية بائسة! لكن أين دور المستوى التكنولوجي الذي يتناساه بيربيلو؟

ولا شك ان الأرض عنصرٌ اساسي في تكوين الدولة، فلم توجد دولة متكونة من مجموعة من الناس دون ارض فقط. مثلاً الغجر يعيشون متفرقين

محافظين على تقاليدهم ولغتهم وسلالتهم وديانتهم. اليهود كذلك قبل وعد بلفور لم يكونوا دولة.

وتجد الدولة في العاصمة تعبير عن جهودها للتوحيد – وكذلك في مد خطوط المواصلات وتثبيت حدود لها والدفاع عنها. وعلى عكس ما نظن فليس اول واجبات الدولة ان تضع لنفسها حدوداً ومساحة معينة، بل أن هذا يحدث دائماً فيما بعد خلق الأمة. فالحدود ليست مماثلة لحدود ملكية زراعية . بعض الجغرافيين وصفوها بإنها نظام الهامش Peripheric Systems تقوم بدور الحدود لكن لها وظائف استراتيجية وارتباطية بغيرها من الدول بواسطة التبادل بين الناس والسلع.

العاصمة:

ان اختيار العاصمة يعكس غالباً التفكير السياسي وراء عمل الدولة لأن وظيفة العاصمة تأمين العمل القومي بسهولة ويسر، في الدولة ذات المساحة المتمركزة نجد العاصمة غالباً تحتل مركزاً متوسطاً مثل موسكو براج بودابست وارسو بوجوتا، أو في الماضي شتوتجارت وهانوفرت بالنسبة لدولتي فيرتمبورج وهاتوفر وبرلين بالنسبة لبروسيا القديمة. وقد اختار فيليب الثاني مدريد عاصمة له لأنها في مركز وسط هندسى بالنسبة لايبريا، وكانت العاصمة قبل ذلك توليد . كذلك كانت واشنطن في الماضي في مركز الولايات الـ ١٣ سنة ١٧٩٠ بينما هي اليوم بعيدة جداً من هذا المركز. وفي دولة ساحلية نجد العاصمة تحتل مكاناً مركزيا سهل الاتصال بالبحر: ليشبونه روما – اثينا – ليما – سنتياجو – سدني كانبرا.

الموقع الغريب للعاصمة يمكن ان يفسر بتحيز الإقليم الذي كـــون بــذور الدولة. حينما تمتد مساحة الدولة فوق مساحات مختلفة من المناخ والاقتصاد فــإن الحكومة تختار العاصمة في احسن الأقاليم. ولهذا نجد كل عواصــم أقــاليم كنــدا توجد في الجنوب من كيبك حتى فانكوفر. وموقع هلسنكي وســتوكهولم واوســلو وادنبره يفسره غنى الإقليم المحدود الذي تقع فيه العاصمة، كانت عواصم ايــران دائماً في أحسن مناطق الرى : سوسه برسيوبوليس(قرب شيراز) - طــهران، عواصم كبرلين وفيينا وبكين تقع قرب الحدود كانت في الأصل قلاع يعيش فيــها الحاكم قرب أماكن الخطر (السلاف بالنسبة لــبرلين ، الاتــراك لفينــا المغــول والمانشو بالنسبة لبكين).

والفكر السياسي وراء صنع بكين ينعكس في الخطة المنتظمــة للمدينــة وارتفاع اسوارها القديمة وتقسيم المدينة الى ثلاثة مدن كل منها تحميها قلعة وتقـدم العواصم الموانيء نموذجا آخر عكس الموقع المركزي ويوضح أهميــة الملاحــة البحرية في اقتصاديات الدول: لندن، لشبونه، اوسلو ، بيوتس، ايرس.

يتغير موضع العاصمة بتغير الظروف السياسية والاقتصادية. نقلت ايــران العاصمة من أصفهان الى طهران، والمغرب من مراكش الى فــاس ثــم الربــاط اثيوبيا من انكوبر الى انتوتو الى اديس ابابا والأخير ثبتت بعد بنــاء خــط حديــد جيبوتي. في الماضي كان نقل العاصمة يعكس إعادة التوازن في الدولــة وتغــير مركز الثقل. في روسيا كانت العواصم كييف، سوزدال، فلاديمير موسكو – ســان بيترسبورج – موسكو ، والسويد ابالا سيجتونا وستكهولم ،والنرويج تروند هــايم، كونجهالي Kongehalle واسلو .

نمو أو تقلص المساحة عادة يؤدي الى تغير العاصمة. انتقلـــت عاصمـــة اسبانيا من يورجوس الى فالدوليد، توليد وثم مدريد. في مصر نمت العواصم فـــي الشمال الشرقي مع نمو تجاره المتوسط وانتقل المركز من ممفيس الى بوباســـتس. وسايس بعد غزو الصين نقل قبلاى خان العاصمة من كراكورم الـــى خامبـــاليك Khambalik (بكين) في قلب المنطقة التي غزاها.

مع تقلص الدولة او اتساعها تتغير العاصمة: الإتراك غيروا من قونيا الـــى بروسه الى ادرنه ثم اسطنبول ثم انقره. في أحيان يكون نقل العاصمة راجع الـــى أسباب اقتصادية اكثر منها سياسية . مثلاً نمو الاهتمامات البحرية في اليابـــان أدى الى أنتقال العاصمة من Kamakura الى كيوتو ثم طوكيو ١٨٦٨ وكذلك حلـــت اوسلو محل تروند هايم على اثر اهتمامات النرويج بالبلطيق وتجارة عبر البلطـــي. وغير بطرس الأكبر العاصمة من موسكو الى سان بيترسبورج ليجعـــل الدولـــة ذات اهتمامات بحرية، وبعد ثورة ١٩١٧ أعـــاد الســـوفيت اهتماماتـــهم بالكتلـــة الأرضية الشاسعة ونقلت العاصمة من لنجراد الى موسكو وهي أقـــرب واســـهل اتصالا ببقية الاتحاد.

ونرى اليوم دول تجعل عواصمها مزدوجة أو تبحث عن مواقع جديـــدة فمنذ نهاية الحرب استمر ملوك هولندا في لاهاي وانتقلت الحكومة الى امســـتردام وهي العاصمة القديمة. وحينما نمت مقاطعات ساوباولو وميناس جرايس وبـــدأت الاستغلال المنتظم لأمازونيا أصبحت ريو بعيدة وهامشية وبنيت عاصمـــة جديـــدة برازيليا افتتحت ١٩٦٠. نقل العواصم هورمز لعدم الاستقرار ويشير الى الحاجـــة الى التعديل السياسي أو تغيرات أساسية في اقتصاديات الدولة.

المواصلات:

عامل موحد للدولة ومشجع على التكامل بين السكان وشعورهم بالانتماء والقومية الى جانب الفوائد الاقتصادية والاستراتيجية. مصر وطريق النيل – الرومان والطرق الرومانية أعطت ترابط للدولة المترامية أربعة قرون. الفرس أقاموا طرقاً من سوسه الى ساردس وربط بذلك أطراف الإمبراطورية في الاناضول وايجه. الانكا ربطوا كوزكو العاصمة بالأطراف الشمالية والجنوبية للدولة وفتحوا الروابط بين الهضاب العالية وسهول الساحل. فرنسا نمت بواسطة الطرق المنبعثة من باريس الى أطراف الدولة.

في الوقت الحديث كان للطريق أهمية ايضا. كولمبيا البريطانية لم توافق على دخول الاتحاد الكندي الا بشرط ربطها بطريق الى اوتاوا. كاليفورنيا لم ينجح ضمها الى الولايات المتحدة الا بعد انشاء سكة حديد " وسترن يونيون"(اسم الشركة والخط ذو دلالة على الهدف الاتحادي الغربي).

في آسيا أنشأت خطوط عابرة رئيسية:سيبريا ، القوقاز، قزوين، ارال كان لها دور استراتيجي اقتصادي لتدعيم النفوذ الروسي وتكوين الاتحاد السوفيتي وتدعيم جمهورية روسيا الاشتراكية. في المستعمرات ايضاً سعت الدول الى تدعيم وحدة داخلية للمستعمرة بواسطة الطرق الحديدية التي خلقت مشاعر جديدة لدى السكان المختلفين بالانتماء الى وحدة سياسية معينة ساعدت بدون شك على نشوء الدول الجديدة وانفصالها عن بعضها رغم انها تكون أجزاء من وحدات اقتصادية اوسع واعم كما هو الحال في معظم دول أفريقيا الجديدة.

مهام التنظيم الداخلي للدولة:

والى جانب ذلك تهتم الجغرافية السياسية بدارسة مقدار مجهودات الدولة الداخلية من ناحية فرض نوع معين من الوحدة على الأقاليم التي تضمها حدودها بحيث تصل الى أقرب الصور من الوحدة الدينية الاجتماعية الثقافية السياسية الاقتصادية. كذلك تهتم بدراسة مجهودات الدولة الخارجية وهي العمل على ولاء سكان أقاليمها المختلفة لها وتجعل هذه الولاء يطغي على ما قد يشعر به سكان هذه الأقاليم احياناً من روح أقليمية ضيقة إذ نادراً ما تقتصر الدولة (الوحدة السياسية) على أقليم يسوده التجانس لذا يتطلب من الدولة بذل الجهود لانشاء وتوطيد أسس الوحدة الوطنية بين أقاليمها المختلفة. وكثيراً ما يقابلها في ذلك مشاكل قد تكون مشاكل طبيعية كوجود جبال او صحاري او تباعد أطرافها او مناطق خالية من السكان او مشاكل بشرية مثلاً كتعدد النواحي الاجتماعية الثقافية والتاريخية واللغوية والدينية. وتعتبر المشاكل الاقتصادية أبسط من بقية المشاكل الطبيعية او البشرية الأخرى.

واهم مشاكل تقابل الدولة هي الوحدة السياسية. فالدولة ليست منطقة ذات حدود سياسية اتخذت لها اسماً واحتلت لها مركزاً في مصاف الدول واعترف بها المجتمع الدولي فحسب، ولكنها وحدة تنشأ وتتبلور بفضل توافر قوى تعمل على توثيق العلاقات بين جهاتها المختلفة. وفي مقدمة هذه القوى فكرة الدولة او بسبب قيامها ومن هنا ذكر راتزل أنه يجب دراسة الفكرة الفريدة المتميزة التي تكمن وراء قيام او بقاء أي منطقة من الأرض عامرة بالسكان في صورة دولة.

وعلى الجغرافي ان يتتبع مدى تغلغل هذه الفكرة. فقد تشيع في جــزء أو عدة إجزاء من الدولة او تشمل جميع انحاء الدولة. فحين يشــعر ســكان منطقــة معينة بإن لهم قيم مشتركة في نواحي خاصة بهم ويرون أنه للمحافظة على هــذه القيم بل ونشرها يجب ان يتحدوا في شكل دولة متحدة ذات حدود سياسية تفصلــها عن جيرانها وتتحول الوحدة السياسية الى دولة قوية، وقــد تــؤدي الرغبــة فــي التخلص من الحكم الأجنبي الى انشاء دولة بظهور الــروح القوميــة. أو يحــدث العكس بحيث ان ظهور الدولة يسبق وجود الروح القومية بين ســكانها والمثــال على الحالة الأولى ايرلنده التي طالبت بإنشاء دولة خاصة بــها، وتمثــل الدولــة الأفريقية الجديدة في معظمها الحالة الثانية.

وقد تختفي الدولة ولكن تظل الروح القومية موجودة بعد اندثار الدولة كمــا حدث في بولندا. والواقع ان الروح القومية او الشعور بالوحدة قد لا يشــمل كــل أجزاء الدولة التي تعينها الحدود السياسية. وهكذا يمكن ان نتعرف على مقومــات القومية في منطقة ما او بمعنى اخر الأسباب التي أدت الى قيام الوحدة بين أجــزاء الدولة ثم ندرس مدى تغلغل هذه الروح القومية في أقاليم الدولة المختلفة فنميز بين حدود الدولة وحدود القومية او الشعب الذي يحس بالروح القومية فيــه. ويتصــل بهذا الموضوع محاولة البعض تتبع منطقة المركز او الوسط والدور الذي لعبتــه في الدولة لا في تكوينها وامتدادها فحسب بل ظهور وتأصل الروح القوميــة فــي جهاتها المختلفة. ولكن ليس من الضروري وجود هذه المنطقة المركزية فاحيانــاً تتقاسم هذه الوظيفية مراكز متعدده كما في الولايات المتحــدة او تكــون مركــزاً ضعيفاً كما في مدريد. ولا يعني ذلك عن ظهور روح الانفصال في المناطق التــي

لا تجتذبها هذه المناطق المركزية ومن ثم نلاحظ ان بعض الدول وحكومتها المركزية تقدر مدى التفاوت في مصالح أجزاء الدولة المختلفة فتعمل على الاعتراف في دستورها بنظم خاصة لكل منطقة حتى تتيح للدولة البقاء والاستقرار، مثل إقليم كويبك في كندا.

الفصل الثالث

حيـــاة الـــدول

مقدمة :

الدولة – مثل أي كائن عضوي يجب أن تنمو وتتغذى لكي تبقـــى. وفـ .. الماضي رأينا كيف أشترك النضوج والقوة باستمرار ضـــم الأراضـــي الجديـــد للدولة، وعلى العكس كيف يرتبط أو يلتقي فقدان القوة المادية و الروحية باقتطـــا ; الأراضي من مساحة الدولة. وفي عالمنا الحاضر أدت المواصلات الـــى اعتمـــا الدول على بعضها ومن النادر أن نرى دولة مكتفية بذاتها مهما كانت مســـاحتها ، ومن ثم نجد الميل عند الدول المتمدنيه أن تندمج في اتحادات أو ائتلافات سياســـية أو اقتصادية أو هما معا مع بعض فقدان للسيادة القومية، وخاصـــة فـــي مجـــال الجمارك.

النمو في المكان :

أن نمو الدولة سواء كانت سلمياً أو حربيا يعتمد على الوصول إلى هدفين (تصل اليهما مستقلين أو معا) وهما :

(١) أرض حرة خالية أو قليلة السكان قادرة على استيعاب هجرة الســـكان الزائدين.

(٢) طرق تجارة أو مصادر جوهرية لتدعيم المصادر القوميـــة ويمكـــن تحقيق هذين الطموحين بوسيلتين تؤديان إلى تركيبين سياسيين مختلفتين:

١-يمكن ضم الأراضي المجاورة إلى مالا نهاية - بمعنى أنه يمكن استمرار الضم لمساحات شاسعة قد تغطي قارة أو بعض قارة. ومثل ذلك الأمبراطوريات القارية القديمة وفي العصور الوسطى الفارسية الرومانية المغولية. وحديثا الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

٢-ايجاد مستعمرات عبر البحار أما بواسطة المستوطنين المهاجرين من الوطن الأم إلى الأراضي الخالية. وأما بإنشاء شكل من الحكم العسكري والتشريعي والاقتصادي يؤمن استقلال السكان في المستعمرات لتنمية اقتصاديات الدولة صاحبة المستعمرات، وبهذه الطريقة نشأت الامبراطوريات الاستعمارية الكبرى القديمة والحديثة : الأثينيين ، البرتغال، الاسبان والانجليز (الكومنولث حاليا) والفرنسيين(التجمع الفرنسي Communaute) على وجه العموم نجد أن الدول تنشأ من بدايات صغيرة. فمهد الإمبراطورية الاشورية كان نطاقا ضيقا بين الفرات وجبال زاجروس، ونمت امبراطورية بابل من مدينة بابل والرومانية من اقليم لاتيوم والصينية من واحدة خوتان (على رافد من تاريم في تركستان الشرقية) ويقارن O.Maull الدول الجديدة الولادة بالخلية الحية نواتها هي مراكز السكان المستقرين في الأراضي الزراعية، واعضائها الغابات والمراعي والجبال.

لا تزال القوانين التي تحكم تدهور الدول غير المعروفة برغم إمكانية تسجيلها تاريخيا. فالدولة الرومانية سجلت ذروتها في أول ق ٢م بضمها داشيا واطراف سوريا والعرب وارمينيا والعراق ثم بدأ تقطيع اوصالها في اسيا الصغرى ولم يمض قرنان حتى كانت الإمبراطورية قد انهارت تماما. فقبل هجوم البرابرة كان التحلل الداخلي قد بدأ بمدة طويلة. في حوالي ٢٣٥م تحت قيادة

الاباطرة العسكرين كانت الأقاليم تناضل للحصول على القوى السياسية، وهـددت الاطراف القلب. وهذا الاتجاه كان يقوى ويضعف، ولم يؤد تقسيم الإمبراطورية على يد Dioclet الى قلب أو عكس هذا الاتجاه. وفي ٣٩٥ اتخذت خطوة حاسمة للتجزئة بفصل الشرق الهليني من الغرب الروماني في الوقت الذي كان العدو يعبر الحدود من الشمال والشرق.

وبنفس الطريقة انهارت الإمبراطورية العربية بالتجزئة ابتداء من خسارة الاندلس ٧٥٥م والغرب ٧٩٠، وبقية المغرب ٨٠٠ ومصر وبرقة ٨٧٢- ٨٩١، كروستان والفرس ٩٣٤ الخ...

ومن واقع الملاحظة ان الدول التي تريد أن تبقى كان عليها ان تحصل على مركز هام على طرق التجارة، وان تقوى بذلك اقتصادياتها. معظم الدول حاولت أن تسيطر سياسيا على حقل التجارة وطرقها، وكثير من الدول خصصت جزءا كبيرا من نشاطها للوصول إلى منفذ على البحر.

إن من احد اسباب نمو الميديا Medes وفارس هو رغبة الفرس في التحكم في التجارة البحرية التي يحتكرها الاغريق على بحر ايجه. وعلى اثر تقسيم دولة شرلمان حاولت الدول الثلاث التي نجمت عن ذلك للوصول إلى منافذ بحرية.

وكذلك ناضلت بروسيا للوصول إلى واجهة بحرية: ففي منتصف القرن ١٧ حصل المنتخب الأكبر Grand Elector البروس على ميناء امدن على بحر الشمال، وفي خلال ق ١٨ حصل فردريك الأكبر لبروسيا على ميناء ستتن على مصب الأودر ،وعلى جزء من بومرانيا والاودر، وفي منتصف ق ١٩ ضمت بروسيا شلزفيج – هولشتين لتتحكم في مداخل البلطيق جنوبي الدانمرك، للحصول على قاعدة قوية على ركن بحر الشمال.

كذلك ظلت الإمبراطورية النمساوية المجرية تواصل جهودا مستمرة لاطالة واجهتها البحرية بضم البوسنة والهرسك (١٩٠٧) ومحاولة احتلال سالونيكا عن طريق ضم أو على الأقل تحويل الصرب ومقدونيا الى محمية لها. وهناك امثلة كثيرة اخرى: بولندا وبلغاريا في أوروبا وبوليفيا في أمريكا. ولكن من الأمثلة ذات الدلالة سعي روسيا المستمر للحصول على منفذ بحري مفتوح متناسب مع حجمها القاري الكبير : أولا زحزحة الاتراك والوصول إلى البحر الأسود، ثم الى البلطيق معترضين بذلك ادعاءات السويد وألمانيا وفنلندا، والى الشمال صوب اركانجل ثم مورمانسك وعلى حساب فنلندا، واخيرا الى الشرق الاقصى للحصول على النطاق الساحلي على بحر اليابان من الصين وبناء فلاديفوستك.

والوصول إلى منفذ بحري غالبا خطوة اخرى للتوسع. فالدولة القوية التي تطل على حوض بحري تسعى الى تقوية قبضتها على كل خط الساحل. وعلى هذا نجد دولة اثينا تمد نفوذها على معظم سواحل وجزر ايجه، واستولى الرومان على كل البحر المتوسط قبل أن يعبروا الالب شمالا إلى الراين والدانوب. وفي ق ١١ حكم ملوك الدانمرك معظم سواحل بحر الشمال ومد نفوذهم على البلطيق في ق ١٣. وفي منتصف ق ١٧ نجح ملوك السويد في طرد الدانمرك وتحويل البلطيق إلى بحيرة سويدية عمليا.

وتميل الدول القوية – اكثر من ذلك- الى النظر بعين التملك والحيازة الى البحار التي تعبرها اساطيلها وبحارتها. مثلا بيزنطة كانت تنظر الى بحر ايجه على انه ملكا لها في ق ١٢، وأطلق الرومان على البحر المتوسط اسم " بحرنا Mare Nostrum " ، وكان ملوك انجلترا من ق ١٦ يفضلون أن يسمى بحر

المانش أو القتال الانجليزي باسم " قناتنا" والمضيق الذي يصل المانش بالشمال لـه تسميتين الانجليزية مضيق ووفر، والفرنسية مضيق كاليه Pas de Colais وهـذا يرمز بدون شك إلى نظرة الحيازة التي لكل دولة على مياه غير أقليمية واسعة.

وهذه الإدعاءات ونظرات الحيازة قد أدت إلى منازعات دولية خطيرة مـن القرن ١٦ حتى الآن وذلك حينما بدأ البرتغال والاسبان محاولة احتكـار التجـارة البحرية. وعادة تبدأ السيادة على البحار من دول مطلة على بحـار شـبه مقفلـة كالمتوسط ثم تمتد إلى المحيطات المفتوحة وكانت الجزر تستخدم ايضـا كنقطـة بداية مثل قبرص للفينيقين والبطالمة، سالميس للاثينين، صقلية وكورسيكا وسردينا للرومان وايطاليا. (قبرص وكريت لمصر الفرعونية).

وعادة كانت الخطوة الحاسمة هي تأسيس السيادة على السـاحل المقـابل للدولة البحرية مثل ساحل آسيا الصغرى بالنسبة للاغريق وساحل فينيقيا بالنسـبة لمصر وسواحل غرب المتوسط بالنسبة لقرطاجة. وسواحل المتوسط الغربـي ثـم الشرق بالنسبة لروما.

وكانت الخطوة التالية هي انشاء مستعمرات علـى الشـواطيء الجديـدة، البرازيل والبرتغال- جنوب أفريقيا والهولنديين- سواحل أمريكا اللاتينية بالنسـبة للاسبان ولكن هناك دائما خطوات وسط بين الخطوة الأولى (احتـلال الجزيـرة) والاخيرة (إقامة مستعمرات على السواحل البعيدة) : الفينيقين تقدموا من جزيـرة الى اخرى – صور – قبرص- رودس- كريت- تيرا- مالوس- باروس- مـالطـا بنتلاريا قرطاجة- صقلية – سردينيا- البليار.

كذلك احتل النورمان جزر فارو وشتلند وايسلندا وجرينلانـد والـهبريدر وايرلندا. والبرتغال بدأوا بالأزورس ثم ماديرا ثم جزر كيب فـرد علـى طريـق

الأطلنطي التجاري البحري. وفي مرحلة اخرى سيطروا على (سيلون) سيريلانكا ثم ملقا ومولوكوس (مولوقا) بعد ان ثبتوا انفسهم على بعض من سواحل أفريقيا. واتبع الهولندين النمط نفسه فثبتوا انفسهم في ساوتومي وسانت هيلانه وموريشس وسريلانكا وسومطرة وجاوة وتيمور وفرموزا. وبعد ان ورثت بريطانيا الزعامة البحرية من اسبانيا وهولندا استولت على الجزر والمواقع الاستراتيجية وأسست قلاع لها على البحر المتوسط والاحمر والمحيط الهندي. وفي العصر الحديث نجد توسع الولايات المتحدة كدولة بحرية يبدأ باحتلال جزيرة بورتوريكو وبنما وهاواي وجوام والفلبين.

ولكن في هذا المجال نجد نفوذ الدول الكبرى كثيرا ما يتصارع، أو تنظمه القوانين الدولية التي كان أهم ما فيها الاتفاق على حياد المحيطات وحاولت أن تحدد نفوذ الدولة بالمياه الأقليمية- لكنها من حيث الاتساع غير متفق عليه حتى الآن.

العوامل الاقتصادية :

من الصعب دائما على الدول كثيفة السكان ان تعيش على مواردها المحلية فقط. فالحاجة إلى اسس اقتصادية اوسع من ارض الدولة حقيقة عرفتها الدول القديمة . فمنذ ٤٥٠٠ سنة مضت توسعت مصر إلى ساحل الليفانت لتأمين مصادر الأخشاب اللازمة لبناء الأسطول المصري، وركزت اهتماماتها على المناطق ذات الظهير الغابي ومن ثم كان اهتمام مصر الفرعونية كثيفا حول منطقة ساحل لبنان الحالي. ولكي يحصل المصريون على النحاس وعدد آخر من

المعادن والاحجار الكريمة وسعوا رقعتهم بصفة مستمرة على سيناء منذ ٣٠٠٠ ق.م.

ونصت معاهده فردان ٨٤٣م التي قسمت مملكة شارلمان بين احفاده الثلاثة (فرنسا، لوترنجيا وجرمانيا) شارل ولوثر ولويس على حدود لكل من الممالك الثلاثة تضمن لكل مراعي للخيول في سهول الشمال الطينية، وحقول القمح على التربة اللومية في الداخل ، وحدائق الكروم على الراين والبحر المتوسط في الجنوب.

وفي ق ١٧ اصرت سويسرا على ان يخصص الفلاحون في الجبال والسهول الأرض لزراعة الحبوب حتى يكفي الإنتاج استهلاك الناس ويقيهم شر المجاعات. وكانت الدولة تلجأ إلى تأمين النقص في أي من أنواع الإنتاج في اقليم من الأقاليم بمد نفوذها على إقليم إنتاجها المجاور وضمه إليها. وهكذا فإن دولة فنيسيا توسعت على الادرتيايك من أجل تأمين احتياجات معينة: البوسنة تمدها بالخشب اللازم لبناء الأساطيل ودلماشيا تمدها بالخيول والمناطق الجبلية الالبية الأبقار وجزر ايونيا بالفواكه والنبيذ.

وقد أسس الاوربيون مستعمراتهم في ق ١٦ لكي تمدهم – تحت اشرافها– بالسكر والبهارات والأحجار الكريمة والذهب والفضة وغير ذلك. وكان المبدأ الاقتصادي وراء الرق هو العمالة الرخيصة ومن ثم كانت بداية الاحتكاك الحقيقي الأوربي لأفريقيا للحصول على الثروة البشرية وهي اعلى مراحل الثروة الاقتصادية. وكان الذهب والفضة والنحاس وراء التوسع الامريكي صوب الغرب الوحشي، واحتياجها للمنتجات المدارية (قطن، سكر، ارز، بترول) كان وراء

اندفاع المستوطنين الى الولايات الجنوبية المطلة على خليج المكسيك وطرد فرنسا الاسبان والمكسيك على التوالي منها إضافة إلى وجود الرقيق.

ولقد ازدادت الحاجة بصفة مستمرة ومتزايدة إلى مزيد من المنتجات المضافة الجديدة منذ ق ١٩ . فحيث أمكن صنع الآت جديدة بصفة مستمرة في الدول الصناعية تظهر حاجة مستمرة ايضا إلى أنواع مختلفة وجديدة في الخامات لتصنيعها. وحينما بدأت صناعة النسيج تستهلك اكثر من الأصواف التي تقدمها أغنام اوربا كان الأنجليز أول من فتحوا افاق المراعي الواسعة في البقاع النائية في المستعمرات كاستراليا أو أفريقيا ويوضح هذا مدى أهمية هاتين المنطقتين لصناعة الصوف الإنجليزية. ومع تزايد اعتماد إعداد السكان الأوروبي على الصناعة وقلة وفاء المنتجات الزراعية لحاجاتهم الغذائية وللخامات الصناعية، أصبح من الضروري الحصول على هذه الأشياء من الخارج.

ويكمل الدائرة الاقتصادية ان الخامات المستوردة من المستعمرات والمصنعة في الدول صاحبة المستعمرات تقوم بتوريد جزء من منتجاتها بقوة ما لديها من حقوق سياسية الى شعوب المستعمرات وبذلك تضمن سوقا لهذه المنتجات.

في عهدة المركنتالية (الاستعمار الأول) كان الأوربيون يتركون للمستعمرات وظيفة مصدر الخامات فقط، ويحتفظون لأنفسهم تماما باحتكار الصناعة. وقد عبر عن ذلك وليام pit اذ قال " اذا أخذت المستعمرات الأمريكية (USA حاليا) على نفسها صناعة الجوارب أو حتى حدوة الحصان فإنني سوف اجعلهم يشعرون بكل ثقل القوة البريطانية " (ص ٤٨٥) . الحاجة الى السوق جعلت اليابان تحتل كوريا ١٩٠٧ لكن كوريا كانت مزدحمة بالسكان. ومع مرور

الوقت لم تعد الدول تتحكم في المستعمرات بهذه القسوة وبعض المستعمرات بـدأت تدخلها الصناعة مثل الهند قبل استقلالها (الصلب / النسيج بدلا من الاستيراد) . ومع ذلك نرى حتى اليوم أن أقوى وسائل تدعيم الائتلاف بين الدول هو ذلك الذي تخلقه الاقتصاديات التي تكمل بعضها ولا تتعارض معا.

أنواع مختلفة من الدول : تطور الدول

يقول الجغرافيون الألمان أن أوضح شكل للدولة هو ذلك الذي يسموه "دولة الخلية " عند المجتمع البدائي، ويتكون من العشيرة أو القبيلة أو القرية، كما كان الحال عند العشائر الاسترالية أو المجموعات المحلية الاسترالية والقزمية التي تتكلم كل منها لغة أو لهجة خاصة. وعند المجتمعات الزراعية المستقرة في غينيا الجديدة أو ماليزيا كانت القرية هي الوحدة السياسية، وفي جنوب الهند كانت القرى داخل الغابات تكون ايضا وحدات سياسية مستقلة. ومثل هذه الإشكال وجدت في أمازونيا وأمريند كاليفورنيا.

وقد تطور هذا الشكل السياسي من مجتمع القرية الى مجتمع المدن الصغيرة في العهود القديمة الذي استمر حتى القرون الوسطى، ويمتد ظهوره حتى الآن في صورة مبعثرة مثل امارات اندورا ، موناكو، سان مارينو. وعلى نطاق أوسع ليختنشتاين ولكسمبورج، وبصورة ما الفاتيكان. بعد " الدولة الخلية" نجد التجمع السياسي الناجم عن ارتباط عدة دول خلايا في مساحات ذات قدر لا بأس به . فدولة اثينا نشأت عن تجمع ثلاث خلايا سياسية في اقليم اتيكا، وظهرت اسبرطة نتيجة تجمع سبع إمارات صغيرة. وكذلك الحال في دولة هاواي ،

وتوحيد ميكروتيزيا وروما وممالك أفريقيا الزنجية المختلفة، كلها جـاءت نتيجـة حروب وضم إقليم ودول اخرى الى الدولة الجديدة.

الدول القديمة :

كانت أعقد من هذه العملية لضم اجزاء او إمارات مختلفـة، كمـا كـانت تنطوي على أفكار جيدة للتنظيم السياسي. ونحن لا نعرف الكثير عن بدايات ونمـو تلك الدول بالدرجة الكافية، وكلها كانت في مناطق جافة واحية الشكل : مصـر و العراق والهند والصين، لكنها كلها اتبعت الري في الزراعـة بوسـائل مبتكـرة . ويميز اوتوماول O Maull عدة أنواع من هذه الدول القديمة التي ظلـت طـوال تاريخها غير متغيرة البناء برغم اختلاف التفاصيل. ولعلنا نعيد اسباب تدهورهـا إلى هذه الحالة من الجمود في الشكل البنائي وبالتالي نقص تطورها.

هناك "نوع شرقي " من الدول القديمة ذلك الذي أدى إلى نشأة دول النيـل والفرات والسند التي تكون ثلاث بؤرات من الحياة المدنية العالية.

وكلها كانت تقفلها وتحميها الجبال والصحاري. ويقع سهل العراق في وسط هـذا العالم الحضاري – مصر إلى الغرب والسند الى الشرق منه. وفي الالف الثالثـة قبل الميلاد كانت بابل قد نظمت وسائل للري أصبحت مركزا للصناعة صـدرت منتجاتها إلى الخارج. وكانت تشتمل على عدة مدن كل منها ممالك مدن صغـيرة تحارب بعضها، وكانت تسعى إلى توحيد الدول في دولة واحدة تمتد مـن الخليـج العربي إلى البحر المتوسط. وقد صادفت دول العراق القديم الكثير مـن التقلبـات السياسية من مد وتقلص للنفوذ السياسي في هذه المنطقة.

وبوجودها على طول طريق التجارة القديمة بين الشرق والغرب قامت دول العراق بدور الوسيط التجاري في العالم المعروف لمدة ٢٥٠٠ سنة. وبعد أن دخلت المنطقة كجزء من امبراطوريات أوسع كالفارسية والإغريقية والعربية ظلت في هذا الموقع التجاري العظيم الذي مكن دول العراق من الإبقاء على بناء اجتماعي إقطاعي ديني على أسسه الاقتصادية. وكان مصدر العمل أعداد هائلة من الرقيق ومن سكان الهوامش الذين كانت الدول تجلبهم للعمل في الداخل.

وكانت بعض اعمال اعادة توزيع السكان وطردهم بداية لحركات من الهجرة لم تكن السلطة السياسية قادرة على الإشراف عليها. فمثلا توغل العرب القادمون من الصحاري الفقيرة إلى داخل الدولة في موجات متتابعة، مما كان يعطي الدولة قوة مضافة لبعض الوقت.

وتعطينا دولة آشور نموذج آخر لنوع الدول القديمة الشرقية. فقد ولدت في سفوح الجبال الشرقية للعراق وكانت بذلك مضطرة من البداية إلى الحرب المستمرة مع سكان الجبال وعصابات البدو المتنقلين الذين كانوا يأتون عبر الممرات الجبلية في أرمينيا وميديا. ولهذا السبب كانت حروب اشور المستمرة مع عيلام واجزاء من أرمينيا لصد هؤلاء الرحل. وعلى عكس بابل يبدو أن اشور قد بنت دولتها على تركيب اجتماعي قوامه إئتلاف الملاك الاحرار الصغار الذين يكونون جيشا متساندا من الفلاحين الملاك. ويبدو أن الصراع مع بابل لم يكن بغرض ضم مساحات جديدة لآشور ولكن بغرض الحصول على مركز بابل في احتكار طرق التجارة الدولية.وقد أكمل سارجون الثاني الإمبراطورية الاشورية التي امتدت فوق مساحة هائلة من الأرض تقدر بأكثر من مليون كم٢ من بابل إلى المتوسط بما في ذلك سوريا وفلسطين وارمينيا واطراف فارس الغربية وشمال

العرب وقبرص واضاف الملك اسرحدون مصر. وقد غـــيرت هـــذه الممتلكـــات الشاسعة التركيب الاجتماعي الذي كان سببا في قوة اشور (كما حدث في رومـــا) فحل جيش المرتزقة محل جيش فلاحي اشور في الوقت الذي بدأت فيـــه أمـــلاك اشور الخارجية في الثورة وطرد الاشوريون كما حدث في مصر وميديا وبابل.

أما إمبراطورية ميديا وفارس التي ورثت اشور فقد اكتفت في البداية بنقـل مركز الثقل السياسي من سهول العراق إلى الهضبة الإيرانية. وقد سارع الفـــرس بعد ذلك بتوسيع رقعة الدولة اكثر من أشور الى إن وصلوا إلـــى الدانـــوب فـــي الغرب وطوران في الشمالي الشرقي، والسند في الشرق. وفي عصر ازدهارهـــا بلغت فارس من الدانوب الى السند ومن وسط اسيا إلى برقة في مساحة زادت عن ٥ مليون كم٢ (اقل بـــ ٣٠% من مساحة الولايات المتحدة حاليا).

أما مصر فقد نشأت في مهد زراعي خصيب بين البحر الأحمر والمتوسـط وعلى طريق التجارة بين الهند وبلاد العرب والمتوسط. وقد استفادت من ضعـــف دول العراق فتمد حدودها وسيادتها على سوريا وتصل إلى الفـــرات فـــي عـــهد تحتمس الثالث. إلا أنها في المجموع لم تشارك تماما في طريق التجـــارة الدولـــي لموقعها المتطرف وقبعت في الوادي الخصيب المحمي فاستمرت حضارتها ازمانـا أطول ولم تمد نفوذها إلا في أوقات معينة (أفريقيا كانت الاتجاه الحقيقـــي عـــبر النيل).

وفي البنجاب والسند نما مهد حضاري آخر كـــان يمتـــد تحـــت تـــأثيره الحضارة الغربية (العراق) ثم الشرقية فيما بعد (الصين والهند) . وتحت شـــكل البناء الاجتماعي الطبقي لم يمتد نفوذ حضارة السند كثيرا خارج منطقـــة النشـــأة. ومع ذلك كانت هذه الحضارة مكان نشأة لعدد مؤقت من الدول في جنوب شـــرق

آسيا أدت إلى توسيع النفوذ الهندي الحضاري الى اعتاب الحضارة الصينية. في القرن الأول الميلادي أصبحت مملكة Funan على الميكونج الأدنى فرعا مزدهرا للحضارة الهندية. وفيما بعد كانت مملكة Champa التي استمرت من ق ٢ إلى ق ١٥ حتى غلب عليها مملكة انام. وفي الوقت نفسه نمت ممالك برماو Pegu وكانت طبقة الحكم فيهما وحياتها هندية . هذا الاستعمار الحضاري المشابه للاغريقي قد اكمله في ق الأول أنشاء مملكة Majapahıt التي احتلت سومطرة وجاوه ومعظم اندونيسيا الحالية. وفي منطقة الهند الصينية انصهر العنصر الهندي خلال ق ١٣ بواسطة غزو التاي في المنطقة الوسطى والغربية، والاناميون في المنطقة الشرقية.

النوع الثاني من الدول هو نوع البحر المتوسط الذي مثله الإغريق الرومان. وكانت إمبراطورية الاسكندر مشابهة في الشكل للإمبراطوريات الشرقية لكن البناء الاجتماعي مختلف. فبدلا من طرد السكان بدأ بناء المدن التي ساعدت على اندماج الحضارات ونشر المدنية الهلنية. ولمدة الف سنة ظلت سوريا ومصر واسيا الصغرى جزءا من حضارات البحر المتوسط أصبحت الإسكندرية وانطاكية مدن إغريقية مزدهرة اكثر من بعض المدن الإغريقية مثل كورنيث واثينا ذاتها. ولم تغير هذه المناطق اتجاهها الحضاري الا بعد انتشار الإسلام وتعريب المنطقة.

ولقد قامت الدولة الرومانية ايضا على أساس حضارة المدينة المتكونة من المواطنين الأحرار وكان الجيش يتكون من هؤلاء ايضا ومن المزارعين المواطنين الأحرار. ودعم الإمبراطورية سيادتها على البحر المتوسط وطرق التجارة وبناء الطرق البرية. وقد انتشرت روما على مساحة قدرها حوالي خمسة

مليون كم٢ – اقل بقليل من إمبراطورية الاسكندر وقد انتشرت ايضا خارج حدود البحر المتوسط الى وسط أوروبا.

الدول الأمريكية قبل كولمبس :

نوع آخر من الدول المنظمة وسط مناطق كثيرة من التنظيم السياسي البدائي، وهي في مجموعها تشابه دول العالم القديم. مهد هذه الدول كان الهضاب العالية في النطاق المداري الأمريكي حيث ساعد تعدل المناخ والنمو النباتي المتوسط على الاستقرار الزراعي. نشأة دولة الآزتك في المكسيك الوسطى والانكا في الأنديز. السمة الأساسية بناء عسكري ديني مما يجعلهم مكونين لنظام سياسي اجتماعي شديد الجمود والصرامة ومن المحتمل انهم اول من أنشأوا دولا ديكتاتورية يضحى فيها بالفرد من اجل المجتمع. فالفرد كان عنصرا صغيرا في العجلة وحياته يقررها المجتمع وما يقدمه له من وظائف. هذا النوع الكامل من الدولة الشيوعية بما يضمه في دائرته من سلالات ولغات مختلفة استمر فترة طويلة برغم أنه بني على أسس جغرافية واقتصادية ضيقة.

كانت هذه الدول تدعمها جيوش قوية وسلسلة من الحصون لتأمين خلايا الوحدات المتعددة المتباعدة التي كانت تكون الإمبراطورية. وكانت هذه الوحدات مرتبطة بالدولة بواسطة تركيب اجتماعي يشابه تجمع النمل. يضاف إلى ذلك شبكة طرق واسعة مثل الطرق الرومانية هي التي ترمز إلى امبراطورية الانكا. ويضاف ايضا استخدام لغة Quechua كلغة موحدة لكن هذا التركيب الوحدوي الضخم قد اعطاهم مظهر خادع للتوحيد والترابط والقوة. فلم ينبغ منها وحدة حضارية ولا تقليد قومي او قوى روحية. لقد هلكت هذه الممالك لانها لم تتخذ

مبدأً تطوريا كان يمكن ان يحقن الدولة بقوى جديدة وتغيرات تركيبية جديدة ولـــهذا انهارت عند الضغوط الخارجية انهيارا تاما.

إمبراطوريات العصور الوسطى في العالم القديم :

بعد سقوط الإمبراطوريات القديمة نجد نوعا جديدا من الدول ينشأ نـــاجم أساسا عن تحرك الناس في صورة موجات من الـــهجرات الواســعة – ويختلــف تاريخ هذه الدول في أوربا عنه في اسيا.

في أوروبا ظهرت ممالك عديدة هامشية التنظيم ســريعة الانـــهيار مثـــل القوط الغربين الذين تحركوا من جنوب فرنسا (تولـــوز) الـــى اســبانيا، والقــوط الشرقيين الذين دخلوا ايطاليا قادمين من الدانوب. هذه الدول لم تكن قــادرة علـــى التطور او أن تؤمن اساساً ثابتاً لنموها وبنائها. ومثل ذلك ينطبـــق علـــى ممـــالك بورجاندي والانجلو ساكسون. وكل منها يريد أن يمد جذوره الى الدولة الرومانيـــة وما خلفته من أسس للإدارة والحكم في الميدانين الديني والعلماني. وقد كونت فـــي هذه الممالك عدة خلايا ووحدات طفيلية غير قـــادرة علـــى اســتيعاب مواردهـــا الاقتصادية أو الإبقاء على هذه الموارد، ولا على سكانها الأصليين، وذلـــك لعـــدم وجود جيش كاف.

ولقد اختفت بسرعة كل القوى والدول الجرمانية في حوض المتوسط بعـــد غزواتها السريعة للمنطقة لأنها كانت عبارة عن إضافـــات اصطناعيـــة لمنطقـــة حضارية لم تكن مستعدة لتقبلهم وهضمهم. وهكذا أيضاً كان حال دول الصلبييـــن في الشرق.

أما في آسيا فقد نشأت دول أكثر استقرارا وأهمها دولتين ذات دوام طويل – كما لو أن تقليد الدول الكبيرة قد بقى بين سكان آسيا من خلال البقاء الطويل للدولة الرومانية الشرقية: البيزنطية. وراء حدود بيزنطه نجح المسلمون في بناء الدولة على المفاهيم الشرقية التي نشرت التعاليم الإسلامية من الملايو واندونيسيا الى أواسط أفريقيا، ومن المحيط الهندي الى أواسط آسيا. هذا البناء السياسي الجديد الذي ما زالت أسسه تعيش معنا، قد ارتبط أوثق الإرتباط بالخلفيات الدينية وقد خرج العرب من الجزيرة في اتجاهين عارمين مسلحين بالدعوة الدينية الاجتماعية الجديدة: في اتجاه بلاد فارس ووسط آسيا والهند، وفي اتجاه مصر وشمال أفريقيا وجنوب أوروبا وفرنسا، وبذلك تمت السيادة على نظم التجارة الدولية وطرقها البرية والبحرية. وصحيح ان العرب البدو وكانوا طليعة هذا التوسع إلا أن استقرار الدولة الإسلامية لم يتم إلا بناء على إعادة الحياة الاقتصادية الزراعية ومشاريع الرى والعمران لم يتم بناء طرق التجارة وبناء الاساطيل.

وبرغم أن دولة الخلافة وخاصة العباسية قد أقتبست الكثير من نمط الدولة الشرقية في فارس ومقدونيا، إلا أنها أضافت عنصراً سياسياً جديداً. فقوتها كان مصدرها موقعها الطبيعي بين سهول ووديان البحر المتوسط والصحراء قد أدى الى توقف غارات البدو التي تقلق الممالك القديمة. ذلك لأن البدو وجدوا أنفسهم جزء من هذه الدولة – اوهم الذين اسهموا في إنشائها بالنصيب الأوفر، وظلوا حماة هذه الدولة مع ضم التركمان البدو أيضاً وبذلك فإن الدولة العربية عامة هي أول وأقدم تجميع لمجوعتين بشريتين متعاونيتين بحكم أسس كل منهما: الرعاة والزراع.

لكن هذا التكامل لم يكن قوياً لمدة طويلة وبذلك عادت المناطق النائية الى الثورات والانفصال وظهرت دول صغيرة في أوقات مختلفة.

وفي خارج الدولة الإسلامية الكبيرة الشرقية أو الأندلسية نشأت ممالك أخرى إسلامية مبنية على أسس من التركيب الاقطاعي وحياة المدن. ممالك في نطاق السفانا الأفريقي: الفنج غانا مالي ستفاى الفولانى، وممالك محلية الموسى والماندنجو والبورنه وكانم وباجرمي وواداى ودارفور، وممالك تأثرت بالهجرات والحركات السكانية وبعض التعاليم الإسلامية كالاشانتى واليوربا. وفي آسيا نشأت سلطانات عدة بعد انهيار الخلافة العباسية: سلطنات مكسر وجوا (Sula Wesi) Gowa التي أنتشرت من لمبوك وزمباوا وفلورس خلال القرن السادس عشر والسابع عشر.

سقطت خلافة بغداد أمام تيار المغول الذين انشأوا آخر دولة كبيرة قارية الشكل في العالم القديم، ورثتها في الضخامة والاتساع الدولة التركية التي نشأت على انقاض بيزنطية واحتوت العالم الإسلامي في غرب آسيا وشمال أفريقيا وحوض المتوسط. وكان نظام الدولتين المغولية والتركية قائماً على القوة العسكرية وليست لها جذور قوية في الأرض أو الناس . وبذلك تحول الترك الى حكام واداريين لحياة قبلية أو مجتمعات محلية ذات صبغات قومية قديمة. وقد أدى ذلك الى تدمير جذور الدولة العثمانية بانفصال الوحدات السياسية الذاتية الواحدة تلو الأخرى.

وفي أوروبا كان التطور السياسي مختلفاً . فعلى انقاض الدولة الرومانية بدأت إقامة الدولة على أسس القوميات بسرعة، معطياً قيمة للدولة بارتباطها بتراث حضاري سيكولوجي واقتصادي مؤسس على أرض الأسلاف والوطن

واهتمامات بتطوير الاقتصاد ونظمه. وبرغم شكل ايطاليا الجغرافي كشبه جزيــرة ذات حدود واضحة إلا أنها بقيت لفترة طويلة مقسمة مجزأة. القسم الشمالي أصبــح جزءاً من الإمبراطورية الجرمانية بينما القسم الجنوبي فترة طويلــة تحــت حكــم بيزنطية. أسبانيا هي الأخرى ظلت تحت تأثير الإسلام جزئياً، وكونــت منــاطق العزلة الجبلية الشمالية في آستوريا وتافارا واراجون وكاستيل (قشــطاله) وليــون عدة إمارات مسيحية، ولم ينجحوا في توحيد شبه الجزيرة وطرد المسلمين إلا بعــد قرون، ومع ذلك انقسمت الى دولتين.

أما فرنسا فكانت اسرع الدول في تكوين دولة قومية في انتظــام. فعلــى عكس الدول التي أقامها البرابرة نجد قبائل دولة الفرانك (الفرنجه) تقيــم روابــط قوية بالأرض التي نشات عليها. مثلاً اسرة Pepin نشأت في منطقة الميز. كذلــك حافظ الفرنجة على روابط وثيقة مع الحضارة الغالية الرومانية والاقتصاد المدينــي في العالم الروماني. وكانت التوسعات السياسية لدولة الفرنجة غير قائمــة علــى الغزو العسكري فقط بل مبنية على استعدادات مسبقة بواسطة بناء وحــدات مــن الاستقرار الميروفيني Merovingianan داخل بلاد الغال. ويفسر هــذا التحــول السريع للفرنجة الى المسيحية التي ربطت الغالب والمحكوم معاً. ويمكن دراســة التطور السياسي للفرنجة: في البداية عند نشأة القوة الميروفينيه أمنت الحكم طبقــة من الفلاحين الأحرار. وفي ظل حكم الكاروليني تحولت الطبقــة الحاكمــة الــى ارستوقراطية علمانية او دينية لها صفة ملاك الأراضي من الطبقــة المتوســطة. وخلال التطور البطئ للفرنجة وضع انشقاق واضح بين الأقاليم الرومانية الصبغــة مثل Noustria وبرجاندى في جانب والأقاليم الجرمانية الصبغة مثل Austrasia . وظهر الاختلاف السلالى في الشئون السياسية وبوضوح في تخطيط الحدود فــي

الأقاليم . ففي الشرق (وسط أوروبا) ظهرت دويلات سريعة وانهيارات بينما ظلت الدولة لفترة طويلة في الغرب والشمال – وقوى بذلك عنصر سياسي أعد فرنسا لتنفصل عن المانيا وايطاليا. وبين هذه القوى ظهرت دول حاجزة مؤقتة مملكة برجندى والدول في الإقامات التي تصبح فيها الاختلافات القومية صريحة وجادة.

ونلخص هذا بأن الجغرافيا السياسية يجب ان تدرس على ضوء التاريخ فإننا نكسب صورة مبسطة ومجردة بمقارنة الدولة بالكائن الحي الذي يولد ويعيش ويموت، وله احتياجات ضرورية . ظروف الحياة في الدول الكبرى تبعاً للمستويات المادية والخلقية للمجموعات البشرية والتنظيم العام لعلاقات الناس وحياتهم على سطح الأرض في الاوقات المختلفة. والحقيقة ان كل البشرية يمكن مقارنتها بالكائن الحي، والدولة ليست سوى وسيلة مؤقتة تتغير بتغير الظروف ، ووظيفتها فى أحيان تأمين السلامة وحماية الوراثة العامة وفي أحيان اخرى المساعدة على نشر تركيب مادي او روحي تثرى التراث.

٥- الدولة الحديثة:

في الشكل المركب السياسي الاقتصادي الحالي نجد ظروفاً مختلفة تماماً عن تلك التي سارت في الماضي والعصور الوسطى. فالدولة الحديثة لديها احتياجات جديدة وطرق أخرى لتغطية هذه الاحتياجات مختلفة عما كانت عليهم الطرق في الماضي.

بعض الدول الحديثة تحتل كتلاً قارية ضخمة وتشغل مساحات شاسعة داخل حدودها بما فيها من الموارد اللازمة للأمم الكبرى. مثال ذلك الاتحاد السوفيتي والصين لقد بدأت الصين تبنى نفسها في صورة موحدة في القرن الثالث

ق. م حينما بدأ اباطرة أسرة هان Han في توحيد أقاليم هوانجـــهو وياتجنســـي كيانج وسيكبانج تحت حكمها وبذلك جمعوا في دولتهم محاصيل النطاق المعتـــدل (القمح) في الشمال ومنتجات النطاق المـــداري (الأرز والحريـــر والســكر) فـــي الجنوب. وداخل الصين التي كان يحميها السور العظيم في الشمال، أخذ الســـكان يتزايدون عن إنتاج الأرض ويطلبون المزيد من أراضي الزراعة. وكان هذا سهل المنال في النطاق الهامشي لاستبس آسيا واخذ الصينيون يكدحون لإنشـــاء حقـــول جديدة في منغوليا الداخلية ومنشوريا وقد بلغ المهاجرين الصينيون الى منشـــوريا اكثر من أربعين مليوناً في السنوات الـ ٣٥ الماضية وبرغم التهديدات والنكبـــات التي تعرضت لها الصين إلا أنها استطاعت بطريقة أو أخرى أن تحافظ على كـــل أراضيها التي تمتد في مساحة تبلغ قرابه ٩,٨ مليون كم تحت حكم موحـــد حتـــى اليوم.

وحياة هذه الدولة تمثل ظاهرة غير طبيعية فهي تمتد فوق مســـاحات مـــن النطاقين المعتدل والمدارى، ونطاقات ممطرة وأخرى شديدة الجفـــاف: وتشـــتمل على هضاب وسهول وإنهار عريضة طويلة واودية نهرية ضيقة ومستنقعات دلتاوية شاسعة مليئة بالغابات. وتشتمل على عدد كبير مـــن الســـلالات المغوليـــة الفرعية التي تتكلم لغات مختلفة ولكن الدولة الصينية قد بنيت على أســـاس واحـــد جمع كل هذه المتفرقات: فكرة الوحدة الحضارية. ولقد بقيت الصين حتـــى اليـــوم مجتمعاً زراعياً شاسعاً ريفياً بكل معنى الكلمة – شديد المحافظة وأحســـن مثـــال لذلك ان الكتابة الصينية – التي ترمز الى الشيء وليس الى الكلمة – قد ســـاعدت السكان ان يتبادلوا اكثر الأفكار تجريداً وحساسية واعمق المعاني وأن يقرأوا نفـــس الكتاب دون أن يستطيعوا فهم لغة بعضهم المتطوقة.

هذا الترابط الغريب قد قوى أكثر وأكثر بعد ١٩٤٩ نتيجة وصول الحزب الشيوعي الى حكم، الذي كان يحلم بخلق دولة (ديكتاتورية) جماعية يمكن ان يوجه فيها نشاط كل الناس من قوى مركزية. ولكي ينفذ هذا البرنامج حصل الحزب على كل الصناعات الكبرى لكي يتحكم في الإنتاج ويعطي العمالة للناس. وتنتج الصين كميات ضخمة من المحاصيل الزراعية: فهي اكبر منتج للأرز في العالم وأول وثاني دول العالم في إنتاج القمح، ومع ذلك تكاد تكفي الإستهلاك الداخلي لسكانها الذين يصلون الى حوالي مليار ومئة وخمسون وسبعون مليون نسمة . والى جانب إنتاج عال للقطن والحرير تمتلك الصين بعض عناصر الصناعة الكبيرة وعلى الأخص مواردها الهائلة من الفحم الذي لم يكد يمس بعد (إنتاج ١٩٥٨ كان ١٥٠ مليون طن – ارتفع الى ٩٩٠ عام ١٩٩٠).

اما الاتحاد السوفيتي فقد نشا عن ضم عدة إمارات في النطاق الغابي من وسط روسيا وأصبح يوماً ما أضخم دولة في العالم مساحة تمتد كالقارة من البلطيق الى الباسيفيك ومن البحر الأسود الى المحيط الشمالي، في مساحة تزيد قليلاً عن ٢ مليون كم٢. (منها ٦مليون كم٢ تندرا وغابات) ويحتوي على ٢٨٠ مليونا من الناس من سلالات عدة يتكلون ١٤٠ لغة رسمية. يكون الروس ٥٨% من السكان. والاتحاد السوفيتي كان سياسياً يتكون من اتحاد عدد من الجمهوريات والجمهوريات الذاتية في داخلها يصبح الناس احراراً في الإبقاء على لغتهم وتقاليدهم وطرق حياتهم. والرابطة التي توحدهم هم ممثلوا الحزب " الوطني الشيوعي الذي يرأس كل الحكومات المحلية وعضو في الهيئة المركزية في موسكو.

ومنذ عام ١٩٢٥ أخذت الدولة على عاتقها التعرف على مساحتها الشاسعة ومواردها واستقلالها. وقد وجدت في سيبيريا أراض جيدة لزراعة الحبوب والقطن، ومراعي لتربية الماشية ومناجم كبيرة للذهب والحديد والفحم والبترول ومعادن اخرى عديدة والاتحاد السوفيتي سابقاً وأحد من اكبر أثنين من إنتاج الفحم والمعادن الحديدية وثالثة دول العالم في الألمومنيوم والثالثة او الرابعة في إنتاج البترول وهكذا تمتلك من الموارد ما يمكنها من الانعزال عن العالم إذا رغبت في ذلك. ولا تزال التجارة السوفيتية محدودة، وتستهلك إنتاجها من القمح الذي كان الصادر الأول في العهد القيصري، وتصنع منسوجاتها من مواردها المحلية. وكانت لفترة مستوردة للآلات ولكنها اليوم تمتلك صناعة معدنية قوية. يمكنها ان تغطي احتياجات من الجرارات الزراعية والقاطرات والقضبان الحديدية والطائرات والسيارات، وبدأت تجد لها سوقاً لبعض هذه المنتجات الصناعية. وتعتمد الدولة على قوتها الاقتصادية لتحسن تجارتها الدولية أكثر من محاولة مد نفوذها السياسي.

ولقد إدى انشاء الدول الشيوعية (جمهورية الشعب الديمقراطية) في أوربا الشرقية والصين الى تسهيل التبادل التجاري السوفيتي مع هذا الجزء من العالم. ويمكنها ان تحصل على الفحم (بولندا) والبترول (رومانيا وهنغاريا) والمصنوعات (تشيكوسلوفاكيا) وتجد سوقاً لمنتجاتها الحديدية والصلب في الصين ولو كانت قد استطاعت ان تجذب الصين الى اتحادها لكنا قد شهدنا أكبر واقوى دولة قارية في التاريخ وقد كان نموذج يوجسلافيا دليل على أن بالإمكان إتباع المبادئ الشيوعية دون الإندماج في نفوذ الاتحاد السوفيتي الاقتصادي. ولقد قلت الروابط الاقتصادية الملزمة بين الاتحاد والدول الأوربية الشرقية في السنوات

الأخيرة، كما ان الصين تتقدم بخطى هائلة نحو التصنع والإنتاج الصناعي. ويمكنها ان تنافس الروس في سوق المشرق الأقصى بسهولة – وهو بذلك يضع حداً للتوسع الروسي.

وتعطينا الولايات المتحدة نموذجاً آخر للدول الاتحادية وتوسعها. فحتى ١٧٩٠ كانت هناك الولايات الـ ١٣ التي استقلت عن بريطانيا، وكلها على الساحل الشرقي يحددها غرباً سلسلة الابلاش ووادي اوهايو ثم تتوسع تدريجاً فوصلت الى المسيسبي في ٣٠ سنة، ومن ثم الى الباسيفيك في ٦٠ سنة اخرى وقد تم ذلك بخلق ٣٥ ولاية جديدة تحدها حدود هندسية، سبعة منهم كانت أجزاء من المكسيك وقد ظلت الدولة تتكون من ٤٨ ولاية حتى ١٩٤٥ حين ضمت هاواي والسكا. وهكذا نجد الدولة تشغل رقعة تبلغ مساحتها ٧,٨ مليون كم٢ منها أكثر من خمسة ملايين كم٢ في صورة كتلة أرضية متصلة ويشغلها أكثر من مائتي وخمسين شخص معظمهم نتيجة تاريخ طويل (نسبياً) من الهجرة المفتوحة من الدول الأوروبية بين ١٨٨٠ و ١٩١٤ قاموا بعمليات الاستيطان الهائل الزراعي الرعوي والصناعي ،ونتيجة لهذا تتصدر الولايات المتحدة العالم في معظم أشكال الإنتاج: الفحم الحديد والبترول النحاس والقطن والحبوب وكميات كبيرة من اللحوم والألبان والسكر والفواكة. وقد سمحت هذه الموارد الضخمة لأن تعتمد الدولة على نفسها وبدون تفكير في الاقتصاد في ثروتها الهائلة. وحتى ١٨٩٠ كانت الدولة منكبة على أمورها لا تعنيها أحداث العالم الخارجية كثيراً بإستثناء منع أوروبا من الحصول على مستعمرات أو نفوذ اقتصادي في القارة الأمريكية.

لكن في الخمسين سنة الماضية أصبحت أمريكا دولة صناعية كبيرة وكان عليها أن تنظر في الخارج الى الأسواق، كما كان عليهم أن يبحثوا في الخارج عن عدد من الخامات والمواد الأولية مثل المطاط والقصدير والبترول. وقد أدى هذا الى اتجاه لتدعيم روابطهم التجارية مع مناطق الكثافة السكانية والأسواق الكبيرة في الشرق الآسوي، فضلاً عن أمريكا اللاتينية غير الصناعية لكن مستوى حياتها المدنية تؤهلها لأن تصبح سوقاً رائجة للمصنوعات الأمريكية.

وأدت هذه الإتجاهات الى تأمين مركز وخطوط التجارة مع أمريكا الجنوبية. أشترت جزءاً من الدانمرك في الأنتيل وحفرت قناة بنما على أرض تنازلت عنها جمهورية بنما. وقد ساعدت هذه القناة الأمريكيين على ان يفرضوا سيادتهم واحتكارهم على التجارة التي كانت بريطانيا تحتكرها مع كولمبيا واكوادور وبيرو وشيلي. تضاعفت تجارة امريكا الشمالية مع أمريكا الجنوبية خمس مرات خلال ربع القرن الماضي واستثمرت البنوك الأمريكية رؤوس أموال ضخمة في المزارع الأحتكارية (بن – كاكاو – فواكه) والمناجم والمصانع والسكك الحديدة. وشبكة الطيران الأمريكية كثيفة، واحتكارية حول أمريكا الجنوبية.

ولقد اقترحت امركيا أكثر من مرة دمج كل دول الأمريكيتين في اتحاد اقتصادي. ومثل هذا يؤدي الى أنشاء اتحاد أمريكي هائل تكمل فيه أمريكا الجنوبية بإنتاجها المداري والحيواني والزراعي التكامل الاقتصادي الأمريكي المعتمد على أشكال الإنتاج الأرضية في الأقاليم المعتدلة + مركز الثقل الصناعي فيها وبذلك فإن هذا التكامل يخدم المصالح الاقتصادية الأمريكية أكثر من غيره.

أما الإرتباطات السياسية الكبيرة كالكمنولث والكومينيثيه فإنهما قـــد حـــلا محل الإمبراطورية الاستعمارية الأوروبية. وفي نهاية ق ١٩ كانت المســـتعمرات وأصحابها تكون ٤٢% من مساحة الأرض ٣٩% من سكانها (٢٢ مليون ميل٢ و ٨٥٠ مليون شخص). ونظام إمبراطورية الإستعمار تختلف كثـــيراً عـــن الـــدول القارية الكبرى ، الصين ، روسيا، الولايات المتحدة، إذ إنه كان يضم أراضي فـــي أية أحجام من ميناء واحد (جبل طارق – عدن) الى قارات باكملها (اســـتراليا)، وكانت المستعمرات مبعثرة في كل قارات العالم وتبتعد أية مسافات عـــن الدولـــة صاحبة المستعمرات وكانت هذه الممتلكات تنقسم الى نوعين:

١- النوع الاستيطاني – الذي يستوطن فيه مهاجرين من أصل أوروبي كاســـتراليا وكندا أو جنوب أفريقيا.

٢- النوع الاستغلالي: الذي يسكنه شعوبه الأصلية ويدار استغلال موارده وسكانه من أصل الدولة الأصلية مثل الهند وكانت أكبر وأغنى للمستعمرات في العـــالم هي تلك التابعة لبريطانيا وفرنسا وهولندا، وكانت تشترك في صفة واحدة هـــي أن المستعمرات كانوا أكبر بكثير من الدولة صاحبة المستعمرات، وتركـــزت المستعمرات الفرنسية في أفريقيا والهولندية في آسيا والإنجليزية انتشرت فـــي كل القارات. وقد تقسمت هذه الإمبراطوريات فيمـــا بعـــد بواســـطة الثـــورات الوطنية وبوصول بعض المستعمرات المستوطنة الى مرحلة الدومنيـــون مثـــل كندا وجنوب أفريقيا واستراليا. ولقد تطور الكومنولث من هذه التحولات التـــي أحاطت بكل المستعمرات وكانت الرابطة البحرية هي التـــي اعتمـــدت عليـــها بريطانيا في ضم هذه الرابطة، خطوط بحرية منتظمة، قواعد استراتيجية فـــي الجزر او المضايق، محطات للبرق والفحم. وتنقسم هذه الرابطة سياســـياً الـــى

خمس أقاليم دومنيون استقلت فيما بعد الى دول ذات سيادة، ودول ذاتية الحكم كاتحاد ماليزيا وسيرلانكا، ومستعمرات تحت الإدارة البريطانية المباشرة. ولقب ملك بريطانيا (تنازل عن لقب إمبراطور الهند) لم يكن معترفاً به في كل دول الكومنولث، وهي فعلاً رابطة حرة بين دول ذات سيادة ويعقد في لندن او أي مدينة كبرى اجتماعات دورية يحضرها ممثلوا دول الكومنولث ويرأسها وأحد من رؤساء الوزارات، وذلك لدراسات المشكلات الخاصة بالدفاع والتراث المشترك.

ومنذ ١٩٥٨ تحول الاتحاد الفرنسي الى الرابطة الفرنسية. وفيما قبل الحرب كانت الإمبراطورية الفرنسية تشتمل على عدد من المحميات دول وطنية احتفظت بإشكال الحكم فيها، لكن يسيطر عليها المقيم الفرنسي، مثل تونس والمغرب وكمبوديا ولاوس . وقد تحولت هذه المحميات بشيء من السهولة الى دول مستقلة مع الاحتفاظ بروابط قوية ثقافية واقتصادية مع فرنسا. وكانت هناك إجزاء أخرى من الإمبراطورية الفرنسية في صور مختلفة سياسيا. بعضها أصبح أجزاء من محافظات فرنسا عبر البحار، سكانها لهم نفس حقوق الفرنسيين، وبعضها كان يصطبغ بالحكم الذاتي في درجات مختلفة. وإيا كان الشكل السابق فكل هذه الأقاليم قد اختارت الأنضمام الى الرابطة الفرنسية بإستثناء غينيا التي انفصلت. وتنص لوائح الرابطة على أن رئيس الجمهورية الفرنسية هو ايضاً رئيس الرابطة وإنشاء مجلس منتخب دائم للرابطة مقره باريس، بينما تعقد مؤثرات دورية مشابهة لمؤتمرات دول الكمنولث في إحدى عواصم الرابطة ويحضره رؤساء وزارات الدول أو ممثليهم.

ويرى بعض الكتاب ان الرابطة الإنجليزية او الفرنسية كانت حلاً موفقاً جمعت بين الرغبة في الاستقلال من جانب المستعمرات والإبقاء على العلاقات الوثيقة الاقتصادية والسياسة. وبهذا نجد فارقاً بين تقطع اوصال الإمبراطوريات القديمة والحديثة. ويجب ان نضيف الى ذلك ان علاقات العالم بعد الحرب الثانية وظهور قوى جديدة في الإتحاد السوفيتي والصين والولايات المتحدة وادوارها في العلاقات الدولية قد ساعدت على سرعة استقلال المستعمرات + تطورها الاقتصادي الذاتي + رغبة بريطانيا وفرنسا في الإبقاء بصورة أو أخرى على حمايتها لهذه الدول الجديدة ومعظمها دول متخلفة ونامية.

وعلى العموم فإن مجالات النفوذ الاقتصادية في الدول الحديثة لم يعد قاصراً على العلاقات القومية الضيقة، بل تعداه في غالب الأحوال الى علاقات أبعد من الحدود السياسية للدول الأم ولمستعمراتها. وفي وقتنا الحاضر تسيطر المصالح الاقتصادية والمشكلات الاجتماعية على الحياة السياسية للدولة او الاتحادات الدولية. ولم يعد من المستطاع ضم أراضي جديدة للحصول على ثرواتها حيث أن التوسع يجلب منافع أكثر ومشاكل أقل من الغزو السياسي والعسكري. ويسهل هذا التوسع الاقتصادي اتجاه كل إشكال الصناعة في الدول الحديثة الى فرض قواها الاحتكارية على سلع معينة مع استمرار رقابتها وتحكمها على الخامات الإساسية لهذه السلع وعلى وسائل إنتاجها تصنيعاً، وأخيراً هيمنتها وسيطرتها على السوق.

وعلى هذا الشكل تنشأ الكارتلات والاحتكارات الاقتصادية التي تجمع في يديها السيطرة ورأس المال اللذان هما في أغلب الأحيان أعلى من سلطان الدولة. مثلاً واحدة من أكبر الاحتكارات الدولية هي هيئة الصلب الأمريكية Steel Corportion تجمع كل وسائل إنتاج الصلب: حقول الفحم – مناجم الحديد– مصانع الكول – افران صهر الحديد – معامل الدرفله – معامل صنع الأنابيب + خطوط حديدية وقنوات وموانى خاصة بحرية ونهرية. تستخرج ٤٦% من خام الحديد الأمريكي، تضع ٣٨% من الحديد الزهر، و ٤٠% من الصلب الأمريكي.

ويجد الإنسان احتكارات أخرى كبيرة في شتى المجالات الصناعية والاقتصادية . في مجال إنتاج البترول وتصنيعه نجد شل (رويال داتش (انجلو داتش) وستاندرد (اريكر) تمتلك حقول بترول في كل ارجاء العالم وشبكة من الأنابيب واساطيل من الناقلات. وفي مجال الإنتاج تحتكر المجموعات الأمريكية ٧٠% وشل ١٨% وتمتلك شركة فورد للسيارات مصانع للسيارات في دول عديدة خارج امريكا بالإضافة الى امتلاكها مزارع مطاط في أمريكا الجنوبية وأفريقيا الغربية. وتمتلك شركة الفواكه المتحدة الأمريكية مزارع ضخمة من الأناناس والموالح والموز في بيرو، اكوادور ، فنزويلا ، جزر الهند الغربية، امريكا الوسطى وتسيطر باسطولها وشبكتها التلغرافية على امريكا الوسطى كلها.

لا يوجد في العالم جزء بعيد عن نفوذ الأعمال الاحتكارية التجارية. وتملك الدول الصناعية كل تسهيلات انشاء المصانع والموانى والسكك الحديدية في البلاد النامية، ويمكنها ان تبيع وتشتري وتصنع السلع تحت الظروف المناسبة

لها. مثلاً أنشأت ستاندرد عدة معامل تكرير ضخمة في فرنسا، بينما أنشأت فورد مصانعها في ضواحي لندن وباريس.

وحتى الحرب العالمية الأولى كانت الدول الكبرى تتنافس في أنشاء السكك الحديدية في الدولة العثمانية (المانيا وبريطانيا وفرنسا) وفي الصين (اليابان وبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة) وفي منشوريا (روسيا واليابان). واليوم نجد البنوك الكبرى في أمريكا هي التي تمول شركات الطيران في كافة دول أمريكا الجنوبية.

وقد أدت هذه الاحتكارات والمصالح الى ربط الدول المختلفة وتجميع ميولها وأهدافها (رغماً عنها في أحيان) في طريق واتجاه موحد. وبدلاً من المنافسة نجد التعاون والعمل المشترك بين الدول في استغلال موارد معينة وقد أصبحت الدول شديدة الاعتماد على بعضها بهذه الطريقة لدرجة ان أي حرب بينها ستكون مدمرة للمنتصر أكثر من المهزوم.

وبرغم ذلك فأن تجميع الموارد على المستوى العالمي لم تصل اليه بعد ولا يزال التجميع قاصر على عدة كتل اقتصادية ذات إرتباطات وثقل سياسى وإقليمي الى حد بعيد. مثل ذلك كتلة البنلوكس Benelux الذي يربط بلجيكا هولندا لكسمبورج، او منظمة التعاون الاقتصادية الأوربي Econ Organization for Europ Cooperation D. E. E C ومجتمع الفحم والصلب الأوروبي European Coal and Stell conumusuty E.C. S.C ومجموعة دول السوق الأوربية. الذي يتكون من فرنسا وايطاليا والمانيا

ولكسمبورج وهولندا وبريطانيا والدانمرك، قد سعت الى توسع التعاون الاقتصادي الى ما وراء الصناعات المعدنية: الى النقل والتجارة العامة بواسطة السوق المشتركة.

ويمتد التعاون الاقتصادي الدولي الى أفاق أخرى غير الجوانب الاقتصادية مثلاً من أجل التقدم في عمليات الطرق الحديدية نجد مجموعات الاتحاد الدولي للسكك الحديدية (٤٨ مجموعة تنتمي الى ٣٧ دولة في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا، وكذلك نجد اكسبريس عبر أوروبا T. E. E ينظم النقل السريع عبر حدود ثمانية دول أوروبية من اوسلو في الشمال الى جنوا وروما في الجنوب. ويمتد التعاون الدولي الى النقل الجوي حيث نجد رابطة النقل الجوي الدولي Int Air Traffic Assoc والمنظمة الدولية للطيران المدني Int Org. Civil Aviation ولهما لوائحهما التي تلتزم بها ٦٤ دولة.

وتعكس هذه التنظيمات الدولية، على المستوى الاقتصادي، المجهودات المبذولة على المستوي السياسي للأمم المتحدة وهي في حد ذاتها محاولات لإنشاء برلمان فوق القومية.

وبينما يؤكد الساسة والاقتصاديون ان الدول التي تنتمي الى هذه المؤسسات الدولية تفقد بعض حقوق سيادتها، إلا أن مثل هذا يجب الا يخيف الدول من فقدانها استقلالها او وحدتها القومية. وقد قال أحد الجغرافين الإنجليز – مع قليل من الفكاهة ان المدن يمكن ان تتشابه في نظم انارتها ووسائل النقل الداخلي فيها واشكال الخدمات، ولكن لن يؤدي ذلك الى ان يرتدي سكانها اللباس ويأكلون نفس الطعام ويستمتعون بنفس أشكال الترفيه.

الباب الثالث
السكان في الجغرافيا السياسية

الفصل الأول : تاريخ السكان

الفصل الثاني: نمو السكان في العصر الحديث ومبدأ مالتوس

الفصل الثالث : السكان حضاريا وديموغرافيا

الفصل الأول
تاريخ السكان

أهل الأرض فيما قبل التاريخ:

سكان الأرض الحاليين ينتمون الى إنسان يعرف علمياً باسم (الإنسان العاقل Homo- Sapiens) ظهر منذ نحو ٢٥ او ٣٠ الف سنة على الأرجح وقد سبق هذا الإنسان أنواع شبه بشرية من صفاتها عدم اعتدال القامة وسمك عظام الجمجمة وصغر حجم المخ وكبر الأسنان وبروز عظام الوجه واختفاء الذقن وانحدار الجبهة وميل الرأس الى الأمام. وأقدم هذه الأنواع ما عرف باسم إنسان جاوه القرد Pithecanthropus Erectus ظهر في أوائل عصر البليستوسين، وعاش في العراء معتمداً على ما يلتقطه من نباتات.

ومن المرجح انه كان يخرج أصواتاً للتعبير عن انفعالاته ولم يعرف استخدام النار. وتبعه في طريق التطور أنواع بشرية أخرى أهمها (إنسان هيدلبرج Homo-Heidelbergensis او الإنسان القديم Palaeanthropus الذي عاش في أوربا خلال فترة رس – فورم R-V غير الجليدية وفي مناخ يشبه المناخ السوداني في شمال وجنوب غربي آسيا في خلال ما يقرب من نصف مليون سنة. انتشر هذا الإنسان في جهات واسعة الى الجنوب من خط يمتد من انجلترا الى شمال الهند وصنع آلات من الصوان والحجر تنتمي الى صناعتين هما الصناعة الأبيفيلية وهي الأقدم Abbevillian والصناعة الأشولية Acheulian وهي الأحدث. كلتا الصناعتين تميزيا بفأس يدوية صوانية مشطاة

من الجانبين استخدمت في أعراض عدة. ولقد صاحب هاتين الصناعتين سميت بالكلاكتونية Clactonian وفيها تركز الاهتمام على الشظايا أكثر من الفؤوس اليدوية. وقد أوضحت الحفريات أنه اعتمد في غذائة على ما كان يلتقطه من النباتات والحشرات والحيوانات الصغيرة ويعيش قرب مجاري المياه في العراء أو في الكهوف حسبما يسمح المناخ. اما أعداده على سطح الأرض فكانت متواضعة وكثافة بالتالي شديدة الإنخفاض المناخ. أما اعداده على سطح الأرض فكانت متواضعة وكثافته بالتالي شديدة الإنخفاض. ففي ضوء الدراسات الإنثربولوجية المقارنة كانت كثافته شخصاً في كل بضعة عشرات وربما مئات من الكيلومترات المربعة. ويحلول العصر الحجري القديم الأوسط الذي اتفق مع دور فورم الجليدي (منذ نحو ٤٠ الف سنة ق. م) انتشر في جهات كثيرة من العالم مخلوق بشري آخر غير عاقل هو إنسان نياندر Homo- Neandertalenis التجأ الى الكهوف والمغارات في المناطق الشمالية الباردة ولكن على مقربة من المجاري المائية. وعاش أغلب حياته في العراء على المدرجات النهرية في المناطق الدفيئة في الجنوب. وتمكن من صنع آلات مختلفة من الشظايا الصوانية والعظام تنتمي الى صناعتين واسعتي الانتشار في أوروبا وأفريقية هما الصناعة الموستيرية Mousterian والصناعة اللفلواظية Levalloisia. وفي هذه المرحلة الحضارية بدأ الإنسان النياندري يحتال لصيد الحيوانات الكبيرة خاصة وأنه عرف كيف يستخدم النار. ولكن اعداده في المعمور كانت قليلة وكثافتة ربما لم تزد على كثافة الإنسان القديم. ومهما يكن من أمر هذا المخلوق فإنه لم يعمر على الأرض طويلاً فقد اختفى بعد نحو عشرة آلاف سنة منذ ظهر ليحل محله (الإنسان العاقل .(Homo- Sapeins

ومنذ ظهور هذا الإنسان وهو جاد في غزو آفاق الأرض المختلفة. فقد انتشر من موطنه الاول – أيا كان هذا الوطن – الى كل بقاع العالم القديم وجدّ في هجرته حتى بلغ العالم الجديد ربما عن طريق مضيق برنج ومن شواطئ الصين عبر المحيط. في هذه الأوطان الجديدة عاش الإنسان في جماعات صغيرة ردحاً طويلاً من الزمن (يقدر بنحو ٢٠ الف سنة) على الجمع والالتقاط والصيد. ويصنع آلات حجرية متنوعة تتباين فيما بينها تبعاً لتباين الأقاليم والنشأة. فلما حدثت الثورة الحضارية في العصر الحجري الحديث (بدأ منذ ٨٥٠٠ ق. م) على أثر اهتداء الإنسان الى استئناس الحيوان والزراعة فاض الغذاء خاصة في الشرق الأوسط وأصبح أكثر ضماناً فزاد سكان الأرض وارتفعت الكثافة السكانية نسبياً حيثما وجد زراع. وقد سمح هذا الفائض الغذائي بعد حين خاصة في وديان انهار النيل ودجلة والفرات والسند بان يقوم أفراد من المجتمع باعمال أخرى غير طلب الغذاء. ومن هنا كانت بداية ظهور الحياة المدنية أو بداية الثورة المدنية كما يقول ج. شيلد G. Childe فتحولت قرى ضيئلة الى مدن اولية زادت سكاناً وغنى على مر الزمن. وتقدم الإنسان خطوة أخرى في سبيل استغلال موارد الأرض عندما دخل المعدن الى حياته، وكان من أثر ذلك زيادة فائض الغذاء وزيادة السكان مرة أخرى. بل ان زيادة الفائض كان مقدمة لتبادل المنافع وقيام التجارة بين الأقاليم المختلفة. وواقع الأمر ان مراحل نمو السكان في الماضي كانت متصلة أوثق الصلة بمراحل التقدم التقني وباطراد نجاح الإنسان في استغلال موارد الطبيعة مما ادى الى إنتاج كميات أكبر من الغذاء وهذا ما يعنيه سور G. Sauer حين يقول:

" The history of human populations is a succession of higher and higger and higher levels, each rise to a new level being brought about by discovery of more food, either through occupation of new territory or through increase in food producing skill. The act of expansion into new habitats also stimulated food were therefore likely to generate a sustained growth potential and expansiveness"

السلالات البشرية:

وقد بدأت الجماعات البشرية تتباين في صفاتها الجسدية عندما ارتفعتا
قليلاً في سلم الحضارة في نهاية العصر الحجري القديم. ولربما ساعدت العزلة
ليس من السهل أن نكتب في النواحي الديمغرافية لهؤلاء السكان القدماء
وذلك لقلة ما تحت ايدنيا من أدلة. ولمن يمكن بالنظر في أحوال السكان البدائيين
في الوقت الحاضر ان نقول بان متوسط عمر الفرد كان ٢٧ عاماً وأنه نادراً ما
جاوز أحد سن الخمسين وأن النساء كن يمتن في سن مبكرة بالنسبة للرجال كما
كانت الأسرة صغيرة نظراً لكثرة وفيات الأطفال إذ قدرت بنحو ٢٢٠ في الألف.
الجغرافية الطويلة التي عاشت فيها تلك المجتمعات القديمة و كذلك عامل
الطفرة على ظهور اختلافات جسمية تميز أفرادها بعضهم عن بعض. وعلى
الرغم من أزدياد اختلاط السلالات البشرية في العصر الحديث فستظل توجد
ولمدة طويلة مجموعات ضخمة من البشر (سلالات) لها صفات جسمانية وخاصة
وسائدة وتعيش في أقاليم معينة. فتوجد اليوم السلالة الزنجية ذات البشرة السوداء
والشعر المفلفل والشفاه الغليظة والأنف الأفطس والفك البارز وهي تسكن افريقيا
وجزر المحيط الهادي ولكن مواطنها غير طيبة ولا جذابة لذلك فاختلاطها ببقية

السلالات الرئيسية كان على الارجح بطيئاً جداً طوال التاريخ. ثم هنـــاك الســـلالة المغولية ذات البشرة المائلة الى الاصفرار والشعر المستقيم والوجنــــات البـــارزة وطنها الأصلي في شرق آسيا ولكن دمائها تسربت نحو الغرب عبر سبيريا ونحـــو الجنوب الغربي والجنوب داخل قلب القارة ومن ثم الى الملايو وهنـــاك امـــتزجت بدماء غريبه. ومن الوطن الأصلي خرجت جماعات مهاجرة من المغـــول ربمـــا أدكن لوناً متجهة براً نحو مضيق برنج او بحراً عبر المحيط الهادئ الى أمريكـــا في العصر الحجري القديم. وانتشرت بمرور القرون في العالم الجديد وظلت لـــها السيادة في عالمها هذا حتى وصل الأوروبيون. وفي نطاق عريض مـــن الأرض يمتد من أوروبا وشمال أفريقية نحو الجنوب الشرقي عبر الشرق الأوسط والـــهند منتهياً في استراليا تعيش سلالة رئيسية ثالثة هـــي الســـلالة القوقازيـــة. وتمتـــاز الشعوب القوقازية بشعرها المموج او المجعد وعيونـــها ذات الالـــوان الزرقـــاء والعسلية والسوداء وبشرتها بظلالها من اللونين الأبيض والأسمر: الأبيـــض فـــي الأقاليم المعتدلة والأسمر في الأقاليم المدارية ودون المدارية.

السكان في بعض فترات التاريخ

محاولات الكشف عن التطور العددي لسكان العالم أو لسكان قطـــر مـــن الأقطار خلال التاريخ متعددة. وقد استندت هـــذه المحـــاولات الـــى المعلومـــات المتناثرة في كتب التاريخ والمؤلفات الأثرية والدراسات السكانية والانثربولوجيـــا الاجتماعية.

ومنها محاولة تقدير عدد سكان القارات المختلفة في أوائل العهد المســيحي وطبقاً لهذا التقدير فقد سكن أوربا ما يزيد على ٣٤مليون نسمة وكانت آسيا أكـــثر

القارات سكاناً فقد عاش فيها ما يقرب من ٣٧ مليون نسمة أما إفريقية فلم تكن أقل في عدد سكانها من اوربا فقد عاش فيها ما يقرب من ٣٠ مليون نسمة تركز أكثر من نصفهم في الإجزاء الشمالية. فعاش في مصر ٨ ملايين وفي بلاد المغرب ٦ ملايين وفي برقه ٥ ملايين. وفي الوقت الذي كان يسكن العالم القديم عشرات الملايين من البشر لم يكن يسكن العالم الجديد وأستراليا وجزر المحيط الهادي الا بضعة ملايين يعيش معظمهم في أمريكا الوسطى والجنوبية. ولا نكون بعيدين عن الصواب إذا قلنا ان المجموع الكلي لسكان العالم في أوائل العصر المسيحي كان يتراوح بين ٢١٠، ٢٥٠ مليون نسمة. وليس تحت أيدينا معلومات ذات قيمة عن تطور سكان العالم بعد ذلك حتى منتصف القرن السابع عشر. وكل الذي نستطيع ان نذكره ان عدد سكان اوروبا أنخفض في القرن السادس الى ٢٠ مليون نسمة وفي الألف سنة اللاحقة كان نمو سكان اوروبا بطيئاً جداً بل ربما توقف بسبب الحروب وانتشار الأوبئة والمجاعات. لذلك لم يزد عدد سكان القارة عن ١٠٠ مليون نسمة سنة ١٦٥٠ [1] ويبدو أن نمو سكان العالم الجديد ايضا كان بطيئاً ربما بنسبة أقل من ١و % في السنة خلال تلك الفترة الطويلة. فعند اكتشاف كولمبس لأمريكا في أواخر القرن الخامس عشر لم يكن فيها إلا نحو ١٠ ملايين نسمة.

وقد درس بنت M. Bennett التطور العددي لسكان العالم منذ سنة ١٠٠٠ م حتى ١٩٥٢ . وخرج بالنتائج الآتية:

١- تضاعف عدد سكان العالم ٨ مرات ونصف مرة خلال ٩٥٠ سنة

١ – يمثل عام ١٦٥٠م السنة التي تفصل بين عهدين في تاريخ السكان: عهد الزيادة البطيئة فيما سبقها من قرون وعهد الزيادة السريعة فيما لحقها من قرون.

٢- كان عدد سكان العالم في سنة ١٠٠٠م ما يقرب من ٢٧٥ مليون نسمة أو أقل من نصف عدد سكان اوروبا في سنة ١٩٥٠.

٣- لم يزد السكان في القرن الرابع عشر بل نقصوا

٤- في النصف الأول من هذا القرن زاد سكان العالم بحوالي ٨٠٠ مليون نسمة. وهذا العدد يربو على مقدار الزيادة في الفترة بين ١٠٠٠-١٨٠٠م. بيد أن نسبة الزيادة كانت تختلف من مكان الى أخر.

٥- كان توزيع السكان حسب الحرفة كما يلي ٥٥% زراع مستقرون، ١٥% زراع متنقلون، ١٠% رعاة، ١٠% صيادون وملتقطون للغذاء، ١٠% يعيشون في المدن ويمارسون الصناعة والتجارة والخدمات الأخرى.

من هذا يتبين أن زيادة السكان الطبيعية كانت منخفضة جداً قبل ١٩٥٠ إذ ربما لم تزد على ١/٥ في السنة. وتختلف الآراء حول بطء زيادة السكان فرأي يعزو ذلك الى انخفاض نسبة المواليد والرأي الثاني يؤكد انه يكمن في كثرة الوفيات. وانخفاض نسبة المواليد عند أصحاب الرأي الأول ترجع الى ما كان سائداً من تقاليد وعادات ومعتقدات. فقلة معاشر الزوجة واستباحه الرق والإجهاض وتحريم الزواج من فردين لأسباب دينية او اجتماعية وتأجيل سن الزواج او العزوف عنه كليه تؤدي الى قلة المواليد وبالتالي انخفاض نسبة الزيادة السكانية. ومن ناحية اخرى يرى أصحاب الرأي الثاني أن الأوبئة والأمراض المتوطنة والمجاعات والحروب والكوارث الطبيعية ووواد البنين والبنات وما ينجم عنها من هلاك للأنفس أهم من المعتقدات والتقاليد في تفسير بطء زيادة السكان في العصور وما قبلها. والرأي الذي نقبله هو ان هذه العوامل مجتمعة كانت مسئولة عن بطء زيادة السكان وإن كان بعضها زاد أثره في مكان وفي قرن عن

آخر. فوأد البنين والبنات مثلاً حرم بعد ظهور السميحية والإسلام ولم يكن افنـــاء الحروب للجماعات والجيوش على درجة واحدة طـــوال التـــاريخ وفـــي جـــهات الأرض المختلة كذلك أباح الإسلام تعدد الزوجـــات وفـــي نفـــس الوقـــت حـــرم الإجهاض.

الفصل الثاني
نمو سكان العالم في العصر الحديث ومبدأ مالتوس

أخذ عدد سكان العالم في الزيادة منذ أواسط القرن السابع عشر بيد أن هـــذه الزيادة اتسمت بالبطء النسبي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشـــر وبالســـرعة العظيمة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. ولكنه يجب ان نميز بين النمو الـــذي يرجع اساساً الى الزيادة الطبيعية والنمو الذي يرجع الى اشتداد تيار الهجرة الوافـدة. ويمكن القول ان نمو سكان العالم القديم كان بسبب تيار الهجرة الوافدة. ويمكن القول ان نمو سكان العالم القديم كان بسبب زيادة طبيعية بينما يرجع نمـــو ســـكان العـــالم الجديد واستراليا الى الهجرة الوافدة في الدرجة الأولى. والتي لم تشتد الا في القـــرن التاسع عشر الفترة ويتضح كل ذلك من الجدول رقم التالي الذي يبين تقديرات ســكان العالم بالمليون في الفترة بين ١٦٥٠-٢٠٠٠.

جـــــــدول رقـــم (٤)

القارة	١٦٥٠	١٧٠٠	١٧٥٠	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠	١٩٤٠	١٩٥٠	٢٠٠٠
امريكا الشمالية	١	١	١	٦	٢٦	٨١	١٤٣	١٦٦	٢٨٥
امريكا الوسطى	٦	٦	٥	١٠	١٢	٢٥	٤٢	٥١	٢٠٠
امريكا الجنوبية	٦	٦	٦	٩	٢٠	٣٨	٨٩	١١١	٢٦٤
اوروبا	١٠٠	١١٠	١٤٠	١٨٧	٢٢٦	٤٠١	٥٤٣	٥٥٩	٦٠٨
آسيا	٣٣٠	٤٠٠	٤٧٥	٦٠٢	٧٤٩	٩٣٧	١١٨٦	١٣٠٢	٣,٤٢١
افريقية	١٠٠	٩٨	٩٥	٩٠	٩٥	١٢٠	١٥٧	١٩٨	٦٧٥,٠
الاقيانوسية	٢	٢	٢	٢	٢	٦	١١	١٣	٢٥,٠
مجموعة سكان العالم	٥٤٥	٦٢٣	٧٢٤	٩٠٦	١١٣٠	١٦٠٨	٢١٧١	٢٤٠٠	٥,٧٠٣
نسبة الزيادة في ٥٠ سنة		%١٦,٨	%١٦,٨	%٢٤,٤	%٢٩,٢	%٢٩,٢	%٣٧,٣	%٥٣,٩	

وبذلك نجد أن عدد سكان العالم تضاعف في النصف الثـــاني مـــن القـــرن العشرين بما يزيد عن الضعف وذلك نتيجة لتقدم التكنولوجي والرفاه والتطور وتقـدم العلم وقله عددالوفيات وزيادة نسبه المواليد وخاصة في قارة آسيا التي يسكنها مـــا يزيد عن ثلثي سكان العالم.

وإذا تمعنا في الأرقام ابتداء من سنة ١٨٠٠ سنجد ان سكان العالم كـــانوا فزيادة مطردة وأن عددهم تضاعف بما يقرب من ثلاث مرات خلال ١٥٠ ســـنة (١٨٠٠-١٩٥٠) وأن أمريكا الشمالية تضاعف عدد سكانها بضع مرات فيما بيــن ١٨٠٠-١٨٥٠ لسبب تحول تيار الهجرة اليها بعد ان كان متجــها نحــو امريكــا اللأتينية وأن سكان الاقيانوسية وإفريقية لم يزيدوا إلا منذ بداية القرن العشـــرين . ويفسر ذلك بأن أستراليا ظلت قرون عدة لا تستهوي المهاجرين من البريطـــانيين بسبب بعدها وصعوبة الحياة فيها. وأن سكان إفريقية (الزنجية) تعرضـــوا خـــلال تلك القرون لمحن جلبها الأستعمار الأوروبي. فقد شرد الكثير منـــهم ووقـــع فـــي الأسر ليعمل رقيقاً في خدمة الرجل الأبيض في العالم الجديد.

سكان العالم في النصف الثاني من القرن العشرين:

قدر مجموع سكان العالم في منتصف ٢٠٠٠ بنحو ٣٥٠٠ مليون نســمة أي تضاعف عددهم تقريباً منذ ١٩٢٠. وبلغت كثافتهم الحسابية ٢٦ نســـمة فـــي الكم٢ على أساس أن مساحة اليابس تبلغ ١٣٥مليون كم٢ بإستثناء القارة المتجمـــدة الجنوبية. اما زيادتهم السنوية فتبلغ نحو ٥٦ مليون نسمة يقع القسم الأكبر منها في جنوب شرق آسيا. فأسرع القارات نمواً هي أمريكا اللاتينية ويقدر أن عدد ســكانها سيتضاعف قبل نهاية القرن العشرين فيصبح نحو ٥٠٠ مليـــون نســمة. وتقــف أوروبا على نقيض أمريكا اللاتينية فمعدلات النمو فيها تبلغ أقل من ثلث المعــدلات في أمريكيا اللاتينية بل لا تكاد تبلغ نصف المعدل العالمي. لقد بلغت أوربـــا فـــي القرن العشرين مرحلة تقرب من الثبات الديموغرافي بعد ان اجتازت فـــترة مـــن النمو السريع استغرقت القرن التاسع عشر. وتأتي آسيا (باســـتثناء روســيا) بعــد أمريكا اللاتينية ستبلغ خلال الجزء الباقي من هذا القرن ٦٧% وتأتي أفريقية بعـــد

أمريكا اللاتينية ستبلغ خلال الجزء الباقي من هذا القرن ٦٧% وتأتي أفريقية بعد آسيا في هذه الناحية فسيزيد سكانها بنسبة ٦٢% تقريباً. أما موقف أمريكا الشمالية فهو وسط بين أوروبا وأفريقية. وفيها يلي تقديرات لسكان القارات المختلفة في نهاية القرن العشرين كما اعلنتها مصادر الأمم المتحدة.

القارة	العدد بالمليون
آسيا (باستثناء الاتحاد السوفيتي	٣,٤٢١
إفريقية	٦٧٥
أوروبا	٦٠٨
أمريكا الشمالية	٢٨٥
أمريكا اللاتينية	٤٧٠
استراليا وجزر المحيط الهادي	٢٥
المجموع	٥,٧٠٩

ولكن ما سبب هذه الزيادة العظيمة وهذا النمو السريع في سكان العالم؟ كل الدلائل تشير الى أن ذلك كله هو نجاح الإنسان في التغلب على كثير من أسباب الموت والهلاك أيا كانت هذه الإسباب مع بقاء معدلات الخصوبة على أرتفاعها. فقلت الوفيات وإرتفعت نسبة الزيادة الطبيعية وطال أمد الحياة نسبياً. أما كيف حدث ذلك فأمر متصل أساساً بالتقدم الطبي والاقتصادي فضلاً عن التطور التكنولوجي والاجتماعي. فمما لا شك فيه ان الثورة الصناعية في غربي أوروبا مهدت لهذا التقدم وأثرت بطريق غير مباشر في زيادة السكان ليس في غربي

كالهند واندونيسيا. وكان تقدم الإنسان وإرتفاع مستواه التقني يعني مزيداً من إنتاج الأرض ويعني إنتشار التعليم وقدرة على مكافحة الأوبئة وتغيراً في العادات والتقاليد التي لا تلائم العصر. ويؤدي ذلك بالضرورة الى زيادة السكان زيادة سريعة أول الأمر ثم بطئها في آخر الدور السكانية عندما تبلغ الدولة مرحلة تقرب من الثبات. حدث ذلك في غرب أوروبا عندما تحول الاقتصاد فيها من الزراعة إلى الصناعة ثم حدث في البلدان التي أخذت بالصناعة بعد ذلك وحدث ايضاً في بعض الأراضي الجديدة التي عمرها مهاجروين أوروبيون كاستراليا ونيوزيلندة وكندا. وليس معنى ذلك أنه لا بد من قيام صناعة أو قدوم مهاجرين أوروبيين ليزداد السكان زيادة كبيرة. فهناك أقطار زراعية مثل الصين والهند وجاوة يصل الازدحام فيها حداً لا يقل عن ازدحامهم في الدول الصناعية الأوروبية إن لم يفقه. ويمكن أن نعزو هذه الزيادة المفرطة الى تحسين الأحوال الصحية بعض الشيء وقلة خطر المجاعات وتحسين طرق المواصلات واستتباب الأمن وتقدم طرق استغلال البيئة بصفة عامة.

ونمو المدن نمواً سريعاً على حساب الريف ظاهره تميز العصر الحديث كذلك. ففي عام ١٨٠٠ لم يزد عدد سكان المدن على ٦٤ مليون نسمة (من مجموع ٩٠٦ مليون) عاش أقل من نصفهم (٢٧ مليون) في مدن يزيد عدد سكان كل منها على ٥٠٠٠ نسمة ونحو ثلثهم (٢٢ مليون) في مدن يزيد عدد سكان كل منها على ٢٠ الفاً وعاش الباقي (١٥ مليونا) في مدن كبيرة نسبياً يزيد عدد سكان الواحدة منها على مائة الف نسمة. وبعد ١٥٠ سنة أي في ١٩٥٠ تضاعف سكان المدن ٢٨ مرة فقد بلغ عددهم نحو ١٨٠٠ مليون نسمة من أصل ٢٤٥٠ مليون نسمة عاش منهم في المدن الصغيرة (٥٠٠٠ فاكثر) ٧١٧ مليون أي نحو ٣٠%

من مجموع سكان العالم وعاش منهم في المدن الأكبر نسبياً (٢٠,٠٠٠ نسمة فإكثر) ٥٠٢ مليون اي ٢١% من جملة سكان العالم هذا بالإضافة الى ٥٨ مليون في المدن التي تزيد عدد سكان الواحدة منها على ١٠,٠٠٠ نسمة ونحو ١٠٠ مليون في المدن المليونية. وإذا علمنا ان حجم سكان العالم في خلال نفس الفترة لم يتضاعف إلا بنحو ٢ ونصف مرة لتبينا مدى أثر الهجرة من الريف الى المدن في تضخم حجم سكانها بهذه الصورة الخيالية.

هذه الزيادة العظيمة في سكان العالم وهذا النمو السريع في سكان المدن على حساب الريف تدفعنا الى النظر في مشكلة اكتظاظ الأرض بسكانها، فترة ليثار من جديد في العصر الحديث. وكان أول من قدم ملاحظات عن السكان هو جرونت J. Graunt الإنجليزي في النصف الثاني من القرن السابع عشر. فقد كتب رسالة مليون نسمة يعيشون بالقرب من لندن. وقد استطاع هذا العالم أن يحسب نسبة الوفيات والمواليد. رغم عدم اكتمال الاحصائيات وحاول أن يضع جداول للحياة رغم عدم وجود أعمار المتوفين. كذلك تبين أن الوفيات لا تحدث بطريقة عشوائية وإنما وفق نظام معين يخضع للظروف الاجتماعية والاقتصادية السائدة وأن الولادة والرغبة في الإنجاب مرتبط بعوامل بيولوجية كما يخضع هو الآخر لرغبات شخصية واعتبارات اجتماعية وأخلاقية. ويتبع جرونت سوسملش Sussmılch البروسي (القرن الثامن عشر) في محاولة تفهم مدلولات الاحصائية الحيوية واستنتاج عدد من العلاقات كالعلاقة بين نسب الزواج ونسب المواليد وبين الخصوبة وسن الزواج ونسب الوفيات وعمر الإنسان.

مالتوس:

وربما كان مالتوس T. Malthus (١٧٦٦-١٨٣٤) هو اول من كتب في السكان والغذاء وأنصت له الناس على الرغم من انه لم يكن أول من كتب في هذا الموضوع. فقد أثار كتابة (في مبدأ السكان) Essay on the Principle of population (١٧٩٨) خلافاً ومناقشات احتدمت فترة من الزمن وظهر له مناصرون ومعترضون. ولقد طور أنصار مالتس من بعده أراءه وأطلقوا عليها المالتوس الحديثة Neo-Malthusian وهي تقف على طرفي نقيض مع (الجدوينية الجدية) التي تدين بوجودها الى وليام جودوين احد المصلحين الأحرار في القرن الثامن عشر. وتتلخص نظرية مالتوس في أن السكان يتزايدون بسرعة أكبر مما يتزايد به الطعام اللازم لهم او بمعنى آخر بينما يتزايد السكان بمتوالية هندسية يتزايد غذاؤهم في أحسن الأحوال بمتوالية حسابية. وقد توصل مالتوس لهذه النتيجة على أساس آراء اقتنع بها فيما يتصل بحاجات الإنسان المادية وغرائزة الجنسية وإمكاناته التناسلية فالرغبة الجنسية رأية لا يمكن السيطرة عليها ومن ثم فإن الاستجابة لها تؤدي الى انجاب أطفال لا يجدون حاجتهم من الطعام. وهكذا ينشأ صراع خفي بين حاجات الجسم للطعام حتى يعيش وينمو ورغباته ودوافعه الجنسية. وبعد صياغة جديدة لنظريته لخص مالتوس آراءه في:

١- السكان مقيدون بأساليب حياتهم.

٢- يتزايد السكان بإطراد إذا ما توافر الغذاء إلا إذا وقفت دون ذلك عوائق إيجابية قوية كالحروب والأمراض والمجاعات والفيضانات ووأد الأطفال

٣- يمكن التخلص من هذه العوائق بالوازع الأخلاقي أو المانع الوحيد وذلك بتأجيل سن الزواج والتسامي بالغريزة قبل الزواج. ولما كان مالتوس يشك في

مقدرة الطبقات الدنيا على التعليم والزهد الجنسي فإن هذه الطبقات ستظل تحت رحمة العوائق الإيجابية القوية وستموت جوعاً أو بالحروب والمرض.

ولقد واجهت نظرية مالتوس معارضة قوية من جانب المتفائلين بمستقبل البشرية والمؤمنين بتطور الشعوب وبقدرة العلم على حل كل مشاكل الجماهير. فيردون على مالتوس وأتباعه بأن عدد السكان لا يزداد باستمرار فهو يكاد يقف عن زيادة في بعض الجهات والأحوال. فقد انخفضت الزيادة الطبيعية في غربي أوروبا في القرن العشرين بالنسبة لما كانت عليه في القرن التاسع عشر وقل عدد المواليد في كثير من دول أوروبا وقت الحرب العالمية الثانية. إذن فالإنسان حر وقادر على التقليل من نوعه ليس خوفاً من الموت جوعاً أو مرضاً ولكن رغبة في رفع مستوى معيشة أحفاده. اما ان السكان يزيدون وبنسبة أكبر من نسبة زيادة غلة الأرض ولذلك تسوء حالهم ويزداد فقرهم فأمر لا يؤيده الواقع ولا الإحصائيات. فقد ازداد سكان العالم الغربي في القرن التاسع عشر زيادة ضخمة ومع ذلك فقد أرتفع مستواهم المعيشي وزاد إنتاج الأرض. حتى في الهند التي زاد سكانها في النصف الأول من القرن العشرين زيادة كبيرة ولم تزد مساحة الأرض بنفس القدر لم ينخفض مستوى المعيشة فيها ليصير أقل مما كان عليه في القرن التاسع عشر.

ويبدو ان مالتوس وأنصاره أخطاوا في تقدير أثر التعليم في الطبقات العاملة وفي تقديم ما يمكن ان يقوم به العلم في مجال الغذاء وكشف مصادر له جديدة لم تخطر على بال أحد. حقاً إن سكان العالم ينمون بسرعة كبيرة في الوقت الحاضر بيد أن أحداً لا يستطيع ان يتنبأ بأن زيادتهم ستستمر الى ما لا نهاية.

وحتى الموانع القوية التي تضبط أعداد البشر إذا لم يضبطوا نموهم فقدت تأثيرها المانع منذ بداية القرن العشرين. فقد أمكن التغلب على انتشار الأوبئة وزالت أخطار المجاعات بفضل تقدم وسائل الأتصال والنقل ووجود فائض من الغذاء في مناطق من العالم في أي وقت من السنة وإن كان الفقر يزداد لتصبح جهات واسعة على حافة المجاعة بسبب عوائق مالية او سياسية يقيمها الإنسان وتمنع وصول الغذاء.

ويعترف المالتوسيون الجدد بأن مالتوس لم يكن يقدر مدى الزيادة في الطعام في الأراضي البكر في العالم الجديد ولا التقدم التقني في الزراعة ومثل السكان الى العيش في المدن وانتشار الوعي بتنظيم النسل وضبطه. هذه العوامل على اية حال أجلت كما تدعي المالثوسية الجديدة وقوع الموانع الإيجابية قرناً ونصف قرن وسوف تحل هذه الموانع وتهدد سكان العالم إذا لم يضبطوا عددهم. وقد أثارت آراء أنصار المالتوس الجديدة من أمثال فوجت W. Voget وأسبورن F. Osborn جدالاً عنيفاً وقامت بعض الهيئات وبعض الخبراء بالرد عليهم وتوضيح أن مخاوف المالتوسيه الجديدة فيما يتصل بانجراف التربة وضيق الأرض الصالحة للزراعة ووصول التربة الى حدها الأقصى في الإنتاج وبالتالي نقص الغذاء بسبب زيادة السكان – لا أساس لها من الصحة. فالطبقة السطحية التي تنجرف من التربة لا تعوق زراعتها وأن الإساليب الزراعية المتطورة يمكن ان تزيد الإنتاج رغم عدم خصوبة التربة وهذا يمكن من إعالة أعداد أكبر من البشر وأن الأرض الزراعية لم تستنفذ كل إمكانياتها حتى الآن رغم زراعتها لمدى مئات بل آلاف من السنين. وإذا كانت المالتوسية الجديدة تمثل الى المبالغة في التشاؤم فإن الجدوينية الحديثة تبالغ في التفاؤل بالنسبة للغذاء والناس.

فالحجدوينيون المحدثون يدخلون في اعتبارهم إمكانية زراعة الأراضي الواسعة في الأقاليم المدارية والعروض العليا وزراعة قاع المحيط ورفع غلة الفدان في البلدان المتخلفة بتحسين أساليب الزراعة وتركيب المواد الغذائية كيمائياً والزراعة في محاليل مائية بدل الزراعة في التربة. ومن الواضح أن هذه كلها ممكنات. بيد أن العقبات التي تحول دون توفير الغذاء للملايين الجائعة هي في الأساس الأول عقبات سياسية واقتصادية وحضارية ترتبط بالسياسة العالمية والقدرة الشرائية وبالنظم الاجتماعية والتقاليد. وقد يجوع الهندي ويموت لأنه لا يملك شراء ما يحتاجه من غذاء يملك منه الأمريكي والكندي الشيء الكثير. ونحن لا نقلل من خطر المشاكل السكانية ولا نتغافل عما يعانيه الجزء الأكبر من سكان آسيا وإفريقية وأمريكا اللاتينية من شقاء وتعاسة. ولكن لا شك أنها لن تستعصي على الحل إذا اجتمعت كلمة العالم على حلها. وحلها فيه خير للأغنياء والفقراء على حد سواء.

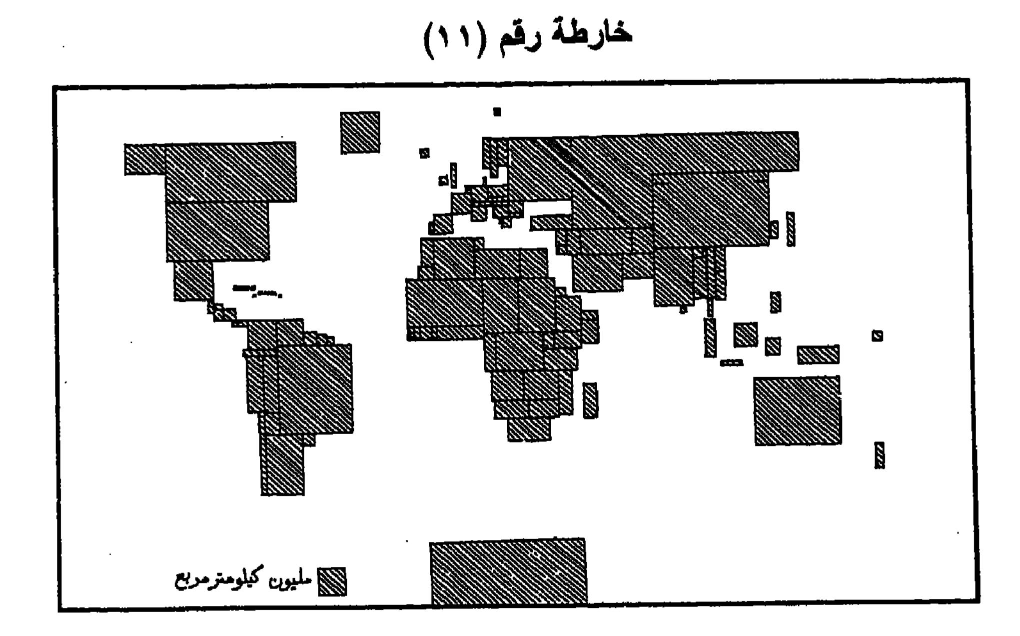
توزيع السكان

بمقارنة الكرتوجرام الذي يمثل مساحة دول العالم بالكرتوجرام الذي يمثل عدد سكان كل منها سنتبين مدى الاختلافات في توزيع البشر في أجزاء العالم المختلفة. فمن بين ٣٥٠٠ مليون نسمة سكان العالم عام ١٩٧٠ يعيش اكثر من نصفهم في آسيا ونحو ثلاثة أرباعهم في أوروبا ويضم العالم القديم ٨٦% منهم. سيتضح ايضاً ان ٢/٣ السكان يعيشون في ١/٧ المساحة الكلية لليابس وأن نحو ٣٠٠٠ مليون أو ١١/١٢ المجموع يسكن نصف الكرة الشمالي الذي يعتبر أرحب وأفضل من النصف الجنوبي. فنحو ٩٣,٥% من سكان العالم القديم يعيشون الى الشمال من خط الأستواء ونحو ٧٢% من سكان الأمريكتين فضلوا السكن هنا

أيضاً. هذا ويتركز معظم سكان العالم على مستويات أقل مــن ٤٠٠ مــتر فــوق سطح البحر.

ولا يقف اختلاف التوزيع عند هذا الحد فالسكان يتوزعون بشــكل غــير متعادل ولا منظم في العروض المختلفة. فالبرغم من اتساع اليابس الى الشمال من خط عرض ٦٠ ش كما في أمريكا الشمالية لا يوجد من السكان الا القليل جداً.

خارطة رقم (١١)



كارتوجرام يقارن بين مساحات دول العالم

ولعل أعظم احتشاد سكاني في العالم هو لذي يوجد بين خطي عرض ٢٠-٦٠ ش أي في المنطقة المعتدلة وأطراف المنطقة المدارية. ولكن أعظم اقليم يكتظ بسكانه في هذا النطاق هو جنوب وشرق آسيا ففيه يحتشد ما يزيد عن ١٥٠٠ مليون نسمة أو ما يقرب من ثلث سكان المعمورة. ويلي هذا الأقاليم في الاكتظاظ والتزاحم شبه الجزيرة الأوربية بما فيها روسيا الأوروبية حتى حدود الأورال. فهنا يعيش ١/٥ البشرية أو ما يقرب من ٦٠٠ مليون نسمة. وإقليم التركيز السكاني الثالث هو القسم الشرقي من أمريكا الشمالية وفيه يعيش ١٢٠ مليون نسمة او نحو ½ ٣% من جملة سكان العالم.

معنى ذلك كله ان اقليمي الاحتشاد الأول والثالث (ويقعان في المنطقة المعتدلة) مضافاً اليهما مركز الثقل السكاني في جنوب وشرقي آسيا تستأثر بنحو ٥٠% من سكان المعمورة. ولا ننسى ان نذكر ان في المنطقة المعتدلة توجد ايضاً مراكز ثانوية مثل الأطراف الشمالي والجنوبية الأفريقية وجنوب شرقي استراليا وإقليم لابلاتا في أمريكا الجنوبية والأقاليم الغربية في الولايات المتحدة. ونضيف أنه بينما يوجد نوع من التدرج في توزيع سكان المنطقة المعتدلة. فإن النطاق المداري تفاوت واضح في التوزيع. فهنا تكدس في مكان وفراغ في أماكن أخرى.

هذه هي المراكز السكانية الكبرى والثانوية. ويكمل الصورة التوزيعية للبشر نوى صغيرة واشرطة رفيعة تحتشد بالناس وتوجد موزعة في القارات المختلفة. نذكر منها الأحواض العليا في المكسيك والسواحل الشرقية والشمالية الشرقية للبرازيل وإقليم ساوباولو ووادي النيل الأدنى وبعض سواحل غربي

افريقية وجزيرة زنزبار وإقليم بحيرة فكتوريا والأراضي الخصبة ومنابع البترول مساحات شاسعة من العالم: الصحاري الجليدية والحارة وسلاسل الجبال والغابات المدارية الكثيفة في امازونيا.

رأينا ان عدم تجانس توزيع السكان على سطح الأرض من الحقائق الاساسية في جغرافية الإنسان. فهناك المناطق المكتظة بملايين السكان كوديان الصين الخصبة والبلاد الصناعية في شمال غربي أوروبا وهناك المناطق القليلة السكان كالصحراوات الحارة والباردة والجبال العالية وخاصة في العروض الوسطي والعليا والغابات المدارية المطيرة. وهذا يدعونا ان نسأل ما هي الأسباب او العوامل التي أدت الى عدم التجانس والاختلاف في توزيع البشر؟

وما هي مراكز القوى السياسية التي خلفها توزيع السكان مما كان له أكبر الأثر في توضيح خارطة الجغرافيا السياسية واعتبار نمو وتوزيع السكان على سطح المعمورة من المسببات الرئيسة في رسم وتوضيح معالم الجغرافيا السياسية التي هي موضوع كتابنا هذا.

خارطة رقم (١٢)

كارتوجرام يقارن بين سكان العالم

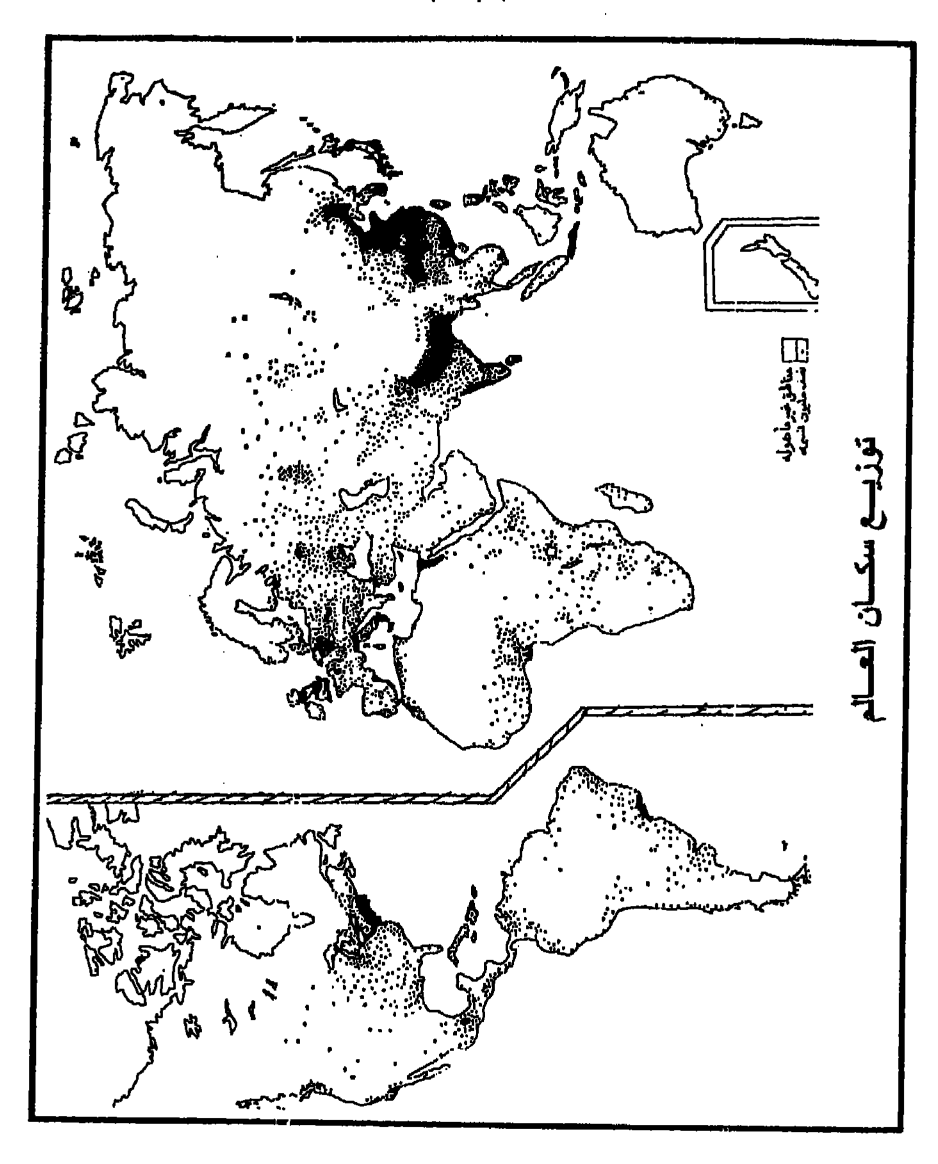
١٠ ملايين نسمة

قدرة الإنسان على التكيف:

وقبل أن نبحث في الأسباب قد يكون من المناسب ان نشير الى ان الطبيعة زودت جسم الإنسان بقدرة على التكيف بعد فترة من الزمن قد تطول او تقصير. فالعناصر البيضاء قد كيفت نفسها للعيش في البيئات المعتدلة والباردة. وكذلك فعلت الشعوب السوداء فقد تكيفت الوانها واجسامها لظروف البيئات الجارة. فاللون الأسود يمكن الإنسان من العمل وهو شبه عار وكثرة الغدد العرقية تعمل على تخليص الجسم من الحرارة الزائدة. بيد أن انتقال العناصر البيضاء للعيش في الأقاليم الحارة وهجر العناصر السوداء للعيش في في الأقاليم المعتدلة والباردة قد يتسبب عنه بعض المتاعب والإعراض مما قد يضطر المهاجر الى العودة الى وطنه الأصلي في بعض الأحيان.

وقد تبين ان مقدرة الأجسام على التكيف للظروف الطارئة يتوقف على الصحة والسن ونعومة الحياة وخشونتها. فالجسم السليم المعافى أقدر على التكيف من المريض الهزيل والأطفال أقدر على التكيف من الكبار وخشونة الحياة تساعد على تكيف الأجساد. لذلك ربما يكون الأحفاد المنعمون أقل مقدرة على التكيف في بيئة استطاع العيش فيها الآباء والأجداد. كذلك أثبتت الدراسات البيولوجية أن عنصر البحر المتوسط أقدر على العيش في البيئات الحارة من بقية العنصر البيضاء. وأن السود في الجهات المعتدلة لا يعانون كما يعاني البيض (وخاصة النورديون) في الأقاليم الحارة المطيرة. وربما تدين بعض الدول الأفريقية المدارية لهذه الظاهرة بالاستقلال الذي إنزعته من أمريكية بيضاء لم تقدم على المقاومة في ظروف بيئية غير طيبة.

خارطة رقم (١٣)



الفصل الثالث
السكان حضاريا وديموغرافياً

السكان حضاريا:

تهتم الجغرافيا السياسية بدراسة السكان الذين يدينون بالولاء للدولة وتـهتم بناحيتين:

- **الأولى:** الناحية الحضارية او الانتروبولجية وتشتمل على السلالة والمقومات الثقافية او الحضارية التي تجعل منهم أمة وأكثر خاصة اللغة والدين.
- **الثانية:** الناحية الديموغرافية وهي تعطي فكرة عن عدد السكان وبالتالي عن مقدار قوة الدولة وحيويتها وقيمتها في المجال الدولي وهذه الدراسة تقوم على الاحصاء.

أما عن الناحية الانتروبولجية فسبق أن أشرنا أن الدولة تطور تاريخي بمعني ان جماعة من الناس التصقت بوطن من الإوطان وكونت شعباً معيناً وأقامت دولة وتطورت تطوراً حضارياً أو ثقافياً معيناً وكونت تقاليد خاصة بها أو لهجة مختلفة عن جيرانها وكونت عاطفة معينة نفوس أفرادها نحو هذا الوطن بحيث أصبحوا شخصية متميزة تطلق على نفسها أسم أمة. وقد يكون لهذه الأمة دولة أو تنطوي تحت لواء دولة أخرى.

١-اللغة:

وتتمثل مقومات الأمة وخاصة النواحي الحضارية منها التي أهمها اللغة والدين بجانب الأصول المشتركة، بنسب مختلفة في تكوين الأمم. ويمكننا القول أن اللغة أهم مقومات الأمة والحاجز اللوني أهم الحواجز التي تفصل السلالات بعضها عن بعض فاللغة العربية مثلاً هي الرباط الهام الذي يربط شعوب العرب ويجعلهم امة واحدة تمتد من المحيط الى الخليج.

ونشأة اللغة البرتغالية ميزت البرتغاليين وفصلتهم عن الإسبان وحتى في اسبانيا هناك شبه قوميتين قائمتان على اللغة القطالونية واللغة القشتالية.

في الجزر البريطانية سادت اللغة الإنجليزية على اللغات الغالبة القديمة بعد أن فرض الأنجلو سكسون أنفسهم سادة وحكاماً على سكان الجزيرة، مما أدى الى اندثار بعض اللغات الغالية القديمة مثل لغة كورنول. واتفاق المهاجرين الأوروبيين الى أمريكا الشمالية في لغة واحدة هو في النهاية الأساس الذي تكونت عليه الأمة الأمريكية. وقد عملت القوميات الحديثة التي كونت دولاً بعد الحرب الأولى على عدم قوميتها بجعل لغتها هي اللغة الرسمية الوحيدة وفرضها على الإقليات اللغوية والقومية الموجودة داخل حدودها. ونلاحظ على أن بعض الدول عملت على أحياء لغتلها القديمة كإحياء اللغة العبرية في إسرائيل او اللغة الكلتية في ايرلندا الحرة،ومحاولة الفرنسيون أحياء اللغة البربرية في الجزائر وإنشاء قومية بربرية تناهض بها القومية العربية السائدة في شمال أفريقيا.

وقد اعترفت الدول بوجود أكثر من لغة بها ففي اتحاد جنوب أفريقيا تعتبر لغة البوير (وهي هولندية قديمة) اللغة الرسمية بجانب اللغة الإنجليزية. وفي كندا تعتبر اللغة الفرنسية لغة رسمية بجانب الإنكليزية، وفي بلجيكا لغتان رسميتان: لغة الفلمنك ذات الأصل الجرماني في الشمال ولغة الوالون ذات الأصل اللاتيني في الجنوب.

وتوجد في سويسرا أربع لغات هي الفرنسية والألمانية والرومانشية والإيطالية ويصل عدد اللغات أقصاه في الهند حيث توجد أكثر من ٢٠٠ لغة مختلفة، وفي الملايو اثني عشر لغة آسيوية ومن ثم كان لا بد من إيجاد لغة عامة متفق عليها تسمي اللغة الشائعة أو لغة التخاطب Lingua Franca

٢- الدين:

رغم أنه عنصر هام في بناء المجتمع إلا أنه في المجتمعات المتطورة ليس عاملاً حاسماً في تكوين القومية بل ربما كانت اللغة ابلغ اثراً في التمييز بين الشعوب وتكوين القوميات من الدين. ولا يشذ عن هذه القاعدة سوى اقتران الدين اليهودي بالقومية الصهيونية من ناحية واقتران الدين الإسلامي بالقومية الباكستانية من ناحية أخرى وهاتان هما الدولتان الوحيدتان في العالم اللتان تقومان على اساس الدين في الوقت الحاضر باستثناء الفاتيكان وهي مقر البابا الرئيس الروحي للكنيسة الكاثوليكية في العالم. ولا شك ان العاطفة الدينية تربط الشعوب بعضها بالبعض الآخر عبر الحدود السياسية المرسومة فهناك عاطفة قوية تربط دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية بالدول الكاثوليكية باوروبا، وللبابا نفوذ سياسي لا شك فيه في كثير من الدول الكاثوليكية مما جعل بعض الدول تعمل

على فصل الدولة عن الكنيسة مثل فرنسا، وفي بلجيكا التي حولت ابعاد الكنيسة الكاثوليكية. غير ان عوامل القومية قد تغلبت في بعض الأقطار القومية على الدين. والإسلام يعتبر قوة دينية كبيرة في العالم وهو يتكتل وينتشر من المحطي الاطلسي غربا حتى غرب الصين شرقا ومن البحر الأسود وقزوين شمالا الى خط الأستواء جنوبا وهذه القوة نمت بالتدريج من نواتها الأولى في شبه جزيرة العرب وبعد قرن من الزمان كانت قد امتدت وشملت العالم العربي كما نعرفه في الوقت الحاضر، ومنه أنتشر الإسلام بالتدريج شمالا وشرقا في آسيا كما انتشر عبر الصحراء الكبرى في أفريقيا الى إقليم الحشائش ومن شرق أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية انتشر عبر المحيط الهندي مع التجار العرب الى جزر اندونيسيا ولم يعرف هذا العالم الإسلامي الكبير الوحدة السياسية الكاملة في تاريخية الطويل، غير أن إجزاء كبيرة منه عرفت تلك الوحدة في فترات من تاريخها مثلا أثناء الدولة العباسية. ويعتبر العالم الإسلامي بقومياته المختلفة (وهي العربية الإيرانية والتركية، والاندونيسية) وحدة ثقافية من ناحية الدين والتقليد وأن اختلفت اللغات.

ومن الدول التي تكونت في الوقت الحاضر " حديثا" على اساس الدين الإسلامي الباكستان واندونيسيا رغم أن اندونيسيا لم تزعم انها استقلت على اسلس الدين ولكن فكرة باكستان قامت على أساس فصل الإقلية المسلمة الكبيرة التي بلغت ١٥% من سكان الهند بثقافتها ولغتها عن الإغلبية الهندوكية.

أن الدول التي تكون الغالبية العظمي من سكانها أي ٩٠% فما فوق من دين واحد لا توجد فيها عادة مشاكل إقليمية دينية. فمصر وشمال أفريقيا حتى السودان وشبه جزيرة العرب والدول العربية الآسيوية ما عدا لبنان، وتركيا

وإيران وأفغانستان وباكستان واندونيسيا ذات اغلبيات عظمي إسلامية واسبانيا والبرتغال وايطاليا وفرنسا وجمهورية أمريكا واسبانيا والبرتغال وايطاليا وفرنسا وجمهوريات امريكا الوسطى واللاتينية تتكون من غالبيات كاثوليكية ودول اسكندناوه واستراليا وجنوب افريقيا اغلبيتها العظمي بروتستانتية. اما دول البلقان فغالبيتها العظمي ارثوذكسية.

أما الدول ذات الأغلبية الكبيرة من الناحية الدينية فهي التي يتكون ٦٠-٨٠% من سكانها من دين واحد، فالولايات المتحدة الأمريكية توجد بها أقلية كبيرة كاثوليكية تتركز في شرقي الولايات المتحدة وفي الولايات الجنوبية القريبة من المكسيك، اما في أوروبا فهناك نطاق يعتبر منطقة انتقال بين الدول الكاثوليكية والدول البروتستانتية هذا النطاق يمتد من بحر الشمال الى بحر البلطيق شمالاً حتى جبال الألب. وهناك اقلية كاثوليكية في الجزر البريطانية بينما معظم الايرلنديين كاثوليك والفلمنك في بلجيكا بروتستانت بينما الوالون كاثوليك. وهناك اقلية كاثوليكية كبيرة ايضاً في المانيا.

هذا بينما يوجد ٢٧% من السكان بروتستانت في المجر الكاثوليكية توجد اقلية بروتستانتية كبيرة في شمال ايرلنده. اما بولندا فهي معقدة الى حد كبير فنجد اغلبيتها الكبيرة كاثوليكية ثم ١٢% ارثوذكسية و ٢% بروتستانت. وكان هناك ١٠% يهود ولكن معظمهم هاجر الى فلسطين. والإقليات الإسلامية الموجودة في أوروبا هي التي بقيت بعد انسحاب الأتراك من البلقان: هؤلاء من السكان المحليين الذين دخلوا الدين الإسلامي اثناء الحكم الإسلامي للبلقان او من بقايا الحكام والجنود-والتجار الذين آثروا البقاء في البلقان واتخذوه وطنا لهم. واعظم فئة اسلامية في البلقان تتركز وسط البانيا حيث يكونون ٧٠% من السكان ويحيط

٢٠% من الارثوذكس في الشمال و ١٠% من الكاثوليك في الجنوب كما توجد اقليات اسلامية قديمة في كل رومانيا وبلغاريا واليونان وخاصة في مقدونيا. أما يوغسلافيا فهي تشبه بولندا في تكوينها الديني إذا ان الكروات قد تأثروا بالكاثوليك ويكونوا ٣٧% من السكان بينما الصرب ارثوذكس ويضاف الى ذلك إقلية إسلامية كبيرة تبلغ ١٦% من السكن في منطقتي البوسنة والهرسك.

وفي أفريقيا ينتشر الإسلام في الشمال والصحراء الكبرى واقليم السفانا، كما يتوغل الى أطراف الغابات المدارية والأستواية في غرب أفريقيا. وتتراوح نسبة المسلمين بين أكثر من ٨٠% في الصومال وحوالي ٥٠% في نيجيريا وتعود الى الارتفاع الى حوالي ٧٠% في السنغال وغينيا وسيراليون. وكذلك في شرق القارة مظهر اقليات إسلامية في كينيا واوغندا وتنزانيا، واعداد أقل في موزمبيق ومدغشقر.

وعلى العموم يمكن أن نقسم أفريقيا الى ثلاثة نطاقات الشمالي مسلم والجنوبي وثني فيما عدا المستوطنين الأوروبين، والوسط توجد فيه العقائد الثلاث بدرجات متفاوته.

أما آسيا فتوجد إقليات مسيحية في دول الشرق العربي ففي سوريا ٢٠% مسيحيون و ٨٠% مسلمون وفي لبنان تتساوى الفئات الإسلامية والمسيحية، أما فلسطين فلها وضع خاص حيث كانت نسبة اليهود ١٠% في بداية الانتداب البريطاني ثم أصبح ٣٠% في نهاية الانتداب وقد زاد هذا نتيجة لسياسة الهجرة اليهودية التي نفذتها بريطانيا في فلسطين وقد اقتطعت اجزاء من فلسطين وتشمل السهل الساحلي والجليل وصحراء النقب ومرج ابن عامر وكونت ما يعرف بدولة

اسرائيل ولكن عدد اليهود تطور من ٣٨٦ الف سنة ١٩٣٧ الى ٢,٣٧٦,٠٠٠ الى ٢,٥٠٠,٠٠٠ سنة ١٩٦٥وبعد حرب ١٩٦٧ نشطت الهجرة اليهودية الى فلسطين حيث بلغ عدد اليهود في فلسطين سنة ١٩٩٠ حوالي أربعة ملايين يهودي جاءوا من انحاء العالم بينما بقي عدد العرب في فلسطين لا يتجاوز مليونين نسمة.

وفي بعض الجمهوريات السوفتية اغلبيات إسلامية كبيرة مثلاً ٦٥% القزاق (قوزاق) وفي تركستان الروسية ٧٥% من السكان مسلمون. اما الصين ففيها اقلية إسلامية تبلغ ٢٠ مليون نسمة معظمهم في الولايات الغربية وفي جنوب شرق آسيا ٥٠% من سكان الملايو مسلمون و ٩% من سكان الفلبيين مسلمون ويعتبر هؤلاء أطراف الأغلبية الأحيان بالقومية، ونفصل عنها في أحيان أخرى فالقومية الصهيونية دينية في الأصل وهي المسؤلة عن أنشاء إسرائيل أما في البلاد العربية فالثقافة إسلامية والدعوة القومية تقوم على أساس اللغة.

٣-السلالة:

يقسم العلماء سكان العالم الى سلالات رئيسية لكل منها صفاتها الجسمانية الخاصة والتي تميزها كمجموعة وتفصلها عن غيرها من السلالات الأخرى وأهم هذه الاسلالات الرئيسية البشرية هي القوقازية، المغولية والزنجية وقد ذكرنا صفات كل سلالة في الفصل السابق بجانب بعض سلالات أخرى ثانوية. وتتقسم السلالات الرئيسية الى سلالات فرعية عديدة مثلاً السلالة الرئيسية القوقازية التي تتقسم الى السلالة النوردية والسلالة الألبية وسلالة البحر المتوسط.

وقد اختلطت هذه السلالات منذ فجر البشرية بوسائل الاختلاط الكثيرة عن طريق الغزوات والهجرات والزواج وأصبحنا حالياً لا نجد سلالة بشرية نقية الا

فيما ندر بين اشد الشعوب بدائية وعزلة مثل الأقزام في داخل الغابات الآستوائية. ولا بد ان نميز بين السلالة بمفهومها البيولجي وهي عبارة عن جماعة تتصف بصفات جسمانية معينة تميزهم عن غيرهم من الجماعات الأخرى وبين الاصطلاحات الأخرى اللغوية أو الدينية او القومية التي حصل خلط بينها وبين مفهوم السلالة. مثال ذلك الاصطلاحات التي انتشرت لفترة من الزمن السلالة الآرية أو السامية او السلالة اليهودية او السلالة العربية وهذا خطأ لأن هذه الأصطلاحات كما سبق وأشرنا اصطلاحات حضارية (لغوية أو دينية) ولا شك أن الدين يصرون على استعمال الخطأ لهذه الاصطلاحات هم دعاة العنصرية والقومية السياسية.

والواقع انه نتيجة الاختلاط الشديد الذي حصل بين السلالات نجد الشعوب مكونة من اختلاط اكثر من سلالة ولذا لا توجد مشاكل سلالية الا حيث توجد جماعات من سلالات مختلفة يسهل التعرف عليها بسرعة وتعيش معاً في دولة واحدة كما في الولايات المتحدة الأمريكية حيث توجد المشكلة الزنجية وكما في جنوب أفريقيا حيث تظهر بشدة مشكلة الملونين وفي استراليا قوانين الهجرة القائمة على اساس التميز العنصري.

المشكلة السلالية في الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية:

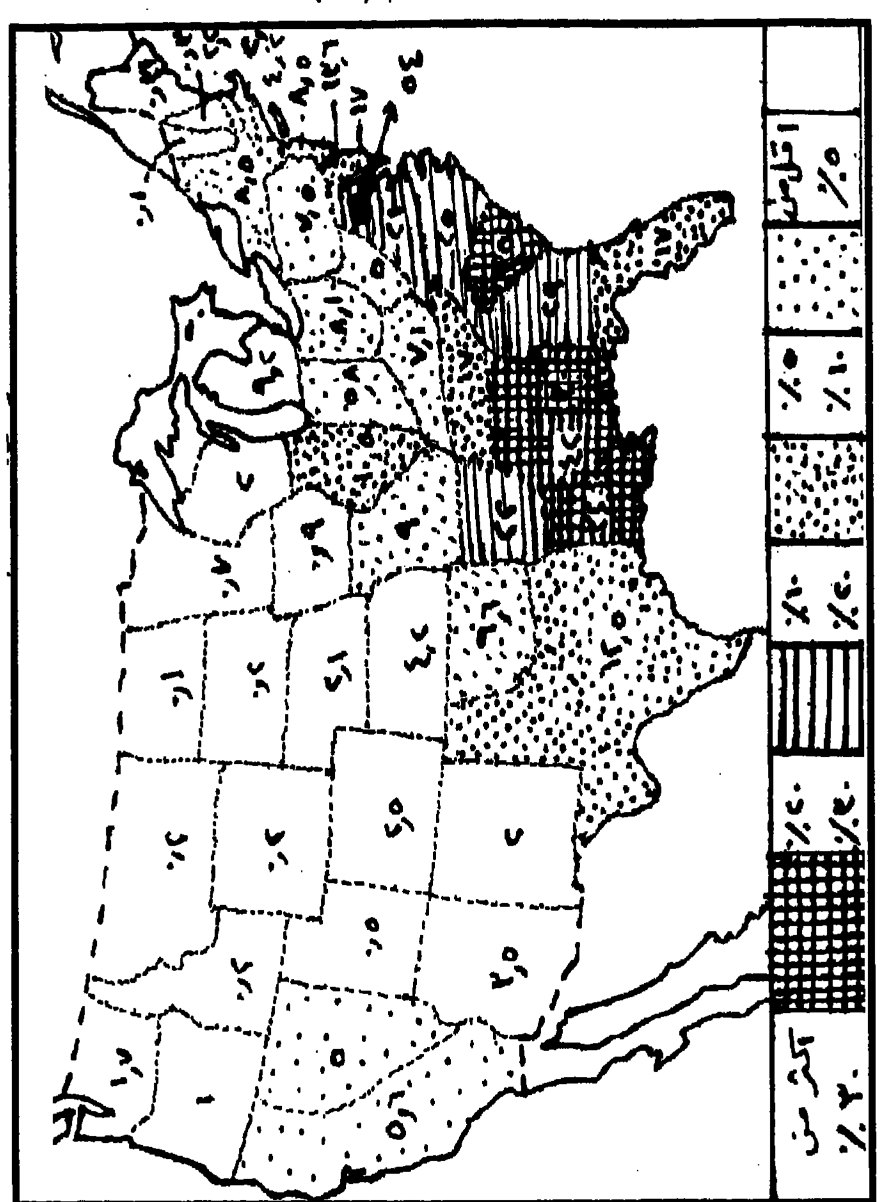
ان سكان الولايات المتحدة – برغم ان غالبيتهم الساحقة من الأصول الأوربية– يكونون خليطاً كبيراً من السلالات العالمية الرئيسية. فهناك ٣٥٠ الفاً من سلالة الامرنيد (الهنود الحمر) وهم السكان الأصليين لأمريكا والذين ابادت الحروب البيضاء معظمهم لكن اكبر المشاكل السلالية هي الناحية عن وجود المغول والملونين.

والخوف الأكبر للبيض ليس راجعاً فقط الى الخوف من الاختلاط السلالي وفقدان لون البشرة الأبيض والصفات القوقازية الأخرى. إنما ما يثير الخوف هو ان ازالة كافة أنواع التمييز العنصري سوف يؤدي الى منافسة قوية لكل الملونيين في أشكال الحياة الاقتصادية والسياسية، وبذلك ينزل الأبيض الفقيره من مكانته الاجتماعية التي يكتسبها لمجرد لون بشرته.

وفي الولايات المتحدة حوالي ٢٥ مليوناً من الزنوج (١٩٩٠) غير اولئك الذين تسربوا داخل اكتلة السكانية البيضاء. وهم يتركزون أساساً في عدد من الولايات الجنوبية ويكون اكثر من ثلث سكان هذه الولايات عامة، بينما تقل نسبتهم الى مجموع سكان الولايات الأخرى كلما اتجهنا شمالاً. (انظر الخريطة رقم ١٤) ويتضح هذا التتابع على الساحل الشرقي بوضوح شديد فنسبة الزنوج في كارولينا الجنوبية ٣٥% تنخفض الى ٢٥% في كارولينا الشمالية، والى ٢١% في فرجينيا ١٦% في ديلاوير و ٨,٥% في نيوجرسي ونيويورك و ٤,٢ في كونيكتيكت و ٢،٢% في ماسانشوستس و ٠,٣ في نيوها مشايرومين.

ويتكون ٢٠% من سكان السكا من الامريند والاسكيمو، بينما ٣٢% فقط من سكان ولاية هاواي هم من الأوروبيين. والى جانب ذلك توجد اقليات صينية ويابانية مركزة في منطقة الساحل الغربي الأمريكي. لكن التمييز العنصري موجه بعنف ضد الزنوج اكثر منه ضد غيرهم، ويرجع ذلك الى كثرتهم العددية التي تساوي في مجموعها حوالي ١٠% من مجموع سكان الولايات المتحدة ككل.

خارطة رقم (١٤)



الزنوج في الولايات المتحدة (نسبة الزنوج المئوية الى عدد سكان كل ولاية)

ولا شك ان مشكلات الإقليات عامة والزنوج خاصة تميل الى أضعاف التضامن والتواحد السياسي العام أمريكا. ويرى البيض ان حل المشكلة يكمن في بقاء الزنجي مستقلاً اجتماعياً بينما هو مندمج اقتصادياً في العمل الأمريكي. لكن الزنوج يرفضون هذا الاستغلال الاقتصادي، وتنادي هيئاتهم السياسي المتطرفة باستقلالهم في ولاية واحدة مثل كارولينا وجورجيا.

اما أمريكا اللاتينية فهي تختلف عن ما تقدم اذ حدث فيها اختلاط كبير بين سلالات متباينة يمكن ارجاع عناصر السكان الى ثلاث مجموعات هي:

١-الهنود الأمريكيون (الامرنيد)

٢- الأوربيون

٣-الزنوج.

ويتركز الهنود الأمريكيون في الجمهوريات الشمالية الغربية من أمريكا اللاتينية حيث كانت تقوم مدنيات هندية قديمة ففي جمهورية المكسيك كانت حضارة الازتك وفي جمهورية جواتمالا حضارة المايا وفي الاكوادور وبيرو وبوليفيا كان حضارة الانكا. والهنود يكونون أغلبية عددية في كل من بوليفيا وجواتمالا ونصف سكان بيرو ولهم اقلية كبيرة في المكسيك اما الأوروبيون فاغلبهم من سكان جنوب أوروبا واقدمهم الاسبان والبرتغال وهم يكونون طبقة كبار ملاك الأراضي ويتركز هؤلاء بالأرجنتيين وبارجواي ويوجد معهم عدد كبير من السوريين واللبنانيين وكذلك في شيلي. وتكاد هذه الجمهوريات الثلاث تكون خالية من الهنود او الزنوج ويفوق عدد الأوروبيون فيها عدد العناصر المختلطة (المستيزو) كذلك يفوق عدد العنصر الأوروبي العناصر المختلفة والهندية في اورجواي وفي كوستاريكا.

اما الزنوج فتركز عددهم في الجمهوريات الاستوائية الحارة في البرازيل وفنزويلاً كذلك في جزر البحر الكاريبي في بنما وجمايكا وهايتي وتقل نسبتهم في بقية جمهوريات امريكا اللاتينية وقد اختلط الزنوج بالبيض لأن البرتغاليين لم ينفروا من الزواج كما نفر الأوروبيون الاخرون. ويقبل سكان هذه الجمهوريات أصولهم الزنجية بنفس الروح التي يقبل الأمريكي في الولايات المتحدة اصله الايطالي او التشيكي. ونشأ عن اختلاط الزنوج بالأوربيين عناصر المولاتو وعددهم في العالم الجديد حوالي ٨ مليون نسمة كذلك حدث اختلاط بنسبة قليلة بين الزنوج والهنود الأمريكيين وحدث اختلاط أكبر بين الأوربيون والهنود الأمريكيون والعناصر الجديدة هي التي تسمى بالمستيزو. وتسود عناصر المستيزو في بعض الجمهوريات فهي في بارغوى ٩٧% من السكان وفي فنزويلا ما بين ٧٠، ٩٠% مستيزو وعددهم في امريكا الجنوبية حوالي ١٦ مليون ويقدر بعض الكتاب نسبة الاسبان والبرتغالين الخلص بحوالي ١٠% من لسكان. وتدل القرائن على أن القارة قد انصهرت فيها عناصر مختلفة واختلط فيها ايضاً النولدون. وقد تنتهي هذه العملية بسلالة واحدة يغلب فيها صفات الأوروبين والهنود الأمريكيين فتصبح أمريكا اللاتينية المثل الصالح للتسامح العنصري ولا سيما إذا اقترن هذا برفع مستوى الطبقات الفقيرة التي يحتشد فيها الهنود الامريكيون والزنوج والمولدون والنستيزو.

الدول الناضجة عنصريا:

ونختم هذا الموضوع بالإشارة الى ان الدول التي تكون من سلالة واحدة قليلة العدد في الوقت الحالي وتختلف الدول من تجانسها السلالى فقد يكون التكوين

للدولة من الناحية السلالية من ناجية تجانسيها بسيطاً او ملتئم او مركب فـــالتكوين البسيط هو الذي لا يلحظ فيه الغريب اي تنافر سلالي في الشـــعب الـــذي يكـــون الدولة فمثلاً المصريون فمتجانسون اتم تجانس رغم تعدد السلالات التي دخلت في تكوينهم إذا استطاعت البيئة المصرية على مدى القرون ان تتمثل جميع العنـــاصر التي دخلتها بحيث أصبحت جميعاً مصرية وتشبه هذه الحالة ايضا الأمة الفرنســية فهي امة متجانسة رغم وجود ثلاث سلالات اوربية رئيسية ممثلة داخلها فقد حدث الانصهار والتمثيل وخلال تاريخها الطويل بين العنصر الغالي الكلتي والعنـــاصر النوردية وامتزجت الثقافتان وكون أصول الثقافة الفرنسية الحديثة رغـــم وجـــود عنصر الباسك في الجنوب الغربي والبريتون في شبة جزيرة برتني.

ويتمثل التكوين الملتئم في جمهوريات العالم الجديـــد إذا أن مـــن الســـهل التعرف على عناصر السكان المختلفة دون عناء كبير في اي وحدة سياســية فيـــه ويمكن اعتبار البريطانيين تكوينا ملتئماً فهناك ثلاث قوميات لكل لغتها المتمـــيزة. وهي الانجليزية والغالية والاسكتلندية، هذا رغم وحدة اللغـــة والتقـــاليد ووحـــدة المصالح المادية والفرص الواحدة المتساوية امام هذه القوميات جميعاً في العمـــل والحكم وكانت كلها عوامل تمثيل قوية تؤدي الى وحدة قومية واحدة.

أما التكوين المركب فهو لا يميز الا الدول التي لم تتضـــح قوميـــاً وهـــذا التكوين يشبه تكوين العناصر التي لم تمتزج الى جانب احتفاظ بعضها ببعض كـــل منها بشخصيتة الحضارية بل وولائة القومي ومن ثم كان هذا التكويـــن مصـــدر ضعف للدولة ومن ثم ايضاً كانت المشكلة التي يطلق عليـــها مشـــكلة الاقليـــات. وتنقسم الإقليات الى اقليات قومية واقليات غير قومية والإقليات القومية هي التـــي تدخل في تكوين القومية الأصلية في الدول مثل الفرنسيون في كندا والإيطـــاليون

في الارجنتين والألمان في البرازيل وشيلي، كذلك اقليات قوميـــة ســلالية مثــل الزنوج في الولايات المتحدة واليابانيون في البرازيل والباسك في فرنسا والاتــراك في بلغاريا واللاب في السويد أما الاقليات غير القومية فبعضـــها قـانع راضـي بوضعة في الدولة التي وجد نفسه فيها وبعضها له ميول للانفصال والانظمام الــى بقية قويمتها خارج الحدود. من الأمثلة على القنوعين الدانمركيين والهولنديون فــي المانيا وعددهم قليل، كذلك الكروات والسلوفين الموجودين في جنوب شرق النمسـا وكلاً وكلاجنفورت في جنوب النمسا والارمن في تركيا وفي سوريا، والايطـاليون في ساحل دالماشيا (الساحل الشرقي لبحر الادرياتيك) وفي اعقاب الحــرب الأول عقدت تركيا عدة اتفاقيات مع اليونان ورومانيا اعيد بمقتضاها الاتراك الموجــودة في اليونان ورومانيا الى تركيا. واخطر الإقليات جميعاً هـــي التـــي تـامل فــي الانضمام الى الدولة الأم ولقد استغل القوميون المتطرفون هذه الإقليــات توســعية فالحزب النازي المسئول عن احياء حركات الانفصاليين فــي بولنــدا والســوديت وكانت المانيا العظمى في نظر الحزب تشتمل كل مكان يكون فيه المـــاني بغــض النظر عن القوميات الأخرى. والالمان موجودون خارجها لأن حدودها لاســباب اقتصادية وتاريخية وسياسية عديدة لم تستطع ان تضمهم جميعاً فهناك الالمان فــي شلزويج (جنوب الدنمارك) والألمان الموجودين في بلجيكا في اقليم مالميدي وفــي التيرول الايطالي وفي سويسرا وفي اقليم بانات في رومانيا ويوغسلافيا والالمـــان الذين كانوا يسكنون في دول البحر البلطي مع الالمان الذين يسكنون شــرق نــهر الأودر قد نقلوا عبر الحدود الى المانيا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانيــة وهــي احدى عمليات نقل السكان الكبيرة التي تمت بعد الحرب العالمية الثانية فلم يبقــى الالمان في ممل او بروسيا الشرقية او الممر البولندي القديم او سيليزيا العليا.

وتوجد اقلية مجرية في اقليم الزنكلر في رومانيـــا وقــد طلــب هــؤلاء الانضمام الى المجر عندما خضعت للغزو الالماني خلال الحرب العالمية الثانيـــة، وتعمل المبادئ الماركسية على اذابة الخلافات بين الاقليات، وخاصة فـــي البلقـــاء يمتلى باقليا لغوية ودينية كثيرة في رومانيا ويوجسلافيا على وجه التحديـــد. ولــم يحن الوقت الكافي لمعرفة نتائج السياسة الجديدة وانعكاســاتها علـــى التركيبـــات السكانية المخالفة داخل الدول – سواء كانت سلالية او لغوية او حضارية؟

السكان ديموغرافيا

يبلغ عدد سكان العالم الآن حوالي ٥,٥ مليار من الأشخاص، وقد كان عدد سكان اقل من مليارين في عام ١٩٢٥م .

وتوزيع سكان العالم بطريقة غير متعادلة على اجزاء العالم . فهناك ٦٠% من مجموع السكان مركزين في ثلاث مناطق محدودة هي:

١-الصين واليابان

٢- الهند وباكستان وبنجلادش

٣- اوروبا.

وهذه المناطق الثلاث تساوي ١٥% من مساحة اليابس الأرض فقط. وحتى في داخل هذه المناطق الثلاث لا يتوزع السكان بعدالة. فالازدحام السكاني الهائل في سهل الهندوستان عامة لا يوازي الكثافة المعتدلة لسكان هضبة الدكن. والحال مثل ذلك في سهل الصين والسهل الأوروبي بالقياس الى بقية المنطقتين.

والى جانب هذه المناطق الثلاث نجد تجمعات كثيفة للسكان في مناطق محدودة من بقية العالم. فهناك مئة مليون يزدحم اكثرهم في جنوب اليابان ووسطها، وبضع عشرات من الملايين يتكاثفون في جزيرة جاوة او في وداي النيل في مصر، او في شمال شرقي الولايات المتحدة او نيجيريا الجنوبية والغربية.

ومساحة اليابس الأرضي – باستثناء قارة انتاركتيكا – ١٣٦ مليون كيلو مترا مربعاً، والكثافة السكانية العالمية في ١٩٨٩ (موزعة على هذه المساحة) كانت ٣٧ شخصاً للكيلو متر مربع- بافتراض ان كل مناطق العالم مسكونة. لكن

النظر الى خرائط توزيع السكان توضح لنا أن هناك مساحات شاسعة تكاد ان تكون خالية ومناطق اخرى يبلغ فهيا التكاثف البشري ما بين شخص وشخصين للكيلو متر المربع، ومناطق ثالثة ترتفع فيها الكثافة الى اضعاف اضعافها بالنسبة للكثافة العالمية.

وإذا كانت الكثافة تعبر عن تناسب السكان والمساحة العامة للدولة فإنها تعبر – من ناحية اخرى – عن ضغط السكان على ما تقدمه المساحة من موارد حالية واحتمالات مستقبلية. ولكن الكثافة ليست عنصراً ثابتاً بل هي عنصر متغير باختلاف نسبة الزيادة الطبيعية سنة عن اخرى وجيلاً عن جيل. ولهذا فإن التغير السكاني عنصر ديناميكي يجب أن يحسب له حسابه في دراسة القوى السكانية للدولة وعلاقة ذلك بالموارد المتاحة.

وعلى هذا النحو فإن ما يهم الجغرافيا السياسية من الموضوع الديموجرافي ثلاثة عناصر رئيسية هي :

١-عدد السكان

٢-الكثافة السكانية بانواعها المختلفة (عامة وفيزيولوجية)

٣-التغير السكاني وتأثيرة على تركيب الدولة في شتى نواجية الاقتصادية والعسكرية والبنائية – بما في ذلك الهجرة باشكالها الداخلية والدولية.

جـــــدول رقـــم (٥)

الدول العشر الكبرى سكانا – ١٩٩٨ –

الدولة	عدد السكان بالمليون	الكثافة العامة
جمهورية الصين الشعبية	١,١٧٥	١١٥
الهند	٩٠٠,٥٤٣	٢٧٤
الولايات المتحدة	٢٥٨,٠٠٠	٢٦
اندونيسيا	١٩٥,٠٠٠	٩٤
البرازيل	١٥٨,٠٠٠	١٢
روسيا	١٤٩,٥٢٧	١٩
اليابان	١٢٤,٤٦٠	٣٢٤
الباكستان	١٢١,٦٦٤	١٥
بنغلادش	١١٩,٠٠٠	٨
نيجيريا	١٠٥,٠٠٠	٨٢

ويوضح هذا الجدول ان الدول العشر الكبرى في اعداد السكان في الوقت الحاضر تختلف في كثافة السكان– وبعبارة اخرى ان امكانيات الزيادة المستقبلية في الدول المزدحمة (الهند واليابان واليابان وبريطانيا) اقل بكثير من تلك التي نجدها في دول اخرى وخاصة البرازيل والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. ومن ثم فان مشكلة الضغط السكاني على الموارد تظهر حادة في الدول كثيفة السكان. وهذا مما يسبب ضرورة اعتمادها على التجارة والعلاقات الحرة بين الدول (باستثناء الهند التي يمكن ان تتجه الى انشطة اقتصادية كثيفة العمالة – كالصناعة والخدمات).

وتتغير الصورة كثيراً بدراسة ارقام التغير السكاني الحالية. ويظهر منها ان نمو السكان يبلغ صورة حادة في البرازيل والهند ونيجيريا واندونيسيا اكثر منها في البلاد الأخرى- علماً بان متوسط التغير السكاني العالمي هو في حدود ٢٠ في الألف. وتوضح الأرقام التالية احتمالات الزيادة السكانية في أربع دول خلال قرن محسوبة على اساسين:

١-اضطراد الزيادة الحالية

٢- نسبة زيادة معدل ومتناقصة:

جدول رقم (٦)

	عدد السكان بالمليون							
	بريطانيا %٠,٧		الولايات المتحدة %١,٤		البرازيل %٢,٤		الهند %٣,٢	
السنة	زيادة مضطردة	زيادة معدلة	مضطردة	معدلة	مضطردة	معدلة	مصطردة	معدلة
١٩٦٦	٥٥	٥٥	٢٠٠	٢٠٠	٨٦	٨٦	٥١٠	٥١٠
١٩٨٦	٦٣	٦٢	٢٦٠	٢٥٢	١٥٦	١٤٦	٨٠٢	٧٦١
٢٠٠٦	٧٣	٦٧	٣٤٤	٣٠٤	٣٠٢	٢٢٩	١٢٨٩	١٠٥٠
٢٠٦٦	١١٠	٦٧	٧٩١	٣٧١	١٩٣٧	٤٢٦	٥٣٤٧	١٥١٣
عدد مرات التضاعف السكاني	٢		٤		٢٣		١٠	

ملاحظات على الجدول:

١-تمثل بريطانيا والولايات المتحدة نمط الدول التي يظهر فيها التغير السكاني بمعدل أقل من المتوسط العالمي، بينما تمثل البرازيل والهند النمط الآخر المعاكس.

٢-يتضح من الجدول ان التغير السكاني سوف يؤدي الى عدم توازن في طاقة الدول البشرية، تحتل بمقتضاه الدول النامية الصدارة ويصبح الفرق شاسعاً بينها وبين الدول المتقدمة عامة.

٣- هل يترتب على هذا اختلاف آخر في موازين القوى والنشاطات الاقتصادي على المستوى العالمي؟ خاصة وان الدول النامية هي مجالات الاستثمارات الكبرى الراهنة.

٤-يجب ملاحظة ان هذا التنبؤ خاضع لثبات نسبة التغير السكاني وهو أمر لا يمكن التكهن به اطلاقاً. فالتغيرات تطرأ على المتغيرات بصفة دائمة. ويكفي ان نشير الى ان السكن المدني (الناجم عن نمو الصناعة والخدمات في الدول النامية) يؤدي بطبيعتة الى تقليل النمو السكاني. وبرغم ذلك فإن القاعدة العريضة لسكان الدول النامية تسمح بان يزيد عدد سكانها كثيراً خلال القرن القادم عن الدول الكبرى الحالية.

وأيا كان الأمر في المستقبل فإن مجرد القوة العددية للسكان ليست في حد ذاتها العنصر الوحيد في علاقة السكان وبالدولة. ففي احيان كثيرة يصبح الازدحام السكاني عائقاً اما التنمية الاقتصادية. وعلى اى الحالات فإن درجة الأزدحام السكاني مسألة اعتبارية محضة لا تصدق إلا على فترة زمنية معينة بالارتباط النشاط الاقتصادي السائد في تلك الفترة. فالكثافة العامة في المانيا الغربية اعلى منها في الصين. لكن المشكلة السكانية في الصين تكون ضغطاً واضحاً على سياسات الصين الداخلية بينما ازدحام الالمان لم يصبح مشكلة ضغط على كافة اشكال الموارد الصناعية والتجارية.

ولهذا فإن مشكلة السكان والدولة يمكن ان تقاس بمقياس اكثر صدقاً (في حدود) من مقياس الكثافة . ذلك المقياس هو نصيب الفرد من قيمة الإنتاج القومي العام G N P كما يوضحة الجدول التالي:

نصيب الفرد من الإنتاج القومي العام (بالدولار الأمريكي) (١٩٩٠)

والنسبة المئوية للسكان غير الزراعيين (ارقام ١٩٩٠)

الدولة	نصيب الفرد بالدولار	% سكان غير زراعيين
الولايات المتحدة	٢٣,١٠٠	٩٤
الكويت	١٨,٣٨٠	٩٩
السويد	٢٥,٨٦٣	٨٨
سويسرا	٣٤,٠٤٠	٩٠
كندا	٢٠,٠٢٠	٨٩
نيوزيلندا	١٢,٨٠٠	٨٧
لكسمبورج	٢٢,٨٥٦	٨٩
استراليا	١٥,٤٤٠	٩٠
الدانمرك	٢١,٥١٠	٨٥
ايسلندا	٢٤,٠٦٦	٦٥

جدول رقم (٧)

ويتضح من هذا الجدول ان الدول الكبرى باستثناء الولايات المتحدة لا تظهر بين الدول العشر الأولى في العالم في ترتيب انصبه الفرد من الإنتاج القومي العام. وربما كان ذلك سبباً من اسباب عدم موضوعية هذا العنصر في التقييم السياسي لعلاقة الدولة والسكان. ومع ذلك فإنه مؤشر واضح من مؤشرات الرخاء الاقتصادي اذا ربطناه بعامل آخر مثل نسبة السكان الذين لا يعملون في

قطاع الزراعة، ففي اليابان ٧٣% غير زراعيين وفي روسيا ٧٠% ايضاً غير زراعيين وفي كلتاهما نجد نصيب الفرد من الإنتاج القومي العام ٢٤,٠٠٠ و ٣,٢٢٠ دولاراً على التوالي.

وتظهر هذه الارتباطات بشدة فى الدول النامية كما يتضح من الارقام التالية: ١٩٩٠

جدول رقم (٨)

الدولة	نصيب الفرد بالدولار	% سكان غير زراعين
الصين	٣٦٠	٣٧
الهند	٣٥٠	٣٠
اندونيسيا	٤٩٠	٣٤
باكستان (١٩٩٠)	٣٨٠	٣٦
نيجيريا	٢٥٠	٣٠
مصر	٦٣٠	٥٥
جنوب افريقيا	٢٤٦٠	٧١
البرازيل	٢٥٤٠	٤٨
شيلي	٢٨٠٠	٧٤
الأرجنتين	٢١٣٤	٨٢

يمكننا ان نلخص دور السكان في بناء الدولة في النقاط التالية:

١- العدد الكبير للسكان يكون في حد ذاته قوة في المجالات العسكرية حتى يرغم الحرب الحديثة. ولا شك ان ذلك ينطبق بنوع خاص على الماضي حين كانت الجيوش البرية تحدد مصير المعارك بين الدول.

٢- العدد الكبير للسكان يعطي للدولة طاقات اقتصادية كثيرة في مجال استغلال الموارد المتاحة ومجال التسويق. وفي هذا نستطيع ان نقارن بين استراليا بمساحتها الضخمة واعداد سكانها القليلة بدولة اخرى كهولندا تشابهها في عدد السكان (١٣، ١٣,٥ مليوناً عل التوالي) بينما تزيد عنها استراليا في المساحة نحو ٢٣ مرة – ومع ذلك فان نصيب الفرد من الإنتاج القومي متشابه (١٥,١٤٠، ١٦,٠١٠ دولاراً على التوالي).

٣-يكون العدد الكبير للسكان في الدول النامية عبئاً كبيراً على انفاقات الدولة في جانب الخدمات الصحية والتعليمية. ومن المشكلات التي تواجهها هذه الدول سوء التغذية ومكافحة الاوبئة والأمراض المتوطنة وتقليل نسبة الوفيات عامة وقد ترتب على نجاح كثير من لدول في هذه الخدمات ارتفاع متوسطات الأعمار، ومن ثم يمكن أن ترتفع فترة العمالة المنتجة في حياة الأفراد.

٤-ولكن انخفاض الوفيات لم يقابله انخفاض نسبة المواليد بسرعة موازية لانخفاض الوفيات مما أدى الى وجود قاعدة كبيرة من الأطفال ورفع بذلك نسبة الاعالة وفي الوقت نفسه ادى ارتفاع متوسطات الأعمار الى ضغط السكان على الموارد الاقتصادية المحدودة في الدول المتخلفة.

٥-في الدول المتقدمة نجد توازنا واضحا بين الوفيات القليلة والمواليد المضبوطة. وباستثناء حالات قليلة جمد فيها النمو السكاني على نسبة ضئيلة (٠,٥% في النمسا و ٠,٦% في بريطانيا، ٠,٧- ٥,٩% لغالبية دول سكندنافيا وفرنسيا وبلجيكا وايطاليا)، فإن مجموعة الدول المتقدمة لا تعاني المشكلات السكانية لعنيفة التي تعانيها الدول المتخلفة. وقد أدى هذا الى زيادة المصاعب أمام التنمية الاقتصادية امام الدول المتخلفة وتسبب في ظهور ضعف اساسي جديد في بناء هذه الدول من النواحي الاقتصادية والسياسية معاً.

٦- برغم ان عدداً من الدول المتقدمة قد فتحت أبوابها للعمالة من بعض الـــدول المتخلفة (كدول السوق الأوربية التي تحتاج الى ايدي عاملـــة مـــن اليونـــان وتركيا وجنوب ايطاليا واسبانيا والبرتغال الـــخ....) إلا ان هـــذه الـــدول لا تستطيع امتصاص الزيادة السكانية لمثل هذه الدول المتخلفة، وإنما تســـتوعب إعداد محدودة في جوانب العمالة غير الماهرة فقط.

٧-أدت الاوضاع السكانية الى صورة من عدم التكافؤ في التوزيع الجغرافي لـــم يكن لها مثيل من قبل. فقد أصبح ٥٥% من سكان العالم مركزين في آســـيا. الشرقية والجنوبية وحوالي ٢٥% في اوروبا والاتحـــاد الســـوفيتي والشـــرق الأوسط والباقي موزعين على اجزاء العالم الاخرى بتركيز واضح في مناطق محددة وخاصة الولايات المتحدة. وتتوزع هذه الكتل الرئيسية في السكان على المعسكرات السياسية السائدة على النحو التالي:

جـــــــدول رقـــم (٩)

التوزيع الاسمى للكتل السكانية الرئيسية على المعسكرات السياسية (ارقام ١٩٨٨)

القارة والأقاليم	الكتلة الغربية	الكتلة الشرقية	العالم الثالث والمحايد
اوروبا والاتحاد السوفيتي	٣١٠	٣٥٥	٤٨
امريكا الشمالية	٢٢٠		
امريكا اللاتينية	٢٤٠	١٨	
اسيا الشرقية والجنوبية	٣٧٥	٧٦٥	٦١٥
الشرق الأوسط والعالم العربي	٥٨		١٢٠
بقية افريقيا وأوشينيا	٥٢		١٦٠
المجموع	١٢٥٥	١١٣٨	٩٤٣

والمقصود بالتوزيع الأسمي هنا أن الاعتماد قائم على التحديد الرســـمي لسياســـة الدول، وليس على الانتماءات الفعلية . ومما يوضح ذلك أن الكثير من دول الحيـــاد

والعالم الثالث مرتبطة اقتصادياً (ومن ثم في واقع الأمر) بدول متعددة من العالم الغربي الأوروامريكي.

٨- لقد كان الضغط السكاني في اوروبا يجد له متنفساً في الهجرة الى العالم الجديد ومناطق المستعمرات الأوروبية في افريقيا الجنوبية واستراليا. ولكن بعد تقسيم العالم ونشأة الدول القومية فإن مجالات الهجرة اصبحت خاضعة للكثير من القيود المرتبطة بالمصالح القومية عامة، وتكاد ان تقتصر على هجرة ابناء الشعوب الاوروبية بوجه خاص.

لهذا نجد أن المشكلة السكانية تقفز لتحتل الصدارة في مشكلات الدولة كثيفة السكان في آسيا وافريقيا. ولكن الضغط السكاني لم يظهر بعد على السطح كمشكلة من بين المشكلات السياسية التي تعانيها دول كالصين والهند ومصر. ولا شك ان هذه المشكلة تحتاج الى مرونة كبيرة في علاقات الدول المستقبلة للمهاجرين والى تطوير خاص في البناء الاقتصادي للدول التي تشكو الازدحام السكاني.

الباب الرابع
الحدود في الجغرافيا السياسية

الفصل الأول : تعريف الحدود وأقاليم التخوم
الفصل الثاني: الحدود المرتبطة بالظواهر الطبيعية
الفصل الثالث : الحدود والظاهرات البشرية



الفصل الأول

تعريف الحدود وأقاليم التخوم

توضح خريطة العالم السياسية مجموعة من خطوط الحدود الفاصلة بين الدول المختلفة. وتجرى هذه الحدود على اليابس في شتى الاتجاهات مرتبطة في أحيان بظاهرات طبيعية كالجبال والأنهار والغابات والمستنقعات، ومتعارضة في أحيان أخرى مع هذه الظاهرات الطبيعية لكي تحدد ظاهرات بشرية مختلفة أو توضح مجهودات القوة العسكرية للدول في تخطيط حدودها. لكن الحدود في الواقع لا تنتهي عند ساحل البحر او المحيط. فهناك حدود للدول تمتد فوق المسطحات المائية المختلفة، وهي لا تظهر على الخرائط السياسية العادية، كما لا تظهر مرسومة الا حين تظهر مشكلة من مشاكل استغلال المسطحات المائية: الثروة السمكية او المعدنية.

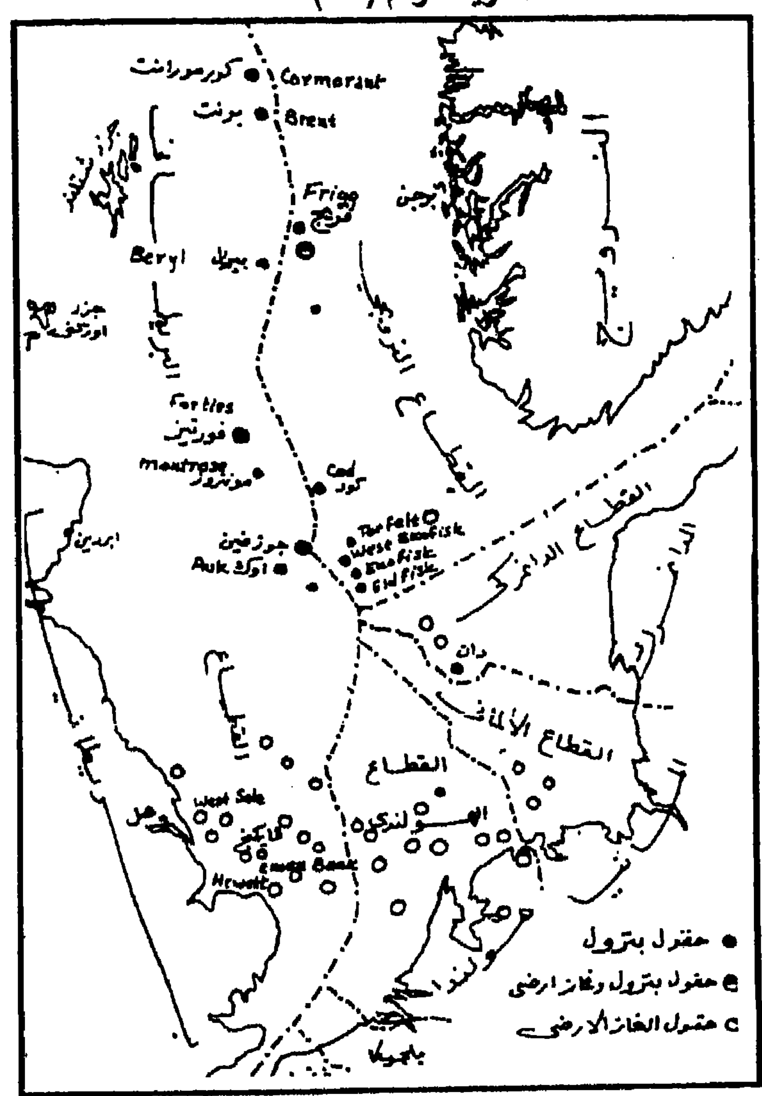
وقد ثارت كافة الحروب بين الدول من أجل تعديل الحدود على اليابس، ولم تقم حتى الآن حرب واحدة من أجل تعديل الحدود فوق المسطحات المائية. ولكن الحروب الاقتصادية بدأت بين بعض الدول مثل ايسلندا وبيرو ضد اساطيل الصيد البريطانية والأمريكية على التوالي. فهل تتحول الحرب الاقتصادية الى

حرب ساخنة في فترة لاحقة – خاصة حينما يشتمل الأمر على اســتغلال الــثروة المعدنية عامة والبترول خاصة ؟

وفي الوقت الحاضر – في عصر حركة الطيران المتكاثفـــة – لــم تعــد الحدود مقتصرة على تلك الملامسة لليابسة وسطوح الماء. بــل أصبحــت هنــاك حدود للدول ترتفع في الغلاف الغازي فوق رقعات الدول المختلفة. فالى اي مــدى ترتفع سيادة الدولة على اجوائها. وما المشكلات المترتبة على سيادات الدول علــى الغلاف الغازي؟ وهل يمكن ان تؤدي بدورها الى نزاعات وحروب؟

على هذا النحو يتضح لنا ان الحدود مشكلة معقدة لم تعد تمتد فـــي بعــد واحد مرتبط بالتنظيم الأرضي للدولة، بل تعددت ابعاد الحدود الى مسطحات المــاء واعماقها، وامتدت الى أغوار لفضاء الذي يغلف كرتنا الأرضية. (انظر الخريطــة رقم ١٥)

الخريطة رقم (١٥)



الحدود السياسية الحديثة في بحر الشمال

ارتباط الحدود الجديدة باستغلال مصادر الغاز الارضي في القسم الجنوبي من بحر الشمال، وبالبترول والغاز الارضي في الوسط، وبحقول البترول الممتازة في القسم النرويجي والبريطاني في شمال ذلك البحر.

مشكلة تعريف الحدود وأقاليم الحدود أو التخوم:

أيا كان تعقد مسألة الحدود في الوقت الراهن فإن مشكلة الحدود البرية قد أثارت ومازالت تثير كافة المشكلات المتضمنة في جوهر العلاقات السياسية بين الدول. كما انها راسخة في الأذهان كافة – المتخصصين وغير المتخصصين، لأنها تمثل الإطار الذي تمارس فيه الدولة سيادتها الفعلية. ذلك لأن الحدود البرية للدول هي الأماكن او النقاط التي تلتقي فيها الدول وتحتك فيها كتل الناس وتتفرق فيها المصالح الاقتصادية بتوجيه الدولة. ولهذا أثارت الحدود البرية مشكلات كثيرة خاصة بتعريفها : هل هي خط الحدود ام نطاق الحدود والتخوم.

وقد كان فريدريك راتزل من أوائل الجغرافيين المحدثين الذين تناولوا مشكلة تعريف الحدود. وفي كتابة " الجغرافيا السياسية" (١٨٩٥) ذكر راتزل عدة ايضاحات لهذه المشكلة. فهو يقول: ان نطاق الحدود هو الحقيقة الواقعة اما خط الحدود فليس سوى تجريد لهذا النطاق (ص ٥٣٨). ويقول ايضا: في مناطق الحدود يقع جزء كبير من ثقل التوازن السياسي (ص ٥٨٤). وفي مكان ثالث يؤكد ان نطاق الحدود هو المكان الذي يشير الى نمو او تقلص الدول. ففي الدول القوية يظهر ارتباط وثيق بين نطاقات الحدود وقلب الدولة. فإن أي ميل الى ضعف هذا الارتباط يؤدي الى ضعف الدولة والى خسارة جزء من اراضيها وعلى الدول ان تسعى الى الحصول على اقصر خطوط للحدود لأنها اقواها، واحسنها، وأن تقيم استحكامات عسكرية على طول مناطق الحدود، وهذا يتدعم باتخاذ الجبال والأنهار مناطق للحدود.

لكن راتزل لم يغفل مقومات اخرى للحدود الجيدة. فالى جانب ارتكاز الحدود على بعض الظاهرات الطبيعية يتكلم راتزل عن نوع السكان والموارد المتاحة والبناء السياسي داخل الدولة كمقومات للحدود الجيدة. وقد كان راتزل يسوق نهضة المانيا السياسية وتغير حدودها وتوسعها كمثال للحدود المتغيرة تعبيراً عن نظريتة العضوية للدولة .

وقد ظهرت في الكتابات اللاحقة لراتزل نقاط ضعف في النظرية العضوية للدولة. لكن من المدهش ان الكثير من مفهومات راتزل عن الحدود بقيت دون ان تهدم. ولعل ذلك راجع الى ان راتزل حاول ان يؤسس قوانين لنمو وسلوك الحدود. ولا شك ان تعميم مثل هذه القوانين امر خاطئ. فكل حد سياسي له ظروفه وخلفيته وخلفية مما يجعله ظاهر خاصة. ومع ذلك فإن قوانين راتزل عن الحدود يمكن ان تطبق على بعض الحدود بشيء كثير من الصحة.

ومن امثلة قوانينه التي يمكن أن تطبق على كثير من الحدود قوله: أن القانون العام " المكان" التاريخي هو أن حدود المنطقة الأكبر تنمو على حساب حدود المنطقة الأصغر. وكذلك قانونه القائل: ان تطور الحدود هي مسعى الى تبسيطها، وان التبسيط هو السعى الى تقصير (أطوال) خط الحدود. ولا شك في صحة هذه القوانين فالخط المتعرج المتداخل طويل ضعيف بينما الحد القصير أقوى في الدفاع والهجوم.

وقد أيد عدد من الكتاب أفكار راتزل في عدد من النقاط، وخاصة تلك التي تفصل بين نطاق الحدود وخطوط الحدود. وفي ذلك قالت الين سمبل (١٩١١): ان الطبيعة تكره خطوط الحدود والانتقالات الفجائية، بل أن كل القوى الطبيعية تتكاثف ضد مثل هذه الخطوط.... وإذا حدث فاصل طبيعي لسبب من

الأسباب فإن القوى الطبيعية تبدأ على الفور في ازالة هذا الخط بخلق أشكال انتقالية وبذلك تنشيء منطقة الحدود. وكذلك قال الكولونيل ت. هـ هو لديك (١٩١٦): الطبيعة لا تعرف خط حدود. وحقاً للطبيعة تخومها (نطاقات انتقال) لكنها تكره الخطوط، وخاصة الخطوط المستقيمة.

والى خبير الحدود المعروف اللورد كرزون الفضل في التمييز بين "الحدود الطبيعية" - وهي تلك المنبنية على مظهر من المظاهر الطبيعية وبين مجموعة " التخوم الطبيعية" ، وهي تلك التي تدعيها الامم حدوداً طبيعية - بدافع من الرغبة في التوسع او تحت الحاح عواطف قومية. ويقول لورد كرزون ان محاولة تحقيق مثل هذه التخوم الطبيعية كانت المسئولة عن الكثير من الحروب والمآسي في التاريخ (١٩٠٧).

وقد رأي المحامي الفرنسي ب دى لا برادل (١٩٢٨) ان الحدود والتخوم أمران مختلفان. فهو بذلك يتفق مع راتزل في أن الحدود لا يمكن فصلها عن إقليم الحدود او التخوم ويرى ان التخوم قائمة كأمر واقع قبل تحديد الحدود، وأنها لها صفاتها الخاصة السياسية والاقتصادية والقانونية. فالتحوم عنده هي بيئة انتقالية ويقسمها الى ثلاثة أقسام:

١-المنطقة الحدية torritoire limitrophe وهي المنطقة التي يمر فيها خط الحدود.

٢-نطاق الحدود Frontiees وهي المنطقة التي تمتد على جانبي الحدود وتخضع كل منها لقوانين الدولة لتي تنتمي اليها.

٣-الحوار Le Voısinage وهي المنطقة كلها التي تشتمل على القسمين السابقين.

أما الجغرافي الفرنسي جـ آنسل J. Ancel فيقول أن دراسة الحدود ومناطق الحدود ليست مثمرة قد دراسة محتوى العلاقات الدولية. فهو يقول ليس الإطار هو المهم بل المهم هو ما يحتويه. وكذلك يقول: لا توجد مشكلة حدود وتخوم، بل المشكلة هي مشكلة أمم (١٩٣٨) ويستند في ذلك الى أمثلة من الشعوب البدائية مؤكداً – على سبيل المثال – ان القبائل البادية ليس لها حدود وان السيادة على ارض ما مرتبطة بالمجتمع البدوي اكثر من ارتباط ذلك بالارض نفسها (لكن لا شك ان البدو يدعون ملكية أرض معينة).

ويقول آنسل أن هناك نوعان من الحدود: الحدود الثابتة والمتحركة ويعارض آراء راتزل التي تؤكد ان الحدود عضو من اعضاء الدولة يعكس قوة أو ضعف الدولة، ويؤكد ان الحدود عبارة عن خط توازن بين قوتين. لكن هذا الرأى في واقعة لا يختلف عن توصيف راتزل للحدود. فهي خط يفصل بين العضوين الخارجيين لدولتين متجاورتين.

وقد تعرض آخرون لتعريف الحدود والتخوم مثل س. ب. جونز (١٩٣٢) ، أ. ١. مودي (١٩٤٣) ، ١ فيشر (١٩٤٩) وغيرهم. وبرغم بعض الاختلافات فإن الاتفاق سائد بين الدراسين حتى الآن على التمييز بين الحدود التي تمثلها الخطوط الفاصلة بين سيادتين مختلفتين ، وأقاليم الحدود او التخوم او الجوار التي تمثل نطاقاً انتقاليا بين الدولتين المتجاورتين.

ويمكننا ان نلخص مجمل الآراء في تعريف الحدود ان كل خط من خطوط الحدود هو في الواقع خلق متعمد عبارة عن خط تجريدي يفصل بين

دولتين او جهازين عضويين (على حد تعبير راتزل) وبالتالي يعرب عن نبـــض كل من الدولتين.

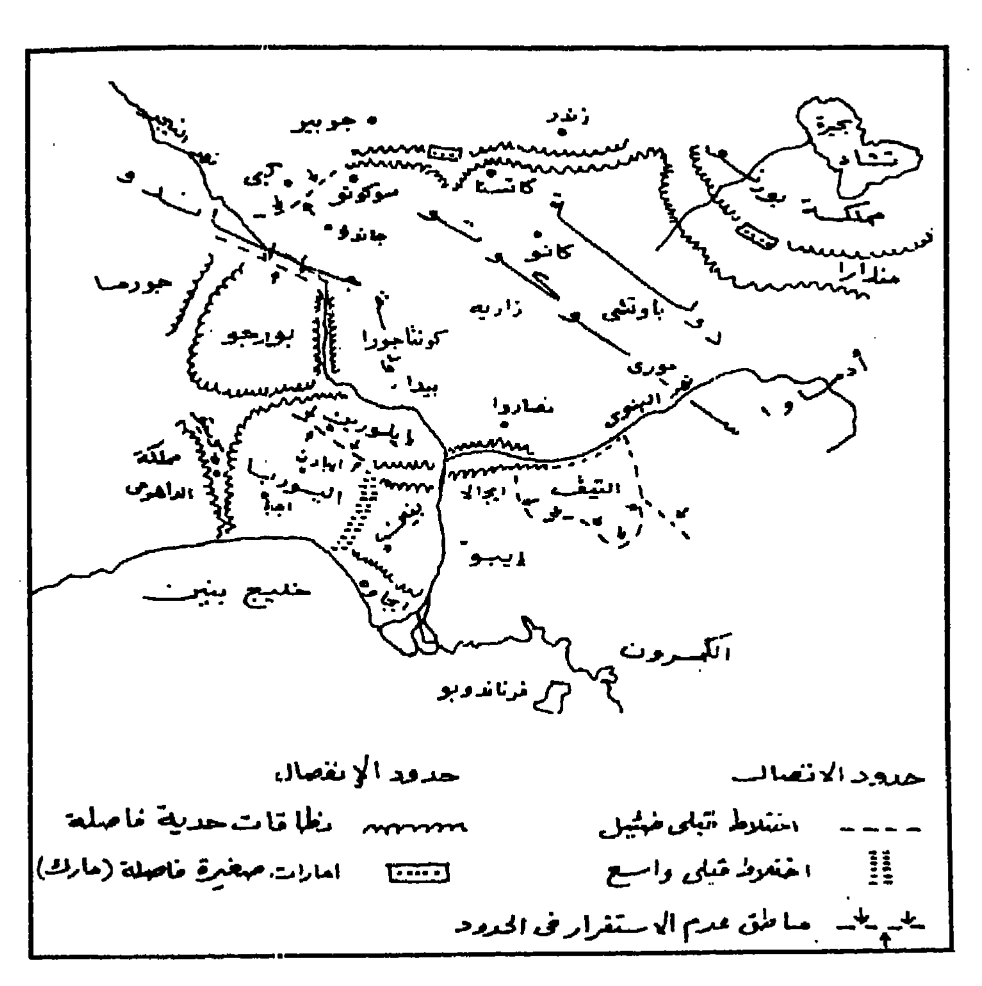
أن هذا الشكل التجريدي من الحدود الخطية الفاصلة لم تصل اليه القـــوى السياسية والقومية الاى مؤخراً نتيجة تضاغط المصالح والقوى فـــي كـــل دولـــة. وعلى هذا فإن الحدود السياسية الحالية تمثل طغيان حديث على منـــاطق الحـــدود والتخوم القديمة، التي قال بها غالية الجغرافيين ابتـــداء مـــن فريدريـــك راتـــزل، غالبية واقتسام هذه المناطق الحدية الى آخر شبر يمكن ان تصـــل اليـــه القـــوى الضاغطة من جانب واحد او من الجانبين.

في الماضي كان المتبع ترك منـــاطق حديـــة فاصلـــة – تخـــوم – بيـــن المجتمعات القبلية او الدول القديمة. وهذه المناطق هي ما نعرفـــه حاليـــاً باســـم " الشقة الحرام No man's Land " التي تلجأ اليها الدول المتحاربة في أحيان فـــي محاولة لتقليل فرصة الاحتكاك بين هذه الدول. مثال ذلك الأرض منزوعة الســـلاح بين فيتنام الجنوبية والشمالية. وهذه الشقة الحرام كـــانت عبـــارة عـــن اراضـــي مهجورة من السكان تتكون غالباً من بيئة صعبة مثـــل التـــلال أو المســـتنقعات او الغابات والاحراش. وفي الماضي ايضاً كان يمكن انشاء دويلة او امارات صغـــيرة كمنطقة حاجزة بين دولتين او مجتمعين متحاربين وذلك ايضاً من اجل تحقيق الحد الأدني من الاحتكاك العسكري. ومن الأمثلة المشهورة على ذلك سويســـرا التـــي

قامت كدولة حاجزة بين فرنسا والمانيا وامبراطورية النمسا في منطقة التخوم الجبلية الفاصلة.

وتعطينا خريطة ١٣ نموذج لأنواع الحدود عند مجتمعات قبلية ودول قديمة في نيجيريا. وأهم ما توضحه الخريطة تعدد انواع حدود الاتصال والانفصال في الدولة الواحدة فامبراطورية الفولاني (التي تتمثل في الخريطة في دولتين سوكوتو وجاندو) ترتبط وتنفصل عن الدول والقبائل المجاورة بشتى أنواع الحدود. على سبيل المثال الحدود الشمالية معظمها حدود فاصلة تعبر مناطق شبه جافة تفصلها عن امارات زندر وجوبير وغيرها من امارات الهوسا، بينما حدودها الجنوبية عبر نهر النيجر مع ممالك اليوربا الصغيرة حدود اتصال وعدم استقرار في منطقة ايلورين كدليل على اتجاه التوسع الفولاني صوب نطاق الغابات الاستوائية الغنى في جنوب نيجيريا. كما ان حدودها مع مملكة بورنو كانت مناطق تخوم وغابات في الجنوب وقبائل وثنية في الشمال وامارات صغيرة في الوسط. وعلى هذا تتضح مرونة الحدود القديمة بالقياس الى تصلب الحدود الفاصلة الحالية الناجم عن الضغوط السكانية والاقتصادية الحديثة.

خريطة رقم (١٦)



أنماط من حدود الاتصال والإنفصال

تأثير الحدود السياسية الحديثة على مناطق الحدود

يؤدي مجرد وجود الخط السياسي الفاصل بين الدول الى احداث تغيرات جغرافية في اقليم الحدود، كما يؤدي في احيان اخرى الى خلق وحدات جغرافية صغيرة عبر حدود الدولتين..

ففي الحالة الأولى نجد ان الحدود السياسية تصبح عوائق اقتصادية تؤدي في احيان الى اختلافات غريبه في المنطقة التي يقسمها خط الحدود الى قسمين فمثلاً خط الحدود الفرنسية البلجيكية يظهر منطقتين مختلفتين: في الجانب الفرنسي من اقليم الحدود نجد نطاقاً من حقول القمح بينما لا يظهر ذلك بنفس الصورة على الجانب البلجيكي. ولا يرجع ذلك الى ملاءمة او وجود التربة في الجانب الفرنسي وانما يرجع الى التوجيه العام للإقتصاد الفرنسي. فالقمح يتمتع في فرنسا بالحماية الجمركية، ومن ثم فإن زراعته تصبح زراعة نقدية مؤمنه بالنسبة للفلاح الفرنسي بينما لا توجد مثل هذه السياسة الاقتصادية في بلجيكا، ويصبح القمح البلجيكي معرضاً لمنافسة القمح المستورد.

وتؤدي ارتباطات مناطق الحدود بمواصلات جيدة الى داخل الدولة الى امكان قيام استثمارات وتحسينات في موارد اقليم الحدود الإنتاجية، بينما تحرم المنطقة من ذلك إذا خلت من الطرق الحديثة. ففي إقليم الحدود الفرنسية الاسبانية في منطقة البرانس نجد ان المنطقة الفرنسية من هذه الحدود مخدومة بالسكك الحديدية في بعض اجزائها بينما المنطقة الاسبانية محرومة من معظم اجزائها من مثل هذه الخدمة. وقد ترتب على ذلك ان المناطق الفرنسية من هذا الاقليم القريبة

من الخطوط الحديدية تزرع محاصيل السوق، وعلى رأسها الخضروات المبكـــرة التي تنقل بالخطوط الحديدية الى اسواق استهلاكها فـــي فرنســا. امــا المنــاطق الاسبانية فإنها تمارس زراعة الحبوب التقليدية لاستهلاكها ونقل بعــض الفــائض بوسائل النقل العادية الى سوق برشلونه الصناعي. وعلى هذا النحو تتغير منــاطق وأقاليم الحدود بعضها عن البعض الآخر نتيجة عدد كبير من العوامل البشرية.

ولكن يقابل ذلك التغير في أقاليم بعض الحدود أقاليم اخرى يحــدث فيــها تشابه كبير على جانبي خط الحدود- خاصة في المناطق كثيفــة الســكان. وهــذه هي الحالة الثانية من التأثيرات الجغرافية التي تحدث وتؤدي الـــى خلــق أقــاليم متشابهة برغم وجود خطوط الفصل السياسية.

فعلى الحدود الفرنسية السويسرية عند لسان جنيف نجد ان هـــذه المدينــة تكون سوقاً رائجة للمنتجات الغذائية الفرنسية القريبة لأن موقع جنيف بعيداً عـــن مناطق الإنتاج السويسرى يجعلها معتمدة على المنطقة الفرنسية المجاورة. والحــال نفسه في منطقة بازل السويسرية المرتبطة باستيراد الغــذاء فـــي اقليــم الالـــزس الفرنسي وعلى الحدود الفرنسية البلجيكية يعمل البلجيكيون بكـــثرة فـــي مصـــانع النسيج الفرنسية وحقول الفحم بينما هم يسكنون داخل الحدود البلجيكيـــة. وهكــذا يعبر هؤلاء العمال الحدود يومياً مرتين للذهـــاب الـــى أعمالـــهم داخــل الأرض الفرنسية دون ان تقف هذه الحدود عقبة دون اتصال سكان اقليم الحدود.

وعلى هذا النحو نجد في مناطق الحدود كثيفة السكان تشتد حركة عبـــور الحدود بين سكان اقليم الحدود، خاصة اذا كان هناك مجال سهل للعمــل واجــور اعلى مما تقدمها إمكانات احدى الدولتين المتجاورتين. وبطبيعة الحال هنالك شــرط

اساسي هو حسن العلاقات السياسية بين الدولتين المتجاورتين، والا قطعت الحدود كل الطرق على الاتصال بين سكان المنطقة.

تصنيف الحدود:

كان اللورد كرزون (١٩٠٧) هو أول من إشار الى تصنيف للحدود: طبيعي واصطناعي وقد تبعه في ذلك فوست (١٩١٨) وبوجز (١٩٤٠) اللذان اضافا الكثير من الدراسة التفصيلية لأنواع الحدود وصنوفها.

وقد قسم كرزون الحدود الاصطناعية الى ثلاثة أقسام:

١-الحدود الفلكية astrononical وهي تلك التي تتبع خطوط عرض أو طول مثل جزء كبير من الحد الأمريكي الكندي الذي يتبع خط العرض ٤٩ شمالاً او كثير من الحدود في افريقيا.

٢-الحدود الرياضية mathematical وهي تلك التي تربط بين نقطتين معينتين بخط مستقيم.

٣- حدود المنحنيات Referential وهي تلك التي تربط عدة نقاط في صورة اقواس وخطوط مستقيمة. وهذه تظهر في تحديد الخطوط في مناطق محدودة.

وكذلك اهتم كرزون اهتماماً بالغا بأثر الحدود فجعلها قسمين: الحدود الحاجزة او الفاصلة، وحدود الاتصال والحركة (انظر الخريطة ١٣) وقد تبعه في ذلك فوست وبرسكوت (١٩٦٥). وقد هاجم فوست فكرة ان هناك حدوداً طبيعية واخرى اصطناعية ولكن هجومه لم ينطو على الغاء هذه اوتلك. فالحدود تتطور وتتغير وقد تلتحق في بعض مساراتها بظاهرات طبيعية كالأنهار والجبال. وهو بذلك يهاجم اصطلاحي حدود طبيعية واخرى اصطناعية مؤكد ان تطور الحدود

كلها امر طبيعي لأن وظيفة الحدود الاساسية حماية الدولة عسكريا وتجارياً، كما انها منطقة التقاء الدولة بالأخرى، وهي بذلك منطقة الاتصال والتبادل ويرى فوست انه حينما ترتبط الحدود بمنطقة حاجزة طبيعياً (كالجبال) فإن ذلك يؤدي الى نشاه حدود الانفصال.

ويفصل فوست ثلاثة اتجاهات في تطور الحدود السياسية:

١-اتجاه الى تدقيق شديد في تخطيط الحدود ومساراتها

٢-اتجاه الى ترابط شديد بين الحدود السياسية والحدود اللغوية (خاصة في اوروبا).

٣-اتجاه الى رسم الحدود في مناطق وأقاليم حدود الانفصال.

وباستثناء الاتجاه الأول فاننا نجد ان الحدود السياسية وان اتجهت الى التقارب من الحدود اللغوية الا أن معاهدات الصلح بعد الحربين العالميتين قد دفعتا بالحدود الالمانية والنمساوية بعيداً عن حدودهما اللغوية. ولتجنب مشكلة الاقليات الالمانية النمساوية اعيد توزيع السكان من جديد وهجر الالمان من بولندا والسوديت والتيرول الايطالي. فالضغط السياسي هنا كان اقوى من الاتجاه الطبيعي للحدود لكي تشمل المتكلمين بالألمانية. كذلك فإن رسم الحدود في مناطق حدود الانفصال لم يؤد إلى تقليل الاحتكاكات بين القوميات. فخط الحدود الذي رسم في عام ١٩١٩ للنمسا في منطقة انفصال حدية بينها وبين ايطاليا، التيرول الايطالي، قد اقتطع اقلية نمساوية كبيرة في هذه المنطقة الجبلية وبالمثل فإن انشاء دولة تشيكوسلوفاكيا وتخطيط حدودها مع المانيا في مناطق انفصال متمثلة في جبال غابة بوهيميا وجبال الارتز قد اقتطع المان السوديت عن المانيا وادخلهم

تشيكوسلوفاكيا. وكانت تلك ذريعة هامة من ذرائع هلتر في توسعة في وسط أوروبا.

والى جانب هذه الأنواع من الحدود نجد الكولونيل هولديك (١٩١٦) والجنرال هاوسهوفر (١٩٢٧) يؤكد ان اهمية الحدود الاستراتيجية قوية التحصين وفي ذلك قال هولديك: يجب ان تكون الحدود عوائق. وهي اذا لم تكن كذلك جغرافيا وطبيعياً فيجب ان تكون قوية صناعيا بالقدر الذي تمكنه لنا الوسائل الحربية. اما هاوسهوفر فقد دعا الى انشاء ما اسماه " حدود عسكرية " wehrgrenze في صورة إطار خارجي يحيط بحدود الحضارة الالمانية من بعيد ليجنبها الغزو وضرب المدفعية. وقد تناول هاوسهوفر موضوع الحدود من زاوية الدولة، وصنفها بذلك صنوفاً مختلفة، حدود الهجوم، حدود الدفاع، حدود النمو، حدود التدهور والتآكل.

وبرغم الاختلافات الكثيرة في تصنيف الحدود فإنه مما لاشك فيه أن الحدود السياسية الحالية ترتبط في مسارتها بثلاث مجموعات من الظواهر الجغرافية الرئيسية هي:

١- الحدود التي ترتبط بالظاهرات الطبيعية: جبال – انهار – بحيرات – بحار – غابات – مستنقعات – صحارى.

٢- الحدود التي ترتبط بالظاهرات البشرية: لغات وحضارات وديانات.

٣- الحدود التي ترتبط بالظاهرات الفلكية:خطوط هندسية غالباً في مناطق التقسيم السياسي الجديدة. وفيما يلي دراسة موجزة لهذه الأشكال الرئيسية من الترابط في الحدود السياسية.

الفصل الثاني
الحدود المرتبطة بالظاهرات الطبيعية

يميل الناس الى الاعتقاد بأن حدود القوميات تقف عند عوائق طبيعية معينة مثال ذلك جبال الهملايا بين الهند والتبت، والبرانس بين فرنسا واسبانيا، ونهر الدانوب بين البلغار والرومانين وجبال الالب بين اللاتين والجرمان. لكننا نستطيع ان نعدد امثلة اخرى كثيرة لا تقف فيها الحدود القومية عند عقبات طبيعية بل تتعداها وتمتد حولها وعبرها. ذلك لأن الجبال في أحيان كثيرة- باوديتها وسفوحها – غالباً هي موطن قومية منعزلة او قوميات. فالأكراد يحتلون المنطقة الجبلية الوعرة من شرق الاناضول الى زاجروس. وغابات السويد الشمالية كانت عائقاً امام القومية السويدية، وفي الوقت الذي كانت فيه مسرحاً لنشاط الفن واللاب. والأنهار في غالب الأحيان لا تكون فاصلاً بل رابطاً بين اجزاء الوادي الذي يجري وسطة النهر ولذلك فان جريان الحدود السياسية بمحاذة مجري النهر يؤدي الى تقطيع اوصال اقليم متكامل جغرافيا بكل معاني الاقليم الجغرافي. مثال ذلك حدود فرنسا والمانيا وسويسرا الحاذية لنهر الراين، او حدود امريكا وكندا على طول سنت لورنس والبحيرات العظمي. وفي مثل هذه الحالات لا تعرف اين تبدأ المانيا أو سويسرا أو كندا وامريكا الا عند مخفر شرطة الحدود.

الجبال كحدود طبيعية:

ان المدقق في الأمثلة التي يسوقها الباحثون عن الفواصل الطبيعية المتفقة مع الحدود السياسية والقومية يجد انها كلها مليئة بالاستثناءات. فجبال البرانس في

مجموعها فاصل بين القوميتين الاسبانية والفرنسية. لكن أطرافها الغربية تسكنها قومية منفصلة هي الباسك وأطرافها الشرقية تعبرها (شبه) قومية هي القطالونية المتحدة من شمال شرق اسبانيا الى جنوب فرنسا. وفي الوسط نجد امارة اندروا التي يعود استقلالها الى عام ١٢٧٨م. وكذلك الحال في جبال الهملايا لا تكون الحد الفعلي للقومية الهندية او الصينية. فهناك تسرب كثير للمغول على السفوح الجنوبية للهملايا مما جعل معظم الهملايا خارجة عن الحدود القومية للهند. ولكن في هذه المناطق المنعزلة قامت عدة امارات وممالك حاجزة مثل كشمير ونبال وبوتان. وهنا اختلاط شديد بين الهندوكية والبوذية واللامائية. إذن اين الحدود الطبيعية؟

أن جبال الألب لم تكن حدوداً للإمبراطورية الرومانية الا في اوقات محدودة وسرعان ما نفذ الرومان عبر ممرات الألب الى بافاريا والنمسا. ولقد صعد نوع من القومية الايطالية جبال الألب ويعيشون فوقها في منطقة جنوب سويسرا (الرومانش) بينما هبط النمساويون في التيرول صوب السفوح المشمسة الجبلية المطلة على سهل لمبارديا الايطالي.

وفي الواقع نجد ان هناك اختلافات كثيرة حول مسارات الحدود المتوازية مع الجبال. هل ترتفع الحدود الى خطوط تقسيم المياه – اي الى اعالي الجبال؟ ام يمكن ان تسير الحدود بموازاة السفوح؟ وما هي المشاكل الاستراتيجية والاقتصادية المرتبة على كل منهما؟ وقد يبدو من الطبيعي ان تسير الحدود مع خطوط تقسيم المياه بحيث تضمن لكل دولة حرية التصرف في منابع انهارها – خاصة وان مناطق المنابع مؤهلة لتكوين مصادر عظيمة للطاقة الكهرومائية. لكن

الأمور لا تسير دائماً على هذا المنوال. فالجبال ليست اراضي خالية من السكان في معظم الاحيان ولهذا لا يمكن التصرف فيها بدون مراعاة لانتماءات السكان اللغوية والحضارية.

لكن الأمور السياسية لا تسير وفق الظروف الجغرافية الطبيعية والبشرية ، بل حسب قوة الدول في زحزحة ادعاءاتها على الأراضي. او حسب الاتفاقات التي يمكن تصل اليها الدول. وإذا عدنا الى جبال البرانس مرة اخرى نجد أنها في حقيقة الأمر لا تكون حدوداً فاصلة بين فرنسا واسبانيا. فالرعاة الذين يسكنون الجبال غالباً ما يتنقلون بقطعانهم على السفوح الشمالية والجنوبية حسب المواسم المواتية، ولهذا ظلت مشكلة حدود البرانس معلقة بين فرنسا واسبانيا منذ عام ١٦٥٩ برغم ان الاتجاه كان نحو تثبيتها على قمم الجبال (خط تقسيم المياه). وفي أواخر القرن ١٩ أتفقت الدولتان علي ما كان سائدا منذ القرن ١٣ وهو السماح للرعاة بالتنقل على السفوح المختلفة. وبذلك فإن البرانس ليست حداً فاصلاً ، إنما هي منطقة اتصال حدية : تخوم.

الغابات والمستنقعات ونشأة الدول الحاجزة:

تتكون الغابات والمستنقعات اشكالاً مختلفة من العقبات والعوائق الطبيعية ضد سهولة الاتصال عبرهما. ولا شك ان المستنقعات – خاصة اذا كانت تمتد في مساحات كبيرة – تشكل عقبة كؤود امام تقدم الجيوش الزاحفة، وبذلك فإنها تحتاج الى تكتيك حربي خاص بها، لكن اسهل منه الالتفاف حولها ان امكن. وبذلك فإن الحدود التي تجتاز مستنقعات كانت في الماضي حدوداً دفاعية جيدة. مثال ذلك حدود روسيا القيصرية في منطقة مستنفعات البرييت بينها وبين بولندا. وكذلك

مستنقعات بحيرة كيوجا وما جاورها التي كونت حماية طبيعية لمملكة بوجندا القديمة من الناحية الشمالية. وهناك عشرات الأمثلة على دور المستنقعات في دلتا الراين، فقد نمت القومية الهولندية وسط عشرات المجارى والمستنقعات في إقامة حدود دفاعية قوية بالنسبة لكثير من المجتمعات البدائية ، وإمارات ودولة العصور القديمة والوسطى، كما ان مستنقعات شمال الدلتا المصرية قدمت المصرية حماية طبية للدلتا الغنية من جهة الشمال بحيث ان مصر لم يجر غزوها من الشمال الا في حالة واحدة:

الحملة الصليبية على المنصورة ودمياط التي فشلت ايضاً نتيجة الدفاع المملوكي والاستعانة بمياه الفيضان معاً.

وما من شك في ان تكنيك الحروب الحديثة قد وجد حلاً لمعارك المستنقعات متمثلاً في دبابات وسيارات وصواريخ موجهة من نوع خاص، وقوارب قيمتها تماماً. ولا ادل على ذلك من أن مستنقعات دلتا الميكونج في فيتنام الجنوبية ظلت مسرحاً لنشاطات الفيتكونج العسكرية طوال عشرات سنوات من الحرب ضد التكنيك العسكري الأمريكي البري والجوي، والمتنوع والمستفيد دائماً من خبرة المعارك. ذلك ان حرب العصابات تشكل نوعاً جديداً من الحروب التي تستفيد دائماً من العقبات الطبيعية، خاصة الجبال والغابات والمستنقعات.

والغابات هي الأخرى عقبة طبيعية ضد حدود الاتصال. ومما يزيد هذه العقبة قوة ان الغابات في النطاق المعتدل البارد تنمو في المناطق الجبلية الوعرة قليلة الاستخدام والسكن. وبذلك تتضافر عدة قوى طبيعية على جعل مناطق الغابات حدود انفصال واضحة. ولهذا نجد الكثير من المناطق الغابية تشكل امرات

صغيرة خاضعة بصورة من الصور لحكم ذاتي يستمد قوته في احيان من قوى اخرى مجاورة تذية وتساعده على البقاء كنوع من الدول الحاجزة. وفي احيان اخرى كانت الدولة تنشيء اقطاعاً لامراء في مناطق الحدود الغابية ، ومن ثم نشأت مصطلحات قديمة بهذا المعنى مثل " مارك وقد نشأت عنها القاب نبالة قديمة مثل المركيز (صاحب المارك) ومارك جراف (بالإلمانية ايضاً صاحب المارك).

فالمارك كان جزءا من اقليم الحدود ينظم دائماً على اساس شبه عسكري من أجل المحافظة على الحدود. وقد نظم شارلمان واوتو عدداً من هذه التنظيمات العسكرية على الحدود لمنع الزحف السلافي الى وسط أوروبا. وقد تطورت هذه " الماركات" فيما بعد لتصبح دولا ذات قومية خاصة توسعت في المستقبل وكونت إمبراطوريات وممالك في وسط اوروبا. ومن أهم هذه "الماركات" مارك براندنبدج الذي كان نواة الأمبراطورية البروسية، والقومية الألمانية ، ومن الماركات الأخرى بوهيميا، موافيا (في تشيكوسلوفاكيا حالياً) وصوربيا (الصرب قاعدة الوحدة اليوجسلافية فيما بعد) ومارك بريتاني (في غرب فرنسا) ومارك اسبانيا في جنوب فرنسا. وبذلك طوق شارلمان مملكته بامارات حاجزة لحمايتها من الشرق والجنوب الشرقي والغرب.

ولقد تطورت فكرة " المارك" الى فكرة المحميات في العصر الاستعماري. والمحمية هي دولة ذاتية الحكم تستند في بقائها الى قوة الاستعمار المجاورة وتقوم بوظيفة منع الاحتكاك المباشر مع القوى الأخرى. ومن أشهر الأمثلة على المحميات دولتي بوتان وسيكيم اللتان تفصلان جانباً من الحدود الهندية مع التبت

فقد ظلتا محميتين بريطانيتين، وبعد استقلال الهند ظل هناك مندوب هندي يساعد في تصريف الأمور. وعلى هذا النحو يمكن ان نفسر بقاء سيام (تايلاند حالياً) دولة حاجزة بين النفوذين الاستعماريين الانجليزي (في بورما) والفرنسي (في الهند الصينية – فيتنام وكمبوديا ولا ووس حالياً) . وبالمثل كانت نشأة جولة اورجواي على مصب لابلاتا اتفاقاً بين النفوذين الاسباني (في الارجنتين والبرتغالي (في البرازيل) لمنع الصدام بينهما في هذه المنطقة الحساسة: كذلك كان انشاء المنطقة المحايدة بين الكويت والمملكة السعودية عازلاً دون احتكاك مصالحهما.

وفكرة المناطق المحايدة او الحاجزة فكرة قديمة مارستها الجماعات البدائية كما سبق ان ذكرنا. فعند المجتمعات البدائية كانت الحدود عبارة عن مناطق غير مأهولة بين مناطق الاستقرار والتجمعات البشرية. وبذلك فإن هذه الحدود تشابه مناطق اللامعموريين الدول – الشقة الحرام – وهي على هذا النحو لم تكن خطوط اتصال على الاطلاق، بل نطاقات فصل. فحيث ينتهي السكن تنتهي حدود المجتمع. وقد اخبرنا الرحالة الالماني بارث وغيره من الذين جابوا افريقيا خلال القرن ١٩ أن مناطق اللامعمور هي حدود الجماعات، وفي خلال فترات الحروب تمتد هذه النطاقات الحاجزة مسافات اوسع كنوع من نطاقات الأمان كانت تصل في احيان الى اكثر من مائة كيلو متر اتساعاً: مثلاً تلك بين دولة الفولاني وبورنو في شمال شرق نيجيريا، أو بين الازاندي والبونجو في السودان الجنوبي. وفي اسكندنافيا كانت حدود السلاف والجرمان والفن مماثلة لتلك في افريقيا، كما كانت حقول الثلج الشاسعة تفصل بين السويد والنرويج. والى الشمال من تروند هايم كانت الأرض في أقاليم ترومز ونورلاند تعد ارضاً

مشتركة بين النرويجيين والسويديين والروس، وكان اللأب المتنقلون يدفعون ضرائب صغيرة لهذه الدول الثلاث. وقد ظلت هذه المساحات الواسعة بدون سكان مستقرين حتى القرن السابع عشر حينما استقرت جماعات من الفن في نورلاند. وهكذا نجد عنصر الفن اللاب يتداخل بين السويد والنرويج اللتان لم تتفقا على حدود فاصلة بينهما الا في ١٧٥١، كما خطت الحدود بين النرويج وروسيا في ١٨٦٢.

مثل هذه المناطق الخالية كانت تعتبر لمدة طويلة احسن وسائل الدفاع عن الدولة، لأن العدو يخترق اراضي غير مواتية مسافة طويلة قبل أن يهاجم الدولة. ومن المعروف أن بعض القادة كان يتعمد ترك مناطق خالية حاجزة. مثال ذلك أن الزعيم اتيلا طلب من بيزنطة ان تترك نطاقاً بعرض مائتي كيلو متر جنوب الدانوب خالية من السكن والزراعة. وكذلك ترك البارونات الانجليز مساحات غير مستغلة على طول الحدود بين انجلترا واسكتلندا لتأمين الحماية. وعلى حدود لتوانيا ترك الأمراء التيوتون نطاقات من الغابات غير المأهولة يتراوح عرضها بين مائة ومائتي كيلو متر عند منطقة ممل التي يمر فيها ثلاثة طرق محصنه بالقلاع تتجه الى جرودنو وكوفنو واونتلسبورج. وهذا معناه ان فرسان التيوتون الذين احتلوا لتوانيا في منتصف القرن السادس عشر قد تركوا أكثر من نصف المساحة التي احتلوها فراغاً حاجزاً لتأمين املاكهم الجديدة ضد السلاف.

وأغرب أنواع الحدود المهجورة كانت تلك بين الصين وكوريا، فقد طرد السكان من نطاق عرضه حوالي مائة كيلو متر، ودمرت كل القرى والمزارع الموجودة داخل هذا النطاق، وهددت السلطات كل من يقبض عليه داخل هذا

النطاق المهجور بالموت الفورى. وكانت التجارة بين الدولتين تسلك طريقاً واحداً مصرح من قبل السلطات. وزيادة في الحيطة والحذر لم يكن هذا الطريق مفتوحاً طوال العام، بل كان يؤمر بفتحه ثلاث مرات في العام لمرور القوافل.

وفي أغلب الظروف كانت هذه المناطق المهجورة كنطاقات حاجزة بين الدول والمجتمعات البدائية تفقد قيمتها لاسباب كثيرة على رأسها حدوث غزو أو تحسين العلاقات بين الدول المتنازعة، أو تضطر الدول والمجتمعات إلى ألغائها نتيجة للضغط السكاني الداخلي والحاجة الى أرض وموارد جديدة. ولكن هذه المناطق كانت تتحول قبل ذلك بالتدريج الى مأوي وملجأ للمجرمين والفارين من الدولتين المتجاورتين او الى مأوى للثوار على أنظمة الحكم. ومن الأمثلة الحديثة على ذلك أن المناطق غير المأهولة على طوال الحدود الأمريكية المكسيكية كانت مأوي للخارجين على القانون خلال العشرات الأولى من هذا القرن. ولما استفحل امرهم اضطرت الحكومة الامريكية الى تجريد حملات عسكرية واستخدام الجيش والوسائل الحربية للقضاء عليهم.

ولا شك أن المناطق الخالية عمداً - تلال او غابات او مستنقعات او اراضي جيدة غير معموره- صالحة لقيام نطاقات حاجزة بين الدول في حالة وجود مزيد من الأرض وقليل من السكان، ومع اقتصاد زراعي او نشاطات اقتصادية اولية، ولكن مع نمو الحضارة الصناعية والنمو السكاني الحديث مع النزعات القومية وظهور الدول القومية باشكالها الحديثة، لم تعد الحاجة الى هذه التخوم المهجوره قائمة، بل على العكس ظهرت الحاجة الى مزيد من الأرض ومزيد من الموارد، ومن ثم اختفت هذه المناطق الحاجزة تماماً من خريطة اوروبا

وغيرها من الدول الا من بقايا تاريخية قديمة كامارات لكسمبورج وليختنشتاين واندروا ونبال . واتخذت المناطق الحاجزة وضع المناطق المحايدة في الاراضي قليلة السكان ذات الموارد المحتملة ريثما يتم اتفاق الدول على تقسيمها في ظل ظروف سياسية مواتية.

المسطحات المائية والحدود السياسية:

تشكل المسطحات المائية- انهاراً وبحيرات وبحار- عقبات طبيعية أمام الاتصالات البرية المعتادة، ويلزم وسيلة خاصة لعبورها (قوارب وسفن وجسور) وبذلك فإنها في الحقيقة نوع من أنواع الحدود الاستراتيجية المانعة. ولكن الأنهار والبحيرات مشكلات خاصة تختلف عن البحار والمحيطات، ومن ثم يجب التفريق بينهما.

أ- الأنهار والبحيرات:

منذ القدم كانت الانهار تعد عائقاً طبيعياً تستقر بموازاته الحدود الاستراتيجية للدول مثل الراين قديماً (الرومان) وحديثاً (فرنسا والمانيا وسويسرا)، وريوجراندا بين الولايات المتحدة والمكسيك وآمور بين الصين والاتحاد السوفيتي والكنغو بين زائيري وجمهورية كنغو برازافيل والزمبيزي بين روديسيا وزامبيا واروجواى بين الارجنتين من ناحية وارجواى والبرازيل من ناحية اخرى.

وهنا يجب أن نميز بين الحدود الطبيعية والاستراتيجية. فالنهر – كمسطح مائي- عقبة استراتيجية ومن ثم يصلح حدا عسكرياً ملائماً. ولكنه ليس حدا طبيعياً في كل الحالات. ويعتمد ذلك على نوع النهر: هل يجري في سهل أو وادي واسع ام في منطقة وعرة او اخدودية؟ هل هو نهر عريض هادئ ام ضيق

متدفق التيار؟ هل هو دائم الجريان ام موسمي المياه؟ هل يغير مجـــراه ام ثـــابت المجرى؟ وعلى ضوء تحديد النهر في اجزاءه المختلفة يمكننا ان نقول في النهايـــة هل هو حدود اتصال ام انفصال.

أن النهر في اجزائه العليا غالباً غير صالح لتحديد خط سياســـي طبيعـــي لأنه يكون مجموعة من الروافد الصغيرة المنحدرة سريعاً المتأثرة كثيراً بالامطـــار او الثلوج او الينابيع. وفوق هذا يجري فإنه فوق منطقة مرتفعة مضرسة غالباً هي في حد ذاتها منطقة انتقال حدية واسعة. ولهذا فان الغالب ان مسارات الانهار فـــي مجاريها الوسطى والدنيا – حيث يتحدد النهر في مجرى واحد، هي الاجزاء التـــي يمكن أن تتخذ حدوداً استراتيجية . وهي بالفعل كذلك تاريخياً. فالراين ليس الحـــد السياسي بين النمسا وسويسرا في مجراة الأعلى الا عند قرب خولة بحيرة بـــودن (كونستانزة) . وبعدما ينظم جريان مائية النهر منذ خروجة من تلك البحيرة نجـــده يكون في معظمة الحد التاريخي بين سويسرا والمانيا، وبين المانيا وفرنسا.

والدانوب لا يكون حدا سياسياً في مجراه الأعلى. فـــهو لـــم يكـــن الحـــد الشمالي لمملكة بافاريا قديماً، ويجرى عبر المانيا الجنوبية حالياً. وهـــو يخـــترق شمال النمسا دون ان يصبح حداً سياسياً خارجياً او ادارياً. ويكون جزءا من حـــدود المجر وتشيكوسلوفاكيا وجزء آخر من حدود رومانيا مـــن جـــانب ويوجســـلافيا وبلغاريا من جانب آخر، وأخيراً يكون في دلتاه جزءا من حدود رومانيا والاتحـــاد السوفيتي.

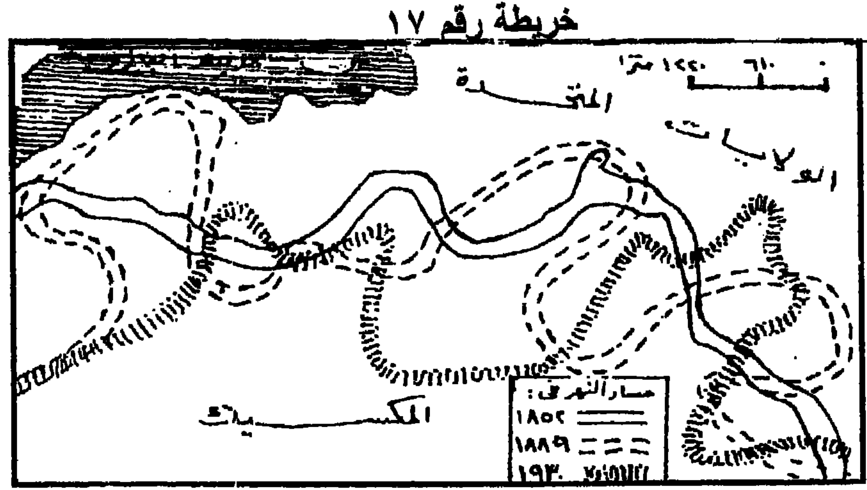
وبعض الأنهار تغير مسارتها في اجزاء محدودة وأخـــرى فـــي اجـــزاء واسعة. ومن الأمثلة على ذلك أن بلدة برايزاخ القديمة (على الراين الأوسط فـــي اقليم بادن الألمانى) كانت اصلاً على الضفة اليسرى للنـــهر – اي داخـــل اقليـــم الألزاس حتى القرن ١٦، ثم غير النهر مجراه فأصحبت علـــى الضفـــة اليمنـــى

فدخلت بذلك في الجانب الالماني. وفيما بين سويسـرا والنمسا وغير الراين ومجراه بعد ١٨٩٢ ولكن الدولتين اتفقتا على ابقاء الحدود بين البلدين على اساس المجرى القديمة. وقد اتفق مؤتمر فيينا ١٨١٥ (بعد الحروب النابليونيـة) علـى اتخاذ مجاري الأنهار حدوداً – لكن أحد في هذا المؤتمر لم ينتبه الى ظاهرة تغيير مجاري الأنهار. وإذا كانت هذه الحالة التغيير البسيط في مجاري الأنهار فلما هـي الحالة لو كان الأمر يرتبط بتغيرات عديدة واسعة المدى.

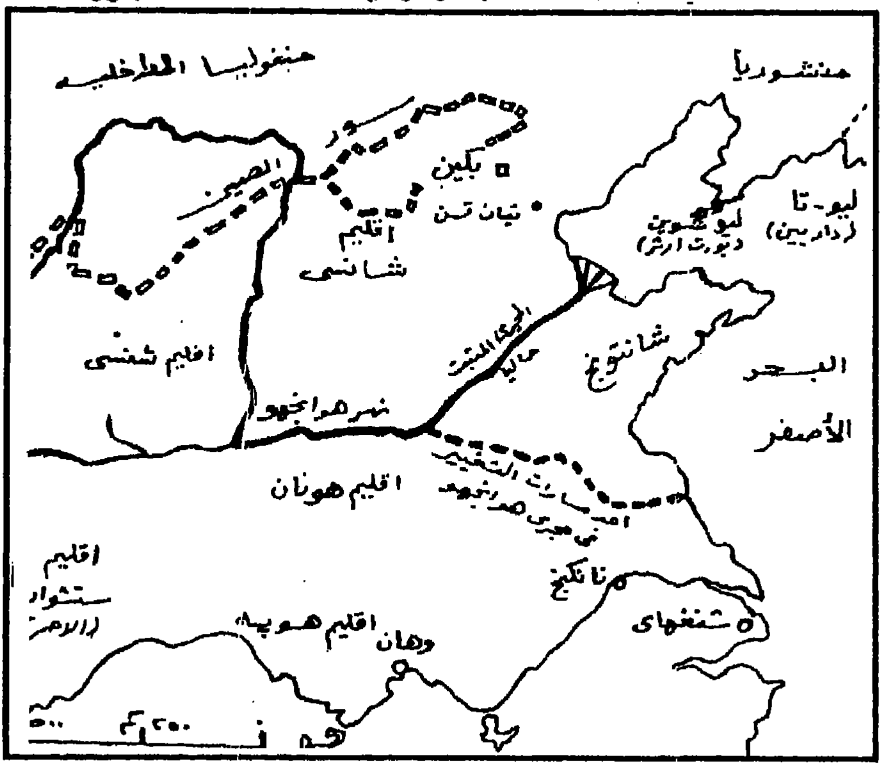
كانت الحدود الأمريكية المكسيكية المرتبطة بمسار نهر ريوجراند مشـكلة من مشاكل تغير مجرى النهر. (وتوضح الخريطة ١٧) جزءا من مسـار النـهر عند مدينة البازو الأمريكية وكيف تغير المجرى مرات عديـدة سـنوات ١٨٥٢، ١٨٨٩، ١٩٣٠. وما هذه الخريطة الا نموذج للتغيير الذي كان يكتنف مسار النهر كله. وبطبيعة الحال كان خط الحدود يتغير مع مسار النهر ويطول او يقصر مـع كثرة الثنيات المستحدثة. ولهذا قررت الحكومة الأمريكية في عـام ١٩٣٣ انشـاء هيئة لضبط فيضان ريو جراندا وتقصير المسار بحفر مجرى مستقيم عند الثبـلت وبذلك تقصر أطوال الحدود التي ثبتت في وسط المجـرى العميـق. وفـي عـام ١٩٦٣ تنازلت الولايات المتحدة عن مساحة قدرها ٤٣٧ فدانا الى المكسيك كـانت في جنوب النهر حتى عام ١٨٦٤ ثم أصبحت شماله بعد ان غير النهر مجراه.

وإذا تصورنا ان حدا سياسيا كان يرتبط بمسـار هوانجـهو فـي شـمال الصين، فإن تغير مسار النهر في مجراه الأدنى كان سوف يـؤدي الـى كارثـة سياسية لأنه كان يبتعد عدة مئات من الكيلومترات في بعض السنوات عن مسـاره الأول (انظر الخريطة ١٧) .

خريطة رقم ١٧



نهر ريوجراندا بين المكسيك والولايات المتحدة عند البازو



نموذج للتغيرات في مسارات الأنهار

وقد امكن في الوقت الحاضر ضبط مسار النهر على النحو الظاهر في الخرائط ليس تجنبا للكوارث السياسية، وإنما الكوارث الاقتصادية والسكانية الهائلة التي كانت تحدث بصفة مستمرة.

والى جانب التغيرات التي تحدث في مسارات الانهار، فإن هناك مشكلة اخطر. فالغالب ان أودية الأنهار في مساراتها الوسطى والدنيا هي مناطق عامرة بالسكان على كلا جانبي النهر وغالباً ما يرتبط العمران بعضه بالبعض الآخر وترتبط المصالح الاقتصادية بين سكان الضفتين، ويصبح النهر وسيلة للربط والاتصال بدلاً من الفصل. ويترتب على ذلك في غالبية الأحوال أن تصبح مناطق الأودية النهرية من عوامل تكوين حضاري اقتصادي متشابه. فإذا ما جرى الحد السياسي. وسط هذه المنطقة الحضارية الواحدة فإن ذلك لما يؤسف له.

وبرغم كل هذه العيوب نجد ان الانهار كثيرا ما تتخذ حدودا سياسية من أجل الراحة والتسهيل السياسي. مثال ذلك ان القوى الاستعماري في افريقيا وامريكيا اللاتينية قد استخدمت الأنهار بكثرة لتحديد مناطق النفوذ لأنها ظاهرة طبيعية موجودة وواضحة ومن ثم كان يسيرا على هذه القوى ان تتفق فيما بينها على حدود لا تخطئها العين. ولكن مثل هذه الحدود سببت كثيراً من التفرقة بين المجتمعات فقسمتها بين نوعين من الاستعمار كما كان الحال حينما وجد الباكونجو انفسهم مقسمين الى ثلاث تبعيات استعماري: البرتغال في انجولا وكانبدا، والبلجيكيين في زائيرى الحالية والفرنسيين في الكونغو.

ولا شك في أن مسار النهر يصبح حداً سياسياً طيباً إذا ما تصادف أنه حد لغوى او اتنولوجي. ولكن ذلك قليل مثل حدود البلغار والرومان على جانبي الدانوب. ولهذا تلجأ الدول التي تصل بحدودها الى نهر ما الى محاكاة التطور الحضاري البطيء بأسلوب سريع، ذلك هو تهجير السكان الأصليين من مواطنهم

وتوطين ابناء الدولة محلهم، وبذلك يصبح مسار النهر مرتبطاً بالحد السياسي والقومي. مثال ذلك إعادة توطين الاتراك واليونانيين شرق وغرب نهر مارتيزا بعد ان هزمت تركيا في الحرب العالمية الأولى وقرر الحلفاء مد حدود اليونان في تراقيا الى ذلك النهر. ومثل ذلك تهجير الألمان من معظم المنطقة التي تقع شرق نهر الأودر ورافده نيسه بعد الحرب العالمية الثانية وتوسيع حدود بولندا غرباً الى مسار هذا النهر.

وفي احيان تتخذ البحيرات إجزاء من مسارات الحدود. وتعد سويسرا من الدول القليلة التي تمتد اطوال كثيرة من حدودها في البحيرات: بحيرة بودن بين النمسا وسويسرا والمانيا، بحيرة ليمان بين فرنسا وسويسرا وبحيرتي ماجورى ولو جانو بين سويسرا وايطاليا. وتمتد الحدود الكندية الأمريكية في جزء منها بطول البحيرات العظمي كلها عدا بحيرة مشجان. وفي افريقيا تماثل اوغندة سويسرا فهناك حدودها الطويلة على بحيرة فكتوريا وبحيرتي ادوارد والبرت. وتمتد الحدود التانزانية باطوال كبيرة داخل بحيرات فكتوريا وتنجانيقا ونياسا. والأمثلة كثيرة في افريقيا (تشاد – نياسا – بنجويلو الخ) وبرغم ان البحيرات اصلح من الأنهار كحدود سياسية، بحكم اتساع مسطحها كما ان معظمها يقع في مناطق جبلية وعرة، إلا ان لها مشاكلها الأخرى. فتقسيم البحيرات بين وحدات سياسية غالباً ما يحرم الدول من القيام باعمال هندسية كبناء السدود ورفع مستوى المياه من اجل توليد الطاقة الا باتفاقات مسبقة وكذلك لا يمكن استغلال الثروة السمكية او المعدنية (ان وجدت) الا باتفاقات مسبقة ايضاً. وفضلاً عن ذلك فإن البحيرات تكون مجالاً للتهريب (البضائع والأشخاص) لا يسهل التحكم فيه.

ب- سواحل البحار والحدود السياسية:

تشكل السواحل البحرية خطوطاً طبيعية مناسبة لامتدادات السيادة القومية للدول- ربما اكثر وضوحاً وتحدداً من الجبال والأنهار. فساحل البحر، ولو أنه في

حد ذاته منطقة انتقالية طبيعية وليس خطأ فاصلاً إلا أنه في الواقع فصلا واضحاً بين نوعين منفصلين من البيئة: اليابس الأرضي والمسطح المائي المالح. أما الجبال فهي ظاهرة تضاريسية انتقالية عريضة داخل اليابس، ولا تختلف عن اليابس في تكوينها انما الاختلاف يكمن في ارتفاع مناسيبها عن الأرض المحيطة بصورة تدريجية أو شبه فجائية. والأنهار مجاري مائية محدودة العرض تحتل مناطق ذات مناسيب منخفضة نسبياً عن الأرض المحيطة وغالباً ما يكون الانخفاض تدريجياً بحيث تكون أودية الأنهار نطاقات انتقالية تدريجية في الظاهرات الجغرافية الطبيعية والبشرية. أما البحار فهي تكون فعلاً مناطق انقطاع تامة بين ايكولوجيتين مختلفتين تماماً: الحياة الأرضية حيث يعيش الإنسان وتتكون الدول والقوميات، والحياة البحرية حيث لا يعيش الإنسان الا انتقالياً لفترات محدودة جداً من العمر.

مواقع البحار وعلاقته ببساطة وتعقد الحدود السياسية البحرية:

على هذا النحو فإن سواحل البحار هي عادة حدود طبيعية طيبة. ولكن جودة مثل هذه الحدود تكمن في تناسب علاقة اليابس والبحر ونوعيه البحار المطلة عليها اراضي الدول. وبذلك فإن هناك بحار اتصال وبحار انفصال.

أ- بحار الاتصال:

في الغالب نجد بحار الاتصال هي تلك البحار الداخلية الهادئة نسبياً، ذات المجموعات الجزرية في أغلب الأحيان. وفي هذه المجال يمكننا ان نميز ثلاث بحار متوسطة في العالم كان لها دور الوصل اكثر من الفصل في تاريخ وعلاقات الشعوب والحضارات ومن ثم كانت اقدارها السياسية متشابكة. وهذه البحار المتوسطة هي: (انظر الخريطة ١٨).

خـــارطـــة رقـــم (١٨)

البحر المتوسط الأوروأفريقي (القديم)

البحر المتوسط الأسيوى



البحر المتوسط الأمريكي

البحر المتوسط الاوروا افريقي الممتد بين القارات الثلاث اوروبا وافريقيا وآسيا، والمتمركز في قلب العالم الحضاري القديم والاوسط والذي يكون حالياً مجالاً حيوياً للحركة التجارية بين العالم الغربي وعالم الخامات والقوميات الجديدة في الشرق الأوسط وافريقيا والمحيط الهندي. ولا نريد أن نعيد الى الأذهان هذا البحر كان الطريق الأكثر اماناً للحركة والتجارة بالقياس الى اليابس المحيط به منذ اقدم العصور. فعلاقات مصر الفرعونية مع ساحل الليفانت وقبرص وكريت تكرست وازدهرت عبر مياه البحر. وكذلك كان ازدهار المدن الفينيقية والاغريقيه مرتبطاً ارتباطاً عضوياً بالبحر المتوسط. وبالمثل كانت علاقات الرومان البحرية والسياسية في البحر المتوسط الركيزة التي مكنتها من امتداد نفوذها إلى أوروبا الغربية وكذلك كان سعي ممالك العراق القديم والفرس للوصول الى واجهة البحر المتوسط في فينيقيا والاناضول عبارة عن استكمال للسيطرة على طريق التجارة الرئيسي براً (وسط آسيا وهضابها الغربية) وبحراً (البحر المتوسط). وبالمثل كانت الدولة الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة قوى مرتبطة بشدة بعالم البحر المتوسط، شريان الاتصال الحضاري والاقتصادي في عالم آنذاك. وقد اعاد نابليون – بافكاره الجيوبوليتكية البارعة– الحياة الى البحر المتوسط بحملته على مصر والشرق، بعد أن طال ركود هذا البحر بانتقال التجارة الى المحيطات الواسعة. وأخيراً فإن قناة السويس كان لها الفضل في إعادة ما كان لهذا البحر من أهمية سالفة. وتمثل الصراعات السياسية المعاصرة على هذا البحر أهميته كمنطقة اتصال حيوية بين بلاده وبلاد كثيرة في العالم: الصراعات الإنجليزية والفرنسية، ثم الصراعات الإنجليزية والفرنسية من جانب ضد الصراع الايطالي

الالماني من جانب آخر، أخيراً صراعات الكتلتين الشرقية والغربية والقوى في الشرق الأوسط.

٢- البحر المتوسط الآسيوي: ويتمثل هذا في مجموعة بحار جنوب شرق آسيا بين الصين الجنوبية والهند الصينية والهند من ناحية واليابس الاسترالي الشمالي من ناحية ثانية. هنا نجد عدة بحار متداخلة: بحر الصين الجنوبي (وخليجي تونكين وسيام) وبحر اندمان بين لسان الملايو في الشرق وجزر اندمان ونيكوبار في الغرب وساحل بورما في الشمال.

ولهذا البحر امتداد كبير شديد الحيوية هو مضيق ملقا بين سومطره والملايو. وفضلاً عن هذين البحرين هناك المسطحات البحرية العديدة الفاصلة بين جزر الهند الشرقية والتي تتخذ اسماء بحار عدة مثل بحر جاوه وبحر سليبيس وبحر مولوقا وأخيراً أرافورا الذي يفصل شمال استراليا (ارتهام لاند) عن بقية الجزر.

والبحر المتوسط الآسيوي، وإن كان يختلف عن البحر المتوسط القديم في أنه يتكون اولاً من مجموعة جزرية هائلة المساحة بالنسبة لجزر البحر المتوسط القديم، وثانياً في أنه ليس بحر شبه مغلق بكتل اليابس القارية، إلا أنه يشابهه في دوره الحضاري والتجاري، فلقد كان هذا البحر المعبر الذي انتقلت عليه بعض اشكال الحياة النباتية والحيوانية من آسيا الى استراليا، كما انه كان المعبر الذي انتقل عليه الاستراليين الأصليين الى استراليا ايضا. وفي جزر هذا البحر اختلطت الحضارات والديانات الهندوكية والبوذية والإسلامية على مسرح الديانات الوثنية، واليه ايضاً امتدت اساطيل التجارة الصينية والعربية والهندية والبرتغالية

والاسبانية والهولندية والإنجليزية والفرنسية والأمريكية واليابانية في كافة مراحلة التاريخية حتى اليوم.

ويختلف البحر المتوسط الآسيوي اختلافاً جوهرياً عن البحر المتوسط القديم في أنه مصدر هام لعدد من الخامات والمنتجات السلعية الأولية منذ القدم وبذلك كانت منطقة البحر المتوسط الآسيوي هدفاً نهائياً لخطوط الحركة التجارية والسياسية، وليست شريان مواصلات رئيسية كما كان البحر المتوسط الأورو أفريقي كما يتميزبان جزره مجالاً لسكن كثيف ومحط لهجرات سكانية (الهنود العرب قديماً والصينيين حديثاً) ومع التنظيم الاقتصادي يمكن ان يتسع المجال العمراني في داخلية الجزر الكبرى: بورنيو وسومطرة وايريان وهذا عكس جزر البحر المتوسط القديم فجزره في معظمها تكون بيئات طارده للسكان بينما التكاثف السكاني بحدث في جيوب صغيرة على شواطئ البحر الأودية الصغيرة المنتهية اليه من محيطة الجبلي (في اوروبا وآسيا) والصحراوي (افريقيا وآسيا).

٣- البحر المتوسط الأمريكي: هو ذلك البحر الممتد من جنوب الولايات المتحدة الى سواحل فنزويلا وجمهوريات أمريكا الوسطي، ويشتمل على مسطحين بحريين كبيرين هما خليج المكسيك في الشمال والبحر الكاريبي في الجنوب. وهو يشابه البحر المتوسط الأورو أفريقي في أنه مغلق في الغرب بامتداد اليابس بين الأمريكيتين مما دعا الى فتحه بواسطة قناة بنما (كما حدث بالنسبة لقناة السويس) لكنه يختلف في أنه يتصل بالمحيط الاطلنطي بعشرات الفتحات الواسعة والضيقة بين جزره العديدة. فهو إذن من هذه الناحية يمثل مرحلة وسط بين البحر المتوسط الأورو افريقي والآسوي. وبالمثل فإن مجموعاته

الجزرية أقل ضخامة وسكاناً من جزر البحر المتوسط الآسيوي لكنها تشكل ميزان الثقل في الاقتصاديات الأولية في هذا البحر – بالإضافة الى مصادر البترول في فنزويلا والمكسيك وتكساس.

وفي بداية الكشوف الجغرافية والعقود الكثيرة التي تليها كان هذا البحر بسواحله كلها مسرحاً للنفوذ الاسباني ثم تتابعت القوى الأخرى: فرنسا وهولندا وبريطانيا وأخيراً أمريكا. وباستثناء الوجود الأمريكي الفعال فإن الوجود الإنجليزي والفرنسي والهولندي قد تحول الى وجود رمزي في جزر صغيرة من مجموعة الانتيل الصغرى. والى جانب القوميات اللاتينية المختلفة، فإن تحول دولة كوبا الى النظام الإشتراكي قد ادخل عنصراً جديدا من عناصر الصراع السياسي لم يكن له وجود في هذا البحر الأمريكي قلباً وقالباً.

والى جانب هذه البحار التي تيسر الاتصال وتكون طرقاً الحركة مستمرة، هناك بحار اخرى أصغر حركة في مرحلة من مراحل التاريخ مثل بحر الشمال والبلطيق و البحر الأحمر. وذلك مرتبط بظروف طبيعية مختلفة مثل اضطراب بحر الشمال المستمر ومعاداته للملاحة القديمة في أحيان كثيرة، وتجمد البلطيق في مواسم معينة، ووعورة وجدب شواطئ البحر الأحمر عامة.

أما البحار الفاصلة فهي تلك التي تشكلها المحيطات الواسعة مع استثناء جزء كبير من المحيط الهندي بين مدغشقر وشاطئ افريقيا الشرقي والبحر العربي وخليج بنجال وجزر الهند الشرقية.

لكن الفصل والاتصال مسألة نسبية مرتبطة بوجود علاقات تجارية وحركة مستمرة فالاطلنطي الجنوبي بين شواطئ افريقيا وأمريكا الجنوبية كان

مسطحاً فاصلاً فترة طويلة لكنه تحول الى مسرح حركة ملاحية كبيرة بعد الكشوف الجغرافية وأصبحت مواني خليج غانه وجنوب أفريقيا مزدهره بالحركة التجارية المارة من الهند الى اوروبا. وبعد شق قناة السويس قلت الحركة في هذا الجزء من المحيط ولم تعد تعبره سوى السفن المتجهة الى استراليا وافريقيا الغربية والجنوبية. ومع هذا التغير هبطت الصراعات الدولية (البرتغالية والانجليزية والفرنسية والالمانية) في هذه البحار الجنوبية. كذلك كان الاطلنطي الشمالي " بحر الظلمات" قبل الكشوف الجغرافية، لكنه يستأثر الآن باضخم حركة ملاحية في العالم وبعلاقات سياسية متشابكة ومعقدة.

وخلاصة القول ان بحار الاتصال تنتابها تيارات سياسية متشابكة:

أولاً: سياسات الدول القومية المطلة على تلك البحار

ثانياً: الدور المؤثر لسياسات القوى الكبرى على مصير واستراتيجية القوى في تلك البحار.

وتحليل التيارات السياسية في البحار المتوسطة الثلاثة خير دليل على ذلك. فعلى سبيل المثال نجد البحر المتوسط الأورو أفريقي تنتابه التيارات السياسية التالية منذ مطلع القرن العشرين: فرنسا كانت تعد الحوض الغربي للبحر المتوسط بحراً فرنسيا تحف به الأراضي الفرنسية من الشمال (فرنسا) والجنوب (فرنسا عبر البحار في شمال أفريقيا) وايطاليا تعد الحوض الاوسط كله بما في ذلك الإدرياتيك بحر ايطاليا (وفي عهد موسوليني اعتبرت كل البحر بحيرة ايطالية لكن محك التجربة اثبت غير ذلك) وبريطانيا كانت تمارس نفوذها الفعال في شرق

البحر المتوسط (مصر وفلسطين وقناة السويس كما كانت تتحكم في مفاتيح البحر الهامة في جبل طارق ومالطة.

ثم جاءت نهاية الحرب العالمية الثانية وتكوين حلف الاطلنطي الذي دخلت فيه فرنسا وايطاليا واليونان وتركيا. وبذلك أصبح البحر المتوسط بحيرة غريبة يسيطر عليها الاسطول الأمريكي السادس بالاشتراك مع الاساطيل القومية الأخرى ايطاليا واليونان وتركيا – أما فرنسا فقد انسحبت من ذلك الحلف) . ثم جاءت انتفاضات الدول العربية وحركات الاستقلال على طول الشواطئ الشرقية والجنوبية من البحر المتوسط، وحرم الغرب من قواعد استراتيجية هامة على طول الجبهة العربية: وهدان – بنزرت – طرابلس – السويس، وذلك فيه نفس الوقت حلت في قوى غريبة جديدة في الركن الجنوبي الشرقي: اسرائيل . وتدريجياً تصاعدت حدة التوتر واغلقت قناة السويس. وبذلك ركدت الحركة السياسية ركوداً مؤقتا في البحر المتوسط، ولا نعرف ماذا يمكن ان ينتهي الأمر اليه في ظل التيارات السياسية العالمية الراهنة المتجهة الى " تبريد" المناطق الساخنة في العالم. وما الغارات التي يشنها حلف الناتو على بلغراد حالياً لهو خير دليل على ذلك.

ب- تغير أهمية البحار:

تتغير أهمية الفصل والاتصال في البحار نتيجة السياسيات المختلفة التي يتبعها القادة والزعماء، ونتيجة التغيرات التكنلوجية في ادوات الحرب البحرية. فالمياه لا تزال وكما كانت، حاجزاً قوياً من حواجز الحدود. لكن السفن الحربية المزودة بالوقود الذري والقذائف الصاروخية فوق سطح الماء وتحته قد قللت

كثيراً من أهمية البحر كحد دفاعي يمكن الاعتماد عليه بصفة مطلقة. ويمكننـــا ان نعطي هنا مثالين: بريطانيا وأمريكا.

كثيراً ما قيل أن موقع بريطانيا في جزرها كـــان عـــاملاً مـــن عوامـــل استقرارها ونجاحها في الحروب. لكن ذلك يدحضه ان بريطانيا تعرضت مرتيـــن لغزو عسكري وحضاري استقر في هذه الجزر المنيعة: الغزو الروماني قبل بدايـة التاريخي المسيحي بقليل. والغزو النورماندي في القرن الحادي عشر الميـــلادي. وفي مقابل ذلك لم يتمكن نابليون وهتلر من اخضاع بريطانيا. والحقيقة انه الـــى جانب ما يعطيه البحر من قوة دفاعية فإن هذه القوة تصبح قوة مانعة فـــي حالـة وجود اسطول انجليزي قوى قادر على صد الاعداء او جعل الغزوة أمر محفـوف بالمخاطرة الجسيمة. وفي حالة فقدان الاسطول الانجليزى فإنه يصعب علينـــا ان نتصور كيف تنجح بريطانيا في صد اي هجوم يقع عليها. والى جانب هذه الحقيقـة فإن هناك عاملاً بشرياً آخر كان يلعب دوره لحساب بريطانيا. ذلـــك ان بريطانيـــا في حربها مع نابليون لم تكن وحيده الا لفترة محـــدودة، وفـــي معظـــم العصـــر النابليوني كانت لها حلفائها وخاصة امبراطورية النمسا والمجر، فضلاً عن انـــهاك موارد فرنسا العسكرية في متاهات السهول الروسية المتجمدة. والحال نفسه كـان في العهد الهتلري، صحيح ان حلفـــاء بريطانيـــا سـقطوا بســـرعة إلا ان القـــوة الأمريكية الاقتصادية والسياسية والعسكرية قد دعمـــت بريطانيـــا طـــوال ســـنى الحرب، فضلا عن سقوط قوات هتلر الفعلية في حملتها الفاشـــلة فـــي مســـاحات الاتحاد السوفيتي الشاسعة.

وإذا كانت بريطانيا جزيرة صغيرة لا يفصلها عن مكامن الخطر الأوربية سوى شقة بحرية ضيقة فإن الولايات المتحدة تمتلك هذه الميزة البريطانية على صورة أضخم عشرات المرات.

فالولايات المتحدة في حد ذاتها مساحة شاسعة مشحونة بموارد هائلة اولية وصناعية فضلاً عن أنها في حقيقة الأمر الآمره الناهية في معظم ارجاء القارتين. الأمريكيتين. والولايات المتحدة كدولة ذات حدود وسيادة محددة. وكقوة رئيسية في الأمريكتين تمثل جزيرة ضخمة تفصلها عن اخطار اوروبا وآسيا أكبر مسطحات محيطية في العالم. وقد قبعت الولايات المتحدة في " جزيرتها" الأمريكية ردحاً طويلاً من الزمن، شاعرة بالامان الذي يعطية اياه عزلتها الجزرية.

في تلك الفترة كانت الولايات المتحدة عاكفه على تدعيم نفسها اقتصادياً، وهي نفسها الفترة التي كان السياسيون الأمريكيون ينظرون الى المحيط على انه عامل دفاع لا يكاد ان يقهر. ولكن الولايات المتحدة دخلت مرحلة اقتصادية سياسية اخرى قبيل الحرب العالمية الثانية وبعدها مباشرة حينما خرجت رؤوس الأموال والاستثمارات الأمريكية الى آسيا الشرقية واوربا وافريقيا والشرق الأوسط. وفي هذه المرحلة تكاثفت الحركة التجارية الأمريكية عبر البحار، وخاصة عبر الاطلنطي الشمالي الى اوروبا والباسيفيك الى آسيا. وهكذا لم تعد البحار الواسعة عامل فصل ودفاع، بل تحولت الى طرق حركة للأموال والسلع والمصالح الأمريكية. وهنا فقدت أمريكا عزلتها وفقدت المحيطات التي تلفها

منعتها الدفاعية. وأصبحت أمريكا ترى حدودها الآمنة في وسط اوروبا وشـواطئ آسيا الشرقية والجنوبية الشرقية.

وبعبارة أخرى نلخص الموقف الخاص بقوة الحدود البحرية على النحو التالي:

١- المسطحات البحرية في حد ذاتها عائق امام الغزو، وبذلك تكون حدوداً دفاعية طيبة.

٢- تعتمد جودة هذه الحدود البحرية على عدة شروط أهمها وجود قـوة بحريـة تدعم هذه الأمكانية الدفاعية الطبيعية.

٣- تتغير إمكانات الدفاع البحرية بتغير إساليب الحرب البحرية ومبتكراتها.

٤- تتغير قيمة البحار كحدود مع تغير السياسات الاقتصادية والعلاقـات الدوليـة التجارية.

٥- الحدود البحرية المطلة على بحار اتصال وحركة أعقد وأكـثر مـن الحـدود المطلة على بحار واسعة أقل حركة. وبذلك فإن الحدود المطلة علـى بحـار الاتصال أضعف كحدود دفاعية من النوع الثاني من الحدود.

مواضع الحدود البحرية وفكرة المياه الإقليمية:

رأينا كيف تؤثر مواقع البحار على جودة الحدود السياسية البحرية فتجعلها حدودا ذات مشكلات سياسية متداخلة او بسيطة . والآن لنبحث في موضـع خـط الحدود الساحلي لتحديد النفوذ السياسي الذي تمارسه الدولة على سواحلها ومياهها الإقليمية.

برغم وجود الدول القديمة في الماضي الا ان قلة السكان عامة، وبطء وسائل المواصلات وعدم وجود اجهزة انذار، وكون الحدود عامة (برية وبحرية) عبارة عن مناطق انتقال وليست خطوط فاصلة واضحة، فإن الحدود السياسية البحرية القديمة كانت في الغالب حدوداً مفتوحة أمام الغزوات البحرية المفاجئة وأمام غزوات القراصنة ولهذا كانت وسيلة الدفاع الأولى هي ترك " شقة حرام" بمعنى ترك اراضي مقفرة بين خط الساحل والمدن والعمران في الداخل كي تصبح تلك الأراضي عاملاً من عوامل انذار السكان ولتمكنهم من التجمع للدفاع ضد الغزوة المفاجئة. وهذه هي نفس الخطة التي اليها الناس لجأ في تخطيط حدودهم البرية. ولهذا نجد ان المدن التجارية والبحرية لم تكن تبنى على الشواطئ مباشرة الا حيث تسمح الظروف الدفاعية . فروما كانت تقع على بعد ٢٠ كم من الساحل، واثينا على بعد ثمانية كيلو مترات وطرواده على مبعد خمسة كيلو مترات من معبر الدردنيل الهام. وعلى عكس ذلك كانت صور وقرطاجة والاسكندرية وفنيسيا التي كانت تتحصن كل منها وراء جزيرة قلعة. أو شبة جزيرة تحميها قلاع من الداخل والخارج. وبذلك كانت على ساحل البحر مباشرة.

ومع نمو الاساطيل البحرية السريعة ووسائل الانذار والمواصلات الجيدة لم تعد الحاجة قائمة الى انشاء شقة حرام، خاصه ان ذلك يعوق التجارة البحرية وكما تقدمت الحدود البرية عبر النطاقات الحدية الانتقالية الى تشكيل خط سياسي واضح متفق عليه، تقدمت الحدود السياسية البحرية الى ما عبر خط الساحل وأصبحت هناك حدود سياسية تجرى على سطح الماء واعتبرت المياه بين الحدود الساحل مياها إقليمية تعارض فيها الدولة سيادتها كما تفعل على اليابس.

وتاريخ المياه الاقليمية وتطورها كفكرة تطبيقية في الحدود السياسية طويل ومعقد وغير متفق عليه من كافة الدول . وتبدأ هذه الأفكار منذ القرن ١٣ حينما اصدرت النرويج أمراً بمنع السفن من دخول مياه النرويج شمال ميناء برجن الا بعد الحصول على تصريح ملكي. وكانت دوقية فينسيا تعتبر الادرياتيك مياه اقليمية تابعه لها، وفي فترة الكشوف ادعت اسبانيا والبرتغال ملكية مياه المحيطات.

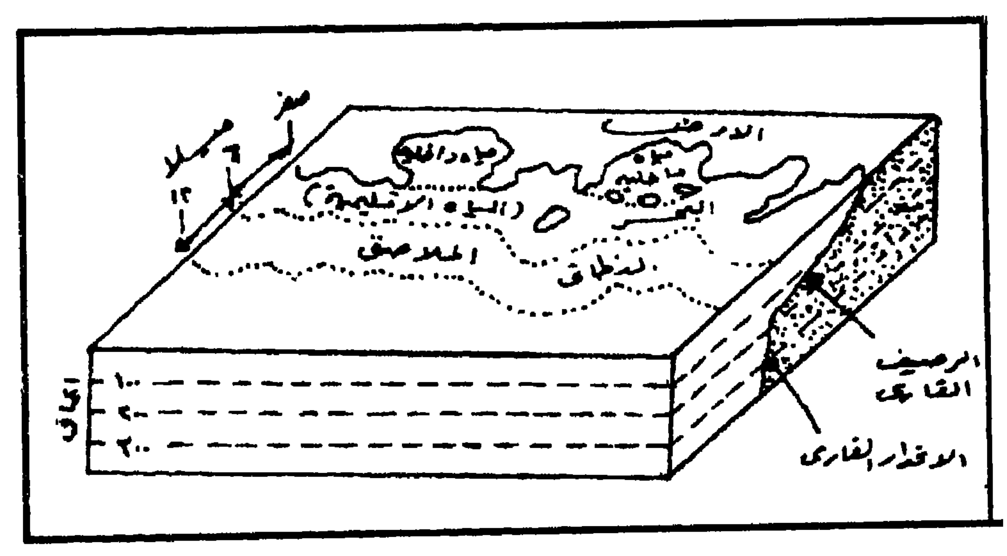
وعلى عكس هذه الإدعاءات الواسعة أخذت الدول تنتظر الى المياه التي تحف بسواحلها على أنها مناطق سيادة للدولة، وظهرت اراء في أول ق ١٧ تقول انه لا يمكن اعتبار المسطحات البحرية ملكاً لاحد الا في حالات الخلجان والمضايق وفي القرن ١٨ ظهر راي آخر يقول أن الإدعاءات على المياه الساحلية لا يمكن تدعيمها الا بانشاء سلسلة من الحصون تحمي سيادة الدولة. وبذلك ظهرت فكرة تخطيط حدود المياه الاقليمية على اساس مدى قذيفة المدفع. وعلى عكس مبدأ قذيفة المدفع ظهرت فكرة اخرى ترى وجوب تحديد نطاق او منطقة ذات عرض محدد تمارس فيها سيادة الدولة فيما يختص بالسماكة والحياد .... الخ. من وظائف الدولة. وكانت الدانمرك أول من ينفذ هذا المبدأ فاعلنت حول شواطئها منطقة محايدة مساوية لمدى الرؤية بالعين (١٦٩١) بينما إعلن الإنجليز منطقة عرضها، ١٢ ميلاً مياها اقليمية (١٧٣٦).

وفي ١٧٨٢ إعلن قانوني ايطالي مبدأ تحديد المياه الاقليمية بعرض ثابت في كل الدول وطالب ان يكون هذا العرض ثلاثة اميال. وقد حدد هذه الاميال الثلاثة باعتبار انها ابعد مدى ممكن لقذيفة المدفع. كما طالب ان يكون هناك نطاق محايد وراء المياه الإقليمية بعرض مساوى لضيق عرض المياه الأقليمية وفي

١٧٩٣ أعلنت امريكا مبدأ أنشاء نطاق محايد في المياه بعرض ثلاثة اميال فقـــط. وبدأت الدول تأخذ بهذا المبدأ فيما بعد. وفي الحقيقة لم يكن هناك ارتباط فعلي بيـن الأميال الثلاثة وطلقة المدفع لأنه حتى ١٨١٤ لم يتجاوز مدى المدفــع الميــل الا بقليل.

وقد لاقي التنفيذ الفعلي لمبدأ الأميال الثلاثة صعوبات كثيرة فـــي التنفيــذ. فأولاً هل هناك قوه تجبر كل الدول على تنفيذ هذا المدى مـــن الميــاه الاقليميــة. وثانياً هل يمكن مد سيادة الدولة على مناطق ذات أهمية أبعد من الأميال الثلاثة.

وفي ١٩٤٦ بدأت محكمة العدل الدولية في لاهاى العمل من أجل تشـــريع دولي باسم " قانون البحار" وفرغت من عملها ١٩٥٦. وفي مؤتمر جنيــف ١٩٥٨ قبلت ٨٦ دولة معظم توصيات القانون الجديد. وتظهر مشكلات المنطقة الشــاطئية جلية من خلال تداخل وتعقد الظاهرات الطبيعية (انظر الشكل ١٩)



خريطة رقم (١٩)

قطاع يوضح مظاهر المنطقة الشاطئية

وتقسم هذه المنطقة الى:

١-نطاقات المياه الداخلية

٢- المياه الاقليمية

٣- المنطقة الملاصقة

٤-منطقة الانتشار المائي والرصيف القاري.

ولا يوجد ادنى شك في سيادة الدول على مياهها الداخلية (خلجان ومصبات نهرية ومرافئ).

أما المياه الإقليمية فهي تلك التي تمارس فيها الدولة سيادة معينة، ولا يمنع فيها مرور سفن أجنبية لأغراض بريئة (اي مجرد المرور الذي أصبح حقاً لكافة السفن في العالم). اما النطاق الملاصق للمياه الاقليمية فيجوز للدولة ان تمارس فيها اشكال الرقابة التي تراها لمنع عمليات التهريب الجمركية وتهريب الأشخاص والحماية الصحية. وباستثناء هذه الأغراض فإنه ليس للدولة حقوق أخرى على تلك المياه التي تعتبر جزءا من أعالي البحار - حرة لعل السفن والحدود الخارجية للمياه الملاصقة عادة ١٢ ميلاً بعيداً عن الشاطئ. فإذا ما ادعت دولة مياه اقليمية بعرض ١٢ ميل - كما هو الحال في ادعاءات الاتحاد السوفيتي - فإنه في هذه لا توجد مياه ملاصقة لتلك المياه الإقليمية.

وفيما بعد النطاق الملاصق توجد منطقة غير محددة بالاتفاق تسمى منطقة الانتشار. لكن بعض الدول ادعت على هذا النطاق حقوقاً معينة مثل منع الصيد البحري ومرور السفن الحربية الإجنبية لإغراض دفاعية. ومن الأمثلة على عدم وضوح وتحدد هذا النطاق ان بيرو وشيلي تدعيان نطاقا من هذه المياه عرضه ٢٠٠ ميل من الشواطئ تمنع فيهما اساطيل الصيد الإجنبية من ممارسة السماكة.

وبالمثل ادعت اكوادور وكوستاريكا نطاقا مماثلاً. وادعت كوريا نطاقا عرضه مائتا ميل. وفي عام ١٩٤٦ اعلنت الارجنتين سيادة الدولة على حل المياه بالرصيف القاري الممتد على شواطئ الأرجنتين، وبذلك شملت هذه المياه نطاقاً بلغ عرضه ٢٨٠ميلاً في منطقة جزر فوكلاند البريطانية. وفي عام ١٩٣٦ كانت دول الأمريكيتين قد اتفقت على نطاق عرضه الأدنى ٣٠٠ ميلاً على شواطئ الاطلنطي باسم نطاق الأمان Security zone تمنع فيه كل السفن الحربية الارجنتين للدول المتحاربة كتأمين لنصف الكرة الغربي.

ولا يوجد نص في الاتفاقات الدولية على ما يسمي بنطاق الانتشار لكن الدولة تعمل به في حدود قوتها وإمكاناتها، وبذلك فإن لكل دولة إذا اردات منطقة انتشار تحددها وتمارس فيها اعمال سيادتها بحكم الواقع وليس بحكم القانون. و هذا هو الذي يدفع بعض الدول الى اتخاذ اجراءات القبض على السفن ومصادرتها أو التعويض عنها داخل ما تدعية من مياه – مثل بيرو وايسلندا.

وتوضح حالة ايسلندا ادعاءات المياه الاقليمية غير المتفق عليها في أجزاء كثيرة من العالم. وففي ١٩٤٤ – بعد استقلال ايسلندا – حددت الدولة خط قاعدة للساحل خارج الرؤوس وأشباه الجزر ثم مدت مياهها الإقليمية أربعة أميال ابتداء من خط القاعدة هذا. وقد احتجت بريطانيا على ذلك لأنه يحرم السماكين الإنجليز من مساحة كبيرة كانوا يرتادونها باستمرار منذ وقت طويل. الا أن المحكمة الدولية وافقت على خطوط القاعدة المستقيمة فيما اختص بالنرويج والنزاع الانجليزي النرويجي السابق (انظر خريطة ٢٠) . وفي سنة ١٩٤٨ مدت ايسلندا حدود مياهها الأقليمية إلى عمق ١٢ ميلاً ورفض الإنجليز الأعتراف بذلك وارسلوا سفنا حربية لحماية مراكب الصيد الإنجليزية. ولا يزال النزاع الإنجليزي

الايسلندي قائماً بعدما طالت ايسلندا مؤخراً بمد نفوذها على مسطحات أكبر من ذلك بكثير – اسوة بدول امريكا اللاتينية.



خريطة رقم (٢٠)

خط القاعدة المستقيم الذي يحدد بداية المياه الأقليمية في شمال النرويج كما قررته المحكمة الدولية

وقد كانت هناك حالة مماثلة بين امريكا وكندا وقد حدث اتفاق على اعتبار ستة اميال من خط القاعدة حق من حقوق كندا علىأن يسمح للسفن الأمريكية الصيد في هذه المياه لمدة عشر سنوات بعد الاتفاق حتى لا تصاب اساطيل الصيد التي تعودت القيام بنشاطها في منطقة معينة بضربة اقتصادية مفاجئة. وخلاصة القول ان مناطق صيد الاسماك الغنية (الاطلنطي الشمالي بين النرويج وجزر

فارو وايسلندا وجرينلاند ولبراد ونيوفوند لاند، ومنطقة الاطلنطي المغربية السنغالية، ومنطقة الباسفيك الممتد في امريكا الوسطى الى شيلى) هي مناطق نزاع دولية، ومن حق بعض الدول التي تعيش في جزء كبير من مواردها على الاسماك ان تطالب بحماية المياه التي يعيش منها جانب من سكانها كايسلندا وبيرو. ولكن الادعاءات التاريخية لاساطيل الصيد الاخرى تقف عقبة امام تنفيذ حقوق الدول – خاصة أنها دول صغيرة تقف امام مجموعة من الدول الكبرى ذات الإساطيل المجهزة بإحدث وسائل الصيد الحديثة.

والى جانب مشكلات المياه الاقليمية والنشاطات الاقتصادية المختلفة تظهر مشكلة المياه الاقليمية ايضاً بين الحين والحين في حق مرور السفن الحربية– خاصة خلال فترات الحروب وتحتدم هذه المشكلة في مناطق المضايق مثل البسفور والدردنيل (تركيا والاتحاد السوفيتي) ومضايق تيران (بين الدول العربية واسرائيل) والاتفاق العام هو ان من حق الدول في حالة الحرب منع السفن الحربية او التجارية المعادية في المرور في المضايق التي تدخل ضمن المياه الاقليمية. لكن تنفيذ كافة الحقوق كان دائماً مشروطاً بالقوة التي تمكن او تحول دون تنفيذ هذه الحقوق.

الأهمية النسبية للواجهات البحرية للدول:

لكل دولة اوضاعها الخاصة الناجمة عن علاقات الموقع والمكان، وعلاقاتها السياسية الدولية مما يؤدي الى تغاير زمني واضح في القيمة النسبية الواجهات البحرية لكل دولة على حدة. وهذا بطبيعة الحال الى جانب عوامل اخرى اسلفنا قولها مثل نوع البحار التي تطل عليها الدول، فضلاً عن الأهمية

المجردة لوجود واجهة بحرية من اي حجم للدول المختلفة – وهذا امر ليس سهلاً على كل دوله تحقيقه.

وفي الحقيقة تتبع الأهمية النسبية للسواحل من علاقات الدولة السياسية. وبما ان هذه العلاقات ليست ثابتة زمنيا، فإن أهمية السواحل تختلف من عنصر الى آخر وبنفس قوة تأثير العلاقات السياسية نجد في الظروف الجغرافية عاملاً آخر من عوامل تحديد الأهمية النسبية للواجهات البحرية. ونعني بالظروف الجغرافية هنا تكامل التفاعلات الجغرافية من طبيعة الشاطئ وطبيعة خلفيته الى كم التفاعلات السكانية والاقتصادية والتجارية. وبذلك فإن الأهمية النسبية للواجهات البحرية يمكن ان تصبح ذات قيمة ثابتة غير متغيرة بفعل اشكال الشاطئ الطبيعية وخلفيته التضاريسية والمناخية والايكولوجية . ولكن تفاعلات المظاهر البشرية الجغرافية (عمران ونشاطات اقتصادية متغيرة وخطوط مواصلات) بحكم تغايرها زمانيا تؤدي بدورها الى احداث أنواع من التغير في بعض الأشكال الثابتة للمظاهر الطبيعية الشاطئية في صورة شتى الأعمال الهندسية التي تقام في مناطق المستنقعات واللاجونات والشطوط الرملية والسواحل المفتوحة امام تأثيرات البحر المختلفة من أجل بناء الموانئ الصناعية.

إذن تتغير أهمية الجبهات البحرية للدول او للدولة الواحدة حسب ظروف بشرية بحته: العلاقات السياسية واتجاهات الدولة في سياساتها الخارجية والاقتصادية والتجارية من ناحية، ونتيجة تغير خلفية السواحل عمرانيا واقتصادية من ناحية ثابتة.

وربما كانت فرنسا خير ما نسوقه من أمثلة على قيمة المتغيرات السياسية والاقتصادية في تحديد الأهمية النسبية لواجهاتها البحرية الثلاث، الشمالية

المطلة على بحر المانش والغربية المطلة على خليج بسكى والمحيط الاطلنطـــى، والجنوبية المطلة على البحر المتوسط. وتقدم لنا الدراسات الزمانيـــة تغـير فـي مركز الثقل السياسي الاقتصادي الفرنسي، ومن ثم تبعه تغير مماثل فـــي أهميـــة الجبهات الساحلية على النحو الملخص التالي:

أولاً: برزت الجبهة الجنوبية بروزا واضحاً في خلال العصور القديمة حتى انتـهاء العصر الروماني بحكم ان العلاقات البحرية والتجارية والحضارية كانت اكثـف ما يكون في البحر المتوسط خلال تلك العصور التاريخية المبكرة. وفي خـلال العصر الروماني ايضاً برزت أهمية الساحل الشمالي لفترة لا بأس بطولها إبـان الحكم الروماني لبريطانيا، بينما كانت الجبهة الغربية غير ذات أهمية واضحة.

ثانياً: في خلال العصر النورماني كانت الأهميـــة النسـبية للسـواحل الشـمالية المواجهة لبريطانية على أكبر جانب من الأهمية بعد أن تقسمت فرنسا الـــى دويلات وإمارات صغيرة (القرن الحادي عشر)، وكذلـك نتيجـة لحـرب المائة سنة (١٣٣٨-١٤٥٣) بين انجلترا وفرنسا.

ثالثاً: تلا ذلك تدعيم آخر للجبهة الساحلية الشمالية والغربية خلال القـرن الثـامن عشر بعد انشاء الإمبراطورية الفرنسية في أمريكا الشمالية: كنـــدا ولويزيانـــا (فقدت فرنسا كندا لصالح بريطانيا في ١٧٦٣) واملاكها في البحـــر الكـاريبي وغيانا (ما زالتا تحت الحكم الفرنسي).

رابعاً: ابتداء من ١٨٣٠ (احتلال الجزائر) بدأت الجبهـــة المتوسـطية الفرنسـية تصبح عاملاً فعالاً في التعبير عن اهتمامات فرنسا بإمبراطورية جديدة فـــي أفريقيا الشمالية والغربية . وقد زادت أهمية هذه الجبهـــة بعـد فتـح قنـاة

السويس واصبح البحر المتوسط معبر بحري هام لتجارات العالم المـــداري في المحيط الهندي الآسيوي الأفريقي.

وبعد ان تقلصت فرنسا عبر البحار الى مناطق محدودة جداً (الممتلكـــات الفرنسية في الكاريبي والصومال الفرنسي وبعض جزائر الباســفيكي الجنوبــي) فإننا نرى كل جبهاتها البحرية الثلاث تعمل في ما يشبه التوازن النسبي ولم يعـــد هناك ثقل سياسي معين يدعو الى زيادة في أهمية جبهة عن أخرى. ولكن برغـــم ذلك فإن مواقع الجبهات الثلاث يعمل دوره في رفع قيمة واحدة عن الأخرى. هـذا فضلاً عن التأثيرات السياسية النابعة عن تكوين مقدمات الاتحاد الأوروبي وانشـاء دول السوق الأوروبية التسع.

وعلى هذا فإن الواجهة الشمالي الفرنسية أصبحت تقع على ممر الملاحـــة الأعظم بين اوروبا الغربية وأمريكا عبر الاطلنطي الشمالي. وخلفيتها الصناعيـــة ابتداء من السين ونورماندي تجعلها امتدادا لاضخم امتداد صناعي أوروبي غربـــي وشمال فرنسا وبلجيكا وهولندا وغرب المانيا الاتحادية). اما الواجهة المتوســـطية فقد أصبحت منفذا بحرياً عظيم القيمة – ليس لفرنســا فحســب – وإنمـا للتكتـل الاقتصادي الأوربي القاري(فيما عدا ايطاليا)، وذلك عبر وادي الرون الى الرايـن. فمرسليا بحكم موقعها الجنوبي هي ميناء هام لكثـــير مــن المنتجــات المداريـــة الأفريقية التي يعاد تصديرها بحراً الى أمريكا وبراً الى بقية أوروبا. وهـــي فـــي الوقت نفسه الميناء الهام الذي يستقبل بترول شمال أفريقيـا والشـــرق الأوســط، والغاز الأرض من شمال أفريقيا. اما الواجهة الغربية فإنها أقل أهمية بالقياس الـــى سابقتيها، وان كانت بدورها حيوية لبعض أشكال التجارة، خاصـــة وأن خلفيتـــها الزراعية تؤهلها لذلك.

وبالمثل نجد أن الأهمية النسبية لسواحل الولايات المتحدة الثلاثة كانت متغيرة زمانيا. فالساحل الشرقي كان ومازال اكثر هذه السواحل قيمة للدولة الأمريكية بحكم وقوعه على الاطلنطي الشمالي في مواجهة اوروبا. وبحكم خلفيته المتعددة الأنشطة الاقتصادية. وكان الساحل الجنوبي المطل على خليج المكسيك ذو أهمية خاصة بالنسبة لتجارة الأوليات الزراعية ثم زادت قيمته بما ينتجه من بترول وبالأهمية السياسية التي تعلقها الولايات المتحدة على علاقاتها السياسية بامريكا الوسطى وقناه بنما. وكان الساحل الغربي أقل هذه السواحل أهمية الى ان بدأت الولايات المتحدة عبور الباسيفيك الى هاواى والفلبين وشرق آسيا وزادت هذه الأهمية بصورة واضحة نتيجة العلاقات السياسية والجيوبوليتيكة الأمريكية مع اليابان وجنوب شرق آسيا واستراليا، وكثافة التجارة الأمريكية اليابانية وبالعكس عبر مياه الباسفيك الشاسعة.

وقد كان لواجهة السويد على البلطيق أهمية خاصة عندما توسعت مملكة السويد عبر البلطيق الى فنلندا وسواحل البلطيق الشرقية والجنوبية الشرقية حتى القرن السابع عشر. وبعد تلك الفترة بدأ عهد التوجه الغربي الى بحر الشمال وأنشأت ميناء جوتبورج التي تحتل المكانة الأولى بين موانئ السويد تعبيراً عن أهمية الساحل الغربي بالنسبة لسواحل الدولة. وبالمثل انتقلت أهمية السواحل الألمانية من البلطيق الى الامتداد الساحلي القصير على ركن بحر الشمال عند مصبات الألب والفيزر تبعاً لاتساع رقعة الدولة من مجرد مملكة شرقية (بروسيا) الى دولة اتحادية (المانيا قبل الحربين العالميتين). والأمثلة بذلك كثير على تأثير التوجيه السياسي والتجاري للدول على إقدار جبيهاتها الساحلية المختلفة.

وتؤثر الأشكال الطبيعية للشواطئ وخلفيتها بدورها تأثيراً شبه ثابت علـــى الأهمية النسبية للواجهة او الواجهات البحرية للدولة. وتتعدد هنا العوامل الطبيعيــة التي تتضافر على تقليل أهمية الواجهة البحريـــة للدولـــة. فالتضــــاريس العنيفــة للشواطئ ومناطقها الخلفية – وان كانت حاجزا دفاعياً طبياً – الا انها تحدد أشـكال النشاط الاقتصادي والعمران بصورة تجعل من المنطقة واقليمها نطاق عزلة قليـــل الأهمية باستثناء جيوب صغيرة ينحت فيها الإنسان لنفسه مواطئ عمران ونشـــــاط محدود. ومن الأمثلة الصارخة على ذلك غالبية شواطئ النرويج وايســــلندا ومـــا شابههما من سواحل الفيوردات في السكا وغرب كندا وجرينلند وتـــيراد لفويجـــو وشيلي الجنوبية (وساحل دلماشيا اليوجسلافي بصورة مخففة).

وحينما تشترك الظروف المناخية المعادية للسكن البشري (البرودة الشـديدة او أقاليم الجفاف) مع أشكال التضاريس الوعرة، تصبح قيمة السواحل قليلة جـداً . مثال ذلك سواحل خليج العقبة ومعظم سواحل البحر الأحمر ، او سواحل الجزيـــرة الجنوبية من نيوزيلندا وعلى نحو آخر تقل اهمية السواحل في مناطق اللاجونــــات (المستنقعات الساحلية) والسواحل المتميزة بالشوط الرملية، وشواطئ "الســـيرف " (الأمواج العالية المتكسرة على الشواطئ ابداً) مثل سواحل غرب افريقيا.

غم ان هذه الظروف الطبيعية قوية التأثير فإن ظهور الموارد الاقتصادية مـــن اي نوع يؤدي بالإنسان الى اقامة منشآت مكلفة لتصحيح المعالم الطبيعيـــة موضعيـــاً. وتشهد على ذلك سكة حديد كيرونا – نارفيك لتصدير خام الحديد السيويدى عـــبر جبال وفيوردات النرويج، وسكة حديد لبرادور (شيفرفيل – ست ايل، جـــانيون – بوركارتيه) والطرق البرية المصرية على طول ساحل البحر الأحمر والـــى وادي النيل (خامات معدنية وبترول) والطريق بين ايلات وساحل البحر المتوسط فـــي

اسرائيل، ومجموعة الطرق الحديدية في موانئ غرب افريقيا الصناعية الى مناطق الإنتاج الأولية الزراعية والتعدينية.

وعلى هذا فإن اشتراك العوامل الطبيعية والبشرية يؤثران بطرق مختلفة على اقدار الشواطئ وقيمتها الفعلية . فالشاطئ الشرقي للولايات المتحدة يمكن ان يقسم الى قسمين: الشمالي والجنوبي. والقسم الشمالي اصلح طبيعياً لقيام المرافئ وخلفيته واسعة تمتد الى حوض سنت لورنس الكندي (شتاء) والأمريكي، بما في ذلك منطقة البحيرات العظمي الأمريكية ومنطقة بنسلفانيا الفحمية . وكلها خلفية متنوعة الموارد التعدينية والصناعية، كما انها مسيطرة على عالم الخدمات في أمريكا. أما القسم الجنوبي فهو في مجموعة أقل صلاحية من الناحية الطبيعية لقيام الموانئ (لكثرة المستنقعات والرؤوس الرملية) وخلفيته – برغم امتدادها السهلي الواسع– اقل تنوعاً في الموارد الصناعية ومرتبط بالموارد الأولية والزراعية بصفة عامة. ومن ثم تظهر في القسم الشمالي موانئ عديدة لامعة كثيفة الحركة عالية الأهمية (على رأسها نيويورك وبوسطن ونيوآرك) بينما لا تتردد اسماء الموانئ الجنوبية الا في حالات خاصة (مثل تورفولك وتشارلزتون وسفانا).

والأهمية النسبية للسواحل المصرية الطويلة محدودة القيمة بسبب الوعورة والجفاف والمستنقعات الا في مناطق محدودة باكيومين ضيق (موارد تعدينية وبترولية). وتقتصر المناطق المهمة من السواحل المصرية على منطقتي خليج وقناة السويس، والأسكندرية اللتان تنفتحان طبيعياً على الاكيومين المصري الرئيسى في الدلتا وحيث تتنوع الموارد الأولية والصناعية. وبالمثل فإن السواحل

الكندية هائلة الطول قليلة الأهمية الا في منطقتين محدودتين هما. مصب سنت لورنس (خلال الصيف فقط) وفيوردات منطقة فانكوفر الغربية والأمر نفسه ينطبق على السواحل السوفيتيه الطويلة والتي لا تظهر قيمتها الا في نقاط محدودة بصفة دائمة (مورمانسك والبلطيق والأسود وبحر اليابان)، او بصفة مؤقتة (شتاءاً على طول خط الملاحة الشمالي من مورمانسك الى كمتشكا وفلاد يفوستوك).

وسواء كانت السواحل ذات قيمة طبيعياً واقتصاديا، او ليست بذات قيمة وأضحة، فان الدول تسعى سعياً حثيثاً الى امتلاك واجهات بحرية لما لذلك من أهمية فعلية في النقل البحري – وهو ارخص أنواع النقل وأكبرها حجماً حتى الأن. لكن ذلك ليس كل ما في الأمر . فان الدول تسعى ايضاً للحصول على منافذ بحرية حيث تتوقع اهمية مستقبلية لتلك الشواطئ ، مهما كان حجم تلك المنافذ وأيا كانت صورتها الطبيعية. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك حصول اسرائيل على منفذ ضيق صحراوي على رأس خليج العقبة. وقد حققت بذلك ثلاثة مبادئ.

١- المبدأ السياسي الاستراتيجي: فصل العالم العربي الى ارضين واتخاذ اللسان البري الفاصل قاعدة انطلاق توسعية – او ، على الأقل، قاعدة انطلاق مؤثرة بشتى الوسائل على المناطق المحيطة.

٢- مبدأ تعدد الواجهات البحرية الذي هو في حقيقتة أمر صحى للدول سياسياً واستراتجيا.

٣- المبدأ الاقتصادي الذي يجعل من ايلات نهاية جسر لاحتمالات وإمكانات تجارية مستقبلية مع عالم المحيط الهندي الأفرو اسيوي: بترول وماس وخامات اولية وتجارة مصنعات صادرة وواردة.

ولا شك في ان بلغاريا كان يمكن ان تصبح في مركز اقــوى فيمــا لــو استبقت منفذ على بحر ايجه. وكانت بولندا دائماً في موقف ضعيف (فترة ما بيــن الحربين العالميتين) الى ان حصلت على واجهة بحريــة طويلــة نسـبياً علــى البلطيق. وجمهورية زائيري (الكنغو كنشاسا سابقا) في مركز ضعيــف اقتصاديــاً وعسكرياً بسبب ضيق جبهتها البحرية ضيقــاً متناهيــا بالقيــاس الــى مســاحتها الضخمة. ويضطرها ذلك الى الاعتماد على موانئ تسيطر عليها البرتغــال فــي انجولا بدرجة كبيرة. وميناء دار السلام التنزاني بدرجة اقل.

وبرغم صغر الواجهات البحرية لبعض الدول الا أنها ما زالــت احســن حالاً من الدول الداخلية المحبوسة بجيرانها – خاصة إذا لم تكن علاقات الجــيران طيبة اوتسؤ في فترة من الفترات. سويسرا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا والمجر امثلــة طيبة من اوروبا على الدول المعتمدة اعتماداً ضروريــا علــى علاقــات حســن الجوار. وجمهورية مالى وجدت نفسها في مأزق حينما ســاد العــداء علاقاتــها بالسنغال واضطرت الى ترك الطريق الجغرافي المفتوح عبر السنغال والالتجــاء الى طريق مكلف وعر وموسمي الى منفذ في ميناء كوناكري (جمهورية غينيــا). وتوجه زامبيا مأزقاً اشد وانكي. فهناك حكومتان معاديتــان تعترضــان طريقــها الحديدي الحالي إلى البحر: حكومة البيض فــي روديســيا وحكومــة الاســتعمار البرتغالي في موزمبيق. وقد اضطرها ذلك الى اللجوء الى طريق طويــل وشــاق وغير طبيعي عبر مساحتها الشمالية الشرقية الخالية من السكان اوتكــاد، وعــبر تنزانيا كلها حتى تصل الى ميناء دار السلام. وقد احتاج خط حديدي اشد تكلفــة. فما أصعب الواقف التي تتكامل فيها العوائق الطبيعية والحرمان من واجهة بحريــة مع العداء السياسي، وما أشد تأثيره على الحياة الطبيعية للدول !!.

الفصل الثالث
الحدود المرتبطة بالظاهرات البشرية

اتضح من الدراسة السابقة ان الحدود حواجز اصطناعية يقــوم الإنســان بتحديدها وزحزحتها حسب الظروف الزمانية وعلاقات القوى القوميــة والدوليــة، وكما انه كانت هناك دعاوى تؤكد ضرورة وصول القوميات الدول الـــى حــدود طبيعية وهي التي يقال ان ريشيليو كان مبتدعها – فإن هناك دعاوى اخرى تطلــب اتفاق الحدود السياسية بحدود بشرية مختلفة كالسلالة واللغة والحضارة والدين.

وقد تكون هذه الدعاوي اقرب الى المنطق من دعاوي الحدود المرتبطـــة بالظاهرات الطبيعية. فحيث ان الحدود السياسية تحدد اراضــي وامــلاك قوميــة معينة فمنطق ان تضم – او تسعى لضم – كل ابناء هذه القوميـــة داخــل حــدود واحدة من اجل اعطاء توازن حقيقي للدولة مبنى علـــى تجــانس الرعيـــة (قــدر الامكان).

وسواء كان هذا امرا منطقياً او غير ذلك ، فانه برغم فائدة هذا المنطـــق لحياة الدول إلا ان ذلك لا يمكن تطبيقه على الدوام في كل الحالات و الى الابــد. وهناك مجموعة من الأسباب تفسر لنا استحالة مثل هذا التطبيق في كافة الحـــالات منها:

١–ان توحيد ابناء قومية واحدة (متجانســـة ســلاليا او لغويــاً او حضاريــا او اقتصاديا) لا يتم الا بواسطة صراع سياسي وعسكري تعكس نتيجتـــة القــوة المنتصرة وفي هذه الحالة لا نجد رادعا حقيقيا امام اطماع المنتصر. فـــهو لا يلجأ فقط الى محاولة ضم ابناء قوميته التى كانت توجد خارج حدوده، بــل ان

الانتصار يثمله فيلجأ الى شتى التبريرات للأستحواذ على مزيد من الأرض على حساب غيره. ويلجأ الى خلفية تاريخية قد ترجع الى عقود او قرون او الاف مؤلفة من السنين ويلجأ الى مبدأ تأمين حدوده الجديدة بالاستيلاء على اراض خارجية عن ادعائه السابق، وهو في اضعف الحالات يطلب نزع سلاح شقة حرام على طول الجبهة المواجهة لحدود ادعاءاته السياسية الجديدة، وفي حالات اخرى يعطي لنفسة وصايا على الدولة المهزومة. وفي اقصى الحالات يفتت وحدة الدولة المهزومة او يحتلها كلها اذا امكنه ذلك.

والشواهد على هذه الاتجاهات عديدة ولا تدع للشك مجالاً. فالمانيا النازية طالبت بحدود قومية: احتلت النمسا عسكرياً فيما اسمته " بتوحيد الأوصال في عام ١٩٣٨ وفي السنة ذاتها ضم الالمان اقليم السوديت التشيكوسلوفاكي وتدريجيا سقطت جمهورية تشيكوسلوفاكيا في صورة حكومتين المانية بدايته كانت مشكلات الاقليات الالمانية في بولندا وفرنسا والدنمراك وبلجيكا هي مثار الاعداد للحرب وقيامها – هذا طبعاً بالإضافة الى عوامل اخرى كثيرة على رأسها الطبيعة العدوانية للحزب والنظرية النازية والرغبة في حل مشكلات المانيا الاقتصادية على المستوى المحلي والدولي بتنازعها مع كبار محتكري العالم آنذاك بريطانيا وفرنسا.

وبعد سقوط المانيا في الحربين العالميتين قطعت كثيراً من وحدتها الأرضية بواسطة الحلفاء المتنصرين وخاصة حينما قسمت بقية المانيا بعد ١٩٤٥ الى دولتين اصبحتا بحكم الامر الواقع دولتين معترف بهما من غالبية المجتمع الدولي فضلاً عن اعتراف كل هاتين الدولتين الألمانيتين ببعضهما. حتى عادتا إلى الوحده ثانية بعد هدم سور برلين عام ١٩٩١ .

والقضية الفلسطينية شاهد آخر من عالمنا على استحالة تطبيق مبدأ الحدود القومية. فمنذ بداية هذا القرن والحركة الصهيونية تسعي لايجـــاد وطـــن قومـــي لليهود. وباستدعاء سند تاريخي متناهي القدم حصلت هذه الحركة على ما عـــرف باسم وعد بلفور عام ١٩١٧ (لا نريد ان ندخل في تفصيلات الجهود الصهيونيـــة والخدمات التي قدمتها للحلفاء، ولا الأسباب التي دعت بريطانيـــا لإصـــدار مثـــل التصريح – انما الهدف هنا هو مجرد تسلسل الإحداث للاستدلال علـــى ضعـــف الحجج النظرية الداعية الى كافة اشكال الحدود السياسية البشرية) وحتـــى ١٩٤٨ أصبح لليهود وجود عددى لا بأس ووجود سياسي تنظيمي عســـكري قـــوى فـــي فلسطين. وفي تلك السنة اعترف المجتمع الدولي المؤثر بقيام اسرائيل التي تخطت حدود خطتها لها الأمم المتحدة في اقتسام فلسطين بدعوى الانتصار في حرب مـــا بين الهدنتين ووضع اليد على اراضي اخرى كان اهمها استراتيجيا النقب وبذلـــك تحقق تكامل ارضي لاسرائيل وتمزق ارضي لفلســـطين العربيـــة. وفـــي ١٩٥٦ حققت اسرائيل مكسبا حيوياً هو حرية المرور في مضيق تيران وبذلك بدأ نـــزاع قانوني على المياه الاقليمية. وفي ١٩٦٧ حققت اسرائيل اتساعاً ارضيـــاً شاســـعا بالنسبة لها مؤسس على مبدأ الحدود الامنة. وبطبيعة الحال فإن الصراع العربـــي الإسرائيلي قد اتسم منذ البداية بعنصرين متلازمين أولهما قوة اسرائيل العســـكرية المتزايدة وضعف الالتقاءات العربية مما مكن اسرائيل من ايجاد الحجج الواهيـــة التي تصحب عادة القوة العسكرية المنتصرة. وثانيهما أن صراع هذه المنطقة لـــم يكن صراعا محليا فقط، بل لا يزال صراع تشارك فيه القـــوى الدوليـــة المؤثـــرة مشاركات مختلفة الأحجام ومتغيرة في القدر والنوع برغم قصـــر فـــترة الـــنزاع العربي الاسرائيلي. فقد اشترك المعسكران الغربي والشرقي في دعم اسرائيل عنـــد

ولادتها. ثم ظهر تأثير القوى الغربية اكثر فعالية ودعما ووصل الى قمته بالاتفاق الثلاثى الانجليزي الفرنسي الاسرائيلي في عام ١٩٥٦. ولا ينفي ذلك استمرار الدعم الامريكي لكن الدعم الأوروبي الغربي كان ستاراً مريحاً لامريكا (خاصة دور المانيا الغربية في فترة ما بعد ١٩٥٦) وبعد ١٩٥٦ مباشرة ظهرت تفاعلات الكتلتين الغربية والشرقية على مسرح الشرق الأوسط، لكنها لم تطفو على السطح الا بعد ١٩٦٧ حينما توارت او قلت أهمية الدعم الأوروبي الغربي (خاصة فرنسا) وبدا لو ان الصدام هو مباشرة بين أمريكا والسوفيت او هكذا تصور العالم. وايا كانت او تكون حقائق الأمور فإن ما يهمنا هنا تقرير حقيقة القوة – بغض النظر عن مصدرها المحلي والدولي – في ادعاءات الحدود.

٢- وبما ان الظاهرات البشرية متغيرة وليست ثابتة مثل الظاهرات الطبيعية ثباتاً نسبياً، فإن الحدود التي تسعى للالتزام بالظاهرات البشرية هي حدود مؤقتة زمانا وتتغير بتغير تلك الظاهرات.

السلالة

مفهوم كثير الظهور في العلاقات السياسية. ويعترف العلماء ان السلالة في حدود وقوالب جامدة لا وجود لها، وإنما هي عبارة عن ظاهرة انتقالية بحته لعدد من الصفات المورفولوجية. فالعنصرية الآرية كانت تصف الآرى النقي بصفات محدودة مثل الشقرة وطول القامة. ولكن اشد دعاة العنصرية في التطبيق، او ولف هتلر لم يكن أرى الصفات والأفكار العنصرية الخاص بالنقاء اليهودي يدحضها ،الاختلاف الشاسع مثلاً في مورفولوجية الأنف عند يهود روسيا والمانيا وفرنسا ويهود المغرب والشرق الأوسط والحبشة واليهود السود في أمريكا. وإذا كان هذا حال الاختلاط السلالي داخل المجموعة القوقازية فان الحال ليس ايسر

في نطاقات الاحتكاك بين السلالات الرئيسية الكبرى. فإذا أخذنا معاملاً واحد للتفريق السلالي - كاللون مثلاً - فإنه قد يمكننا ان نميز نطاق انتقالي بين الزنوج والقوقازيين في أفريقيا، ومع ذلك نجد مجموعات قوقازية وزنجانية متوغلة جنوب وشمال هذا النطاق الانتقالي. وبما ان السلالة لا تقوم على معامل تفريق واحد فإنه يتضح لنا بجلاء ان السلالة عنصر غير علمي، وانها على أحسن الفروض تجمعات انتقالية لصفات بشرية، في صورة نطاقات مماثلة لنطاقات الجبال وغيرها من المظاهر الطبيعية. وبذلك فإن السلالة لا يمكن ان تعطي خطأ محدوداً لرسم حد سياسي.

وقد تكون اللغة احسن حالاً من السلالة في التحديد القومي. لكن اللغات في تصنيفها التفصيلي تتكون من لهجات مختلفة، وأن اللهجات اللغوية التاخمة لحدود لغوية تغزوها. بكثرة مفردات واستخدامات لغوية مشتركة من اللغتين . حال ذلك اللهجتين الالزاسية واللوترنجية اللتان تتداخل فيهما الالمانية والفرنسية. وتختلف اللهجة الوالونية عن الفرنسية بتأثير جرمائي ايضا. واللهجات الالمانية في مناطق التيرول المنعزلة تتداخل مع الرومانشية واللاتينية العتيقة. في شرق العراق تداخل لغوي عربي فارسي تركماني كردي وقس على هذا كثير في اوروبا الشرقية وآسيا وافريقيا.

ومثل هذا ، بل على نطاق اعقد ، نجد تداخل الأديان والطوائف بحيث تصبح مناطق بأكملها نطاقات انتقالية، وتشهد على ذلك منطقة الجبال الالتوائية وفي شرق البحر المتوسط حيث تتواجد الأديان الثلاثة الكبرى وتتعقد تداخلاتها وطوائفها تعقيدا يهدم من الجذور أفكار الدولة والدين، لدرجة ان اسرائيل - احدى الدول القليلة التي قامت على فكرة الانتماء الديني- تتداخل فيها الديانات الثلاثة

وطوائفها تداخلا كبيراً – وذلك برغم تهجير واخـــلاء منـــاطق واســـعة لأربـــاب اليهودية فقط.

وخلاصة القول ان الحدود الأتنولوجية – سلالية او لغويا او دينيـــة – لا وجود لها في صورة خطوط فاصلة الا في اضيق الحدود ولا تظهر الا بمعاونـــة عوازل جغرافية مانعة. وإنما تظهر في الغالبية الساحقة من الأحوال في صـــورة نطاقات انتقالية متروحة الاتساع والضيق. وان هذه النطاقات الانتقاليـــة تحـــدد مساحات أرضية تسود فيها نسبة لا بأس من التجانس الديني ونســـبة اعلـــى مـــن التجانس اللغوية.

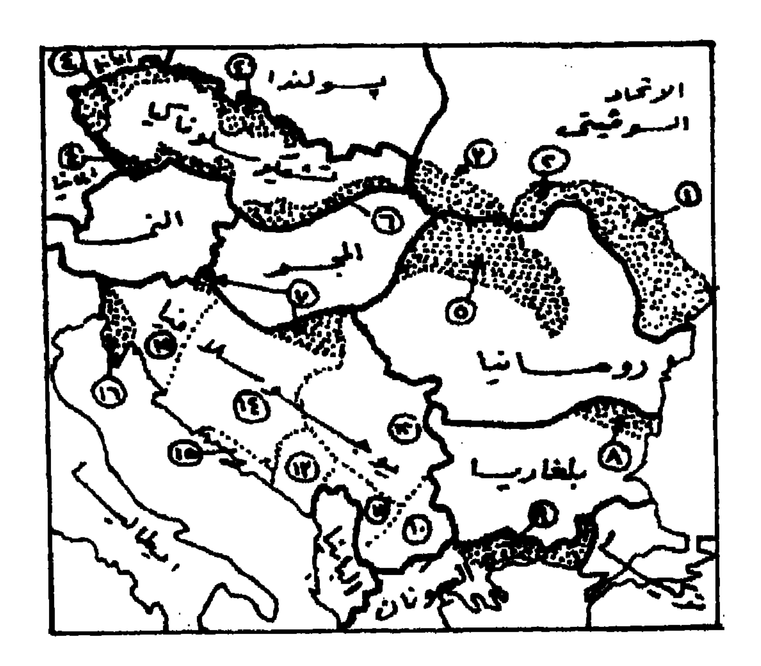
٣- هذا التجانس الاتنولوجي النسبي لا يظل ثابت الوجود، بـــل يتغـــير تدريجيـــا وزمانيا نتيجة تفاعلات داخلية وخارجية. مثـــال ذلـــك انتشـــار البروتســـتانتية بإشكالها المختلفة على مسرح الكاثوليكية في المانيا او بريطانيا. وقد كان هـــذا الانتشار تلقائياً داخلياً في أحيان وبتأييد القوى السياسية فـــي احيـــان اخـــرى. وانتشار اللغة العربية اختلف كثيراً عن انتشار الديانة الإسلامية وكلاهما حدث متزامن ومصدرهما واحد.

ولا شك ان اتجاه الظاهرات الاتنولوجية عامة هي الى الانتشار والتفـــاعل لأن الإنسان- حامل الصفات الاتنولوجية – عنصر دائم الحركة. ولكـــن لا شـــك ايضاً في ان الاتجاه الى تجميد الظاهرات الاتنولوجية في قوالب مكانية في ســـطح الأرض راجع الى التعمد الإنساني في صورته كمجتمع سياسي. وقد كان للقوميـــة – وخاصة نموها السريع المتعصب في اوربا منذ منتصف بضعة قرون – فعـــل واضح الأثر في تجميد الصفة الإنتشارية الطبيعية في الظـــاهرات الاتنولوجيـــة . وقد استخدمت ادوات عديدة لهذا التجميد. تعليم اللغة وانتشار لهجة مركز الســـيادة

فيها على حساب اللهجات الأخرى بواسطة الأدب الرسمي علـــى حســـاب الأدب الشعبي، نشر المشاعر القومية ووصولها الى قمة التركيز الرمزي فـــي صـــورة الانشودة القومية والراية واجبار الإقليات علىالاندماج حضارياً او الهجرة السلمية او التعسفية. وفوق هذا كله رسم حدود سياسية هي خطوط فاصلة بين القوميـــات عامة، وبين المصالح الاقتصادية خاصة.

وفي الحقيقة فإن هذا التجميـــد لا نســـياج النـــاس وانتشـــار الظـــاهرات الحضارية يرجع في احيان الى فترات قديمة. وأكـــبر شـــواهد، إقامـــة الحوائـــط والأسوار الضخمة في الصين والدولة الرومانية لوقف الظاهرات البشرية الانتقالية وتجميدها عند حد معين. وسور الصين العظيم هو اطول أسوار الدنيا الصناعيـــة، إذ يزيد طوله عن ٢٥٠٠كم شمالي سهل الصين من المغول الرحل في صحـــراء منغوليا . وفي اوروبا بنى الرومان " السور الألماني" الذي بنى من نويفيـــد علـــى الضفة الشرقية لنهر الراين قرب مدينة كوبلنتز) إلى كيلـــهايم (علـــى الدانـــوب) وفصل بذلك بافاريا والدولة الرومانية عن القبائل الجرمانية. وكذلك بنى الرومـــان سور " هادريان" في شمال انجلترا (بين نيوكاسل وكارليزل) عـــام ٢٢م، وكـــان يحتوى على ٨٠ قلعة و ٣٢٠ من ابراج الحراسة، واستطاع ان يصـــد غـــزوات البكتس ثلاثة قرون. وهناك ايضاً الأسوار الدانمركية التي بنيت عـــام ٨٠٨م. ولا شك أن ماجينو الذي بناه الفرنسيون على الحـــدود الفرنســـية الألمانيـــة، وخـــط سيجفريد الذي بناه الألمان في مواجهة ماجينو عبر الراين كانا تعبيرين عن تغـــير تكنولوجية الحروب الثابتة ورضيا، مع استمرار فكرة السور والحائط العازل.

خريطة رقم (٢١)



تغيرات الحدود السياسية في البلقان ١٩٣٨-١٩٤٨

١-أقليم بسارابيا (جمهورية مولدافيا السوفيتية حاليا) اقليم شمال بوكوفينا.وقد ضم الاتحاد المنطقتين عام ١٩٤٠ بعد أن كانتا ملكا لرومانيا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى.

٢-أقليم روتينيا: ضمته المجر إليها عام ١٩٣٩ بعد أن كانتا ملكا لرومانيا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى.

٣-نطاق ألمان السوديت سلخته المانيا من تشيكوسلوفاكيا ١٩٣٨ ، وأعيد لها بعد ١٩٤٥.

٤-ترانسلفانيا الشمالية : أقتطعت من رومانيا وضمت للمجر ١٩٤٠ بموافقة المانيا، أعيد لرومانيا ١٩٤٥.

٥-سلوفاكيا الجنوبية : أحتلته المجر ١٩٣٨ ثم أعيد إلى تشيكوسلوفاكيا ١٩٤٥.

٦-شمال يوجوسلافيا : أحتله المجر ١٩٤٠ ، وأعيد إلى يوجوسلافيا ١٩٤٥.

٧-دبروجيا الجنوبية : ضمت إلى بلغاريا عام ١٩٤٠ وإلى الآن ضمن حدود بلغاريا.

٨-تراقيا الغربية : ضمنها بلغاريا ١٩٤٠ ثم أعيدت إلى اليونان ١٩٤٥.

٩-إلى ١٥ تقطيع أوصال يوجوسلافيا خلال الاحتلال النازي . الأقليم الجنوبي قسم بين بلغاريا ١٠ والبانيا ١١- وايطاليا ١٥-، وأنشأت ثلاث دول اسمية خاضعة للحكم الألماني هي :١٣ دول الجبل الأسود، ١٤ دول كرواتيا ، ١٢ دولة الصرف ١٦- اقليم جوليان ضم إلى يوجوسلافيا بعد اقتطاعه من ايطاليا عام ١٩٤٧.

الحدود السياسية الحالية

وبرغم ضخامة هذه الأسوار ومتانة قلاعها، أو الخطوط العسكرية الحديثة وما تقتضيه من شتى اشكال الابنية والدشم والتحصينات والخنادق المتوغلة في عمق الأرض – برغم كل ذلك فإن مهمة أسوار التجميد هذه لا تخدم إلا فترة زمنية محدودة وسرعان ما تنهار أمام الحركة البشرية التي تصر دائما على اقتحام العقبات التي تقف أمام خطوط الحركة الحرة بالمعنى المادي (غزو أو

هجرة أو أرتباط اقتصادي اجتماعي) وبالمعنى المعنوي (أيديولوجيــــات وأفكــار وأنظمة حكم وغير ذلك) . وغزا المغول الصين وحكموها برغم السور العظيـم ، وأجتاحت القبائل الجرمانية أسوار الرومان والعوائق الطبيعيــة (الألــب ونــهر الراين) وانهوا حكم اكبر امبراطورية قديمة من امبراطوريات البحر المتوســـط. وهزم الألمان فرنسا برغم خط ماجينو، وهزم الحلفاء المانيا برغـــم تحصينـــات سيجفريد. وفي كل مرة تنتهي موجة الغزو بأحداث تغييرات عميقة فـــي الـــدول المغلوبة على امرها. وأحدث اشكال التغيرات العميقة هو ظهور افكـــار اوروبـــا الغربية المتواحدة في شتى المجالات بعد أن مزقتها الحروب المدمـــرة وفرقتـــها حدود سياسية قومية جامدة (١٨٧٠-١٩١٤، ١٩٣٩).

الحدود السياسية في التطبيق

مهما كانت الأدلة التي تستند إليها الأفكار المحبذة للحدود في أن تخطط بالارتباط بالظاهرات الطبيعية أو البشرية ، وأيا كان منطقها النابع من شواهد وأمثلة، إلا أن كل حد سياسي هو حد جيد أو فاشل بالنظر إلى الظروف والأوضاع الجغرافية والسياسية القائمة. وبهذا يمكن أن يتحول الحد المعين من الجودة والهدوء إلى الفشل نتيجة الضغوط البشرية المختلفة. ويؤدي ذلك بنا إلى الاعتراف بأنه لا توجد قاعدة واحدة سليمة يمكن تطبيقها في حالتين مختلفتين مكانا أو زمانا- ناهيك بانطباق قاعدة أو عدة قواعد على كافة الحدود السياسية. أذن التعميم أمر خاطئ يتولد عنه الكثير من الأخطاء في علاقات الدول والجيران. ولكن مع ذلك يمكننا أن نرى - حتى الآن- عاملا واحد يمكن تعميمه على تخطيط الحدود : ذلك العامل العام هو فرض الحد السياسي بالقوة المباشرة أو تحت ضغط القوة في غالبية الأحوال. ويمكن أن نضيف إلى ذلك عنصر التحكيم الدولي في أحيان اخرى. فقد اتسعت حدود الولايات المتحدة على حساب المكسيك بحكم القوة. وانكمشت حدود الاتحاد السوفيتي بعد الحرب العالمية الأولى بتأثير القوة واتسعت هذه الحدود مرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية وفوز الخلفاء السوفيت. وانكمشت حدود المانيا مرتين بعد الحربين العالميتين ايضا بحكم القوة وفرض الأمر الواقع.

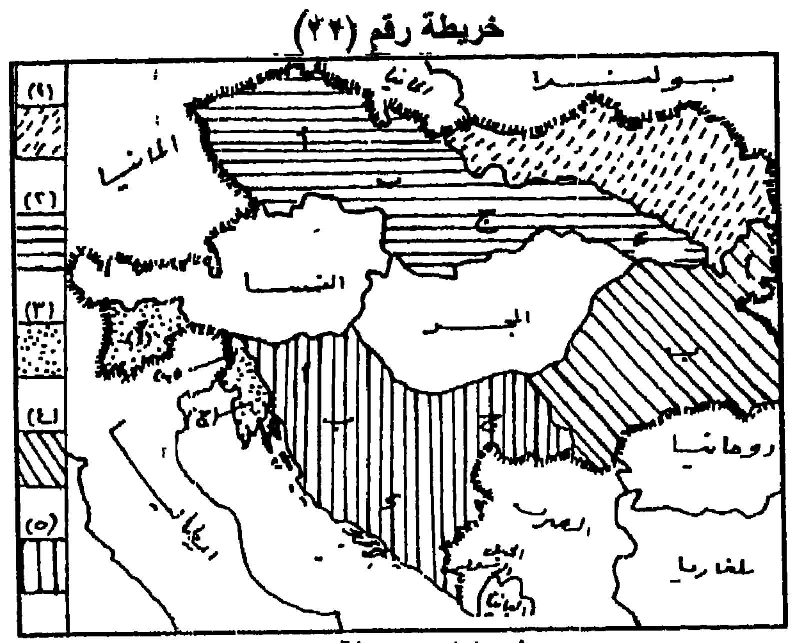
ويستوي الأمر في اتخاذ حدود تسير مع الظاهرات الطبيعية أو البشرية مع وجود عامل القوة والأمر الواقع كعنصر مؤثر في المواقف السياسية. وبعبارة أخرى فإن الحدود المسماة طبيعية أو أنتولوجية قد اثبتت المرة تلو الأخرى أنها حدود فاشلة طالما أن هناك عوامل اخرى (استراتيجية أو اقتصادية أو توسعية)

تلعب دورا ظاهراً ، أو يظل دورها كامنا إلى أن تأتيه الفرصة ليتحرك على سطح الاحداث لتتغير الحدود.

وهناك أمثلة عديدة نذكر منها حالة رومانيا . فبعد نهاية الحرب العالمية الأولى رأت لجان تخطيط الحدود في البلقان، والمعاهدات الدولية التي أقرت دول البلقان الجديدة، أن تتبع المظاهر الطبيعية لتخطيط حدود رومانيا الجديدة، في الجانب البلغاري واليوجسلافي اتخذ مسار الدانوب حدودا لرومانيا مع مد خط الحدود إلى البحر السود في اتجاه مشابه لمسار الدانوب وبذلك اقتطع الحد السياسي الجديد البلغار في اقليم دبروجا وادخلهم الاراضي الرومانية. وامتدت الحدود الرومانية عبر القسم الشرقي من سهل المجر قضمت بذلك اقليما كبيرا بسكنه المجريون في ترانسلفانيا وعبرت الحدود جبال الكربات لتمتد بموازاة نهر الدينست وتقتطع بذلك إقليم بسارابيا من الاتحاد السوفيتي وفي ١٩٤٠ احدث الألمان تغيرات جوهرية في حدود رومانيا ، فمضت دبروجا الجنوبية لبلغاريا ، وجزءا كبيرا من ترانسلفانيا للمجر . وكان هذا التعديل قائما على محاولة تخطيط حدود اتنولوجية . وفيما بعد الحرب الثانية ظلت دبروجا ملكا لبلغاريا وأعيدت ترانسلفانيا إلى رومانيا وأقتطع منها إقليم بسارابيا الذي أعيد إلى الاتحاد السوفيتي (يكون الآن جمهورية مولدافيا السوفيتية) ، وكذلك ضم شمال إقليم بوكوفينا إلى الاتحاد السوفيتي . ومعنى ذلك أن أسسا طبيعية(الأنهار) واتنولوجية (حدود لغوية وحضارية بين السلاف والرومان) قد اتخذت في إعادة تخطيط رومانيا . ومع ذلك ظلت مشكلة المجر في ترانسلفانيا دون حل ، بحيث يكونون الآن أقلية داخل رومانيا . وعلى هذا النسق نجد كافة التغيرات التي انتابت البلقان مرتبطة بالقوى السياسية التي تلتزم أحيانا بمظاهر طبيعية وأحيانا أخرى بمظاهر بشرية حسبما يتفق ذلك مع المصالح التي تلعب دورها وقت تخطيط الحدود . وهذه الحقائق بما لا يدع مجالا للشك .

وتم تقسيم إمبراطورية النمسا والمجر نهاية الحرب العالمية الأولى وتكوين دول جديدة كبولندا وتشيكوسلوفاكيا وإضافات إقليمية واسعة أنظر الخارطة رقم (٢٢).

خريطة رقم (٢٢)



نموذج لتقسيم دولة مهزومه

تقسيم إمبراطورية النمسا والمجر بعد الحرب العالمية الأولى

١–ما أعطي لتكوين جزء من دولة بولندا : إقليم جاليسيا

٢– ما أعطي من الإمبراطورية لتكوين كل دولة تشيكوسلوفاكيا :

(أ) إقليم بوهيميا ،(ب) إقليم هورافيا ، (ج) إقليم سلوفاكيا ، (ء) روتينيا

٣– ما أعطي من الإمبراطورية وأضيف إلى دولة إيطاليا :

(أ) التيرول الجنوبي ، (ب) إقليم جوريتزيا ، (ج) إقليم إيستريا

٤– ما أعطي من الإمبراطورية وأضيف إلى دولة رومانيا :

(أ) إقليم بوكوفينا ، (ب) إقليم ترانسلفانيا

٥– ما أعطي من الإمبراطورية وأضيف إلى دولة الصرب لتكوين دولة يوغسلافيا :

(أ) إقليم كارينولا (حاليا يعرف باسم _ سلوفينيا) ، (ب) إقليم كرواتيا

(ج) إقليم سلافونيا (حاليا جزء من شمال الصرب) ، (ء) إقليم البوسنة والهرسك .

إلى دولة صغيرة كرومانيا والصرب (يوجوسلافيا).

وقد كانت حدود الإمبراطورية النمساوية والمجرية في مجموعها حدودا تسير مع كثير من الظاهرات الطبيعية ، وتفصيلها كالآتي :

١-حدود النمسا وألمانيا تسير بمحاذاة السفوح الشمالية لجبال الألب .

٢- حدود النمسا وإيطاليا تسير بمحاذاة السفوح الجنوبية لجبال الألب الديناريـــة الشمالية في إقليم جورتزيا . وبذلك فإن القسم الغربي من النمسا كان عبـــارة عن إقليم الألب الجبلي الأوسط والشرقي في صورة إقليم انتقالي فاصل بيـــن سهول لمبارديا الإيطالية في الجنوب ومقدمات الألب الشـــمالية فـــي بافاريـــا الألمانية . وبعبارة أخرى كانت النمسا تكون التخوم الفاصلة بين المجموعـــة الحضارية اللغوية اللاتينية (إيطاليا) والمجموعة الجرمانية (ألمانيا والنمسا).

٣-حدود الإمبراطورية الفاصلة بين ألمانيا وإقليم بوهيميا(تشيكوسلوفاكيا الغربية حاليا) كان يسير مع خطوط مرتفعات واضحة : جبال غابة بوهيميا وغابـــة بافاريا شمالي مسار الدانوب ، وجبال فيختل والأرتز بين بوهيميـــا الغربيـــة والشمالية وإقليم سكسونيا الألماني ، وجبال إقليم السوديت الشـــرقي الفاصلـــة بين بوهيميا وموارافيا وبين إقليم سيليزيا الألماني .

٤- امتدت حدود الإمبراطورية عبر جبال الكربات إلى سهول بولنـــدا الجنوبيـــة وهضابها قليلة الارتفاع بعد تقسيم بولندا بين النمسا وألمانيا وروسيا .

٥- التزمت الحدود النمساوية الروسية بجبال الكربات كحاجز بين إقليم روتينيـــا وسهول أوكرانيا .

٦- التزمت الحدود النمساوية بامتداد الكربات وجبال ترانسلفانيا كفاصل بينها وبين دولة رومانيا التي كانت تحتل سهول والاشيا المنحصرة بين الدانوب وجبال ترانسلفانيا .

٧- ابتداء من البوابة الحديدية على الدانوب (الخانق الذي يعبره الدانوب بين جبال ترانسلفانيا وجبال البلقان) اتبعت الحدود النمساوية مسار الدانوب حتى قرب التقائه بإقليم البوسنة الجبلي . وبذلك كانت الحدود فاصلا بين سهول المجر العظمى وبين هضاب الصرب الوسطى والجنوبية .

امتدت الحدود الإمبراطورية فوق إقليم البوسنة والهرسك الذي كان تابعا من قبل للدولة العثمانية وانتهت الحدود على ساحل دلماشيا عند حدود امارة الجبل الأسود. وبذلك كانت الامبراطورية دولة من دول البحر المتوسط بحكم جبهتها البحرية على الادرياتيك. لكن اهمية هذا الساحل كانت تكمن في المنطقة الشمالية منه حيث مينائي تريستا وفيومي.

هذه المجموعة من خطوط الحدود الطويلة الملتزمة في معظمها بالظاهرات الطبيعية. فشلت في حماية الامبراطورية ليس من الخارج فحسب، وانما من الداخل ايضاً. ففي داخل المساحة الكبيرة التي شغلتها الامبراطورية كانت هناك عدة مجموعات حضارية رئيسية:

١-الجرمان الذين يكونون شعب النمسا، وكانوا السادة والحكام.

٢-المجيار الذين يسكنون سهول المجر الكبرى ويكونون مجموعة حضارية متماسكة وصلبة. وقد ادت ثوراتهم المتكررة في النهاية الى اشراكهم في حكم الامبراطورية التي اعطيت اسما مزدوجاً تعبيراً عن المشاركة وكان ذلك عام ١٨٦٧ لكن في الحقيقة ظل النمساويون الحكام الفعليين لكافة ارجاء الدولة

بينما كان المجريون حكاماً محليين لجزء من الدولة - تماماً كما نقول ببريطانيا العظمي واسكتلندا. وعلى هذا النحو يفسر القانونيون الوضع الدستوري بإن الامبراطورية لم تكن تتكون من النمسا والمجر، وانما كانت تتشكل من المجر واراضي اخرى، بعبارة اخرى ظلت الاوضاع غير متكافئة بين أكبر مجموعتين حضارتين داخل الامبراطورية مما كان يدعو الكثيرين الى اعطائها اسماء مختلفة تجنبا للوقوع في المشكلات القانونية. وكان من بين هذه الاسماء " مملكو الهابسبورج" (البيت المالك النمساوي) أو " مملكة الدوناو " (الطونة أو الدانوب) او " المملكة المزدوجة " (بعد ١٨٦٧).

٣- المجموعات السلافية الحضارية كانت كثيرة لكنها متفرقة: السلاف الغربيون (يتشكلون من مجموعة البولونيين، والسلوفاكيين والتشك)، والسلاف الجنوبيون (يتألفون من السلافينيين والكرواتيين والصرب) بالاضافة الى مجموعات حضارية اخرى تحتل مناطق العزلة الجبلية في البوسنة والهرسك وساحل دلماشيا.

وحينما بدأ الحلفاء في تقسيم هذه الامبراطورية الضخمة في وسط وشرق اوروبا اتخذ المقياس الاتنولوجي الحضاري بصورة اساسية في اقامة الدول الجديدة على النحو التالي :-

١-اعطيت المجموعة الجرمانية حدودها في النمسا الحالية

٢-اعطيت معظم المجموعة المجرية حدودها الحالية

٣-ضم البولونيين في جاليسيا الى بقية البولونيين لتكوين دولة بولندا الجديدة.

٤-ضم التشك والسلوفاك لتكوين تشيكوسلوفاكيا التي ظهرت لأول مـــرة علـــى مسرح التاريخ كدولة.

٥-ضم السلاف الجنوبيين كلهم الى الصرب لتكوين دولة يوجسلافيا.

٦-ضمت ترانسلفانيا وبوكوفينا بمن فيها من مجر والمان الى رومانيا.

لكن هذه الحدود الاتنولوجية لم تلتزم بالمقيـــاس الاتنولوجـــي فـــي كافـــة الحالات بل اقتطع عن عمد مجموعات اتنولوجية داخل حدود الدول الجديدة علـــى النحو التالي:

١-اقتطع الجرمان النمساويين في التيرول الجنوبي وضموا الى ايطاليا مما اثـــار مشكلات طويلة بين النمسا وايطاليا ما زالت آثارها قائمة حتـــى الآن برغـــم التسوية التي صنعها هتلر وموسوليني.

٢- ضم كل جرمان السوديت في جبال السوديت والارتز وغابه بوهيميا داخـــل تشيكوسلوفاكيا مما آثار المشكلات مع المانيا النازية وكان من مسببات تصفيـــة دولة تشيكوسلوفاكيا بين ١٩٣٨-١٩٤٤ (احتلال السوديت، وبوهيميا واقامـــة حكومة موالية للألمان في سلوفاكيا، وضم جنوب سلوفاكيا وروتينا للمجر).

٣-ضم ترانسلفانيا كلها لرومانيا آثار مشكلة الاقلية المجرية الكبيرة مـــن قسـمها الشمالي والغربي، مما أدى الى اقتطاعها واعطائـــها للمجـــر خـــلال الحكـــم النازي.

٤-ضم بعض المجريين في شمال يوجسلافيا ادى الى اقتطاع هذا الجزء خـــلال الحكم النازي ايضا. هذا التعمد في مد حدود القوميات الجديدة علـــى حســـاب اقليات غير متجانسة كان سببه الاساسي هو علاقات الـــدول خـــلال الحـــرب

العالمية الأولى. فامبراطورية النمسا والمجر كانت ضالعة مع المانيا في الحرب ضد الحلفاء. ولهذا نالها هذا التجزئ الكبير. كذلك وقع على المجرمين غرم كبير بتقطيع اجزاء من حدودهم الاثنية واعطائها للدول المجاورة (تشيكلوسلوفاكيا ورومانيا ويوجوسلافيا) باعتبار ان المجر شريكه في الحرب ضد الحلفاء . وقد كان الجرمان السوديت جزءا من امبراطورية جرمانية. وحينما انشات تشيكوسلوفاكيا كان من الصعب على الحلفاء اعطاء السوديت الى المانيا بحكم انها دولة منهزمة، وكان من الصعب اعطاء هذا الاقليم النمسا بحكم انها منهزمة ايضا، وبحكم الشكل الهلالي الذي يشكل اقليم السوديت حول حوض بوهيميا. وفي الوقت ذاته فإن ابقاء السوديت داخل تشيكوسلوفاكيا يعطي هذه الدولة حدوداً طبيعية جبلية في مواجهة المانيا.

وهكذا فإن الحدود الاثنولوجية لم تؤد وظيفتها مثلما فشلت الحدود الطبيعية وذلك لأن هذا النوع أو ذلك من الحدود قد فرض عمدا لأسباب اخرى تتعلق بالمواقف الدولية.

ويكفي للتدليل على ان الحدود التي توضع وراء كل حرب يظهر فيها ثقل عناصر القوة والعلاقات الدولية اكثر من قوة الحدود الاثنولوجية او الطبيعية، ان نشير الى ان الدول كثيراً ما تلجأ الى عمليات تهجير أو مبادلات سكانية كوسيلة لحل جرثومة الخلاف الناشئة عن تغير خط الحدود بوجود اقليات غير متجانسة داخل الحدود الجديدة. وفيما يلي – كمثال – بيان بعمليات تهجير السكان في بعض مناطق اوروبا في الفترة بين ١٩١٢–١٩٥١:

اولاً: الفترة بين ١٩١٢ و ١٩٣٩ (شملت حوالي عشرة ملايين شخص

١-حرب البلقان ٩١٢-٩١٣ (بين تركيا واليونان حول مقدونيا وترافيا:

عدد الأشخاص الذين هجر و (بالآلاف)

عدد الأشخاص	بالآلاف
يونانيين	٤٢٥
اتراك	٤٠٠
بلغار	٦٥
المجموع	٨٩٠

٢- الحرب اليونانية التركية بعد الحرب العالمية الأولى وطرد اليونان من منطقة ازمير التركية. توقيع اتفاقية ١٩٢٣ لتبادل السكان وتهجيرهم، استيلاء اليونان على تراقيا الشرقية البلغارية بعد الحرب الأولى مباشر:

عدد الاشخاص	بالآلاف
يونانيين	١٤٥٠
اتراك	٤٨٠
بلغار	٢٥٠
مجموع	٢١٨٠

٣- سقوط الدول الوسطى (المانيا وحليفاتها) في حرب العالمية الأولى ترتب عليه:

أ- تهجير الالمان من مناطق خرجت عن حدود المانيا:

من المنطقة الشرقية	٨٠٠	
من شلزفيج الشمالية	٣٠٠	١٢٣٠
من الالزاس واللورين	١٣٠	
ب-بولنديون عائدوين الى بولندا	٩٠٠	
ج- فرنسيون عائدون الى فرنسا	٥٠	١٦٠٠
د- مجيار عائدون الى المجر	٤٠٠	
هـ- رومانيون عائدون الى رومانيا	٢٥٠	
و- اعادة توطين بولنديون وسكان الدول البلطية الجديدة من الاتحاد السوفيتي	١٠٠٠	
ز- اعادة توطين روس داخل الاتحاد السوفيتي او خارجة	١٠٠٠	٢٠٠٠
ح- هاربين من الدول الفاشية:		
من المانيا	٤٠٠	
من اسبانيا	٢٠٠	٧٨٠
من ايطاليا	١٨٠	
مجموع الاشخاص الذين شردوا وهجروا وتبدلوا في تلك الفترة:		٩١٥٠

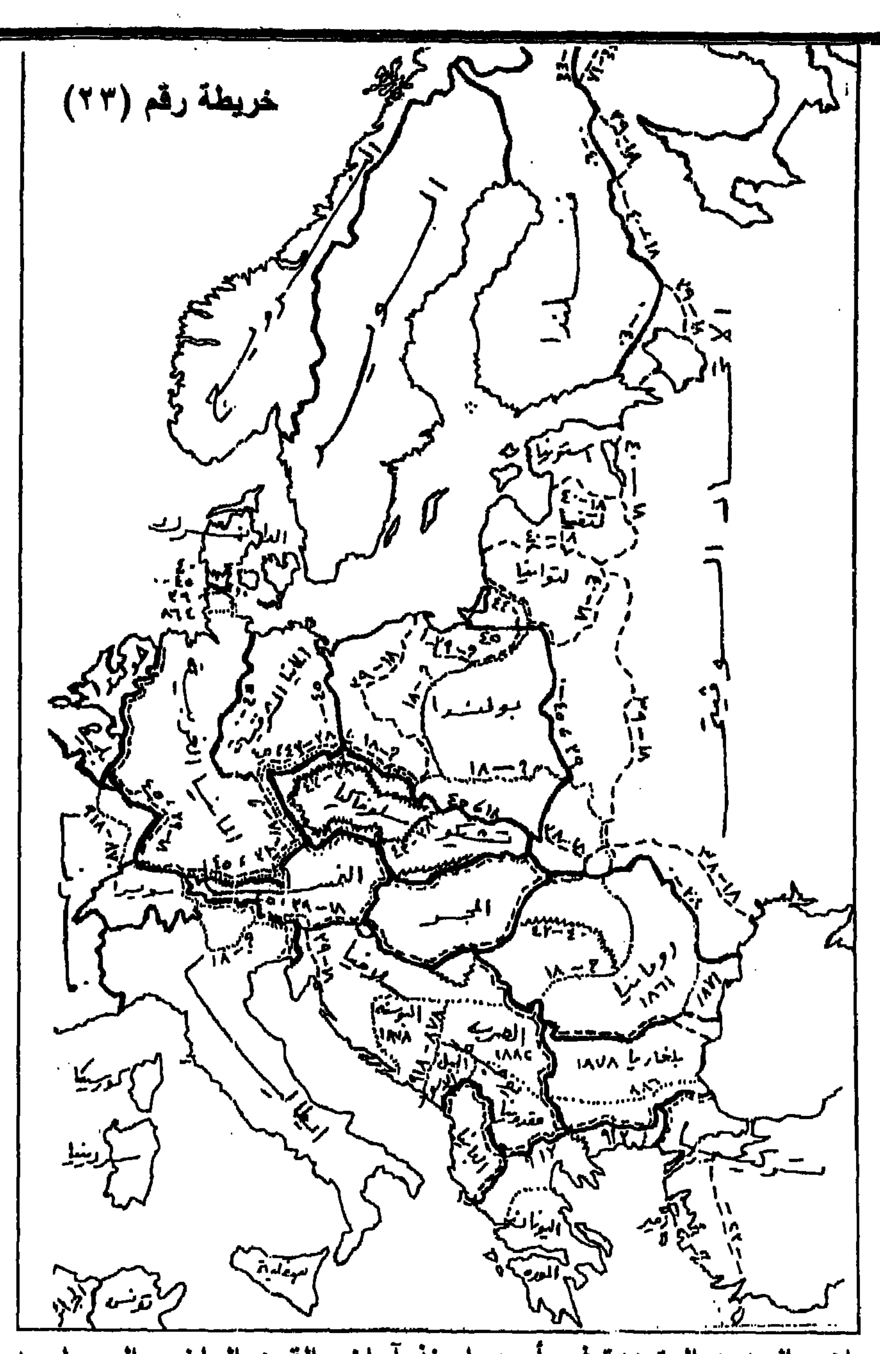
ثانيا : فترة الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩/١٩٤٥ (شملت حوالى ٢٧ مليون شخص)

١- الالمان الذين اخلوا مساكنهم نتيجة الحرب الجوية	١٩٧٠	
المان الفولجا هجرهم السوفيت الى سبيريا	٤٠٠	٢٣٧٠
٢- تبادل السكان بين فلندا والاتحاد السوفيتي بعد تعديل الحدود		

روس	٤٠٠	٨٨٠
فنلنديين	٤٨٠	
٣- تقسيم بولندا في ١٩٣٩ بين المانيا والاتحاد السوفيتي ادى الى تهجير		
بولنديين	٣٥٠٠	٣٧٠٠
ومن سكان البلطيق	٢٠٠	
٤- التغيرات السياسية التي احدثها النازي في اوروبا الشرقية اعادت توطين:		
رومانيين	٣٢٥	
صرب	٣٠٠	
مجيار	٢٢٥	
بلغار	١٨٥	١٢٠٠
يونان	٩٠	
كروات	٧٥	
٥- عمال اجانب وهاربين الى المانيا من دول اوروبـــــا الغربية	٣٠٠٠	
من روسيا واوكرانيا	٢٥٠٠	٨٠٠٠
من بولندا	٢٠٠٠	
من بلقان وشرق اوروبا	٥٠٠	
٦- تقدير عدد اليهود الذين اجبرهم النازي على الـــهجرة من المانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا والمجر وبولندا الخ.	١٥٠٠	
مجموع الاشخاص الذين اعيد توطينهم وتهجيرهم فـــــي تلك الفترة	١٥٠٠	٢٦٦٥٠
ثالثا: فترة ما بعد الحرب ١٩٤٥-١٩٥١ (شملت حوالي ٢٦ مليون شخص)		
١- الألمان المطرودين من مناطق الاحتلال بعد الحرب	١٢٥٠٠	
الالمان الذين فروا من المانيا الشرقية الى الغربية	١٥٠٠	١٤٠٧٥
٢- لاجئين من دول البلطيق الى اوروبا الغربيه	٣٠٠	
اعادة توطين في منطقة البلطيق السوفيتيه	٣٠٠	٦٠٠
٣ توطين السوفيت في جمهوريات البلطيق وبروســـــيا	٢٣٠٠	

الشرقية		
وبولندا الشرقية اعادة توطين اوكرانيين	١٢٧٥	
٤- توطين بولنديين في المنطقة الالمانية سابقاً (شـرق الاودر)	٤٧٠٠	٤٧٠٠
٥- توطين التشيكيين في منطقة السوديت	١٩٢٠	
تبادل المجيار السلوفاك بين الدولتين (مائة الفلك منهما)	٢٠٠	٢١٢٠
٦- تبادل المجيار والصرب (٤٠ الفا لكل منهما	٨٠	٨٠
٧-توطين رومانيين محل المان زيبنبورج في ترانسلفانيا	٢٠٠	٢٠٠
٨- طرد الايطاليين من منطقة ايستريا بعد ضمها ليوجوسلافيا	١٤٠	١٤٠
٩- تبادل الاتراك والبلغار	٢٥٠	٢٥٠
محموع الاشخاص الذين اعيد توطينهم وتهجيرهم في تلك الفترة		٢٦٤٥٠

وتوضح هذه الارقام انه في خلال ٥٠ سنة من تغيرات الحدود في اوروبا الشرقية والوسطي حدث تبادل للسكان وطرد وتهجير ٦٣ مليون من البشر. كما تعطينا خريطة(٢٣) صورة فعلية لتغيرات الحدود المتكررة في اوروبا الوسطي والشرقية والشمالية خلال اقل من نصف قرن. وهي صورة تعبر عن فداحة الخسائر التي تحدث لمجرد نقل الحدود والناس من ديار اعتادوها فترة من الزمن، فضلاً عن فداحة الخسائر التي يمنى بها البشر من تخريب ودمار وقتل لخيرة الناس خلال الحروب. هذه الحقائق كلها - بغض النظر عن التغيرات الاقتصادية الناجمة عن تغير الحدود وتهيئة الدول لاتجاهات جديدة في مواقعها الجديدة- تعبر كلها عن عدم ثبات الدولة القومية وان الضغوط السياسية الاقتصادية الداخلية والخارجية تفرض بالقوة حدوداً تعتبرها مناسبة لمصالحها الاقتصادية والاستراتيجية بغض النظر عن التزام الحدود بظاهرات طبيعية او اتنولوجية.



تغيرات الحدود المتعددة في أوروبا منذ أواخر القرن الماضي إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية

الحدود الهندسية ومشكلات الدول الجديدة

ومن المشكلات التي تثيرها عمليات تخطيط الحدود تلك الخطوط الهندسية التعسفية – سواء كانت فلكية أو غير فلكية– التي اتبعت في تعيين مناطق النفوذ الاستعمارية في فترة تبرعم الاستعمار او نمو دول جديدة داخل مناطق المستعمرات السابقة. والأمثلة على الحدود الهندسية كثيرة، والولايات المتحدة على راس قائمة دول تشتد فيها هذه الظاهرة التعسفية. فالجانب الغربي من حدود امريكا وكندا (خط عرض ٤٩ شمالاً)، وحدود امريكا والمكسيك حدود فلكية وهندسية على التوالي.

وحدود الولايات في داخل امريكا غالبيتها الساحقة خطوط فلكية وهندسية معا. ولو تصورنا ان هذه الولايات كانت دولا مستقلة فان ذلك يعطينا على الفور عظم الخسائر الناجمة عن مثل هذا التقسيم المفتعل . والحال نفسه ينطبق على حدود السكا وكندا (خط طول ١٥١ غرباً) وحدود الولايات الأقاليم الكندية باستثناء خط تقسيم المياه في حدود يوكن وكولمبيا ونهر اوتاوا بين اونتاريو وكوبيك.

والعالم العربي ملئ بالحدود الهندسية: خط ٢٢ شمالاً بين مصر والسودان وخط ٢٥ شرقاً بين مصر وليبيا ، وأطوال من الخطوط الهندسية تحد سوريا والعراق والأردن والسعودية وليبيا والسودان والصحراء الجزائرية وموريتانيا والصحراء الاسبانية ولا تخرج هذه الحدود عن اشكالها الهندسية إلا في مناطق العمران والنطاقات الاستراتيجية مثل حدود الجزائر مع تونس، او حدود اليمن مع عسير السعودية. بينما تختفي خطوط الحدود تماماً في مناطق اللامعمور مثل الحدود اليمنية السعودية وغيرها كثير.

وفي افريقيا مجموعة من الخطوط الهندسية تتكامل مع مجموعة من خطوط الحدود الملتزمة بالانهار او بعض خطوط تقسيم المياه. وهذه او تلك قطعت الاتصال بين ابناء مجموعة حضارية واحدة مثل الزاندي بين السودان وزائيري، والبقاره بين السودان وتشاد، والباكونجو بين زائيرى والكنغو (برازافيل) وانجولا وكابندا (البرتغاليتين) وقبائل الايوى بين غانا وتوجو، وعشرات الامثلة الأخرى في غالبية الدول الافريقية.

لم تكن خطورة هذه الحدود التعسفية كامنة وقت تخطيطها بالدرجة التي نراها اليوم متضخمة ومتازمة في عهد الاستقلال. ويعود ذلك الى عدة اسباب منها.

١- في ابان الحكم الاستعماري تضافر حكومات الاستعمار على سياسة اقرار الأمن وقمع كل المشاعر القبلية التي تظهر بين الحين والآخر، وتركز على تأمين مناطق الحدود حيث تتصل القبائل ببعضها او حيث تظهر عشائر متقاربة لغوياً واسطوريا. وهكذا تقوم حكومات الاستعمار في المستعمرات المتجاورة بتأمين الحدود المشتركة من الجانبين للمحافظة على "السلام الاستعماري" .

٢- في خلال الحكم الاستعماري تربط المستعمرة داخل حدودها التعسفية بعجلة الاقتصاد الرئيسية للدولة صاحبة المستعمرة. ويصبح هناك حد ادني من النمو الاقتصادي خارج الحدود المرسومة له بواسطة قوى الاستعمار. ومن ثم لا توجد مشكلات اقتصادرية تضغط على المستعمرة في اتجاه التكامل الارضي صوب المستعمرات المجاورة. ويؤمن هذا التوازن الاقتصادي مع احتياجات

القوى الاستعمارية، ان وسائل الحركة والاتصال الحديدية والبرية والنهرية توجه كلها من داخلية المستعمرة الى موانيها، وتبتعد عن الارتباط بشبكة الحركة في الدولة او المستعمرة المجاورة.

٣-حينما تحصل المستعمرات على استقلالها فإنها تصبح دولة داخل الحدود التعسفية التي رسمت ابان العهد الاستعماري وبخروج القوى الاستعمارية المتضافرة في حماية الأمن وقمع مشاكل الاقليات على الحدود، فإن اوضاع الاقليات والقبائل المقتسمة بواسطة الحدود القومية الجديدة تصبح متفجرة وفي حاجة الى ممارسات دبلوماسية كثيرة ودقيقة لمعالجة مثل هذه المواقف. لكن لم تحل الدبلوماسية الهادئة غالبية هذه المشاكل. ففي الصومال استعمرت الحرب والاشتبكات الدموية مع اتيوبيا من اجل تعديل خط الحدود الذي يفصل قسماً كبيرا من الصوماليين داخل حدود اتيوبيا. ومشكلة الايوى – سكان توجو – ما زالت مكمن خطر ونزاع مستقبلي بين توجو وغانا، وذلك برغم ضم الايوى نهائياً في دولة غانا. وقد حل الاستفتاء مشكلة تقسيم الكمرون الانجليزية بين طرفي النزاع : نيجريا (حصلت على القسم الشمالي) والكمرون (حصلت على القسم الجنوبي)، وفي افريقيا مشكلات اخرى كامنة ويمكن ان تتفجر اذا تأزم لموقف لاية اسباب.

٤- الاشكال الاقتصادية للدول الجديدة في المستعمرات السابقة اصبحت تقسم – على الاقل نظريا – برغبة ملحة واكيدة في التقدم والتنمية القومية. لكن يعوق هذه التنمية التوجيه السابق لخطوط الحركة في اتجاه الموانئ الاستعمارية الرئيسية من ناحية، وارتباط بعجلة الاقتصاد الاستعماري السابق من ناحية

ثانية. وقد ادى هذا الى تنافس شديد بين الدول المستقلة الجديدة التي تنتج محاصيل او خامات اولية متشابها مما يضعف من طاقة هذه الدول على رفع اسعار صادراتها. وفي الوقت نفسه نجد ان اقتطاع الحدود التعسفية للأقاليم التي يمكن ان تتكامل اقتصاديا يؤدي الى مزيد من الضعف ومزيد من التنافس بدل التكامل.

٥- زاد من حدة التنافس الاقتصادي ان الدول الجديدة- بدلا من التكامل الاقليمي - وقعت في مزيد من التنافس بارتباطاتها مع التكتلات الاقتصادية التي نشأت مؤخراً في دول اوروبا الاستعمارية السابقة. فمجموعة الدول التي كانت فيما سبق مستعمرات فرنسية وقعت في حوزة الاقتصاد الفرنسي وتكتل السوق الاوروبية ومجموعة المستعمرات الانجليزية السابقة وقعت ضمن اتفاقات الكمنولث البريطاني اقتصاديا وسياسيا. ولسنا نعرف ما سيؤدي اليه دخول بريطانيا كتله السوق الاوروبية الى مزيد من الضعف في موقف الدول الافريقية عامة – سواء منها تلك التي كانت مستعمرات فرنسية او انجليزية – بحكم وقوعها كلها ضمن دائرة نفوذ اقتصادية واحدة تشمل كل اوروبا الغربية، ومما يشهد على ضرورة الروابط الاقتصادية بين القوى الأوروبية والدول الافريقية الجديدة ان دولة غينيا التي اختارت الخروج من المجموعة الفرنسية عقب حصولها على الاستقلال مباشرة تعاني موقفاً متجمداً في صورة حرب أقتصادية باردة ومتعمدة شنتها عليها فرنسا.

وخلاصة القول ان الحدود التعسفية في مناطق المستعمرات السابقة قد ادت الى مشكلات عديدة: مشكلات حدود واقليات، مشكلة تنمية اقتصادية عاجزة

عن التقدم دون موافقة رؤوس الأموال الغربية (مثل مشكلة تمويل سد الغولتا في غانا التي تحولت الى قضية سياسية اقتصادية اودت بحكومة نكروما) . وبالتالي فإن الدول الجديدة وجدت نفسها في مأزق حرج: حدودها غير منطقية وتحمل في طياتها مشكلات كامنة او متفجرة ، ومصالحها القومية الاقتصادية مفروض عليها وصايات مختلفة خارجية. والمفروض ان تعمل هذه الدول في اطار قومي متعارض تماماً مع ما هو كائن من تناقضات ضد تكامل هذا الإطار القومي.

وقد اقترح بعض الزعماء الافريقيين – للخروج من هذا التناقض بين كيان الدولة كما يجب ان تكون، وبين اطاراتها الحدية المفتعلة والمشحونة بالمشكلات وجذورها الاقتصادية المتنافسة والمناهضة لجوهر التنمية القومية الاقتصادية الاجتماعية – اقتراحوا صيغا مختلفة للتكاملات الاقليمية في صورة وحدات سياسية كبرى او ائتلافات اقليمية في صور سياسية او ادارية او تجمعات اقتصادية. لكن مثل هذه الاراء كانت سابقة لأوانها تاريخيا لأن

١-الكثير من القادة الجدد كانت تربطهم بالقوى الاستعمارية مصالح مشتركة.

٢- ان القادة الجدد غير المرتبطين احكم رباطهم فيما بعد او ازيلو من الوجود عندما كانوا يتخذون مواقف متصلبة وحل ومحلهم قادة مرنين. وتشهد على الحالة الاولى حكومة نيجيريا التي اعقبت الاستقلال وقبل ان تطيح بها ثورة والثورة المضادة لها. فقد كانت الحكومة الاتحادية النيجيرية. وحكومات الأقاليم الثلاثة تتكون من كبار الملاك والمساهمين في النشاطات الاقتصادية. فضلاً عن كونهم اعضاء مجتمعات وعشائر الرئاسيات التقليدية . ويشهد على الحالة الثانية ازاحة لومومبا من الحكم عقب استقلال زائيرى (كنغو

كنشاسا سابقا) وتولى حكومات مرنة القيادة مثل حكومـــة ســيريل ادولا، او حكومات منحازه للقوى الاستعمارية مثل حكومة مويس تشوبي).

وفي الحالات التي تم فيها ائتلاف اقليم مثل اتحاد مالى (مالي والســنغال) فإن القوى الاستعمارية قد ساعدت على تفكيكه فيما بعد مستغلة عدم وجود قوميــة ناضجة، بل على العكس تفرق في الولاء بين القبيلة والتجمع الحضاري واللغــوي والولاء غير المفهوم لنظام الدولة الحديثة. ومشكلة تعدد الــولاء بيــن المجتمــع المحلي والدولة الجديدة من المشكلات الكبيرة التى تواجه الدول الافريقية وتزيــد من ضعف وجودها. فالدولة في غالبية افريقيا المدارية ليست متجانســة قوميــا، وهي تكاد ان تكون اطاراً سياسياً خارجياً يحــدد مســاحة مــن الأرض تســكنها مجموعة من الاقليات (التجمعات القبلية واللغوية) ولا يوجد فيها – الا في احــوال قليلة – مجموعة حضارية سائدا عددياً ومنتشرة مكانيا. وهناك حالات متعارضــة كثيرة نذكر منها حالة السودان وزائيرى. ففي السودان عدة مجموعات حضاريــة لكن تسودها المجموعة الشمالية والوسطي المتكونة من العرب المسلمين، بينما فــي الجنوب عدة مجتمعات حضارية مختلفة لغة ونظاماً سياسياً سلفيا ودينا (اختــلاط اسلامي وكاثوليكي وبروتستانتى على خلفية وثنية قوية وسائدة). ومــن ثــم فــان السودان تلون بلون المجموعة الحضارية الكبرية وينعكس ذلك في تمركز الحكــم في الخرطوم العربية، وارتباط السودان بجامعة الدول العربية ويؤيــد ذلــك كلــه خلفية تاريخية من الحكم العربي ابتداء من ١٥٠٤، وتركز النشــاط الاقتصــادي الحديث والمكون لعصب الدولة السودانية في داخل النطاق العربي الأوسط. وقــد شعر الجنوبيين – من تلقائهم ونتيجة ايعازات خارجية وأخطاء داخليــة – بــدور

صغير في حياة السودان القومية – ومن ثم جاءت ثورتهم الطويلة (بمساعدات خارجية) والتي وجدت لها مؤخرا حلاً مقبولاً في صورة شكل من الحكم الذاتي انهى هذا الموقف المتأزم.

أما في زائيرى فإنه توجد عشرات من المجتمعات الحضارية التكافئة قوة وانتشار وان كان يبرز من بينها الباكونجو في الغرب والبانجالا في الشرق والبالوبا واللوندا في كاتنجا والجنوب الشرقي واللنجالا في الشمال. ومن ثم الحكم المركزي – ما لم يكن قوياً – سوف يواجه ظهور النزعات الاستقلالية على السطح في مكان آخر من هذه المساحة الشاسعة. ويجب ان نضيف الى ذلك ان القوى الاجنبية لها دورها الفعال في الابقاء على تكامل زائيري الاقليمي او اثارة الحركات الثورية الانفصالية متى كان هذا او ذاك مناسباً لمصالحها.

وبالمثل كان موقف باكستان الشرقية (بنجلادش) والغربية متازما برغم رابطة الدين. فقد كان كل شيء يعاكس الوحده: عدم تكامل ارضي، لغات مختلفة واتجاهات اقتصادية مختلفة وسيطرة الغربيين على الحكم واستئثارهم به في كل باكستان والى جانب هذه الدوافع للانفصال جاء دور الهند التي لا تريد ان تكونم جارتها وشريكتها في شبه القارة الهندية دولة كبيرة قوية – مما كان له اكبر الأثر في الاسراع بتفكيك دولة باكسنان الى دولتين.

الحدود السياسية والقوى القومية والتكتلات الاقليمية

إذا عدنا الى ما سبق ان ذكرنا من ان التصنيف النوعي يقسم الحدود الى حدود الاتصال وحدود الانفصال. فاننا نرى ان هذا التقسيم ينطبق على كافة اشكال الحدود في ازمنة مختلفة. ففي عهود السلام يمكن ان تصبح اشد أنواع الحدود وعورة وابتعاداً حدود اتصال وتنقلب الآية فتصبح اكثر الحدود وصلاً وتقريباً حدود انفصال مانعة فترات العداء والحروب فالفصل إذن عمل ارادي متعلق بارادة الدول. لكن علينا الا تتناسى ان هناك فعلاً مناطق وتخوم تساعد بطبيعتها على الفصل ، وهي اذا تركت على حالها دون انشاء الطرق التي تسير عليها الحركة فإنها تصبح طبيعياً وبشرياً نطاقات فاصلة. وهذه مرحلة من مراحل وظائف الحدود. وترتبط بتوجيه الدولة. ويتضح هذا جليا في حدود الانفصال القائمة بين البرازيل وجيرانها مثل كولمبيا وبيرو حيث تعمل الغابات الشاسعة في امازونيا على اقامة تخوم عازلة. ويساعدها في ذلك سلاسل الأنديز الوعرة المرتفعة التي تقيم نطاقاً آخر من العزلة بين الجيران. ومن ثم فإن البرازيل تتجه صوب مناطق الحركة والموارد السهلة على الشاطئ الشرقي. بينما تدير بيرو وكولمبيا ظهرها للبرازيل متجهه بثقلها الى سواحلها على المحيط الهادئ ووديانها العليا المنتجة لموارد صادراتها الأولية النباتية المعدنية، لكن التنيمة الاقتصادية والضغط السكاني يؤدي ببطء الى اتجاه مركز ثقل الدولة الى نطاقات العزلة الداخلية. ولعل نقل عاصمة البرازيل من الساحل الى الداخل تعبير عن هذا التحول في توجيه الدولة. وفي المستقبل نتوقع ان تتحول سهول امازونيا البرازيلية وامتدادتها في بيرو وكولمبيا مناطق اتصال وحركة بدلاً من وظيفتها

الحاجزة الآن. وإذا كانت هناك الآن بعض المشكلات على الحدود في أمريكا الجنوبية عامة، فإن المستقبل سوف يشهد مشكلات اكبر حينما يصبح الاحتكار اكثر على مناطق غنية بمواردها غير المعروفة الآن.

وهذا المثال هو الذي تكرر المرات تلو المرات في تاريخ العالم منذ العصور الحجرية وتصارع المجتمعات على مناطق الصيد الوفير او تصارع القبائل على المراعي الغنية، او تصارع الدول المبكرة على موارد الخامات اللازمة لاقتصاديات الزراعة واحتياجات حياة المدينة والسيطرة على طرق التجارة الرئيسية، او صراع القوميات الحديثة على السيادة الاقليمية والمجالات الحيوية ومصادر الخامات واسواق الاستهلاك وطرق التجارة. وفي كل هذه الحالات – قديمة ومعاصرة – تتحرك الصراعات نتيجة النمو والضغط السكاني، والنمو والضغط الاقتصادي. وكلاهما يؤدي الى تحريك الحدود عبر نطاقات الحجز والتخوم الفاصلة نتيجة لظروفها الطبيعية او لأن الناس هجروها لاسباب مختلفة سياسية او اقتصادية او استراتجية.

وبما ان نطاقات الفصل والعزل محدودة المساحة، فإن الوقت يأتي الذي تقف فيه القوى المتوسعة وجها لوجه عبر خط حاد يفصلها عن بعضها. صحيح ان القوى المتوسعة من مركزين او أكثر ليس محتوماً ان تلتقى لتتصارع في كل نقاط التماس. لكن أكثر نقط التماس حساسية (لاسباب استراتيجية او اقتصادية) هي مثار المشكلات الرئيسية بين الدول. ومن الأمثلة على ذلك وادى الراين الأوسط كمنطقة تماس بين القوى الجرمانية المتوسعة غرباً والقوى الفرنسية

المتوسعة شرقاً سببت حروباً طويلة بين الدولتين، بينما استقرت منطقة التماس الجرمانية الفرنسية في النطاق الجبلي في سويسرا دون ان تسبب ازمات خطيرة.

في الماضي البعيد كان هناك متسع من الأرض تنتقل فيها الجماعات من مكان لآخر في صورة هجرات واسعة حينما كان التماس بين مجتمعين يهدد بمواجهات مميته. وفي الماضي غير البعيد كان الصراع بين دولتين او اكثر يؤدي الى تسلط الغالب على المغلوب باحتلال عسكري (او حضاري) وسلب للحريات.

وفي الوقت الحاضر لم يعد في الأمكان الالتجاء الى ممارسات الماضي البعيد والقريب فلم تعد هناك اراضي تتحرك فيها الجماعات بعيداً عن مكامن الخطر، ولم تعد حدود الدول مفتوحة لحرية الحركة القديمة. فقد تم اقتسام اراضي اليابس الى آخر شبر. وتحديد الحدود واحكم اغلاقها الا لمن تسمح له القوانين الدولية بالدخول والخروج. فقد نضجت المشاعر القومية خلال القرن الماضي والحالي نضوجا لا مزيد عليه. فكل حفنة من التراب القومي استحالت الى كم معنوى مشحون بعواطف وطنية متأججة ملتهبة - حتى لو كانت هذه المعاني خالية من المحتوي النفعي. وبذلك استحالت في عالمنا الدولي المعاصر فكرة الاحتلال بالقوة برغم استخدام الغاشمة من جانب القوى المتوسعة. وبرغم هزيمة مادية ملموسة حاقت بشعب ما. ولهذا لا يكتسب الاحتلال اية صبغة شرعية طالماً قاوم المهزوم مشيئة الغالب بكل اشكال المقاومة.

ويبدو ان القومية بمعناها الراهن قد نشأت في أوروبا خلال تبلور العصر الصناعي ومقدماته. وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالنمو الاستعماري وظهور افكار وكتابات عن " المجد" القومي، والتوسع والسيادة لتحقيق " مهمة حضارية " في العالم .وقد ادى التطور الصناعي والقومي باوروبا الى اشتبكات دامية . ويكاد تاريخ احداث اوروبا الحديثة ان يكون سلسلة من الحروب والدمار والتوسع وتعديلات الحدود، بحيث ان كل دولة تحاربت في وقت ما مع كل دولة اخرى، وتحالفت في وقت اخر مع كل دولة اخرى. تحاربت النمسا وبروسيا، وتحاربت فرنسا وانجلترا اكثر من مرة، وتحارب السويسريون مع النمساويون. وحارب نابليون كل اوروبا وحاربت المانيا كل اوروبا مرتين، وفي المرتين يكاد ان يكون العالم قد جر الى الحرب. وفي كل مرة تنتهي الحرب بغالب ومغلوب ومعاهدات واتفاقيات وحدود جديدة او عود الى حدود قديمة وتغير جذرى لحياة السكان في مناطق الحدود،وتغيير للإوطان والجنسيات والتوجيه الاقتصادي والثقافي واللغوي والحضاري.ويكفي للتدليل على ذلك ببعض التواريخ المهمة منذ منتصف القرن السابع عشر:

الحروب الاوروبية الرئيسية منذ ظهور القوميات

١٦٤٣-١٧١٥	حكم لويس ١٤ وحروبة لضم برجانديا الالزاس لفرنسا وحروبه ضد النمسا (١٦٦٧) لضم الفلاندرز الفرنسية (كانت بلجيكا تابعه لاملاك اسرة هابسبورج النمساوية) وحروبة ضد اسبانيا (١٦٥٩). معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) والبرانس (١٦٥٩) واكس لا شابل (١٦٦٨)
١٦٨٢-١٧٢٥	حكم بطرس الأكبر في روسيا والتوسع الروسي الى البلطيق
١٦٧٢-١٦٧٨	حرب الاراضي المنخفضة (هولندا) و معاهدة نيميج
١٦٨٨-١٦٩٧	حرب اتحاد او جسبورج (جنوب المانيا) ومعاهدة ريزفيك

١٧٠٠-١٧١٣ حرب الوراثة الاسبانية ومعاهدة او ترخت

١٧٣٣-١٧٣٨ حرب الوراثة البولندية ومعاهدة فيينا

١٧٤١-١٧٤٨ حرب الوراثة النمساوية ومعاهدة اكس لا شابل

١٧٥٦-١٧٦٣ حرب السنوات السبع ومعاهدة باريس

١٧٩٢-١٧٩٥ حروب الثورة الفرنسية في بلجيكا والراين

١٧٩٥-١٧٩٨ حروب نابليون في ايطاليا ومصر

١٨٠٤-١٨١٥ حروب الامبراطورية نابليون ضد النمسا (اوسترليتز ١٨٠٥) ومعاهدة بوسبورج وضد بروسيا (١٨٠٦- ١٨٠٧ ومعاهدة تلزيت) وضد النمسا (معركة فاجرام ، ١٨٠٩ ، ومعاهدة فيينا). وفي اسبانيا ضد الانجليز (١٨٠٨-١٨١٤) ، وضد روسيا (١٨١٢) وضد المانيا (١٨١٣) واخيراً واترلو (١٨١٥)

١٨٢١-١٨٣٠ حرب المورة وتكون دولة اليونان (ائتلاف دول اوروبا ضد الدولة العثمانية)

١٨٤٨-١٨٥٩ حرب القرم بين تركيا وروسيا وائتلاف دول اوروبا ومن نتائجها اول ظهور لتقسيم البلقان (أصبحت مولدافيا (شمال رومانيا) والصرب والجبل الأسود امارات ذات حكم ذاتي ضمن الاملاك العيمانية.

١٨٦٤ الحرب الالمانية الدانمركية، و ١٨٦٦ الحرب الروسية النمساوية

١٨٧٠-١٨١٧ الحروب الالمانية الفرنسية : حرب السبعين

١٨٧٧-١٨٧٨ الحرب الروسية التركية: استولت روسيا على ارمنيا، وأصبحت هناك مملكة مستقلة باسم روماسنا (ائتلاف امارتي مولداويا وفالاشيا في (١٨٨١) ومملكة الصرب (١٨٨٢) واستقلال امارة الجبل الأسود عن تركيا – واستيلاء النمسا على البوسنة والهرسك (١٨٧٨) فيما يشبه الاتفاق)، واستيلاء مملكة اليونات على اقليم تساليا (١٨٧٨). وكذلك اصبحت بلغاريا ذات حكم ذاتي (١٨٧٨) وفي ١٨٨٦ استولت بلغاريا

على اقليم الروميلي الشرقي. وباختصار كانت هذه الحرب بداية النهاية للدولة العثمانية.

١٩١٤-١٩١٨ الحرب العالمية الأولى (المانيا – النمسا – تركيا ضد فرنسا وبريطانيا وامريكا) معاهدة فرساى

١٩٣٩-١٩٤٤ الحرب العالمية الثانية (المانيا وايطاليا ضد اوروبا والاتحاد السوفيتي وامريكا).

وهذه الحروب التي شنتها القومية الأوربية في اوروبا يبدو أنها كانت تمثل مرحلة من مراحل تكوين الدولة التي وصلت الى طريق مسدود نتيجة تكوار النزاع والاقليمية الكبرى كطريق للخروج من مازق القومية الأوروبية.

وأفكار الأقاليم الكبرى قديمة. طبقها الاسكندر الأكبر والدولة الفارسية والرومانية وكان اوسع تطبيق لها الدولة الاسلامية. ومن بين التراكيب السياسية التي قامت على مبدأ الأقاليم الكبرى الدولة العثمانية وامبراطورية الصين والامبراطورية النمساوية والامبراطورية الاستعمارية الاستيطانية الاسبانية والبرتغالية. اما الامبراطوريتين الاستعماريتين الفرنسية والانجليزية فكانت تركيبات اخرى غير الفكرة الاقليمية. وبصورة من الصور كانت الامبراطورية الروسية شكلاً من أشكال الأقاليم السياسية الكبرى ويعيب هذه الأفكار الأقليمية الكبرى أن التوازن السياسي لم يكن موجوداً بين الحكام الذين يستندون الى شعب واحد الرومانيين والاغريق والاتراك العثمانيين والنمساويين الالمان والاسبان

والبرتغاليين والروس – وبين بقية شعوب الامبراطورية. وهذا الذي نعده اليوم عيباً ونقيصه لم يكن الا جزءا من طبيعة الأمور في الماضي.

أما الأفكار الاقليمية في البناء السياسي الحديث فإنها – نظرياً – تقوم على مشاركة متساوية للقوى السياسية داخل التكتل السياسي. ولكن مثل هذا التطبيق المثالي لم يحدث بعد. فلا تزال هناك فروق بين القوميات والشعوب التي يمكن ان تشكل بناءا سياسياً اقليمياً. إذ أنه في الغالب يحدث تميز لقومية لسبب او مجموعة من الأسباب: القوة العددية، درجة التعليم، الانتماء الى المجموعة المحركة للبناء السياسي الاقليمي، من بين اسباب اخرى عديدة. ولا شك انه لا تزال هناك بعض الفوارق بين قوميات الاتحاد السوفيتي الحالية. وإذا كان ذلك في بناء سياسي متعدد القوميات، فإن الموقف يصبح اكثر دعوة الى اليأس حينما نرى قومية واحدة انجلو امريكية في الولايات المتحدة، ومع ذلك فان المشاركة السياسية المتكافئة غير متوافرة لأقلية من الرعية الأمريكية بسبب لون البشرة. فالزنوج الامريكيون ليسوا قومية مثل القوميات التي نجدها في الاتحاد السوفيتي ليست لهم ارض خاصة، ولم يكن لهم وطن محدد داخل امريكا ادمج فيما بعد داخل الدولة الأمريكية. وليست لهم لغة خاصة بهم ولا تقليد حضاري يحتفظون به منذ تواجدهم في الارض الامريكية. وليست لهم ديانة خاصة يلتفون حولها. وباختصار فإن الزنوج الامريكيين ليسوا كالاوزبك او القرجيز او الياكوت من قويمات الاتحاد السوفيتي. بل هم جزء لا يتجزأ من التجمع الحضاري الانجلو امريكي.

قد يبدو اذن ان التفريق والتمييز من طبائع البشر، أو من طبيعة الحياة ولكن كثيراً ما تغيرت بعض الطبائع الفردية تحت ضغوط الحياة الجمعية التشاركية الانسانية، وبذلك اصبح لكل مجتمع قوالب وانماط سلوكية تحدد – بصورة عامة – طريقته في الحياة. فإذا اعتبرنا الدول والقوميات افراداً في تجمع عالمي فالارجح ان عددا من القوالب والانماط سوف تتبلور لتحدد السلوك العام لهاته القوميات الافراد في داخل المجتمع العالمي. وكما ان الأفراد لا يفقدون شخصياتهم وتفردهم في المجتمع البشري فإننا نتوقع الا تفقد القوميات شخصياتها داخل المجتمع العالمي. وإذا كان المجتمع العالمي مطلباً بعيد المنال فإن المجتمع الاقليمي اقرب الى التحقيق واكثر تمشياً مع ظروف الجغرافيا الطبيعية والبشرية عامة.

ليست الدعوة الى تراكيب سياسية اقليمة نابعة من مجرد الخروج من مأزق القومية الضيقة الأفق. بل أن مثل هذه الدعوة ما هي الا انعكاس للدافع الاقتصادي المعاصر. وقد ذكرنا ان ظهور القومية ارتبط بنشاة ونمو الاقتصاد الصناعي في القرن الماضي. وفي خلال القرن الحالي تغير الاقتصاد الصناعي تغيراً كما يتغير التكنولوجيا في مجالات الانتاج الزراعي والصناعي ونمو قطاع الخدمات بصورة مذهلة. وقد ترتب على ذلك تغير جوهري في تركيب وتوظيف القوى العاملة في الدول المتقدمة، قلت العمالة الزراعية بصورة مذهلة مع تزايد القدرة الإنتاجية نتيجة الآلية والاوتوماتية في العمل الزراعي. وفي ذات الوقت نجد اتجاها مستمراً في زيادة حجم الحيازات الزراعية (سواء كانت ملكيات فردية او شركات زراعية او مشروعات تجميع زراعي او مزارع تعاونية او

تابعة للقطاع الحكومي) وانكماش مقابل في عدد الحيازات الزراعيـة الصغيرة وعدد المزراعين – ملاكاً واجزاء ومن الأمثلة الدالـة علـى ذلـك ان الريـف الأمريكي يفقد سكانه باستمرار وتتضائل اشكال السكن القروي ويتجه الناس الـى السكن المدنى والعمالة المدنية متعددة الأنواع.

هذا جانب واحد من جوانب التغير في المجال الاقتصادي. وقـس علـى ذلك ما يحدث في مجالات النشاط الاقتصادي الاخرى. وكلها قد تضافرت علـى احداث التغيرات الجذرية العديدة من البناء الاجتماعي. ومن ثم السياسـي، داخـل الدولة.

وخلاصة التغيرات الاقتصادية المعاصرة هو اتجاه الى معـامل ارتبـاط كبير ومتزايد بين اطارات مكانية ارضية واسعة وبين تكثيف الإنتـاج وتنوعيـه وثقل متزايد على خطوط الحركة في شتى اشكالها واعتمـاد متضـاعف علـى التبادل التجاري واتساع هائل في سوق الاستهلاك، وأخيراً ارتباطات وثيقـة بيـن اسواق المال والاستثمار.

هذا الترابط بين الاقتصاد الحديث والمكان الجغرافي الواسع يتعدى بطبيعة لحال الحدود السياسية الراهنة للدول، ويسعى الى تفكيك هذه الحـدود والقوالـب الوحدات الدولية لتسهيل حركته وتشتد مرونته. وهو في هذا المنحى يشابه سـعى الصناعيين الأول لتغير قوالب الاقتصاد والمجتمع الاقطاعي الزراعـي الحرافـي الذي كانت ترتكز عليه الدولة قبل الثورة الصناعية. فالثورة الصناعية الأولى قـد نمت – او نمت مع – الدولة القومية كبناء اجتماعي سياسي يحمـي الصناعـة . والثورة الاوتوماتية التي نعيش مقدماتها تجد في الدولة القومية المعاصرة ما يقيـد

حرياتها وانطلاقها. ومن ثم فإن التكتل الاقتصادي في اوروبا الغربية او أوروبا الشرقية ما هو الا تعبير من نوع ما عن الرغبة في ايجاد صيغة جديدة لتعايش البنائين الاقتصادي والسياسي معاً.

ومما يعجل بالسعي الى ايجاد اشكال متناسقة بين الاوضاع السياسية والاقتصادية ان التيارات الثقافية والفكرية وانتشار نمط التعليم الحديث من بين عدد آخر من العوامل الحضارية قد أخذت تغزو اجزاء العالم مما يزيد من التقارب بين الشعوب والقوميات ويعطي العوامل الاقتصادية دوافع اخرى ترتكز عليها وتدعمها في سبيل ايجاد التراكيب السياسية الاقليمية.

واخيراً لا ينبغي ان نغفل مؤشراً آخر من مؤشرات التقارب الدولي في صورة كتل. ذلك هو ان الحدود السياسية للدول المندمجة في تنظيمات دفاعية قلت اهميتها كثيراً. لأن استراتيجية مثل هذه التنظيمات والدول المتحالفة تأخذ حدود التحالف الأرضي والجوي والبحري في إطار متكامل بغض النظر عن الفردية . فحدود المانيا الغربية والشرقية المشتركة اكثر اهمية وحساسية لدول حلف الاطلنطي او حلف وارسو من حدود فرنسا او حدود بولندا. والى جانب ذلك فإن تكنيك الحرب الحديثة قد جعل من المستحيل – او يكاد – على دولة واحدة ان تحمى نفسها بنفسها دون ان يكون هناك اتفاق عالمي على حيادها وعدم المساس بها. وفي الحقيقة اصبح من الواجب اعادة النظر في قيمة الحدود الدفاعية على ضوء متغيرات عدة على رأسها تكنولوجية الحرب والائتلافات والتكتلات الدولية التي توجد الآن على مستوى اعلى من مستوى الدولة القومية التقليدية .



الباب الخامس
الحديث في الجغرافيا السياسية

الفصل الأول : مشكلات الشرق الأوسط

الفصل الثاني: النظام العالمي الجديد

الفصل الثالث : لمن القرن الحادي والعشرين



الفصل الأول

مشكلات الشرق الأوسط

تعد منطقة الشرق الأوسط من مناطق السخونة السياسية في العالم المعاصر حيث تعمل حدة المشاكل السياسية بها إلى أن تواجه الدول العربية بعضها البعض في ساحات القتال ، و إلى أن تلتقي الدول الإسلامية وجها لوجه في ميادين الدم وفي معارك الدمار العمراني و الاقتصادي . و منطقة الشرق الأوسط هي منطقة التوسط الجغرافي في العالم القديم، و هي المنطقة التي ارتبطت تسميتها بالاستراتيجيات العسكرية في خلال الحرب العالمية الثانية و ذلك تميزا لها عن منطقة الشرق الأقصى التي كانت تشتمل على الأراضي الواقعة في جنوب شرق آسيا. و قد عنى العسكريون بمصطلح الشرق الأوسط حينذاك كل المنطقة التي تقع في جنوب غرب آسيا بما فيها إيران و تركيا و منطقة شمال إفريقية بدولها العربية المعروفة. و قد توسع بعض العسكريين في تعريف المنطقة التي يحتويها مصطلح الشرق الأوسط فضموا إليها جزر بحر إيجة و شبه جزيرة البلقان، غير أنه في مجال استخدامنا لهذا المصطلح سوف يقتصر تحديده على الأراضي التي تقع في حوزة الدول الإسلامية في شمال أفريقية و جنوب غرب آسيا.

و تعد منطقة الشرق الأوسط شريان الحياة الرئيسي بالنسبة للعالم الغربي. و لذا فقد لعبت درورا بارزا في الاستراتيجية الدولية عبر السنين. فهو يتوسط جميع الخطوط البحرية و الجوية الرئيسية المتجهة من الغرب إلى الشرق أو من الشرق إلى الغرب، كما أنه يحوى الموانئ و المطارات اللازمة لإيواء قوافل الانتقال البرية و البحرية عبر المسارات العالمية. و يؤكد الباحثون هذه الأهمية في مجال دراستهم و يبرزوا أن هذه المنطقة التي كثر عنها الحديث على

السنه الخبراء تكمن أهميتها بصورة خاصة في منطقة الخليج العربي إذ أن هذا الخليج هو قلب الشرق الأوسط جغرافيا ، و بابه السحري، و صندوقه الذهبي الرائع الذي يسيل له اللعاب . و كذلك يذكر البعض أمثال ريموند أوسي Raymond O'Shca ((أن الدولة التي تستولي على الخليج الفارسي و على ساحل عمان تستطيع أن تحكم جزيرة العرب و العراق و إيران و إفريقية، و تستطيع أن تغلق قناة السويس، و أن تقطع خطوط المواصلات الجوية و البحرية إلى الهند و إفريقية)).

و منطقة الشرق الأوسط من المناطق التي شهدت عبر تاريخها الطويل التقاء سياسيات متضاربة، و ايدولوجيات متنوعة، و قوى متصارعة رغبت في وقت من الأوقات أن تستقطب دول هذه المنطقة أو تبسط نفوذها على جزء منها. ففي العصور القديمة كانت هذه المنطقة – كما هو عليه الآن – مسرحا للتنافس بين القوتين الأعظم اللتان اختلفتا في مسمياتهما عن القوتان الأعظم المعاصرتين حيث كانت الإمبراطورية الفارسية رمزا لقوة الشرق و الإمبراطورية الرومانية كناية لقوة الغرب. فقد نجح الرومان في أن يجعلوا البحر الأحمر بحيرة رومانية في حين أكد الفرس سيادتهم على منطقة الخليج العربي و جزءا كبيرا من منطقة الشرق الأوسط و التي تمثل في الوقت الحاضر محورا للصراع الدولي و حيث تتنازع عليها الايدولوجيات الاشتراكية مع الأيدولوجيات الرأسمالية، و حيث يمثل الذهب الأسود مغناطيسا ينجذب إليه المستغلين من خارج منطقة الشرق الأوسط.

و تعد منطقة الخليج العربي من أقدم مناطق الشرق الأوسط التي شهدت صراعا دوليا منذ القدم إذ كانت هذه المنطقة هدفا للمطامع السياسية الفارسية كما

هي اليوم هدفا للمطامع الايرانية. فقد كانت البحرين التي عرفت قديما باسم تيلوسى Tylus أو ارادوسى هي أكثر مناطق الخليج العربي أهمية، و هي المنطقة التي أطلق عليها العرب اسم (أرال) كجزء من المنطقة التي كانت تمتد من شبه الجزيرة قطر، قطر إلى البصرة. و قد استمرت تحمل هذا الاسم حتى العصور الوسطى. هذه المنطقة كانت أول المناطق التي نجح الفرس في إقامة قاعدة بحرية لهم بها و ذلك في عام ٦٣٨ ق.م حيث نجحوا بعد سقوط عمان و اليمن في أيديهم بعد ذلك من السيطرة على الخليج و شاطئ البحر العربي لما يقرب من قرنين من الزمان.

و قد كانت هذه السيطرة هي الدافع وراء الاسكندر الأكبر لكي يتقدم نحو الشرق غازيا لبلاد فارس. و قد كان الاسكندر الأكبر فضل الكشف الأول عن شواطئ الخليج العربي، كما أن قائده نيارخوس تمكن في عام ٣٢٤ ق.م. من أن يتقدم في رحلته البحرية من الهند إلى شط العرب في رحلة استغرقت ما يقرب من أربعة شهور و نصف حيث اتجه بعدها عبر نهر تاورن في بلاد فارس ليلتقي بالاسكندر الأكبر عند مدينة ((سوره)). و بذلك اكتشف نيارخوس الشاطئ الفارسي للخليج العربي، و لذا أطلق على الخليج اسم الخليج الفارسي.

و قد كان النشاط لتجاري مزدهرا في منطقة الخليج في غضون القرن الثالث ق.م. حيث وجدت مدينة جرها Gerrha الكلدانية على ساحل الإحساء و التي مثلت نهاية لطرق القوافل التي كانت تتجه إلى بلاد العرب السعيدة، و إلى مدينة سلوقية على تهر دجلة و إلى أسواق تيريدون و ما جاورها عند مصب الفرات. و

من ذلك التاريخ تحدث المؤرخون عن السائل الأسود الذي استخدمه البابليون في إشعال مصابيحهم و الذي لم يستغل الاستغلال الحقيقي إلا في القرن العشرين.

و في منتصف القرن الثالث ق.م. استقلت منطقة الخليج عن فارس و تبعتها بعد ذلك منطقة عمان بفضل أمراء هرمز. و في أواخر القرن الثاني الميلادي في عام ١٩٠م. حدث حرب في شبه الجزيرة العربية فاشتدت هجرة العرب إلى منطقة الخليج، و لكن حين قامت الإمبراطورية الساسانية في عام ٢٢٠م. مدت نفوذها إلى الشاطئ الغربي للخليج حيث أبعدت حكام البحرين و أقامت ابن الملك الساساني وليا على المنطقة بعد أن أسسوا عدة مدن بها. و لكن ما لبث أن انتهز العرب الفرصة المواتية فاستقروا على سواحل الخليج و أقاموا فيه منذ بداية القرن السابع الميلادي.

و في عام ٦٥٠م. قاد ملك القدس حملة بحرية إلى منطقة الخليج تمخض عنها طرد كثير من العرب من المنطقة و إحلال مهاجرين من القدس بدلا منهم.و تبع ذلك أن دخلت كل المنطقة الساحلية العربية تحت سلطان فارس بما فيها عمان و عدن و اليمن، كما أخرج الأحباش المسيحيين من اليمن بعد أن استقروا فيها منذ عام ٥٢٥م. و من ثم مكنوا النفوذ الروماني في المنطقة.

و لم يستمر هذا الوضع كثيرا حيث نجح المسلمون في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي من فتح ميلاد ما بين النهرين و الساحل الجنوبي لجزيرة العرب و أجزاء أخرى في بلاد جنوب و غرب بلاد فارس حيث خضعت جميع هذه الأراضي لسلطان الخلفاء الأمويين ثم العباسيين.

و لم تخضع منطقة الخليج لأي سيطرة أجنبية منذ القرن الحـــادي عشـــر الميلادي و حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي إذ مع بداية القرن الســـادس عشر سيطر البرتغاليون على الخليج العربي غير أن غزو البرتغاليين لهذه البـــلاد ظل يعاني الانتفاضات و الثورات الوطنية و من ثم اشتدت أعمــــال الانتفاضـــات على البرتغاليين مع نهاية القرن السادس عشر و ساعد في هــــذا الفــرس الذيـــن تعرضت مصالحهم للدمار.

و في عام ١٦٢٢ تم جلاء البرتغاليين عن هذه المنطقة لكنها لم تلبـــث أن وقعت تحت سيطرة الطامعين من الهولنديين ثم البريطانيين، كما حـــاول الفــرس فرض سيطرتهم عليها، غير أن العرب حاولوا ان يتخلصوا من النفوذ الفارســـي و تم لهم ذلك في عام ١٧٨٣ على يد بني عتيبة في البحرين و ما جاورها.

و قد استمر الاستعمار البريطاني في توطيد تركزه في منطقة الخليج أبـــان القرن التاسع عشر و ذلك بعد أن قضى على منافسة فرنسا في المنطقـــة. و فـــي بداية القرن العشرين استقر النفوذ البريطاني على بلاد الخليج و جنوب الجزيـــوة و معظم بلاد المشرق العربي. غير أن كل دول هذه المنطقة قد استقلت بعد الحـــرب العالمية الثانية و في خلال النصف الثاني من القرن العشرين.

وهكذا نجد أن مشكلة تسمية الخليج بالخليج العربي أو الخليج الفارسي هي إحدى وجوه المطامع الفارسية أو الإيرانية في المعاهدة في منطقة الخليج العربـــي حيث تتصور إيران أن التمسك بتسمية الخليج باسم الخليج الفارســـي هـــو كســـب لحقوق لها وإرضاء لأحلامها القديمة بأن يصبح الخليج بحيرة فارسية أو إيرانيـــة

وسط إمبراطورية فارسية. إن إطلاق اسم الخليج الفارسي على الخليج العربي مرده كما سبق الذكر إلى اكتشاف الاسكندر المقدوني الساحل الفارسي الاصغر لهذا الخليج أولا ثم معرفته للساحل العربي أو البحر الأدنى مقابلا للبحر الأعلى و هو البحر المتوسط. أما البحر الأحمر و كان يطلق عليه اسم ((يم مصرا يم)) أي بحر مصر ثم أطلق عليه اسم البحر العربي في العصور اليونانية و الرومانية.

و الواقع أن تشبث الإيرانيون باستخدام مصطلح الخليج الفارسي و محاولة العديد من الدول تأييدها في هذا الموقف من أجل محاولة إثبات حقوق من ورائها هو المبرر الوحيد الذي يجعلنا أن نتعرض لهذه المشكلة باعتبارها فكرة قد تتطور إلى قرار ثم حركة وقد يتعدى حدودها الحرب مع دولة مجاورة.

أن الاعتماد على المنطق الإيراني في هذا الإدعاء قد يدفعنا للسؤال هل يمكن أن تدعى الهند على البلاد الآسيوية و الأفريقية المترامية التي تطل على ساحل المحيط الهندي أو تدعى من على جميع البلاد التي تقع على البحر الأحمرلكون أن هذا البحر قد سمى قديما باسم ((بحر مصر)). إن تسمية الخليج نشأت أصلا من اكتشاف قواد الاسكندر للخليج. إذ بدا بالساحل الشرقي، و إن العرب قد اتخذوا من الخليج منذ القدم ميدانا لرحلتهم البحرية مثلما اتخذوا من الصحراء مجالا لتنقلاتهم البرية فمن الخليج خرجت السفن الغربية حاملة منتجات شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الهند و الصين، هؤلاء هم الوسطاء الذين كان لهم دورا فعالا في نقل التجارة إلى بلاد الشرق الأقصى و Mıc'clemen هؤلاء هم الذين هاجروا في تاريخ لاحق إلى الساحل الفينيقي حيث استقروا هناك فقد كانت السفن العربية و الصينية تجوب البحر بين المشرق و الخليج جيئة و

ذهابا، و ان استقرار العرب على الساحل الايراني أكد للخليج صفته العربية من الجانبين، ((و أن شخصية الخليج العربية قد دعمتها في عام ٦٤٤م معركة السلاسل بالبصرة على الحدود العربية الفارسية التي انتصر فيها العرب المسلمون، وقررت نهاية سلطان الأكاسرة و بداية الحقبة الذهبية الساطعة التي لا تنسى من تاريخ الخليج العربي.

و إذا كانت المطامع الإيرانية في الخليج العربي قد يغلفها تسمية الخليج باسم الخليج الفارسي فان هذه المطامع هي أحد عوامل التوتر السياسي بين دول الخليج العربي و التي قد يأتي في مقدمتها دولة البحرين و دولة الإمارات العربية و لا سيما في أن شرعية من قاطني تلك الدول قد يعودوا بارومتهم الشيعية إلى الجانب الشرقي من الخليج.

و يأتي في مقدمة الادعاءات الإيرانية ادعائها بأن البحرين هي جزءا من الأراضي الإيرانية و لعل إعلان الحكومة الإيرانية في عام ١٩٥٨ بانضمام البحرين إلى أراضيها باسم الأقليم الرابع عشر من الأقاليم الفارسية لخير دليل على مقدار الشكوك التي تتواجد في سياسيات الدول الخليجية إزاء المواقف الإيرانية أن البحرين قد خضعت لفارس قبل ظهور الإسلام، و أن إيران قد استولت على هذه الجزر من البرتغاليين في خلال القرنين السابع عشر و الثامن عشر إلى أن أقصاهم العرب عنها في عام ١٧٨٣، و ان أحد ولاة البحرين قد اعترف بالسيادة الإيرانية على البحرين في عام ١٨٦٠ و ذلك بالإضافة إلى أن وزير خارجية بريطانيا قد اعترف بنفس هذه السيادة و ذلك بعد مضي تسع سنوات من الاعتراف الاول.

غير أن البحرين أعرق تاريخا من إيران إذ تشير الأدلة الأثرية إلى ان بعض محلاتها العمرانية تعود إلى الألف الرابعة ق م كما أن النقوش السومرية تبين أنها كانت مركزا تجاريا هاما في العصور القديمة كما انها كانت ذات نشاط ملحوظ في العصر الفينيقي. وتشير الأدلة التاريخية أيضا أن عرب البحرين ظلوا يألفون الغارات على سواحل فارس و الهند إلى ما بعد الإسلام، و أن العرب قد انطلقوا من البحرين منذ النصف الأول من القرن السابع الميلادي و غزوا فارس حيث قضوا على الامبراطورية الساسانية و دخلت فارس في المجتمع الإسلامي و من ثم لم يكن لها وجود سياسي مستقل إلى القرن السادس عشر حيث لم تكن سوى إقليم جغرافي. و معنى ذلك أنه إذا كانت الآثار الحضارية لدولة ما قد تكون حقوقا لها في بلاد أخرى فان إيلة تعتبر مدينة للعرب أساسا باعتناقهم الدين الإسلامي كما أنه لو صح منطق الإدعاء بذلك لكان لها أن تطالب بسائر بلاد الخليج الأخرى و ساحل الاحساء و مسقط عُمان و العراق لأنها وقفت جميعا في وقت من الأوقات إبان حكم الأكاسرة إلى النفوذ الفارسي أو الإيراني.

على أي حال لا يوجد على ساحة الخليج في الوقت الحاضر بصورة علانية مثل هذا الإدعاء أو غيره من الادعاءات التي قد تطالب بامتيازات إقليمية و ذلك في ظل الحرب التي دارت الآن بين إيران و العراق و لكن رغم ذلك فهذه الفكرة و غيرها من الأفكار هي لب المشكلة بين إيران و جاراتها الخليجيات كما أن أساس هذه الادعاءات لا يختلف كثيرا عن أساس الصراع بين إيران و العراق حول شط العرب حيث أن ادعاءاتها في هذه المنطقة العراقية لا تستند إلى أي مبدأ قانوني أو سند شرعي.

و قد ارتبطت مشكلة شط العرب بين العراق و إيران بمشكلة الأكراد في شمال العراق تلك الجماعات التي قدمت أساسا من وسط آسيا في الألف الثانية ق.م. و كانت تتحدث اللغة الهندوأوربية و استقرت في السفوح الجبلية في كل من تركيا و العراق و إيران في وطن امتد من شمال غرب الموصل في أعالي نهر دجلة إلى شمال كركوك و ديار بكر و كرمنشاة. و الأكراد من الجماعات السنية المسلمة و تتلخص مشكلتهم في أنهم جماعات بدوية مرتحلة تقطن مناطق الحدود بين تركيا و إيران في منطقة كردستان التي قطعت أراضيها بين حدود البلدين فشطرت بين سكانها الذين تعرضوا لمعاملة مختلفة من قبل الدولتين المسيطرتين على أراضيها و قد حاولت تركيا في بعض الأحيان و لا سيما في أواخر القرن الثامن عشر أن تبيدهم إلا أن الأكراد حاولوا في فترات متعددة خلالا القرنين التاسع عشر و العشرين أن يكونوا دولة مستقلة لهم تجمع الشتات المتفرق من بني جنسهم في العراق و إيران و تركيا. و لكن هذه الفكرة لم تتمكن من التحقيق و لا سيما بعد الحرب العالمية الأولى و بعد نجاح ثورة كمال أتاتورك في تركيا.

و قد حاول الأكراد في شمال العراق مع بداية الثمانينات أن يطالبوا بإقامة دولة مستقلة لهم في شمال العراق يكون هدفها الأكبر هو التوحيد مع أكراد إيران و تركيا و قد حاولت حكومة العراق آنذاك أن تخفف من وطأة ثورتهم و لا سيما أن إيران كانت عاملا مشجعا لهم على هذه الثورة بغية إضعاف السلطة العراقية واستمراراً لدور إيران في تشجيع القلاقل بالنسبة للدول الخليجية جاراتها العربيات حاولت العراق أن تتبع سياسة التهدئة حيال الأكراد و جعلت منهم مواطنين عراقيين شأنهم في ذلك شأن العراقيين أنفسهم و كانت هذه السياسة مرتبطة

بالحفاظ على الأمن في مناطق انتاجها البترولية و بالرغبة في الابقاء على التماسك الأرضي لبلاد ما بين النهرين. و هكذا تم الاتفاق بين الحكومة العراقية و الأكراد في ١٠ مارس عام ١٩٧٠ على أن ينال الأكراد حق الحكم الذاتي داخل إطار الجمهورية العراقية.

و قد كان من نتيجة هذه السياسية التي منحت الأكراد في شمال العراق الحكم الذاتي أن طلبت الحكومة العراقية من حكومة شاه ايران المساعدة في تحقيق هذا الاستقرار و ذلك في مقابل الاعتراف بحق ايران في استخدام شط العرب و حيث وقع صدام حسين رئيس جمهورية العراق و بهلوي شاه ايران في أواخر الثمانينات اتفاقا بهذا المضمون.

و لكن عقب موت شاه ايران بدأت الحكومة العراقية تنقض هذا الاتفاق ثم تطور الأمر إلى إعلان الحكومة العراقية الكفاح المسلح ضد إيران حيث عبرت القوات العراقية الأراضي الإيرانية و تمكنت من أن تبسط نفوذها على مساحة كبيرة من الأرض في الوقت الذي كانت فيه ثورة إيران الخمينية تنادي بضرورة بجر القوات العراقية والتوصل إلى احتلال الأراضي العراقية ذاتها غير أن العراق وجدت أنه من الناحية الاستراتيجية قد يكون لها من الأفضل أن تعود بقواتها إلى حدود العراق الدولية حتى يمكنها أن تكون قريبة من قواعدها الاقتصادية الاستراتيجية. و قد انقسمت الدول العربية حيال هذا الصراع فقطعت سوريا علاقتها مع العراق حيث انضمت هي و ليبيا لمؤازرة إيران بينما إتجهت الأردن و دول الخليج لمساندة العراق التي أيدتها مصر هي الاخرى بصورة هي أقرب أن تكون مباشرة حيث يشترك المصريون المهاجرون إلى العراق في

صفوف القتال. و قد اختلفت مواقف الدول الأوروبية بصدد هذا الصراع و لكن بصورة عامة كان هناك تأييدا من الدول الاشتراكية لإيران على الرغم من أن إيران كانت تعتبر حتى أواخر الثمانينات و قبل حادثة الرهائن الأمريكية الشهيرة من أهم النقاط المتقدمة التي تستخدمها الولايات المتحدة في استراتيجيتها ضد الاتحاد السوفيتي.

و على أي حال فقد بذلت محاولات عديدة من قبل الدول الإسلامية و الدول العربية لإنهاء الحرب العراقية الإيرانية كما صدرت عن الأمم المتحدة نداءات متعددة من أجل وضع حدا لهذه الحرب والتي تطورت في ذلك الوقت لأن تفرض العراق حصارا بحريا على تصريف البترول الإيراني و إلى ضرب الطائرات الإيرانية لبعض الناقلات في الخليج العربي. بل تطورت أيضا إلى ضرب الأهداف المدنية رغم أن اتفاقا بمساندة الأمم المتحدة قد تم بين إيران والعراق على عدم ضرب هذه الأهداف. و قد أدت مثل هذه المواقف إلى محاولة الولايات المتحدة أن تطمئن دول الخليج والمملكة العربية السعودية بأنها على استعداد لأن تمدها بالعتاد الحربي والطائرات التي يمكنها أن تحمي به مصالحها في الخليج بل هي على استعداد لأن تقوم هي بنفسها بدور هذا الحارس غير أن الدول الخليجية كان لها موقفا واضحا في هذا الصراع و هو أنها عن طريق التعاون فيما بينها لديها القدرة على الحفاظ على أمن الخليج.

هذا و تشير التقارير الإعلامية التي تصدر عن الأمم المتحدة عن الجانبين بوجود عدد كبير من الأسرى في كل من البلدين و أن الأسرى لا يعاملوا المعاملة التي يجب أن تلتزم بها الدول المتحاربة، كذلك نادت العراق بأنها على استعداد

لإنهاء القتال بدون أي شروط و تلح في ذلك مؤيدة بقطاع كبير من دول العالم غير أن إيران كانت دائمة الرفض لإلقاء السلاح والجلوس على موائد الاتفاق إلا بشروط مسبقة يأتي في مقدمتها سقوط النظام العراقي بعزل رئيس جمهوريتها من منصبه ثم المطالبة بعد ذلك بتعويضات حربية وحرية الملاحة في شط العرب.

أن الحرب العراقية الإيرانية هي مثل حي للصراع الإيدولوجي في منطقة الشرق الأوسط، حيث أن وقوف العديد من الدول العربية و الإسلامية إلى جانب العراق قد يكون الدافع إليه هو عدم الرغبة في تصدير الأفكار الخومينية إلى المناطق القريبة من إيران و إلى الحيلولة دون اتساع نطاق الاضطرابات الفكرية في مجال أوسع من منطقة الشرق الأوسط.

....

و إذا كانت منطقة الخليج العربي هي إحدى المناطق التي تشتهر حاليا بصراع قوى إسلامية متطاحنة و تحفز قوى عالمية يهمها استثمار الذهب الأسود في المنطقة فان الساحل الفينيقي يعتبر هو الآخر من المناطق التي ارتبطت بأذهان الباحثين و المعلقين السياسيين و أصحاب الاستراتيجيات العسكرية و السياسية بمشاكله المعاصرة المتعددة و التي قد يأتي في مقدمتها مشكلة فلسطين ثم مشكلة لبنان و مشكلة استغلال الموارد المائية في منطقة الساحل الشرقي للبحر المتوسط.

و يعتبر الساحل الفينيقي جزاء من منطقة الهلال الخصيب التي تتركز في شمال شبه الجزيرة العربية لتربط بين أراضي البحر المتوسط و منطقة الخليج العربي، ويتسم الساحل الفينيقي بوجود نظامان نهريان تمثلا في نهري العاصي

والليطاني اللذان يصبا في البحر المتوسط. و يوازي الساحل الفينيقي سلسلتان جبليتان تعرفان باسم جبال لبنان الغربية و جبال لبنان الشرقية و حيث تحصرا بينهما وادي البقاع الذي يعتبر إمتدادا لانكسار البحر الأحمر الأخدوي و حيث يوجد نهر الأردن و البحر الميت و إلى الخلف من جبال لبنان الشرقية ترتقي المرتفعات إلى الهضبة السورية و في هذه المنطقة توجد ثلاث دول عربية إلى جانب إسرائيل حيث تشترك جميعها في ميزات وقوعها ضمن أراضي الساحل الفينيقي و منطقة الهلال الخصيب غير أنها تختلف من حيث التاريخ و السياسة و من ناحية تركيبها الأثنوجرافي.

أما عن أرض فلسطين التي تعتبر جغرافيا جزءا من سوريا فتكون الطرف الجنوبي الغربي من منطقة الهلال الخصيب و من ثم فهي متأثرة بمناخ حوض البحر المتوسط حيث تسقط الأمطار شتاء وحيث يعم الجفاف صيفاً، بمعنى أن هذه المنطقة قد تلعب في مشكلة المياه دورا كبيرا في مجال الري والاستخدامات العامة.

و قد كانت فلسطين موطنا للعبرانيين الذين وفدوا إلى هضبة يهودا من شمال شبه الجزيرة العربية في منتصف الألف الثانية ق.م. حيث استقروا عدة قرون في الهضبة الداخلية لفلسطين ثم تعرضوا بعد ذلك لغزوات وهجرات متعددة وفد معظمها من شرق البحر المتوسط الأمر الذي ترتب عليه أن تفرقت أمة العبريين السامية وذابت مع غيرها من الشعوب والأمم و من ثم فاعتناق الدين اليهودي لم يقتصر على العبرانيين إذ دخلت شعوب بأكملها مثل شعب الخزر في ظل هذا الدين في خلال القرن السابع الميلادي. و رغم هذا الانتشار و التفرق

لأصحاب اليهودية من غير بني إسرائيل إلا أن حنينا جارنا كان يعاودهم بصـــورة مستمرة للعودة إلى أرض الميعاد فلسطين. و قد تحول هذا الحنين أو فكرة العــودة إلى حركة نسبت إلى جبل صهيون عرفت باسم الصهيونية فـــي القــرن التاســع عشر، و في خلال القرن العشرين وجدت الحركة الصهيونية من الدول الكــــبرى من يغذيها و يساعد على تحقيق مأربها بتسهيل عودتها إلى أرض الميعـــاد. فقــد قطعت الحكومة البريطانية على نفسها إبان الحرب العالميـــة الأولـــى أن تســاعد الصهاينة على العودة إلى فلسطين ومن ثم أصدرت في ٥ نوفمـــبر عــام ١٩١٧ وعد بلفور المشهور الذي يقتضي بأن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف إلـــى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. وما أن وضعت الحرب العالميـــة الأولـــى أوزارها ومنحت بريطانيا حق الانتداب على أراضي شـــرقي الأردن و فلســطين حتى بدأت في تحقيق ما وعدت به اليهود في نفس الوقت الذي نادت فيه كمـــا ورد في وعدها بعدم المساس بالحقوق المشروعة لغير اليـــهود أي بأغلبيـــة الشـــعب الفلسطيني.

و قد بدأ تحقيق الوعد بأن سمحت الحكومة البريطانية بتكوين مـــا ســمي باسم الوكالة اليهودية التي أنشئت من أجل الحصول على أراضي في فلســـطين و إقامة مستعمرات يهودية على الأرض التي يقوموا بشرائها من المواطنين. و قـــد كلفت بريطانيا لهذه الوكالة حرية تحقيق وظيفتها ذلك بالاضافة إلى انها قد سمحت بالهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين. و قد بـــدأ اليـــهود فـــي تنفيـــذ مخططـــهم الاستيطاني عن طريق شراء الأراضي الأميرية التي منحـــت حكومـــة الانتـــداب وأراضي صغار الملاك وكبار الملاك الذين يقطنوا خارج فلسطين و كانت النتيجة

أن وضع اليهود أيديهم على مساحات كبيرة من أرض فلسطين تركز أغلبها في المناطق الجيدة الإنتاج كتلك التي تقع على السهل الساحلي أو في منطقة مرج بن عامر.

و قد كان من الطبيعي أن يدرك العرب الحظر اليهودي في أراضيهم و لذا فقد قامت ثورات متعددة كان أهمها تلك التي قامت في عام ١٩٣٦ و التي من أجلها اضطرت بريطانيا أن ترسل لجنة بيل بهدف بحث الجوانب المتعددة للمملكة. و قد أوصت اللجنة بإيقاف الهجرة اليهودية و تقسيم فلسطين بين العرب و اليهود.

و قد اضطرت بريطانيا إزاء الضغط الصهيوني عليها أن تحول قضية فلسطين إلى هيئة الأمم المتحدة و ذلك بعد الحرب العالمية الثانية حيث أقرت هذه الهيئة مبدأ تقسيم فلسطين بين الجانبين المتنازعين و مع انتهاء الانتداب البريطاني أعلن تكوين دولة إسرائيل في علم ١٩٤٨ في الأراضي الفلسطينية حيث قامت حرب فلسطين و التي انتهت بطرد ما يقرب من مليون عربي خارج أرضهم و ذلك بعد أن وضع اليهود أيديهم على السهل الساحلي الفلسطيني فيما عدا غزة و سهل مرج بن عامر و أرض الجليل و عكا ذلك بالاضافة إلى أراضي النقب أما المملكة الأردنية الهاشمية فقد كان من نصيبها طولكرم و نابلس و جنين و الخليل في حين احتفظ العرب بالقدس القديمة في مقابل دخول القدس الجديدة تحت السيطرة الإسرائيلية.

و منذ عام ١٩٤٨ وإسرائيل تحرص على فتح باب الهجرة اليهودية إليها و ذلك بغية تأكيد تواجدها في محيط عربي، ففي الفترة ما بين عامي ١٤ مايو عام ١٩١٧ و عام ١٩٤٨ تزايد سكان اليهود الفلسطينيين من ٥٦٦ ألف إلى ٦٥٠ ألف نسمة حيث مثلت الهجرة من هذه الزيادة ٧١% في مقابل ٢٩% للزيادة الطبيعية. و مع نهاية هذه الفترة وصلت نسبة السكان اليهود إلى ٥,٨% من جملة سكان يهود العالم و ذلك بالمقارنة لما كانت عليه هذه النسبة في عام ١٩٢٥، ١٩٨٨حيث وصلت النسبة في العام الأول إلى ٠,٣% إلى ٠,٨% في العام الثاني.

و في أثناء الثلاثة عشر عاما من ١٥ مايو ١٩٤٨ و هو تاريخ الاعتراف بإسرائيل و تعداد ٢٢ مايو ١٩٦١ كان عدد سكان اليهود قد تزايد من ٦٥٠ ألف نسمة إلى ١,٩٣٨,٠٠٠ نسمة حيث ساهمت الهجرة بحوالي ٦٩% من الزيادة الكلية. والزيادة الطبيعية بحوالي ٣١% من الزيادة الكلية ، و في مارس ١٩٦٥ وصل عدد السكان اليهود إلى ٢,٢٥٠,٠٠٠٠ نسمة أو ما يعادل ١٧,١% من جملة عدد سكان يهود العالم . و في نوفمبر ١٩٦٧ وصل عدد سكان إسرائيل إلى ٢,٣٧٥,٠٠٠ نسمة بينما ارتفع الرقم في عام ١٩٧٣ إلى ٣,٢٠٠,٠٠٠ نسمة ثم إلى ٣,٨٣٠,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٧٩ و يصل عددهم في الوقت الحاضر على حوالي ٤ مليون نسمة.

و نظرا لأن مساحة إسرائيل محدودة لذا فقد تشهد أراضيها كثافة عالية للسكان حيث تصل الكثافة العامة للسكان بها حوالي ١٢٥ نسمة في ك.م^2 الأمر الذي دفع بالإسرائيليين إلى تبني سياسة إقامة المستوطنات في الأراضي التي

احتلتها بعد ١٩٦٧. ففي الحرب التي قامت بين العرب وإسرائيل في عـــام ١٩٦٧ انتهت بالهزيمة العربية واحتلال إسرائيل لمنطقة غزة وشبه جزيرة ســـيناء علـــى الجانب المصري ووضع يدهما على الأراضي التي تقع إلى الغــــرب مـــن نـــهر الأردن بالإضافة إلى سيادتها على القدس، أما من ناحية الدولة السورية فاســـتولت على هضبة الجولان. و قد كان من نتيجة حرب عام ١٩٦٧ أن اتخـــذت الأمـــم المتحدة و مجلس الأمن قرارات متعددة من أبرزها أن القرار ٢٤٢ الـــذي نـــص على مبدأ عدم أخذ الأرض بقوة السلاح والاعتراف بحق الإسرائيليين في الوجود. و قد رفضت منظمة التحرير الفلسطينية و هي تمثل الشعب الفلسطيني هذا القـــرار وقد أيدتها عديد من الدول العربية في هذا الصدد و كان في مقدمة الدول ســـوريا و ليبيا و الأردن.

وقد قام في أكتوبر عام ١٩٧٣ الحرب الإسرائيلية الثالثـــة والتـــي كـــان النصر فيها حليفا لأول مرة للعرب حيث نجحت القوات المصرية في عبور القنـــاة والتركيز على الجانب الشرقي لقناة السويس ثم تبع ذلك قيام محادثات بين إسرائيل ومصر وسوريا وبحضور الولايات المتحدة وذلك لتسوية المشكلات التي ترتبـــت على حرب عام ١٩٦٧ ولكن لم تؤدي هذه المحادثات والتي عقدت في القاهرة إلى أي نتائج بسبب الخلافات التي كانت موجودة في الجانب العربي. وقد ترتب علـــى ذلك أن دعت الولايات المتحدة كل من مصر و إسرائيل لإقامة حوار مباشر فيـــها و تكون الولايات المتحدة شريكا في هذا الحوار حيث تمخضت المحادثـــات بيـــن الدول الثلاث على اتفاقية كامب ديفيد التي كان من أهم بنودهـــا الانســـحاب مـــن الأرض المصرية على مراحل ثلاث و الوصول بالأرض المصرية إلى حدودهـــا الدولية لمعروفة وتحديد حجم السلاح في شبه جزيرة ســـيناء ووجـــود مراقبيـــن

دوليين على جانبي خط الدول. كما تضمنت اتفاقية كامب ديفيد الموافقة من حيث المبدأ على أن تعقد مفاوضات بشأن وضع الأراضي الفلسطينية الباقية غزة والأراضي التي تقع في غرب نهر الأردن على أن تشترك أطراف عربية أخرى في المفاوضات وان ما ينطبق على الأراضي الفلسطينية يمكن أن ينطبق على هضبة جولان. وقد ورد في الاتفاقية أن أي خلاف ينشأ بين الأطراف يسوى عن طريق المفاوضات وان لم يكن ذلك ممكنا تعرض المسائل الخلافية على التحكيم.

وقد رفضت معظم الدول العربية و منظمة التحرير الفلسطينية اتفاقية كامب ديفيد حيث قطعت الدول العربية علاقاتها السياسية مع مصر بعد مؤتمر قمة طارئ عقد في مدينة بغداد كما نقل مقر الجامعة العربية من القاهرة إلى تونس. إلا أن هذا الوضع قد تغير في الثمانينات حيث أعادت الأردن علاقتها الدبلوماسية مع مصر حتى يمكن أن يكون هناك اتفاقا بينهما من حيث وجهات النظر.

و صفوة المشكلة أن إسرائيل احتلت أرض فلسطين و أن هناك أعداد كبيرة من اللاجئين ما زالت موزعة على البلاد العربية ذلك بالإضافة إلى أن مشكلة فلسطين قد امتدت في صورة احتلال لأراضي عربية مجاورة الأمر الذي يحتم على أصحاب الشأن وضع تصور فعلي لكيفية حل هذه المشكلة على أساس من الواقع الجغرافي الذي يتضمن الاعتراف بوجود المجتمع الإسرائيلي داخل المحيط العربي والتأكيد على التواجد الفلسطيني في أرضه و على قداسة القدس العربية و على استرداد الأرض التي استولت عليها إسرائيل علم ١٩٦٧.

****

و هكذا تحتل مشكلة التواجد الفلسطيني خارج أرض فلسطين لب المشكلة الفلسطينية حيث يتفرق اللاجئون الفلسطينيون بين دول الساحل الشرقي للبحر المتوسط ومن أبرز الدول التي تقع على الساحل الفينيقي والتي تحتوي في أرضها عناصر فلسطينية لبنان إذ أن وجود الفلسطينيين في هذا القطر كان سببا رئيسيا في أن احتلت إسرائيل القسم الجنوبي من لبنان لفترة تزيد على عامين ابتداء من عام ١٩٨٢، حيث دأبت إسرائيل دائما الإدعاء بأن الفدائيين الفلسطينيين يتخذون من لبنان قاعدة للانطلاق نحو إسرائيل.

و تتسم مشكلة لبنان كأحد المشاكل السياسية المعاصرة في منطقة الشرق الأوسط بالتعقد الشديد لأسباب تتصل بالتركيب الإثنولوجي لسكان لبنان و بوضع لبنان بالنسبة للدول العربية من ناحية و بالنسبة للدولة الغربية من ناحية أخرى. و في الواقع لا يمكن أن نرجع المشكلة اللبنانية إلى الأطماع الإسرائيلية في لبنان فحسب أو إلى التركيب الطائفي للبنان أو إلى أي عامل آخر قد ينفرد أو يتفرد بالمشكلة إذ أن المشكلة اللبنانية هي حصيلة العوامل السابقة جميعا و أنه من الصعب أن نفصل عاما عن الآخر. و لكن من الممكن القول أن التركيب السكاني في لبنان كان هو النواة التي التفت حولها العوامل الأخرى لتجعل من مشكلة لبنان إحدى المشاكل السياسية الصعبة في منطقة الشرق الأوسط. و بتكليف من دول الجامعة العربية و بدعم من المملكة العربية السعودية على وجه الخصوص والتي اشتركت بقواتها في بادئ الأمر مع القوات السورية و ذلك لتخفيف حدة الحرب الأهلية التي اشتعل لهيبها في وقت من الأوقات بين الطوائف الدينية المتعددة في لبنان . و إذا كانت القوات السعودية قد انسحبت من القوة العربية إلا أن القوات

السورية ما زالت موجودة في لبنان و لا يقتصر تواجدها على الحيلولة للنزاعات الطائفية بأن تلعب دورا هاما عن طريق الحكومة السورية في تسير دفة الأمور السياسية اللبنانية.

و تعتبر لبنان من الأقاليم القليلة في العالم المزدحمة بالسكان، و هي بلد جبلي يمتد بمحاذاة البحر المتوسط بجهة بحرية طولها ما يقرب من ١٣٥ ميلا و بعرض يتراوح ما بين ٢٠ و ٢٥ ميلا و مساحة تقدر بحالي ٣٤٠٠ ميل، و قد تضافرت عوامل جغرافية متعددة لتجعل من لبنان قطرا مزدهرا كثيفا بالسكان . فجبال لبنان و لاسيما الجبال الغربية من الأقاليم الغزيرة الأمطار الوفيرة المياه إذ تزيد كمية الأمطار الساقطة هناك عن ٩٤ بوصة سنويا، كما أن صخورها الجيرية قادرة على الاحتفاظ بالمياه التي تتفجر من كثير من العيون والآبار ذلك بالإضافة إلى أن لبنان قد قطعت شوطا كبيرا في تنمية مواردها الاقتصادية و لا سيما السياحة، و من ثم فقد فاقت في هذا المضمار بقية دول الشرق الأوسط ، وكما نعلم أن ازدحام السكان مرتبط إلى حد كبير باستثمار موارد البيئة المحلية على خير وجه و لا يعرف عدد سكان لبنان على وجه التحديد نظرا لتجنب عمل تعداد سكاني في هذا البلد لأسباب طائفية و سياسية بسبب أن الأرقام الصادرة عن الهيئات المسؤولة في لبنان كلها قائمة على التخمين و على دراسة العينة،و لا تزيد عن كونها إحصاءات إدارية . و يقدر عدد سكان لبنان بحوالي ٢,٧ مليون نسمه و ذلك وفقا لأرقام عام ١٩٧٨ ويتوزع السكان على خمس وحدات إدارية وهي بيروت الكبرى وجبل لبنان ، ولبنان الشمالي والبقاع ولبنان الجنوبي. ويشمل جبل لبنان باقضيه بعبدا والشوف وجبيل وكسروان والمتن بينما يضم لبنان

الشمالي كل من طرابلس وعكا وزغرتا والسكورة وبشرى والبترون علـــى حيــن يشمل البقاع أقضية زحلة وبعلبك والهرمل وجنين وراشيا، أما لبنــــان الجنوبــي فتدخل تحت أقضيته صيدا والبطبة وجزين وصـــور ومرجعيـــون وبنــت جبيــل وحاصبيا.

و يضم اقليم البقاع حوالي ٤٠% من جملة السكان أو ما يزيد على جملـــة السكان الذين يقطنون جبال لبنان و البقاع و لبنان الجنوبي معا. أما لبنان الشــمالي فيحتوي على ما يقرب من ٢١% من جملة السكان حيث يستقر مـــا يزيــد علـــى نصف هذا العدد في مدينة طرابلس إذ تحتوي هذه المدينة على مـــا يعـــادل مـــن ١١,٥% من جملة سكان لبنان أي ما يزيد على جملة الســكان الموجوديــن فـــي صور و صيدا و بعلبك.

و تعتبر الطائفية عاملا هاما في التمثيل النيابي و في مناطق تجمع السـكان بل و أيضا في شغل الوظائف العامة، كما أنها العامل الأساسي وراء عدم إجـــراء تعدادات سكانية في لبنان و ذلك للحفاظ على نسبة الطائفية الموجودة حاليا و التـــي تعطى للمسيحيين التفوق في نسبهم على المسلمين إذ تبلغ نســبتهم تبعـــا للتعــداد الرسمي الذي أجري في عام ١٩٣٠ حوالي ٥٣,٧ % من مجموع سكان لبنان.

ولا تقتصر هذه الطائفية على مسلم و مسيحي فحسب بـــل يظـــهر تعـــدد المذاهب الإسلامية والمسيحية على السواء حيث تجد السني والشيعي والدرزي كل في منطقة من المناطق، كما نجد الروم الأرثوذكس والروم الكـــاثوليك والموارنـــة والأرمن و فئات مسيحية أخرى تتركز في قطاعات خاصة

وقد اقتضى الاتفاق بين الطوائف اللبنانية المختلفة أن يتولى رئيس الجمهورية مسيحيا مارونيا و رئيس الوزراء مسلما سنيا و رئيس مجلس النواب شيعيا. أما الوزراء و كذلك أعضاء مجلس البرلمان و الوظائف العامة فتوزع بنسب الطوائف المختلفة.

يمثل الموارنه حوالي ٣٠% من جملة السكان و أهم مواطنهم في زغرتا و كسروان و جبيل و ذلك إلى جانب المتن و الشوف و بيروت حيث يقطن الدروز في صورة تجمعات كبيرة. اما الروم الأرثوذكس و الكاثوليك وكذلك الأرمن الذين يمثلوا ما يقرب من ٢٢,٥% من مجموع السكان فيعيش أغلبهم في بيروت وفي الكورة بلبنان الشمالي على حين يتركز أغلب المسلمين في صور وصيدا وطرابلس وقرى سهل عكار في بيروت واغلب هؤلاء من أهل السنة لان معظم الشيعية يقطنون في النبطية باقليم صور وكذلك في البقاع الشمالي وفي كسروان . أما الدروز فيتكدسون على وجه الخصوص في الشوف و المتن بوسط جبل لبنان.

هذه هي الصورة العامة للتركيب السكاني والطائفي في لبنان و التي اتخذت منها التيارات السياسية المختلفة الداخلية و الخارجية إطارا لتجعل منها إحدى المناطق المتوترة في الشرق الأوسط فنجد القوى الغربية ممثلة في الولايات المتحدة و فرنسا دائمة التأييد للطوائف المسيحية بل أن اللبنانيين المسيحيون قد ينظروا إلى فرنسا على أنها هي الحامي لهم في الوسط الإسلامي بينما تؤيد سوريا الدول العربية الحفاظ على الأرض اللبنانية وتقف حائلا ضد أي محاولة لشطر لبنان إلى أكثر من موطن واحد، كما أن الاتحاد السوفيتي من وراء مساندته

لسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية قد يجد له مكانا عل خريطة لبنان التي تشهد في نفس الوقت تهديدا مباشرا من إسرائيل وذلك بحجة وجود القوا السورية و الانطلاق الفدائي في أراضيها.

أن مشكلة لبنان مشكلة تكمن بدورها أولا في الوضع الداخلي لبنان و ثانيا في التدخل الأجنبي في شئونها و من ثم فحل هذه المشكلة يرتبط أساسا باذابة الطائفية و الفرقة على أرض لبنان و ذلك بعد أن ترفع الدول الدخيلة أيديها عنها ودعم الموقف السوري في الحفاظ على سلامة لبنان ووحدة أراضيه.

****

أما عن مشكلة استغلال موارد المياه في الساحل الفينيقي كجزء من المشكلة الفلسطينية و المشكلة اللبنانية فيبرز أهميتها في الأنهار التي تجري من الأراضي اللبنانية والاسرائيلية والأردنية حيث تحاول كل دولة أن يكون لها نصيب من موارد مياه النهر تكفل لها حفظ التنمية و التوسع العمراني و تحقق لها مزيدا من الازدهار الاقتصادي.

فتعتبر مياه حوض نهر الليطاني من أهم الموارد المائية في لبنان إذ تقدر كمية المياه في حوض النهر نحو ٧٠٠ مليون متر مكعب. و ينبع هذا النهر من هضبة بعلبك ليسير في مجرى نهري طولى من الشمال إلى الجنوب ليغير اتجاهه عند بلدة الطيبة فيتجه من الشرق إلى الغرب ليصب بعد ذلك في البحر المتوسط شمال مدينة صور عند بلدة القاسمية. و يبلغ طول نهر الليطاني حوالي ١٧٠كم و مساحة حوضه حوالي ٦١٨ ك.م٢.

و يعد مشروع نهر الليطاني من المشروعات التي تجذب أطماع إسرائيل إلى الموارد المائية في لبنان. ففي عام ١٩٥١ تم بموجب اتفاقية المساعدات الفنية بين لبنان والولايات المتحدة الأمريكية دراسة استثمار نهر الليطاني حيث بدأت الخطوات التمهيدية للمشروع منذ عام ١٩٤٥. و يتلخص المشروع في إقامة سد عند بلدة القرعون يبلغ طوله كيلو متر واحد وارتفاعه ٦٦٥مترا و ذلك من أجل تخزين كمية من المياه يصل حجمها إلى ٢٢٠م٣ على أن تصرف هذه المياه عن طريق إنشاء نفق تحت جسم السد ينتهي عند شرق عين الطينة و حيث تتجمع هناك كل من مياه الزرقاء و مياه النفق لتسيرا سويا بعد ذلك في نفق أكبر يمتد أسفل جبل نيحا إلى أن يتصل الموضع ينشطر مجرى الماء إلى قسمين أحدهما يجري في أنبوب مضغوط عبر نفق جون لتستعمل في توليد الطاقة و الآخر تسيل مياهه في قنوات لري أراضي منطقة النبطية العليا.

و يخدم مشروع الليطاني أراضي البقاع الجنوبي عن طريق تجميع مياه الينابيع التي توجد تحت أقدام السفوح الجبلية قرب عنجر حيث توزعها بصورة أكثر فاعلية على أراضي المنطقة و تبلغ مساحة الأراضي المستفيدة من هذا المشروع في منطقة البقاع بين بلدة القرعون و ريان نحو ٢٦ ألف هكتار في الوقت الذي نجد فيه أن ما يقارب ٢/٥ جملة مياه هذه الأراضي نادرا ما تجد المياه الكافية اللازمة للزراعة السنوية.

و تتلخص أطماع إسرائيل في نهر الليطاني في الاستفادة من مياهه و ذلك بتحويل نحو ٤٠٠ مليون متر مكعب من مياهه إلى أعالي حوض نهر

الأردن. و تدعى إسرائيل أنها في حاجة أشد من لبنان لمياه نهر الليطاني و أنها على استعداد لدفع تعويضات مالية، و تزويد لبنان بالطاقة الكهربائية المولدة من مياه نهر الليطاني إذا ما وافقت لبنان على تحويل جزء من مياه هذا النهر إلى حوض الأردن غير ان لبنان دأب الرفض لهذا المطلب .

أما عن المورد المائي الثاني الذي يمثل نقطة للصراع بين العرب و إسرائيل في منطقة الشرق الأوسط هو نهر الأردن الذي يعتبر الشريان المائي الرئيسي لكل من الأردن و سوريا و إسرائيل. و يمثل نهر الأردن جزءا من الأخدود الأفريقي العظيم حيث تأتي مياه منابعه عن طريق ثلاثة روافد وهي البانياس والدان والحصباني حيث ينبع الرافد الأول بالقرب من بلدة بانياس السورية و الثاني من منبع الدان تحت أقدام جبل الشيخ و الثالث من السفوح الشمالية القريبة لجبل الشيخ حيث مدخل فلسطين قرب نقطة التقاء الحدود السورية الاسرائيلية اللبنانية و يتجمع الروافد الثلاثة في منطقة بحيرة الحولة التي يرتفع مستواها ٧١ مترا فوق سطح البحر والتي قام اليهود بتجفيفها ويتجه النهر بعد ذلك في مجراه الأوسط الى بحيرة طبريا وما حولها حيث تغطي طبرية وحدها نحو ١٦٥ ك.م^{2} وإلى الجنوب من بحيرة طبرية يجري نهر الأردن في مجرى عميق محفور في الصخور الرسوبية ليصب في البحر الميت. و بعد أن يخرج النهر من بحيرة طبرية ببضعة كيلومترات يتصل به من الشرق أهم روافده وهو نهر اليرموك الذي ينبع من هضبة حوران. و يتصل بالنهر بعد ذلك بعض النهيرات الصغيرة إذ أن الرافد الثاني الرئيسي هو نهر الزرقاء الذي يتصل بنهر الأردن في ثلثه الأخير.

و نظرا لأن حوض نهر الأردن من المناطق المزدحمة بالسكان فقد اتجهت السياسات الاقتصادية إلى استغلال مياه هذا النهر استغلالا على نطاق واسع ولا سيما في ميدان التوسع الزراعي غير أن التقسيم لحوض هذا النهر بين الأردن ولبنان وإسرائيل وسوريا يعد من أهم المشاكل التي تقف أمام استغلال مياه الأردن.

ويتمثل الاختلاف حول استغلال مياه نهر الأردن في ثلاثة مشروعات قدمت لاستغلاله أحدهما من جانب الولايات المتحدة والأخرى من قبل العرب والثالث من الجانب اليهودي. ويتمثل المشروع الأمريكي في تحويل مياه الوديان التي تنساب نحو نهر الأردن والقادمة من هضبة فلسطين وذلك عن طريق إقامة السدود التي تتحكم في مياه هذه الأودية حوالي ٧٤ مليون متر مكعب.

أما المشروع العربي فينادي باستقلال مياه نهر اليرموك عن طريق تخزين المياه في مجرى النهر ذاته وذلك من أجل استغلال مياهه لصالح الأردن وسوريا ويرى هذا المشروع أن يقام سد عند وادي خالد بحوض اليرموك تكون سعة التخزين الكلية أمام هذا السد حوالي ٤٠٠ مليون متر مكعب تستفيد سوريا منه بحوالي ٩٠ مليون متر مكعب لري أراضيها. أما الباقي فتستفيد منه الأراضي الأردنية وذلك بعد إقامة ترعة خاصة لأغراض الري في الغور الشرقي.

ومعنى ذلك أن المشروع العربي قد عالج أحد الانتقادات الهامة التي وجهت إلى المشروع الأمريكي بشأن استغلال مياه نهر الأردن ألا وهو أن معظم المياه التي قدرها المشروع الأمريكي لكي تستفيد منها الأردن ستخزن في بحيرة طبرية، وهي بحيرة تقع في إسرائيل الأمر الذي يجعل الأردن من ناحية تحت

السيطرة الإسرائيلية ومن ناحية أخرى فلن تستفيد سوريا من مياه نهر اليرموك الذي يتدفق من أراضيها بنحو نصف كمية المياه المقدرة لها الاستفادة منها من المشروع العربي. وبالإضافة إلى ذلك فإنه يعترض على تخزين مياه نهر اليرموك في بحيرة طبرية بسبب أن متوسط الملوحة في مياه نهر اليرموك قد تصل إلى ٨٨ جزء في المليون وفي البحر الميت إلى ٣٠٠ جزء من المليون الأمر الذي سينتج عنه ارتفاع نسبة الملوحة في مياه نهر اليرموك وزيادة نسبة الفاقد عن طريق البحر في حالة التخزين في البحيرة (٣٠٠ مليون متر مكعب سنويا) وذلك بالمقارنة بالفاقد في حالة التخزين بالنهر ذاته (١٥ مليون متر مكعب سنويا).

ويتضمن المشروع العربي كذلك إنشاء سد تخزين على نهر الحصباني لتأخذ من أمامه ترعة لري الأراضي اللبنانية التي تحتاج لما يقرب من ٣٥ مليون من الأمتار المكعبة سنويا ذلك بالإضافة إلى حفر ترعة تستمد مياهها من نهر بانياس لري الأراضي السورية والتي تقع في وادي نهر بانياس والتي تحتاج سنويا لحوالي ١٢ مليون من الأمتار المكعبة.

ومما يجدر ذكره أن لبنان في ضوء المشروع الأمريكي لا تستفيد شيئا رغم أن المشروع تضمن إنشاء سد على هذا النهر في الأراضي اللبنانية.

ويتضمن المشروع العربي أيضا توفير كمية من المياه تقدر ٩٦ مليون من الأمتار المكعبة سنويا لري أراضي إسرائيل لمنطقة الحولة ذلك بالإضافة إلى استغلال مياه نهر الأردن وروافده لأغراض الري في المنطقة التي تقع إلى جنوب

بحيرة طبرية حيث تحتاج الأردن لما يقرب من ٤٣٠ مليون متر مكعب لري أراضي الغورين الشرقي والغربي في مقابل ٨٤ مليون متر مكعب وفي حاجة إسرائيل لري أراضي تابعه لها في الغور الغربي وفي مثلث اليرموك.

أما عن المشروع اليهودي فتتلخص أهم مقترحاته في تخزين ٤٠٠ مليون متر مكعب من مياه نهر الليطاني في بحيرتين تقاما عند مرج عيون حيث تخرج منها قناة تحمل المياه إلى الأراضي الإسرائيلية، كذلك يتضمن المشروع إقامة خزان كبير للمياه في سهل بطوف شمال الناصرة يمون عن طريق القناة التي تخرج من البحيرات السابقة وعن طريق قناة أخرى تأتي من بحيرة طبرية. وتبلغ كمية المياه التي تحصل عليها إسرائيل وفقا لمشروعها ما يقرب من ٦٢٠ مليون متر مكعب.

وهكذا تبرز رغبة إسرائيل في الحصول على أكبر قدر ممكن من المياه عن طريق تحويل مجرى الأردن وذلك حتى يمكنها استيعاب الأعداد المتزايدة من السكان الوافدة إليها عن طريق الهجرة.

••••••••

وإذا كانت منطقة الساحل الفينيقي تشبه منطقة الخليج من حيث حساسية الصراعات السياسية التي تتواجد عليها بسبب اشتراك أكثر من قوة دولية وراء هذه الصراعات فإن هناك منطقة أخرى على التخوم الشمالية من إيران تتسم بوجود استقطاب شيوعي لدولة إسلامية أجبرت على أن تخضع لنفوذ الاتحاد السوفييتي وتتمثل هذه المنطقة في أفغانستان وتعتبر أفغانستان جزءا من منطقة

الشرق الوسط على الرغم من أنها تقع في وسط آسيا إذ تشغل أفغانستان منطقة جبلية معقدة تضاريسيا حيث تحتل القسم الشمالي الشرقي من هضبة إيران أي أنها تقع في منطقة عقدة البامين حيث تلتقي سلاسل جبال هندوكوش بجبال هيمالايا. ويصل ارتفاع هذه السلاسل الجبلية إلى ما يزيد على ٧٠٠٠ متر غير أن هذا الارتفاع يختلف بالنسبة للأجزاء الغربية حيث يتراوح الارتفاع ما بين ٤٥٠٠ مترا و ٦٠٠٠ مترا في الجبال التي يطلق عليها اسم جبال باراباقسوس، و تشغل هذه الجبال مساحة أكبر من تلك التي تشغلها السلاسل الجبلية الشرقية. وإلى جانب السلاسل الجبلية الرئيسية التي توجد في الأجزاء الشمالية الشرقية والأجزاء الغربية فهناك سلاسل جبلية فرعية أخرى تمتد عبر البلاد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ومن الشرق إلى الغرب. ونظرا لأن مجموعة الجبال الأفغانستانية تنتمي كلها إلى الجبال الإلتوائية الحديثة التكوين لذا فجملة الأراضي الأفغانية بعيدة عن الاستقرار الجغرافي إذ أنها تتعرض للهزات الأرضية. كما أنها عرضة لثورات البراكين التي يرتبط بوجودها أيضا بمناطق الضعف الأرضي من صدوع وانكسارات.

ويكون المسرح الجغرافي لأفغانستان أساسا لكفاح الشعب الأفغاني ضد الاتحاد السوفييتي ومن ثم فالتعقد التضاريسي وتعدد النظام النهري بها من الأمور التي يجب الإشارة إليها في دراسة الوضع السياسي بها إذ أن الاوديه الأفغانية في الجزء الجنوبي تنحدر مع انحدار السطح العام الأفغانستان نحو منخفض نجستان بينما التصرف النهري المتجه جنوب وادي جيحون ينحدر بشدة وفقا لمظاهر السطح في شمال هندوكوش ونظام الصرف في أفغانستان يضم ثلاثة أنظمة نهرية

وهي مجموعة جيحون والسند وهالمند. ويمثل نهر جيحون وروافده المجموعة الجنوبية من النظام النهري وذلك بالإضافة إلى نهري مرغاب وهرى ذود. أما مجموعة نهر السند فتضم نهر كابل وروافده في حين تشمل مجموعة هالمند النهر لمعروف بهذا الاسم وروافده والذي يصب في منخفض نجستان. وتعتبر هذه الأودية منافذ أفغانستان الطبيعية وأهم طرق اختراقها.

وإذا كان سطح أفغانستان يمثل مسرحا لعمليات الكفاح الأفغانستاني فإن مشكلة احتلال أفغانستان من قبل الاتحاد السوفييتي ارتبطت بالنظام الاجتماعي والسياسي بأفغانستان. فكلمة أفغانستان اشتق اسمها من اسم القبائل الأفغانية التي كانت تعيش فيما مضى في جزء منها. وقد ارتبط هذا الاسم بأفغانستان منذ قرنين من الزمان فحسب إذ أن الاسم الذي عرفت به أفغانستان في العصور القديمة هو " أريانا"في حين أطلق عليها في العصور الوسطى اسم بلاد خرسان وذلك انتسابا لإقليم خرسان في الجزء الشمالي فيها.

ويبلغ عدد سكان أفغانستان نحو ٢٠ مليون نسمة وأهم العناصر الجنسية التي تدخل في تركيب السكان هم الأفغان الحقيقيون الذين يكونوا خليطا بين العناصر الإيرانية والتركية والذين يطلق عليهم محليا اسم البوختان أو البونان كما يعرفوا في باكستان. ويكون البوختان ما يقرب من نصف عدد السكان في أفغانستان ومن ثم فليس لهم مناطق تركيز معينة ولا سيما وأن نسبة منهم تحترف الرعي إلى جانب الزراعة، ولكن يتواجدون بصفة عامة في منطقة جبال هندوكوش، و إلى جانب البوختان يكون الأوزبك والهازارا والطاجك عناصر رئيسية للسكان. فالجماعة الأولى تكون ما يقرب من ٢٠/١ من مجموع السكان بينما تكون الجماعة الثانية حوالي ٣٠% من مجموع السكان أما الطاجك فيشكلوا

ربع مجموع السكان. وهناك فروق مذهبية بين العناصر الثلاثة فبينما تدين المجموعات الطاجيكية والأوزبكية بالمذهب السني يعتنق الهازارا المذهب الشيعي وبالإضافة إلى الاختلاف المذهبي فتوجد اختلافات أخرى بين الأفغان فعلى حين يعمل الطاجك بالحرف المدنية إلى جانب الزراعة إذ أن قليل منهم يقطن الأجزاء الجبلية نجد أن جماعات الهازارا التي تتركز في المناطق الجبلية في وسط وجنوب أفغانستان تحترف الرعي إلى جانب الزراعة.

سمة أخرى تظهر اختلاف بين البوختان والطاجك إذ تتحدث الجماعات لغة البشتو التي تنتمي إلى مجموعة اللغات الإيرانية هي اللغة الرسمية للبلاد على الرغم أن جماعات الطاجك تتحدث لغتها الخاصة إلى جانب الجهات الأخرى التي تنطبق بها العناصر المحلية في البلاد مثل اللغة التركية التي يتحدث بها جماعات الأوزبك والقرغيز واللغة العربية التي بدأت تجد طريقها إلى أفغانستان في خلال القرن العشرين.

وبصفة عامة نجد أن العناصر التركية والمغولية التركية تسود في المناطق الشمالية، وإن كانت جماعات الهازارا تنتمي إلى أصول مغولية، أما عناصر السكان الذين عرفوا منذ نهاية القرن ١٩ بعد اعتناقهم الإسلام باسم التوريين فيوجدوا في إقليم كافرستان على حين يوجد في بلوخستان عناصر البلوحين.

وقد لعب المسح الجغرافي دورا هاما في توزيع السكان وتوجيههم الاقتصادي فجعلهم يتناثرون في قرى بعيدة بين السفوح والاودية الجبلية وعلى حواف الصحراء حيث يمارسون حرفة الزراعة إلى جانب حرفة الرعي فأغلبية سكان أفغانستان قرويون إذ لا تضم مدن أفغانستان سوى ما يقرب من ٦٤٧,٥

ألف نسمة وهي تقع في موقع بعيدا عن المنافذ المائية التي جعلــت منــها دولــة حبيسة، وتقع على الحدود الشمالية من أفغانستان الاتحاد السوفييتي بينما تشرك في الحدود الشمالية الشرقية مع الصين وكشمير في حيــن تتــاخم حدودهــا القريبــة الأراضي الإيرانية.

أما عن أساس المشكلة الأفغانية فيعود إلى عام ١٩٧٣ حيث قامت في ١٧ يوليو من نفس العام ثورة شعبية كان من نتائجها إسقاط النظام الملكي تحت عــرش زهير شاه حيث قاد الانقلاب ابن عم الملك وصــــهره محمــد داود فــي انقــلاب عسكري في إبريل عام ١٩٧٨حيث أدى هذا الانقلاب إلى تكوين حكومة مواليــة إلى الاتحاد السوفييتي بزعامة حزب الشعب الديمقراطي العسكري حيــث رحــب السوفييت بهذا التدخل في وقت قل فيه النفوذ الأمريكي في إيران ولا ســيما بعــد قيام الثورة الخمينية ورغبة منهم في كسر سياسة الولايات المتحدة فــي محاولــة تطويقهم بدولة حليفة لها ذلك بالإضافة إلى رغبة الاتحاد السوفييتي في أن يكــون قريبا من المياه الدفيئة في منطقة الخليج.

وقد قام الشعب بالكفاح ضد الاحتلال السوفييتي الذي يجــد تــأييدا مــن الحكومة والذي يحاول إبعاد أي رئيس جمهورية ينظر بعيــن الرضــى لخــروج السوفييت من أفغانستان.

وما زلنا نجد خلافا جوهريا بين الولايات المتحدة الأمريكية من جهة وروسيا مـــن جهة اخرى في محاولة للسيطرة على افغانستان حيث تحـــاول كـــل جهـــة دعـــم الموالين لها لا حبا في الإسلام والمسلمين وانما طمعا في السيطرة علـــى موقـــع افغانستان الهام بالنسبة لكل منهما. والتي اصبحت معقلا للثـــائر المســـلم وموئـــلا للمجاهدين.

وما مطالبة الولايات المتحدة الأمريكية بدم اسامة بن لادن الا دليلا آخـــر علـــى فرض الهيمنة الأمريكية على الساحة العالمية ، بعد اتهامه بمســـؤوليته المباشـــرة عن التفجيرات الأخيرة (١٩٩٨) في سفارات الولايات المتحدة في افريقيا.

الفصل الثاني
النظام العالمي الجديد

الى اين تتجه الولايات المتحدة الأمريكية؟

تحكمت عقيدة "الاحتواء" في تشكيل السياسة الخارجية والأمنية للولايات المتحدة الأمريكية خلال الحرب الباردة. وكان من الطبيعي، بعد انتهاء الحرب الباردة، ان يحدث تغير جوهري، وان يظهر نموذج جديد او خطة كبرى جديدة تسترشد بها الولايات المتحدة عند وضع سياساتها. ولكن ذلك لم يحدث رغم مرور ما يقرب من العقد على انهيار جدار برلين، اشهر رموز الحرب الباردة. وبالتالي ما زالت بعض التساؤلات تطرح نفسها على ساحة النقاش؛ فهل الولايات المتحدة بحاجة فعلية الى تشكيل رؤية جديدة واستراتيجية كبرى جديدة؟ واذا لم تتم صياغة هذه الاستراتيجية، فما الثمن البديل؟ وهل تملك الولايات المتحدة بدائل اخرى؟ وما هي انعاكسات مختلف الخيارات على السياسات الخارجية والأمنية للولايات المتحدة وقواتها المسلحة، لا سيما القوات الجوية الأمريكية؟

هيكل النظام الدولي الجديد

حفل القرن العشرون بعدد من التغيرات الهائلة المدوية. ففي نصفه الأول اندلعت حربان عالميتان، وانفجرت ثورتان كبيرتان في روسيا والصين، وانهارت خمس امبراطوريات؛ هي العثمانية والألمانية والايطالية واليابانية والنمساوية - المجرية. وحدث تراجع هائل لقوتين من أهم القوى الاستعمارية العالمية؛ الا وهما الاستعمار البريطاني والاستعمار الفرنسي. والخلاصة أنه طرأ تغير جوهري على

طبيعة النظام الدولي. ولو ألقينا نظرة على القرون السابقة لوجدنا ان النظام الدولي أتسم دائماً بـ "تعدد القطبية وتوازن القوى"، حيث لم يكن يسمح لدولة بمفردها ان تحقق تفوقاً أو سيطرة، لا يستطيع تحالف الدول الأخرى التصدي لها بدرجة أكبر من القوة والجبروت. ونجح هذا النظام آنذاك، في الحيلولة دون ظهور قوة مهيمنة واحدة، لكنه مني بالفشل في نهاية المطاف، مما أدى الى نشوب الحرب العالمية الأولى التي اعقبتها فترة من الفوضى، ظهرت بعدها الفاشية، واندلعت الحرب العالمية الثانية، ثم انكشف غبار هذه الحرب عن تبلور نظام دولي ثنائي القطبية.

لقد كان هناك سببان رئيسيان وراء التحول نحو القطبية الثنائية. أولها التراجع الهائل في قوة العديد من الأطراف التي كانت تشكل الثقل الاساسي خلال حقبة توازن القوى - أي حقبة ما قبل الحرب العالمية الأولى - بعد ان انهزمت المانيا في الحرب العالمية الثانية، وانحسرت قوة بريطانيا وفرنسا. السبب الثاني ان هذه التطورات رافقها تغير مهم، تمثل في انتقال القوة النسبية الى أيدي الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي السابق، وزيادة تدخلهما في الشؤون العالمية. وكانت هذه التغيرات نتاجاً لمجموعة معقدة من العوامل التي أفرزت نظاماً عالمياً جديداً ثنائي القطبية. وكانت السمة الرئيسية لهذا النظام هي ان قطبيه الجديدين - الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة - يمثلان نظامين مختلفين، لكل منهما قيم وأنماط معيشية مختلفة، ومن ثم أفرز هذا النظام عدداً من القضايا التي تختلف الى حد كبير عن قضايا عصر توازن القوى المتعدد القطبية (أي ما قبل الحرب العالمية الأولى). وأدت الأيديولوجيا الماركسية الثورية، والاحساس بالدور التاريخي، الى تحفيز موسكو لكي تتبوأ مكانها في النظام الجديد. وبعد فترة من الغموض والتردد قررت الولايات المتحدة ان تأخذ على

عاتقها مهمة "احتواء" المد السوفييتي"، ومن ثم اندلع هذا الصراع، الذي عرف بإسم "الحرب الباردة". وترافق ذلك مع تطوير أسلحة الدمار ، وظهور خطر الفناء النووي للعنصر البشري كله.

وهكذا هيمنت اجواء الحرب الباردة على السياسة الخارجية الأمريكية واستراتيجية الأمن القومي الأمريكي، والقت بظلالها على القرارات الدفاعية الرئيسية، بما فيها مشتريات أنظمة الأسلحة وحجم القوات والوجود العسكري في الخارج والتحالفات. وبسبب القطبية الثنائية التي تميزت بها حقبة الحرب الباردة، أصبح على الولايات المتحدة ان تهيئ نفسها لاحتواء المد السوفييتي على النطاق العالمي؛ مما كان له أكبر الأثر على تعاملات الولايات المتحدة مع مختلف المناطق.

ولكن الحرب الباردة انتهت نهاية مدوية، عندما حدث الانهيار المفاجئ للاتحاد السوفييتي، كإمبراطورية وكدولة. ونتيجة لذلك تحول التوازن النسبي للقوى السياسية والعسكرية ليصبح في صالح الولايات المتحدة الأمريكية. ومن المعروف ان الولايات المتحدة – خلال ما يزيد على أربعة عقود من الحرب الباردة – حققت منزلة سياسية عظيمة وقدرات عسكرية هائلة، فلم يعد أمامها حالياً أي منافس دولي أو أي تحالفات معادية ذات شأن. بل ان معظم الدول التي تمتلك قدرات اقتصادية متميزة، وتتمتع بارتفاع متوسط دخل الفرد والناتج المحلي الإجمالي، مثل ألمانيا واليابان، هي دول حليفة للولايات المتحدة. ويمكن القول بالفعل ان الولايات المتحدة وحلفاءها الديمقراطيين قد أقاموا "منطقة سلام"، يعتبر فيها نشوب الحرب فيما بينهم "أمراً غير وارد إطلاقاً". وإن ظلت الولايات المتحدة صاحبة أكبر اقتصاد في العالم، الا ان المؤشرات الاقتصادية لهذه القوة النسبية

اصيبت بنوع من الضعف والتراجع، وأصبحت تواجه مشكلات اجتماعية محلية لا يمكن التغافل عنها، وهو ما يؤدي الى زيادة تركيز النخبة السياسية على الشؤون المحلية.

أصبحت الولايات المتحدة، اذن، هي القوة العظمي الوحيدة. ولكن هناك سبعة ملامح ذات أهمية كبرى، تصبغ المناخ الدولي الراهن، وسوف نستعرضها فيما يلي:

أولاً: حققت بعض الدول الآسيوية نمواً اقتصادياً هائلاً، مثل الصين والهند واندونيسيا وتايلاند. فاذا استمرت الاتجاهات الحالية على ما هي عليه – وهو أمر غير مؤكد – فسوف يحدث تحول في القوة الاقتصادية النسبية، قد تصاحبه انعكاسات مهمة في الجغرافيا السياسية والعسكرية.

ثانياً: هناك اجزاء مهمة في بعض مناطق العالم، مثل أمريكا اللاتينية وأوربا الشرقية والوسطى والشرق الأوسط، تقوم بتجربة اقتصاديات السوق والحكم الديمقراطي، ومن المحتمل ان ينجح بعضها في ذلك.

ثالثاً: كثير من مناطق العالم تفتقر الى الديمقراطية وتغلب عليها الصراعات، ومن ثم فهي معرضة لخطر اندلاع "الحروب الاقليمية الكبرى"، ومحاولات فرض الهيمنة، وانتشار أسلحة الدمار الشامل ووسائل إطلاقها التي تزداد إمكاناتها يوماً بعد يوم.

رابعاً: هناك أيضاً مخاطر متزايدة بسبب الفوضى والتمزق داخل بعض الدول؛ نتيجة للضعف السياسي والعوامل العرقية والطائفية والآيديولوجية. وقد تؤدي مثل هذه العوامل الى حدوث المجاعات ومحاولات الابادة الجماعية، بما يعقبها من آثار انسانية، واحياناً جيوبوليتيكية. وهذا يعني ان الولايات المتحدة والأعضاء

الآخرين في "منطقة السلام والازدهار" قد يواجهون عدداً كبيراً من الحروب الصغيرة.

خامساً: مع التسارع الحالي في التغيرات التقنية، التي تحمل في طياتها آثاراً هائلة على القوى الاقتصادية والعسكرية في العالم، سوف يتعين على كل دولة ان تتبنى الخيارات الصحيحة حتى تتفوق على الدول الأخرى. وعلى الصعيد العسكري، لن تقتصر الخيارات على الأسلحة الجديدة – في مجالات مثل المعلومات وتقنيات الإفلات من الرادار (Stealth) والتوجيه الدقيق – فحسب ، بل لا بد أيضاً من اعتناق المفاهيم الجديدة للتشغيل والتغييرات التنظيمية.

سادساً: تزداد حدة التنافس الاقتصادي والاحتكاكات التجارية الدولية بين الولايات المتحدة وحلفائها من أيام الحرب الباردة، وهو ما قد يؤدي الى تعقيد العلاقات المستقبلية.

سابعاً: هناك بالطبع دول غير راضية عن النظام العالمي الحالي، مثل ايران وكوريا الشمالية وكوبا والعراق والصين وروسيا. ومن الاحتمالات المؤكدة على المدى الطويل، خلال السنوات العشرين القادمة، ان تسعى الصين او روسيا لتحقيق التوازن مع الولايات المتحدة وحلفائها، وربما يحدث ائتلاف بين عدد من هذه الدول لإحداث ذلك التوازن. وهكذا سوف يؤدي التفاعل بين هذه العوامل الى تحديد الشكل الجغرافي السياسي للعالم في القرن الحادي والعشرين؛ لأن هذه العوامل هي التي ستفرز كلاً من الصراعات والتحالفات في المستقبل. وبالنسبة للصراعات المستقبلية، فانها ستكون نتاجاً للاتجاهات التي ستسود، والتي ستتلاقى. والامتزاج بين هذه الاتجاهات سيفرز انواعاً مختلفة من الصراعات، ليس من حيث أسبابها فحسب، بل أيضاً من حيث اساليب مواجهتها، ومن حيث تعاون

الدول المتحالفة، او تنافسها. ومن ثم يصبح المجال مفتوحاً لاحتمالات كثيرة؛ فعلى ضوء التطور الهائل لتقنيات المعلومات - والذي سيمتد حتى القرن المقبل - يمكن لهذه التقنيات وحدها ان تؤثر في سلسلة الصراعات، بدءاً بالحروب الكبرى وانتهاءً بالعمليات الارهابية. وبالنظر الى الموارد المتاحة والوسائل المستخدمة، فسوف تختلف بالطبع المهام الملقاة على كاهل القوات المسلحة الأمريكية، مع العلم بأن التحالفات الراهنة للولايات المتحدة معرضة لمزيد من التغيير، بل قد تظهر تحالفات جديدة أيضاً الى حيز الوجود.

من الأهمية بمكان ان ندرك الى أي مدى يمكن ان تمتد الصراعات مستقبلاً، وان كان تقدير الاطار الزمني لنشوب هذه الصراعات لا يقل أهمية عن ذلك. ففي المستقبل القريب على سبيل المثال، قد تكون الصراعات الاقليمية الصغرى - كالصراعات العرقية والحروب الاهلية وعمليات فرض وحفظ السلام - هي النوع السائد من الصراعات؛ ولكن مع مرور الزمن، ومع التغيرات التي تحدث في العالم ونظرة الآخرين الى الولايات المتحدة، فقد تصبح الأشكال الأخرى للصراع هي الأكثر احتمالاً، أي الحروب الاقليمية الكبرى، بل ربما الحروب العالمية.

إن مجرد حدوث الصراعات لن يترتب عليه بالضرورة تدخل الولايات المتحدة، حتى في حالة استدعائها، وهو أمر يثبته التاريخ. فهناك قيود على الميزانية تقلص من قدرة الولايات المتحدة في التعامل بمفردها مع سلسلة التحديات التي تهدد السلام والاستقرار العالميين. ومن ناحية أخرى لن تتدخل الولايات المتحدة عسكرياً الا اذا ارتأت ان مصالحها عرضة للخطر؛ وهذا الأمر بدوره سيكون خاضعاً للاستراتيجية الكبرى، والاستراتيجية الأمنية القومية

للولايات المتحدة. ومن خلال هاتين الاستراتيجيتين سوف يتحدد شكل الدور الــذي تضطلع به الولايات المتحدة في العالم، ويتم من خلالهما ايضــاً تقييــم الازمــات والصراعات المختلفة.

الاستراتيجيات الكبرى البديلة

مع التغيرات الجارية على المسرح العالمي، أصبحت الولايــات المتحــدة الأمريكية تواجه تحديات وخيارات تختلف اختلافاً جوهرياً عن تلك التي واجهتــها خلال الحرب الباردة. ويمكن القول ان اختيارات الولايــات المتحــدة لــن تحــدد اتجاهها فحسب، بل ستحدد ايضاً سائر دول العالم في القرن القــادم. ورغــم مــا يقرب من عقد على زوال الاتحاد السوفييتي، فلا يوجــد اجمــاع فــي الولايــات المتحدة – حتى الآن – على رؤية جديدة واستراتيجية كبرى للعصر الجديد.

ان الرؤية الاستراتيجية والاستراتيجية الكبرى أمــران مــهمان، لأنــهما تشكلان البوصلة التي تحدد الاتجاه الاستراتيجي للولايات المتحدة، والــذي علــى هديه يتم التخطيط الطويل الأجل في وزارة الدفاع وأفرع القوات المسلحة. وفــي غيابهما سوف تظل البلاد وقواتهما المسلحة في حالــة رد الفعــل، فتفقــد زمــام المبادرة الذي يصبح بيد الآخرين. صحيح ان وضع الولايات المتحدة في العــالم، من حيث القوة، يمكّنها من تحديد شكل مستقبل العالم في حقبة مــا بعــد الحــرب الباردة، ولكنها لم تنجح في ذلك الا اذا كان لديها التصور المسبق عن هذا الشــكل الذي تريده للعالم، وامتلكت الاستراتيجية والارادة لتحقيق ذلك.

وفي غياب الرؤية والاستراتيجية الكبرى، لن يتوافر للولايــات المتحــدة معيار للحكم على الصراعات والأزمات؛ ومن ثم لا يمكن تقييم القرارات السياسـية بشكل واف، ما لم يتم اولاً بناء إطار لتوجيه السياسات وتحديــد الأولويــات؛ لأن

عدم وجود مثل هذا الإطار سوف يزيد من صعوبة التمييز بين القضايا المهمة والقضايا غير المهمة، وبين التهديدات الأكثر خطورة والأقل خطورة. هناك ايضاً اسباب اقتصادية داخلية تكسب الرؤية والاستراتيجية أهمية خاصة؛ الا وهي توجهات الميزانية وقيودها، التي تحتم تقليص حجم القوات المسلحة، ومن ثم تقتضي اعادة النظر في ترتيب أولويات الإستراتيجية القومية؛ مما قد يسفر – مثلاً – عن تغير التركيز من الاستعداد الى التحديث، او العكس.

ومن البديهي ان التغيير في هيكل القوة يطرح أمام الولايات المتحدة عدداً من الخيارات، من ضمنها ان تتخلى عن الزعامة العالمية، وتنطوي على ذاتها. وحينئذٍ سوف تسعى للتخلي عن الزعامة تدريجياً، وتعطي دفعة للاتجاه نحو توزيع القوة، عبر تقليص الدور العالمي للولايات المتحدة، وتشجيع قيام هيكل دولي يتسم بتوازن القوى، مع وجود مناطق نفوذ (مثلما كان قائماً بين القرن السابع عشر والقرن التاسع عشر). أما البديل عن ذلك، فيتمثل في تعزيز الزعامة العالمية، كهدف رئيسي في استراتيجية الولايات المتحدة، والحيلولة دون بروز منافس عالمي آخر.

التوجه الانعزالي الجديد

قد يؤدي التخلي عن السيطرة والتفوق والانطواء على الذات، الى تخفيض كبير في النفقات الدفاعية على المدى القريب؛ وان لم تتم حتى الآن دراسة فعلية عن قيمة النفقات التي تستطيع الولايات المتحدة ادخارها – سواء على المدى القصير او البعيد – اذا ما تبنت مثل هذه الاستراتيجية. ولتقدير قيمة الأموال التي يمكن ادخارها، يتعين اولاً الاجابة عن هذين السؤالين: هل الدفاع عن الولايات

المتحدة الأمريكية سوف يتضمن أمريكا الشمالية ام يشمل الأمريكتين عامة ؟ والى أي مدى سيصل النطاق الخارجي الدفاعي داخل المحيطين الأطلسي والهادي ؟

ومع التخلي عن الزعامة العالمية ستقل بالطبع احتمالات تعرض الجنود الأمريكيين للأذى، في أماكن مثل العراق وهاييتي وكوريا والبوسنة والصومال. ولن تتدخل القوات المسلحة الأمريكية في الصراعات الإقليمية -الصغرى أو الكبرى- في أي جزء من العالم. وبدلا من توسيع حلف الناتو، سوف تنهي الولايات المتحدة الأمريكية وجودها العسكري في أوروبا، وكذلك في آسيا والشرق الأوسط. وتعتمد- بدلا من ذلك- على الأنظمة القضائية للاطلاع على ما يجري حول العالم. ويمكن للولايات المتحدة أن تركز على أنواع معينة من القدرات؛ مثل الدفاع الصاروخي القومي، والدفاع الساحلي، والحرب المضادة للغواصات، والحرب الفضائية. وسوف يتعين عليها تطوير مجموعة من القدرات والاستراتيجيات لحماية نفسها ضد حرب المعلومات، ومن ثم تمنح الأولوية القصوى لبرامج حماية المجتمع الأمريكي والقوات المسلحة الأمريكية من الهجمات الصاروخية وحرب المعلومات. وبما أن الولايات المتحدة لا تواجه تهديدا بريا كبيرا ضد أراضيها، فقد يتقلص حجم قواتها البرية كثيرا.

قد يسهم تخفيض الإنفاق الدفاعي، بطبيعة الحال، في مواجهة عجز الميزانية، وتحسين القدرة التنافسية الاقتصادية للولايات المتحدة، لا سيما أن المنافسين الاقتصاديين للولايات المتحدة قد يزيدون -في نفس الوقت- من نفقاتهم الدفاعية. ولا شك أن تجاهل القضايا الخارجية يتيح للولايات المتحدة إيلاء اهتمام أكبر لمشكلاتها الداخلية.

أما الحلفاء- الذين التزمت الولايات المتحدة تقليديا بالدفاع عنهم فسوف تقل حاجاتهم إليها في بعض الحالات، خاصة بعد زوال التهديد السوفييتي عن أوروبا الغربية. ويستطيع هؤلاء الحلفاء الدفاع عن أنفسهم (مثلا يبلغ عدد سكان كوريا الجنوبية أكثر من ضعفي عدد سكان كوريا الشمالية، ويبلغ إجمالي ناتجها القومي عدة أضعاف إجمالي الناتج القومي لكوريا الشمالية). ومن المعروف أن التزام الولايات المتحدة بالدفاع عن حلفائها يتيح لهم الفرصة لتقليص إنفاقهم الدفاعي.

غير أن هذا التوجه الانعزالي الجديد، من الناحية الواقعية، قد يزيد على المدى الطويل من خطر نشوب الصراعات الكبرى؛ مما يتطلب قيام الولايات المتحدة بمجهود دفاعي أكبر. كما وأنه يهدد السلام العالمي، ويقوض في النهاية الازدهار الأمريكي. وإذا انسحبت الولايات المتحدة من أوروبا وآسيا، فإنها تكون قد خاطرت قصدا بإضعاف مؤسسات العالم الديمقراطي، وتضامن قواه ودوله، وتهيئ ظروفا مواتية لانتشار الفوضى. وهو ما يعود بنا إلى الأحوال نفسها التي كانت سائدة في النصف الأول من القرن العشرين.

أسفر التوجه الانعزالي الأمريكي إبان العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، عن عواقب وخيمة على السلام العالمي. ولم تكن الولايات المتحدة آنذاك، إلا واحدة من عدة دول كبرى، أما الآن فقد أصبحت هي القوة الأولى المهيمنة، مما يهدد بحدوث صدمة رهيبة إذا انسحبت من المسرح العالمي.

وأخطر الاحتمالات في هذه الحالة أن تعود الصبغة القومية إلى السياسة الأمنية لليابان وألمانيا؛ لأن انسحاب الولايات المتحدة من المسرح العالمي، سيجعل كلا من الدولتين تتولى شؤون أمنها بنفسها، وتعيد بناء قدراتها العسكرية،

مما يؤدي إلى عودة سباق التسلح وما يترتب عليه من إمكانيـــة الحصـــول علـــى الأسلحة النووية. والمعروف أن الصين وكوريا ودول جنوب شرق آسيا ما زالـــت تخشى الهيمنة اليابانية. وإذا نزعت الولايات المتحدة حمايتها عن اليابان، فســـوف تضطر الأخيرة إلى زيادة قدراتها العسكرية بشكل هائل؛ لكي توازن القوة الصينية المتنامية والقوات الروسية التي ما تزال كبيرة الحجم. وعلى ضوء ما تتمتـــع بـــه اليابان من تطور تقني، إلى جانب مخزونها من البلوتونيوم الذي حصلت عليه مـــن تطوير صناعة الطاقة النووية لديها، يكون بإمكانها أن تصبح– بســـرعة نســـبية– دولة مالكة للأسلحة النووية، إذا ما قررت ذلك. ومعروف أيضا أن بإمكان اليابـــان صنع الصواريخ بعيدة المدى والأساطيل البحرية التي تضم حاملات الطائرات.

مع التغيرات الجارية في ميزان القوى بين اليابـــان والصيـــن وروســـيا، وظهور قوى إقليمية جديدة مثل أندونيسيا وكوريا والهند، تزداد مخـــاطر نشـــوب الحروب الوقائية. وبالمثل قد يؤدي التنافس الأوروبي على الهيمنة الإقليمية إلـــى نشوب حروب كبرى. وإذا بقيت الولايات المتحدة خارج هذه الساحة–وهو احتمـــال غير وارد– فقد تسيطر قوة معادية على أوروبا أو آسيا. وبعد أن تهمين تلك القـــوة على أوروبا أو شرق آسيا، سوف تتطلع إلى الهيمنة العالمية، وعندئذ قـــد تواجـــه الولايات المتحدة حربا باردة جديدة، بل أيضا خطر نشوب حرب عالميـــة ثالثـــة، تفوق ويلاتها وكوارثها ما أفرزته الحرب الأخيرة.

أما في منطقة الخليج العربي ، فإن انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية قد يؤدي إلى انشغال الصراع على الهيمنة الإقليمية، مثلما فعلت كـــل مـــن إيـــران والعراق في الماضي. وبدون الحماية الأمريكية، فإن دول مجلس التعـــاون لـــدول الخليج العربية سوف تتعرض للمخاطر. ولمواجهة مثل هذه الظروف، ربما يسعى

السعوديون للحصول على الأسلحة النووية بأية وسيلة. وإذا تمكنت إيران أو العراق من الهيمنة على المنطقة التي تسيطر على الإمدادات النفطية العالمية، فسوف تكتسب قدرة هائلة على إلحاق الضرر بالاقتصاديين الأمريكي والعالمي؛ لأن الطرف الذي يحقق الهيمنة، سيجد تحت تصرفه موارد اقتصادية ضخمة، يمكن أن يستخدمها لبناء قدرة عسكرية تمكنه من الضغط على الولايات المتحدة وغيرها من الدول المستوردة للنفط. ومن المهم في هذا الصدد الاشارة الى ان سيطرة ايران او العراق على منطقة الخليج، سوف يتبعه انضواء سائر الدول العربية الشرق اوسطية تحت نفوذها وهيمنتها، نظراً لتغير موازين القوى. ومثل هذا الوضع يفرز مزيداً من المشكلات الأمنية لإسرائيل، ويقوض عملية السلام من أساسها، ومن ثم يزيد من مخاطر اندلاع حروب اخرى بين العرب والاسرائيليين.

هناك دول خارجة على القانون – مثل كوريا الشمالية وايران – تسعى بالفعل للحصول على الاسلحة النووية والصواريخ بعيدة المدى. وتستطيع مثل هذه الدول ان تحصل على الاسلحة النووية، اذا ما اصبحت الولايات المتحدة دولة انعزالية. وفي المقابل هناك دول اخرى ذات قدرات نووية محتملة – مثل كوريا الجنوبية وتايوان – احجمت عن انتاج مثل هذه الاسلحة بسبب ارتباطاتها الأمنية بالولايات المتحدة. ولولا ذلك الارتباط لبادرت هذه الدول، وغيرها، الى اعادة النظر في موقفها من الاسلحة النووية. اما الدول التي كانت تلتزم بالقيود خوفاً من العقوبات الامريكية، فقد تجد في انعزال الولايات المتحدة ما يشجعها على تنفيذ برامج نووية، وربما بصورة علنية.

ان انتشار حالة عدم الاستقرار والصراعات والهيمنة المعادية في اوربا وشرق آسيا ومنطقة الخليج العربي، سوف تنعكس آثاره على الاقتصاد الامريكي حتى لو تجنبت الولايات المتحدة الأمريكية التورط في الحروب والصراعات الكبرى، وهو أمر مستبعد. ومن البديهي ان يؤدي الاضطراب في منطقة الخليج العربي الى تقليل الامدادات النفطية وارتفاع اسعارها، ومن ثم الى انخفاض مستوى معيشة المواطن الامريكي. ومن جهة اخرى فان الاضطرابات في آسيا واوربا سوف تجبر الولايات المتحدة على اعادة ترتيب اوضاعها الاقتصادية، لأن من شأن هذه الاضطرابات تقليص الفرص التجارية ذات الأهمية الكبرى للازدهار العالمي المحلي، بما فيه بالطبع ازدهار الولايات المتحدة.

العودة الى تعدد القطبية وتوازن القوى:

هذا هو الخيار الثاني، ويعتمد على اقامة توازن للقوى يحول دون ظهور قوة مهيمنة جديدة. واذا كان هذا النهج يتسم ببعض الملامح الايجابية، فهو ايضاً محفوف بالمخاطر. واستناداً الى الحقائق الراهنة، فان القوى الكبرى – التي يحتمل ان تشترك في نظام تعدد القطبية – هي اليابان والصين وروسيا والمانيا(او الاتحاد الاوربي)، الى جانب الولايات المتحدة بالطبع. وقد تتغير هذه القائمة في المستقبل، اذا ظهرت دول كبرى جديدة مثل الهند او اندونيسيا او البرازيل، او اذا ضعفت احدى الدول الكبرى الحالية – مثل روسيا– أو تفككت، بحيث لا يتاح لها – كما كان – ان تتبوأ منزلة الدول الكبرى.

قد يكون العالم متجهاً نحو تعدد القطبية. فمع انتشار الثروة والتقنية اصبح هناك بالفعل دول كبرى عدة من الناحية الاقتصادية. وبمرور الوقت، فان هذه

الدول، التي تتمتع حالياً بالقوة الاقتصادية، قد تقرر الحصول على القوة السياسية والعسكرية بما يتناسب مع قوتها الاقتصادية. ومما يزيد من امكانية هذا الاحتمال ان الولايات المتحدة، في فترة ما بعد الحرب الباردة، باتت لا تنظر الى التهديدات بمنظار هذه القوى الكبرى المحتملة مثل ألمانيا واليابان (ان لم نقل روسيا والصين والبرازيل واندونيسيا وغيرها)، وبالتالي لن تكون على استعداد لتحمل المخاطر في سبيل حماية تلك القوى (Kissinger, 1994, p 809).

اذا انتهجت الولايات المتحدة الأمريكية هذا الخيار، فانها اما ان تبطئ خطواته، او تعجل به. وفي حالة اختيارها للتعجيل بالعودة الى نظام تعدد القطبية وتوازن القوى، فيمكنها تحقيق ذلك عن طريق اضعاف حلف الناتو، ثم استبداله في نهاية المطاف (بتسليمه فعلياً الى اتحاد اوربا الغربية، وهو الذراع العسكرية للاتحاد الاوربي)، او عن طريق تشجيع الدول الكبرى - كلاً على حدة - على تولي أمنها بنفسها. ولدفع العالم في هذا الاتجاه، سوف تنهي الولايات المتحدة وجودها في أوربا، في نفس الوقت الذي يكون فيه الأوربيون قد استكملوا قدراتهم الذاتية؛ بحيث يتحقق توازن للقوى في القارة الأوربية. وتستطيع الولايات المتحدة الاسراع بوتيرة مثل هذا التطور اذا اعلنت - مثلاً - عن عزمها الانسحاب من اوربا خلال مهلة زمنية محددة، تسمح للبناء العسكري الأوربي بالموازنة مع روسيا.

ولكي ينجح مثل هذا النظام لتوازن القوى فنحن امام احد خيارين، اما ان تزيد المانيا من قوتها العسكرية زيادة كبيرة، واما ان يتعمق الاتحاد الاوربي، بحيث يقترب من وضع الدولة العظمى. مع مُلاحظة ان من مصلحة الولايات

المتحدة الحيلولة دون هيمنة دولة واحدة على اوربا (مع اعتبار روسيا جزءً من القارة الأوربية).

فاذا ما قرر الالمان زيادة قوتهم العسكرية، فسيكون على الولايات المتحدة ان تشكل تحالفات مع اية دولة - او دول - اوربية، لتتمكن من مواجهة الهيمنة الالمانية. وقد تضطر الولايات المتحدة الى الاحتفاظ بقوات كافية على اراضيها، او ربما في المملكة المتحدة. اما المشكلات الاخرى - بخلاف محاولة الهيمنة على اوربا - مثل عدم الاستقرار في البلقان او اوربا الشرقية والوسطى او شمال افريقيا، فسوف تقع مسؤوليتها على كاهل الاوربيين وحدهم، ولن تتورط الولايات المتحدة عسكريا في النزاعات المحلية في هذه المناطق.

وبالمثل، لن تتدخل الولايات المتحدة عسكرياً في اراضي الاتحاد السوفييتي السابق، بل ستتعامل مع هذه المناطق باعتبارها خاضعة للنفوذ الروسي. ونظراً لأن دول أوربا الغربية - خصوصاً المانيا - لها مصالح في اوربا الشرقية والوسطى، شأنها في ذلك شأن روسيا، فسوف يتعين عليها ارساء بعض القواعد لتنظيم التفاعلات فيما بينها.

وفي أسيا - حيث تسعى كل من الصين واليابان لبناء قدراتهما - يمكن للولايات المتحدة ان تؤدي دور الموازن، وذلك في حالة اختلال التوازن بشكل خطير بين اليابان والصين. وهنا تستطيع الولايات المتحدة اعادة التوازن بواسطة قواتهما المرابطة في اراضيها، او في بعض الدول الصغيرة بالمنطقة. وكما في حالة أوربا، سوف تسعى الولايات المتحدة - من خلال تغيير التحالفات - الى الحيلولة دون ظهور هيمنة اقليمية. ويمكنها في هذا الصدد ان تتعاون مع دول

اخرى لحماية مصالحها المشتركة، وان تكون على استعداد لحماية المصالح الأمريكية في المنطقة، مثل أرواح المواطنين الأمريكيين وممتلكاتهم.

وفي نفس هذا الإطار، تسعى الولايات المتحدة مع غيرها من القوى الكبرى، للحيلولة دون هيمنة قوة واحدة على منطقة الخليج العربي؛ لأن مثل هذه الدولة ستمتلك بالضرورة قدرة ضغط هائلة ازاء الدول التي تعتمد على نفط المنطقة. وعلى المستوى الاقليمي، يتعين ان تعمل الولايات المتحدة وغيرها من الدول الكبرى على اقامة توازن بين ايران والعراق؛ لمنع حدوث هيمنة اقليمية. واذا افترضنا مسبقاً ان الدول الكبرى مستعدة لانتهاج سياسية مشتركة نحو منطقة الخليج العربي، فان اعتماد الولايات المتحدة على الخليج - بدرجة أقل نسبيا من أوربا الغربية او اليابان - يعطيها ورقة قوية للمساومة، عندما يحين الوقت لتوزيع الأعباء التي تستلزمها سياسة التوازن بين الدول الكبرى. ومن ناحية أخرى، هنالك احتمال بأن تتخلى دولة كبرى - أو اكثر - عن هذا التحالف، وان تساند دولة مهيمنة في منطقة الخليج، تحت اغراء الوصول الى موارد الخليج واسواقه.

وأخيراً يجب على الولايات المتحدة ان تكون القوة المهيمنة، التي تؤثر في القضايا الأمنية المهمة في الأمريكتين.

يقدم نظام توازن القوى - بغض النظر عن حتميته - بعض المزايا للولايات المتحدة الأمريكية. أولها ، انه يخفض الانفاق الدفاعي (وان لم يكن بنفس الدرجة التي تحققها استراتيجية التوجه الانعزالي الجديد)، كما يقلل من الحاجة الى نشر القوات الأمريكية في المناطق الساخنة من العالم، ما دامت الولايات المتحدة ستترك معالجة المشكلات لتضطلع بها الدول الكبرى في مناطقها. وفي هذه الحالة سوف تركز الولايات المتحدة تخطيطها الدفاعي على منع ظهور قوة مهيمنة ،

بحيث يصبح التركيز الاساسي للمؤسسة العسكرية الامريكية هو المواجهة بين الدول الكبرى. وباستثناء الأمريكتين، لن تتدخل الولايات المتحدة الأمريكية في الصراعات الاقليمية الصغرى، ولن يصبح لزاماً عليها ان تأخذ بزمام المبادرة في مناطق مثل كوريا والخليج العربي. اما فيما يتعلق بمسألة الحجم فان على الولايات المتحدة ان تمتلك قوة كبيرة، بما يكفي لاحداث التوازن بين أي دولتين كبرتين.

الميزة الثانية، ان الولايات المتحدة الأمريكية ستتمتع بدرجة أكبر من الحرية في الاهتمام بمصالحها الاقتصادية، حتى لو الحقت ضرراً بعلاقاتها السياسية مع حلفائها القدامى، الا في الحالات المحددة التي تحتاج فيها الى التحالف مع احدى الدول الكبرى، لصد تهديد أكبر.

وفي ظل نظام توازن القوى، من الممكن ان تتمتع الولايات المتحدة الأمريكية بوضع موات نسبياً، مقارنة بالدول الكبرى الأخرى. ونظراً لبعدها النسبي عن مراكز القوة الأخرى، تستطيع الولايات المتحدة الاضطلاع بالدور البريطاني السابق كـ "موازن" عن بعد. وكما حدث في القرن التاسع عشر، يمكن للولايات المتحدة والدول الكبرى الأخرى ان تتنافس وتتعاون لتفادي الهيمنة والحروب العالمية، من خلال قيام كل دولة كبرى بحماية مصالحها الخاصة، وتعاونها مع الآخرين لحماية المصالح المشتركة. واذا اقتضى الأمر، فان الولايات المتحدة الأمريكية سوف تتدخل عسكرياً للحيلولة دون ظهور أية قوة مهيمنة.

لكن نظام "توازن القوى" ينطوي ايضاً على اشكالات خطيرة. اولاً: ثمة تساؤل حقيقي حول ما اذا كانت الدول الكبرى ستتصرف كما يجب، في ظل المنطق المرتبط بإطار "توازن القوى". فمثلاً، هل تستجيب دول أوربا الغربية

بشكل مناسب ازاء عودة التهديد الروسي، ام انها ستتصرف كما فعلت الديمقراطيات الغربية في الثلاثينيات؟ خاصة اذا عرفنا ان منطق نظام توازن القوى، قد يفرض على الولايات المتحدة ان تساند دولة غير ديمقراطية ضد دولة ديمقراطية، او ان تتعاون مع دولة غير مرغوب فيها ضد دولة اخرى. وعلى سبيل المثال، ربما تضطر الولايات المتحدة الأمريكية الى تعزيز قدرات العراق من اجل احتواء قوة إيران الآخذة في التعاظم. ولكن لم تستطع الولايات المتحدة، حقيقة، التصرف دائماً على هذا النحو. والمثال الواضح على ذلك ان انتصار العراق على ايران عام ١٩٨٨ كان يتطلب من الولايات المتحدة، وفق منطق توازن القوى، ان تعزز قوة ايران. بيد أن العداوة المستمرة التي تصبغ العلاقات الأمريكية - الايرانية، وطبيعة النظام الايراني، والاعتبارات الاخلاقية للسياسة الخارجية الأمريكية، كل ذلك اعاق واشنطن عن تطبيق مثل هذه الاستراتيجية. وهناك بالطبع عديد من الأمثلة الأخرى. لذا، فان الاستراتيجية الكبرى التي تتطلب مثل هذا الاجراء قد تكون غير واقعية.

ثانياً: يعني هذا النظام ضمناً ان الدول الديمقراطية الكبرى لن تستمر في النظر الى بعضها كدول حليفة، بل قد تصبح الصراعات السياسية والعسكرية بينها أمراً مشروعاً. ومن ثم يشتد اندفاعها وراء مصالحها الاقتصادية؛ بما يؤدي الى اضعاف المؤسسات الاقتصادية العالمية، مثل الاتفاقية العامة للتعرفة الجمركية والتجارة (الجات)، والنظام الليبرالي للتجارة العالمية، ومن شأن مثل هذا التطور ان يزيد من احتمالات حدوث الكساد والاضطرابات الاقتصادية الكبرى.

ثالثاً: يحتمل ان تواجه الولايات المتحدة منافسة شديدة من الدول الكبرى الأخرى، في مناطق تهم الولايات المتحدة. فمثل هذه القوى قد لا تكون مستعدة لمنحها

"منطقة نفوذ" في الأمريكتين، بل يمكن ان تسعى، مثلما فعلت المانيا في الحرب العالمية الأولى، الى اقامة تحالفات مناوئة للولايات المتحدة مع دول امريكا اللاتينية. وكما أشرنا سابقاً، قد تحاول بعض الدول الكبرى الأخرى مساندة طرف اقليمي يسعى للهيمنة في الخليج العربي.

أخيراً: قد يكون هذا النظام، من تلقاء نفسه، عرضة للفشل؛ لأن "توازن القوى" يتطلب من الدول الكبرى المحافظة عليه، والامتناع عن كل ما يتسبب في اشعال فتيل الحرب، ويتعين على الدول الكبرى ان تعطي مؤشرات تثبت عمق التزامها بقضية معينة، دون اتخاذ خطوات باتجاه الحرب يستحيل التراجع عنها. وقد ثبت ان من المستحيل اتباع هذا النهج التوازني، حتى بالنسبة للدول ذات الثقافات المتشابهة، والتي كانت تحكمها النخب الارستقراطية الاوربية خلال القرن التاسع عشر. ومن المرجح ان يزداد هذا النظام صعوبة عندما يصبح نظاماً عالمياً. فالمشاركون فيه ذوو ثقافات مختلفة، ولا تستطيع الحكومات – مع تزايد نفوذ الرأي العام – ان تتحلى بالمرونة التي تتطلبها قواعد اللعبة في نظام توازن القوى. وفي ظل هذه الظروف، فان أي خطأ في حساب ميزان القوى، يمكن ان يؤدي الى حروب لا تستطيع الولايات المتحدة البقاء خارجها. وفي هذا الصدد ينبغي ان نتذكر الاخفاق الذي مني به نظام توازن القوى في الماضي، والذي افرز الحرب العالمية الاولى وغيرها من الصراعات الكبرى، وليس من المنتظر ان يعمل بصورة افضل في المستقبل. مع ملاحظة ان الحروب بين الدول الكبرى، في عصر القوة النووية، سوف تكون اكثر هولاً ودماراً.

استراتيجية الزعامة العالمية:

المبدأ الثالث او الرؤية الثالثة المحتملة، التي سوف تسترشد بها الولايات المتحدة على المدى الطويل، هي استراتيجية "الزعامة العالمية". وهي تقتضي منع ظهور منافس عالمي آخر يكون معادياً لها، وتحول، في الوقت ذاته، دون العودة الى تعدد القطبية. وحينئذٍ سوف تمارس الولايات المتحدة دور "الزعامة"، في عالم يتميز بعدد من السمات الخاصة. أولها: ان المناخ العالمي سيكون على الأرجح اكثر انفتاحاً وتقبلاً للقيم الأمريكية؛ أي الديمقراطية وحرية الأسواق وسيادة القانون. ثانياً: سيكون امام هذا العالم فرصة افضل للتعامل بشكل تعاوني مع المشكلات الرئيسية التي يعانيها، مثل انتشار الاسلحة النووية، وخطر الهيمنة الاقليمية من جانب الدول الخارجة على القانون، ومخاطر الصراعات الصغرى. وأخيراً: فمن شأن مثل هذا العالم ان يتلافى، او يؤخر، حدوث حرب باردة او ساخنة بكل عواقبها المحتملة.

ولكي تمنع الولايات المتحدة الأمريكية ظهور منافس عالمي آخر، وتحول دون العودة الى تعدد القطبية، سوف يتعين عليها التمسك بالمبادئ التالية كخطوط ارشادية لسياساتها:

- الحفاظ على التحالفات القائمة بين الدول الديمقراطية ذات الاقتصاديات الغنية، في أمريكا الشمالية وأوربا الغربية وشرق آسيا؛ أي "منطقة السلام" الديمقراطية، والعمل على تعزيز هذه المنطقة وتوسيعها تدريجياً.
- منع الهيمنة المعادية على المناطق الحساسة .

- اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع عودة الامبريالية الروسية والنزعة التوسعية الصينية، مع تعزيز التعاون مع كل من الدولتين.
- الحفاظ على التفوق العسكري الأمريكي.
- الحفاظ على القوة الاقتصادية للولايات المتحدة، والابقاء على انفتاح النظام الاقتصادي العالمي.
- التعقل في استخدام القوة، وتجنب الافراط في التوسع، وتحقيق المشاركة في الأعباء بين الحلفاء بصورة فعالة.
- كسب التأييد المحلي للزعامة العالمية الأمريكية ولهذه المبادئ، والحفاظ على هذا التأييد.

ان المحافظة على "منطقة السلام" تتطلب، اولاً وقبل كل شئ، تجنب الظروف التي يمكن ان تعود بالسياسات الأمنية الى حالة "القومية". والمقصود بـ "القومية" هو قيام الدول المتحالفة الرئيسية، مثل اليابان والمانيا، بتشكيل سياستها الأمنية بنفسها، دون اعتبار لحلفائها. ومن المعروف ان هناك اتفاقاً مبدئياً بين اعضاء منطقة السلام، بحيث لا يتنافسون فيما بينهم على صعيد السياسية الواقعية. لكن هذا الاتفاق العام لا يستطيع الاستغناء عن الزعامة الامريكية. وهناك في الوقت الراهن درجة من القلق في اليابان أكبر مما في المانيا حول الروابط المستقبلية مع واشنطن. وان كانت مصداقية الولايات المتحدة ما زالت قوية في كلا البلدين. ولكن مصداقية التحالفات الأمريكية قد تضعف اذا اعتقد حلفاء رئيسيون، مثل ألمانيا واليابان، ان الترتيبات الحالية لا تتعامل بشكل واف مع الاخطار المحدقة بأمنهم، او اذا لاحظوا، على المدى الطويل، ان الولايات

المتحدة تفتقر الى الارادة او القدرة على الاضطلاع بحماية مصالحهم، او اذا ادت المنافسة الاقتصادية والتجارية المتزايدة بينهم الى حروب تجارية.

بالنسبة الى اوربا، فان التحدي الأمني الأساسي الذي تواجهه المانيا، هو مسألة خلق توازن مع القوة العسكرية الروسية، والحيلولة دون عودة الإمبريالية الروسية. وعلى المدى القصير ينبع الخطر الأمني من حالة عدم الاستقرار في أوربا الوسطى والبلقان. أما بالنسبة لفرنسا وايطاليا فتأتي التهديدات من الصراعات القائمة في البلقان، ومن التطرف الاسلامي وما يصاحبه من صراعات وعدم استقرار، ومن انتشار اسلحة الدمار الشامل والصواريخ البالستية وصواريخ كروز في شمال افريقيا والشرق الاوسط.

وبالنسبة الى شرق آسيا ايضاً، تفضل اليابان استمرار تحالفها مع الولايات المتحدة لمواجهة الغموض المحيط بروسيا، والتصدي للقدرات والطموحات العسكرية الصينية المتنامية، وتأمين نفسها ضد خطر انتشار الاسلحة النووية والصواريخ في شبه الجزيرة الكورية. وشأنها شأن المانيا، تفضل اليابان حالياً العمل مع الولايات المتحدة لمواجهة هذه المشكلات الأمنية. وما دام هذا التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة يحمي مصالح هذه الدول، فليس من المرجح ان تبحث من جانب واحد عن وسائل اخرى لتأمين مصالحها؛ مما يعني ان اختيار الولايات المتحدة لخيار "الزعامة العالمية " سوف يستلزم قدرة عسكرية اكبر مما يستلزمه الخياران السابقان، أي خيار "الانعزال" وخيار "توازن القوى".

ان الابقاء على حلف الناتو والتحالف الأمريكي مع اليابان سوف يشكل تحدياً كبيراً في ظل غياب العدو السوفييتي المشترك؛ فقد تتقلص ثقة الاوربيين واليابانيين في اضطلاع الولايات المتحدة الأمريكية بحماية مصالحهم. ومن ناحية

اخرى قد تتزايد صعوبة اضطلاع الولايات المتحدة بمثل هذا الدور، اذ ارتفعت تكاليف مواجهة التحديات المستقبلية للأمن الآسيوي والأوربي، في ظل عدم رضاء الرأي العام الأمريكي، لأن الاوربيين واليابانيين - من وجهة نظر الولايات المتحدة - لا يوفون بنصيبهم العادل في حماية المصالح المشتركة. بل ان المشكلات التجارية المتزايدة مع كل من اوربا واليابان قد تؤدي الى اضعاف العلاقات الأمنية، وربما تقوضها في النهاية. وما لم يتم ايجاد حلول لهذه المعضلات، من خلال اقامة منطقة للتجارة الحرة بين الولايات المتحدة والاتحاد الاوربي واليابان (وهذا هو الخيار المفضل)، وما لم يتم وضع ترتيبات امنية ودفاعية جديدة بين اعضاء منطقة السلام، فان التحالف الأمني بين اليابان والولايات المتحدة سيكون معرضاً للانهيار . ومن المسلم به ان اليابان او المانيا (او الاتحاد الاوربي) اذا سلكت طريقاً خاصاً بها، فسوف تزداد احتمالات ظهور نظام متعدد القطبية.

يمكن الحفاظ على المصالح الأمنية الأوربية ضمن اطار الزعامة الأمريكية، اذا ظل حلف الناتو هو الكيان الأساسي الذي يتعامل مع الصراع وعدم الاستقرار في الجنوب والشرق، ومع التطلعات الروسية لاسترداد الاراضي التي انسلخت عنها. وفي سبيل اداء هذا الدور، اصبح اعضاء الناتو - فيما يبدو - مستعدين للمحافظة على قدرة عسكرية قوية، لاحتواء النوازع الروسية، والحيلولة دون استيلائها على دول مثل اوكرانيا وجمهوريات البلطيق، وللاعداد لدخول دول اوربا الوسطى في عضوية التحالف، جنباً الى جنب مع عملية توسيع الاتحاد الاوربي، ولبناء قدرة اكبر على نقل القوات جنوبياً. واذا استمر هذا الاتجاه، فان

افرع القوات المسلحة الأمريكية، بما فيها القوات الجوية، سيكون عليها ان تعد العدة للقيام بمهام جديدة، نتيجة لتوسع حلف الناتو شرقاً والمخاوف ازاء الجنوب.

ليس في آسيا تحالف متعدد الأطراف مثل حلف الناتو، وانما يتمثل جوهر العلاقات الأمنية في الروابط القائمة بين الولايات المتحدة الأمريكية واليابان من جهة، والولايات المتحدة وكوريا الجنوبية من جهة أخرى. ومن مصلحة كل من الولايات المتحدة واليابان الابقاء على الروابط الأمنية فيما بينهما، مع ملاحظة ان علاقاتهما التجارية تنطوي على احتمال نشوء العداوة المتبادلة، اكثر مما تنطوي عليه العلاقات التجارية بين الولايات المتحدة والمانيا. ويتعين على قوات التعاون الأمني (الأمريكية واليابانية والكورية الجنوبية) ان تكون مستعدة للتعامل مع خطر كوريا الشمالية، وان تتخذ الحيطة ازاء غموض الاوضاع في روسيا والصين. كما ينبغي على الولايات المتحدة ان تستبقي عدداً كافياً من القوات في المنطقة لأغراض الردع، وان تلحق بها تعزيزات للدفاع عن المصالح الحيوية الأمريكية واليابانية والكورية. وحتى الآن، ما زال أكثر التهديدات احتمالاً هو قيام كوريا الشمالية بهجوم عسكري على كوريا الجنوبية. وبطبيعة الحال فان انهيار كوريا الشمالية وتوحدها مع كوريا الجنوبية قد يغير هذه الاوضاع تماماً، الى جانب انه سيطرح امام الولايات المتحدة حقائق جديدة، تستلزم اعادة النظر في حجم القوات الأمريكية، لاغراض التخطيط عموماً ومن اجل آسيا تحديداً.

واذا قررت الولايات المتحدة الأمريكية ان تضطلع بدور الزعامة العالمية، سيتعين عليها ان تحول دون حدوث هيمنة معادية على المناطق الحيوية. والمقصود بـ" المنطقة الحيوية" تلك المنطقة التي تحتوي على موارد اقتصادية وفنية وبشرية كافية، بحيث اذا سيطرت قوة معادية عليها، فسيشكل ذلك تحدياً

عالمياً. وهذا الموقف قد يتغير بالطبع في المستقبل، وعموماً فـان هنـاك حالياً منطقتين ينطبق عليهما هذا التعريف، هما أوربا وشرق آسيا. اما منطقـة الخليـج العربي، فتكتسب اهميتها بسبب مواردها النفطية الحيوية للاقتصاد العالمي؛ وهـذه الأهمية النسبية قابلة للتغير على المدى البعيد؛ فقد تتناقص الأهمية الحيوية لمنطقـة ما، بالنسبة للمصالح الأمريكية، بينما تكتسب مناطق اخرى اهمية اكبر. وكمثـال على ذلك منطقة جنوب شرق آسيا، التي من المرجح ان تزداد اهميتـها النسـبية طالما استمر نمو اقتصاديات المنطقة على وتيرته المثيرة للإعجاب. وفي المقـابل، قد تتراجع أهمية منطقة الخليج العربي، اذا ما توافـرت مصـادر طاقـة بديلـة أرخص، وأصبحت موارد المنطقة أقل حيوية للازدهار العالمي.

في الوقت الراهن ما زالت احتمالات حدوث هيمنة اقليميـة فـي أوربـا الغربية وشرق آسيا ضئيلة جداً، في حين ما زالت الولايات المتحدة الأمريكية هـي القوة الخارجية المهيمنة في منطقة الخليج العربي. وليس من المنتظر على المـدى القريب (١٠) سنوات ان تشكل موسكو تحدياً عالمياً، وان كانت تستطيع - حتـى مع ضعفها الحالي - ان تشكل تهديداً اقليمياً رئيسـياً خطـيراً، اذا مـا تجـددت نوازعها الامبريالية، لا سيما انها تشعر بالمرارة بسـبب مشـكلاتها الاقتصاديـة والسياسية، وما لحق بامبراطوريتها على مرأى ومسمع من العالم. وقـد تحـاول استرداد مجدها التليد من خلال تبني سياسات قومية متطرفة، تستعيد من خلالـها امبراطوريتها القديمة، وتفرض هيمنتها عليها من جديد.

كما تشير التصريحات الروسية الى وجود ميـل قـوي لاثبـات الوجـود الروسي دولياً، ولاعادة ضم ما يسمى بـ "دول الجـوار" (أي الـدول الموجـودة ضمن اراضي الاتحاد السوفييتي السابق). وفي الآونة الأخيرة سـاءت العلاقـات

بين روسيا والولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها الأوروبيين، بسبب الأعمال الوحشية التي ارتكبتها روسيا في الشيشان، وبيعها المفاعلات الى ايران؛ ومساندتها لرفع الحظر المفروض على العراق؛ ومعارضتها لتوسيع حلف الناتو. وسوف تزداد هذه العلاقة سوء عندما يتوسع حلف الناتو شرقاً، لأن روسيا قد ترد على هذا الأمر بتحسين علاقاتها مع ايران او الصين او الهند؛ بل وقد تسعى لاعادة ضم اوكرانيا وجمهوريات البلطيق ضمن المنطقة الروسية. وأصبح التحدي الماثل امام الغرب هو كيفية توسيع حلف الناتو، دون التسبب بتغيرات سلبية أخرى في السياستين المحلية والخارجية الروسية، مع الوضع في الاعتبار ان التوسع الروسي في اوكرانيا ودول البلطيق يحتم ان يعزز استراتيجية جديدة للاحتواء، يكون لها بالطبع انعكاسات كبيرة على التخطيط العسكري الأمريكي.

وبالنسبة الى آسيا، فقد تتحول جمهورية الصين الشعبية - وربما قبل روسيا- الى منافس عالمي، من خلال هيمنتها اولاً على على شرق آسيا، في ضوء نموها الاقتصادي الذي اصبح ينعكس الآن على تطورها العسكري؛ حيث ازداد الاستثمار الصيني في المجال العسكري زيادة كبيرة طوال السنوات القليلة الماضية. فمن الناحية العسكرية، زادت الصين من قدرتها على نقل قواتها، البحرية والجوية معاً، الى خارج حدودها، عن طريق شراء المعدات الروسية المتطورة، واستقدام العلماء العسكريين الروس لمساعدتها على زيادة انتاجها المحلي من المعدات المتطورة.

بيد ان الصين تمر بمرحلة من الغموض على صعيد سياساتها الداخلية، فقد تتشب أزمة بشأن خلافة دنج زياو بنج * الى جانب النزعات اللامركزية التي انطلقت من عقالها في بعض الأقاليم نتيجة للنمو الاقتصادي. وربما يواجه جيران الصين والمجتمع الدولي مشكلات خطيرة، بما فيها احتمال الحرب الأهلية، التي يمكن ان تقضي على الازدهار الاقتصادي وتخلق سيلاً من اللاجئين.

لكن الصين قوة طموحة، وهي أكثر الدول الكبرى تذمراً واستياءً من الأمر الواقع. وبعد ان استعادت هونج كونج ، بدأت الصين في العد التنازلي لعودة مكاو. ولم تكتف بذلك، بل ما زالت تطالب بالسيادة على مناطق واسعة لا تخضع حالياً لسيطرتها، مثل تايوان وجزر سبراتلي وبحر الصين الجنوبي وجزر سنكاكو الواقعة بين الصين واليابان. ورغم ان الصين تخلت عن الشيوعية كأيديولوجيا عالمية، وقبلت بالحقائق الاقتصادية للاقتصاد العالمي، الا انها ما تزال - من الناحية الجيوبوليتيكية - تبحث عن المكانة "التي تستحقها" في هذا العالم. وفي هذا الصدد قد يثور سؤال حول كيفية تحديد دورها، مع تنامي قوتها الى ما وراء مصالحها الاقليمية. والأمر الواضح ان الصين مستمرة في بحثها عن الهيمنة الاقليمية، وهو توجّه تُعارضه اليابان وروسيا والهند واندونيسيا وغيرها من دول المنطقة. وبغض النظر عن الهيمنة الاقليمية، فقد يتولد لدى الصين اهتمام بأن تتزعم ائتلافاً معادياً للولايات المتحدة، بناء على رفضها للزعامة الأمريكية عموماً، وهو ما يتم التعبيرعنه من خلال ردودها على بعض السياسات التي تشدد عليها الولايات المتحدة، مثل حظر انتشار الاسلحة النووية وضمان احترام حقوق

* توفي الزعيم دنج زياو بنج في ١٩ شباط / فبراير ١٩٩٧، واستطاع جيانغ زيمن الفوز بمنصب رئيس الدولة ورئيس الحزب الشيوعي (المحرر).

الانسان. ويتضح هذا الأمر بجلاء في المساعدة التي تقدمـــــها الـــى البرنـــامجين النووين الباكستاني والايراني. وينبغي ملاحظـــــة ان البيانـــات الصينيـــة، حـــول الاستراتيجية والأمن الدولي، تعبر عن العداء الشديد للهيمنة الأمريكيـــة، وتنـــادي بتحقيق التوازن معها. ولكن الصين، من جهة أخرى، تـــدرك اهميـــة الولايـــات المتحدة الأمريكية بالنسبة لها، كسوق للسلع الصينية وكمصـــدر للتدريـــب الفنـــي والتقني. وبعيداً عن المساندة الأمريكية لن يكون بامكان الصين تحقيـــق اهدافـــها الاقتصادية والعسكرية.

بيد انه ما تزال امام الصين عقود طويلة قبل ان تصبـــح منافســاً عالميـــاً حقيقياً، سواء بمفردها او بالتحالف مع الآخرين؛ وهذا ما يعطي الولايات المتحـــدة تحذيراً استراتيجياً كافياً. اما في المدى القريب فان الاعتبارات الاقتصادية، علـــى الأرجح، سوف تهيمن على الحسابات الصينية. ويشكل النجاح الاقتصادي الصينـــي معضلة للولايات المتحدة الأمريكية، لأنه قد يزيد من قدرة الصيـــن كـــي تصبـــح منافساً عالمياً؛ وان كان هذا من ناحية اخرى قد يعـــزز التوجـــهات الديمقراطيـــة واللامركزية ويزيد من التعاون الصيني.

وتستطيع الصين بوضعها الحالي، منفردة او زعيمة لتحـــالف يضـــم دولاً خارجة على القانون، ان تزيد من مشكلة الانتشار النووي العالمي، فـــي منـــاطق حساسة مثل الخليج العربي وشمال شرق آسيا. ولكي تحافظ الولايات المتحدة علـى دورها القيادي العالمي، لن يكون من مصلحتها قطع علاقاتـــــها مـــع الصيـــن او عزلها؛ بالرغم من ان استراتيجية الزعامة العالمية، من ناحية أخرى، تفرض على الولايات المتحدة ان تقيد نقل التقنية التي يمكن ان يكون لها انعكاســـات عســـكرية مهمة. وفي الوقت نفسه تفرض عليها ان تؤمن لجيران الصيـــن - مثـــل تـــايوان

ورابطة دول جنوب شرق آسيا - الوسائل اللازمة للدفاع عن نفسها. ونظراً لتزايد الأهمية الإقتصادية لهذه الدول، ينبغي على الولايات المتحدة ان تعــزز صلاتــها بدول هذه الرابطة، لتطويق واحتواء النزعة التوسعية الصينية، من خلال حصــول المؤسسة العسكرية الامريكية على التســـهيلات اللازمـــة، واجــراء التدريبــات المشتركة، وتقوية الاتصالات العسكرية المتبادلة. ويمكن للتعاون بيـــن الولايــات المتحدة واليابان، وغيرهما من دول المنطقة، ان يثنـــي الصيــن عــن توجهاتــها التوسعية. اما اذا اصر الصينيون على نزعتهم التوسعية، فسوف تصبح الولايــات المتحدة وحلفاؤها رهناً باسباب قوية لاحتواء هذا التوسع.

ولا شك ان الاضطلاع بدور الزعامة العالمية يعود بانعكاسات مهمة علــى المؤسسة العسكرية الامريكية، وعلى رأسها القوات الجويــة؛ لأن تحديــد شــكل المستقبل، وترسيخ النفوذ الأمريكي، ومنع ظهور منافس، كل ذلك ســيتطلب مــن القوات المسلحة للولايات المتحدة ان تتمتع بقدرات واسعة، تتجلــى علــى النحــو الآتي:

اولاً: الاحتفاظ بالرادع النووي ضد هجوم محتمل، روسي او صيني.

ثانياً : القدرة على خوض النزاعات الاقليمية الكبيرة وتحقيق النصر فيها.

ثالثاً: القدرة على الردع والتصدي، للحيلولة دون استخدام اسلحة الدمار الشـــامل والصواريخ في النزاعات الاقليمية؛ حيث لا يستبعد ان تــقُدم القـــوات المعاديــة على استخدام اسحلة الدمار الشامل والصواريخ في هذه النزاعات المستقبلية. ومــن ثم تحتاج القوات المسلحة الأمريكية لاكتساب قدرة متزايدة على الــردع والمنــع، والتصدي لاستخدام الاسلحة الجرثومية والكيمياوية والنووية في النزاعات الكــبرى بالمناطق الحيوية. مع ملاحظة ان مستلزمات الردع الاقليمي سوف تختلف كثـــيراً

عما كان متبعاً ازاء الاتحاد السوفييتي السابق خلال الحرب الباردة، بسبب اختلاف طبيعة القوى الاقليمية ودوافعها. جدير بالذكر ان قدرة الولايات المتحدة حالياً على منع استخدام اسلحة الدمار الشامل، او التصدي لها، ما زالت محدودة؛ مما قد يضطرها الى التلويح بالرد النووي، لردع استخدام اسلحة الدمار الشامل ضدها وضد حلفائها.

رابعاً: تحسين القدره على خوض الصراعات الاقليمية المحدودة والحروب الصغيرة، وعمليات الاغاثة الانسانية، وعمليات فرض وحفظ السلام، والقيام بضربات تأديبية واستعادة الأمن والنظام، واخلاء الرعايا الأمريكيين، واقامة مناطق أمنية، ومراقبة وتنفيذ العقوبات المفروضة (Builder, 1994, pp 225-237; Kassing, 1994, Lempert et al., 1992). وتستطيع الولايات المتحدة الأمريكية - في اطار الزعامة العالمية - ان تكون انتقائية في تدخلاتها العسكرية بمختلف انحاء العالم؛ لا سيما ان الصراعات الاقليمية المحدودة قد تنشب في مناطق ذات أهمية حيوية للولايات المتحدة، مثل المكسيك او شبه الجزيرة العربية. وهناك صراعات اخرى قد تشكل تحدياً كبيراً للقيم الأمريكية، مما يتطلب بالفعل تدخلاً عسكرياً أمريكياً. كما يمكن للولايات المتحدة ان تدرس موضوع المشاركة مع حلفائها في بعض الصراعات الاقليمية المحدودة، اما لتوسيع "منطقة السلام"، او للحيلولة دون انتشار الفوضى الى مناطق حيوية على نحو قد يقوّض اسس منطقة السلام والازدهار.

وهناك من لا يفكر بعقلية الحرب الباردة، ويرى ان الصراعات الاقليمية الصغرى محدودة الأهمية، وهو خطأ وقعت فيه الولايات المتحدة خلال الحرب الباردة، حيث اساءت تقدير متطلبات الصراعات الاقليمية المحدودة. اما الآن فمن

الخطأ التعامل مع مثل هذه الصراعات بالطريقة ذاتها، لا سيما ان حجم القوات الأمريكية في المستقبل سيكون أصغر كثيراً مما كان عليه في الماضي، بما لا يسمح باهدار الطاقات. ومعروف ان الصراعات الاقليمية - حتى المحدودة منها - يمكن ان تفرض متطلبات ضخمة على عناصر المساندة في القوات الأمريكية؛ مثل نظام الانذار والتوجيه المحمول جواً، ووحدات اسكات الدفاعات الجوية للعدو، وعناصر اقامة الجسر الجوي والاتصالات. وينبغي مراعاة تعديل هيكل القوات، التي كانت مخصصة لمواجهة الصراعات الاقليمية الكبرى، من حيث التدريب والتنظيم، لتحسين قدراتها على خوض الحروب الاقليمية المحدودة.

خامساً: الاحتفاظ بقاعدة للتعبئة؛ بحيث تتيح تجميع قدرة اضافية في الوقت المناسب، اذا تدهورت الأوضاع في أي منطقة حيوية. وبدون هذه القدرة لن يكون بامكان الولايات المتحدة اتخاذ الاجراءات المطلوبة في وقتها المناسب، رغم توفر التحذير الاستراتيجي.

سادساً: تغيير النهج التخطيطي، فمن المعروف ان النهج الحالي يركز اساساً على كوريا والخليج العربي، ويمكنها من التعامل مع الحروب الاقليمية المحدودة والقيام بعمليات مكافحة الانتشار النووي. ولكن حجم القوات المطلوبة - في ظل هذا النهج - لن يكون كافياً لمنع ظهور منافس عالمي آخر، وامتلاك القدرة على التعامل مع أي مشكلة يثيرها هذا المنافس. ورغم ان كوريا الشمالية مرشحة للاختفاء بمرور الوقت، فقد تظهر تهديدات اكبر. ومن ثم يتوجب على الولايات المتحدة ان تحدد حجم قواتها، فقد تظهر تهديدات اكبر. ومن ثم يتوجب على الولايات المتحدة ان تحدد حجم قواتها، بحيث تمتلك القدرة على الحاق الهزيمة، في وقت واحد تقريباً، بأكثر التهديدات العسكرية الفعلية للمصالح الحيوية

الأمريكية، التي قد تشنها احدى القوتين التاليتين في الترتيب بعد الولايات المتحدة من حيث القوة، ولكنهما بالطبع ليستا متحالفتين معها. واذا امتلكت الولايات المتحدة مثل هذه القوات، مدعومة بالقدرة السريعة على الحركة والتمركز في شتى ارجاء العالم، فسوف تتمكن من حماية مصالحها في آسيا وأوربا والخليج العربي؛ مع ملاحظة ان مبدأ تحديد حجم القوات، الذي ذكرناه، لا يلزم قوات الولايات المتحدة ان تتساوى عددياً مع حجم القوات الاجمالية لهاتين الدولتين، بل يعني ان تكون القوات الأمريكية قادرة على هزيمتها في مناطق محددة نسبياً، عند تحقق السيناريوهات ذات الأهمية العظمى للولايات المتحدة. ومثل هذا النهج يزود الولايات المتحدة بالقدرة العالمية المرنة على القيام بعمليات ضخمة.

سابعاً: السيطرة على الفضاء، وتطوير تقنيات عسكرية جديدة، وارساء مفاهيم جديدة تتواءم مع هذه التقنيات في مجالات مثل حرب المعلومات. وفي هذا الاطار يتعين على الولايات المتحدة اعطاء اولوية اكبر للبحوث الخاصة بالتقنية الجديدة، والمفاهيم الجديدة للتشغيل، والتغيرات في التنظيم، كل ذلك من اجل تحقيق السيطرة الأمريكية في الثورة العسكرية المقبلة. وقد أعطت حرب الخليج الثانية لمحة عمّا يحتمل ان يتحقق في المستقبل. ومن المؤكد ان طابع العمليات الحربية سوف يتغير بسبب تطور التقنيات العسكرية، وتجديد هياكل التشغيل والتنظيم، وهي مجالات تحتل فيها الولايات المتحدة الامريكية مكان الصدارة. ويصبح التحدي الأساسي امام الولايات المتحدة هو الاحتفاظ بهذه الصدارة. غير ان التفوق الأمريكي الحالي في القوة العسكرية قد ينشأ عنه خطر التواكل الأمريكي، لا سيما ان القوى الساعية لمنافسة الولايات المتحدة لديها حوافز قوية لاستكشاف التقنية الجديدة، والتعرف على كيفية استخدامها ضد الولايات المتحدة . واذا استطاعت

قوة ذات عزم وتصميم ان تتبنى الخيارات الصحيحة فسوف تشكل تحدياً هائلاً، يقلل من الفعالية النسبية للقدرات العسكرية الامريكية التقليدية، بغض النظر عن ضعفها الاقتصادي مقارنة بالولايات المتحدة الأمريكية.

ولا شك ان الاحتفاظ بموقع "الزعامة العالمية" يتوقف بدرجة كبيرة على ما يحدث داخل الولايات المتحدة؛ ومن أهم العوامل في هذا الشأن حالة الاقتصاد الأمريكي. فمن غير المحتمل ان تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية الحفاظ على تفوقها العسكري والتقني، اذا ما تراجع اقتصادها بشكل خطير، او اذا اختل ميزان القوى الاقتصادي – بدرجة حاسمة – لصالح دولة أخرى. وفي مناخ كهذا، ستتقلص القاعدة المحلية الاقتصادية والسياسية للزعامة العالمية، وربما تنسحب الولايات المتحدة تدريجياً من المسرح العالمي. واذا اصيبت الولايات المتحدة بالوهن، سيحاول الاخرون بالطبع ملء الفراغ، مما يعيد العالم الى حالة "تعدد القطبية". ومن ثم فان الزعامة العالمية تتطلب – بلا شك – اقتصاداً امريكياً قوياً.

هناك تغير مهم آخر، هو موقف الشعب الأمريكي نفسه. حيث تشير استطلاعات الرأي الى ان الشعب الأمريكي اصبح يركز انظاره بدرجة أكبر على المشاغل والهموم المحلية. وان كانت بعض الاستطلاعات – حول موقف الراي العام الأمريكي – تشير الى تأييد كثير من الأمريكيين للمشاركة الأمريكية النشطة في الشؤون العالمية، بينما يرى ٨٤% ان من الضروري تقليل الاهتمام بالمشكلات العالمية، والتركيز على المشكلات الداخلية للولايات المتحدة. وتؤيد اغلبية الأمريكيين تحقيق السلام "من خلال القوة العسكرية" (Times Mirror Center for the People and the Press, 1994, P 37).

وليس من المعروف على وجه اليقين ان كان الرأي العـام يؤيـد وجـود استراتيجية عالمية، وفق ما أوردناه بايجاز في هذا الفصل. ولكننا يمكن ان نضمـن هذا التأييد اذا طرح الرئيس الأمريكي هذه الاستراتيجية امام الشـعب، وسـاندها كبار اعضاء الحزبين الديمقراطي والجمـهوري، واذا جـرت مناقشـة تكاليفـها ومزاياها، ومقارنتها ببعض بدائلها. ومن البديهي ان استراتيجية الزعامة العالميـة تستوجب بالضرورة تكاليف أكثر مما تكلفه الاستراتيجيات الأخرى؛ وذلك بسـبب متطلبات المجهود الدفاعي، غير انه تجب مقارنة هذه التكـاليف مـع المخـاطر الكامنة في البدائل. وجدير بالذكر ان العبء الحالي – الذي تفرضه المجـهودات الدفاعية الأمريكية – أصبح اقل من أي وقت مضى منذ نشوب الحرب الكوريـة، حيث لا يتجاوز ٤% من اجمالي الناتج القومي.

هناك عامل آخر يقرر ما اذا كان بالامكان مواصلة دور الزعامة، وهـو درجة تدخل الولايات المتحدة الأمريكية في الصراعات العالمية، على ضوء الخطأ الذي ارتكبته بعض الدول العظمى في الماضي عندما تمددت أكـثر مـن الـلازم (Kennedy, 1987). ويمكن ان يحدث مثل هذا التطـور اذا لـم تلـزم الولايـات المتحدة جانب التعقل في استخدامها للقوة، او اذا تورطت في نزاعات مطولة بـأي منطقة، مما يستنزف طاقاتها ويقوض الدعـم لدورهـا العـالمي. وفـي سـياق اضطلاعها بدور الزعامة سوف تهتم الولايات المتحدة بمصالحـها الحيويـة فـي المناطق الحساسة، مع ابداء استعدادها لاستخدام القوة اذا اخفقت الوسائل الاخـرى. وعندما تستخدم الولايات المتحدة القوة، يجب ان تسعى لاشراك حلفائها واصدقائـها في هذا الأمر.

اما عندما يتعلق الأمر بمصالح اقل اهمية، فقد تعتمد الولايات المتحدة الأمريكية على خيارات غير عسكرية، خصوصاً اذا كانت التكاليف العسكرية لا تسوغ المخاطر التي تنطوي عليها. وفي هذه الحالة تبرز خيارات اخرى؛ منها تقديم التسليح والتدريب للدولة المعتدى عليها، وتقديم المساعدة الفنية والدعم اللوجستي لعمليات حفظ السلام المفروضة من جانب الأمم المتحدة او المنظمات الاقليمية، واستخدام الوسائل الاقتصادية مثل العقوبات والحوافز الإيجابية، وعلى رأسها بالطبع الوسائل الدبلوماسية.

في ظل هذه القيود يصبح من مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية ومصلحة الأعضاء الآخرين في "منطقة السلام" ان تمتد هذه المنطقة حتى تشمل في النهاية العالم بأسره. والسبب في تفضيل هذه العملية الارتقائية، ان احتمال تعاون الدول الديمقراطية مع الولايات المتحدة اكثر من احتمال تهديدها لمصالحها. ولكن لا يبدو في الأفق بوادر تحقق هذا الأمل في المستقبل القريب، اذ ان كثيراً من المناطق والدول ليست مهيأة لهذا التطور بعد، ومن ثم فان الولايات المتحدة ستضطر مع حلفائها الى توسيع "منطقة السلام" بصورة انتقائية، ومساعدة الآخرين على الانضمام اليها.

من المؤكد ان اعضاء "منطقة السلام" لديهم مصلحة مشتركة في استقرار اوروبا وأمريكا الشمالية وشرق آسيا والخليج العربي. فاليابان، مثلاً، تستورد النفط من الخليج، وتصدر منتجاتها الى المناطق الحيوية الأخرى، وتستثمر اموالها فيها. وهذا الأمر ينطبق ايضاً على اوربا؛ مما يجعل اضطلاع الولايات المتحدة بدور الزعامة العالمية مفيداً لها ولباقي الاعضاء في "منطقة السلام". ولكن مكمن الخطر هو احجام الاعضاء الآخرين عن تحمل نصيبهم العادل من العبء اعتماداً

على الاستفادة المجانية. وتلك كانت احدى المشكلات خلال الحرب الباردة، وما زالت قابلة للاستمرار. بل انها قد تتفاقم اذا تلاشت عملية اقتسام الاعباء، نتيجة لزوال التهديد السوفييتي وعدم وجود هدف مشترك. وهذا الأمر يطرح قضية سياسية - بل معضلة عصيبة - أمام الولايات المتحدة؛ لأن قدرتها واستعدادها لحماية المصالح المشتركة يجعل الآخرين في الدول الأخرى يتكلون عليها، ومن ثم يسيطرون على المعارضة السياسية في بلادهم، ولا يعرضون شبابهم للمخاطر، ويستمرون في التركيز على اقتصاداتهم.

ان اضطلاع الولايات المتحدة الأمريكية بدور الزعامة العالمية يفرض عليها ان تكون مستعدة لتحمل عبء عسكري اكبر من حلفائها نتيجة لعدم التناسب. بيد ان الحقائق السياسية في الولايات المتحدة تقتضي الا يتجاوز "عدم التناسب" الحدود المقبولة، وانما يجب تحقيق صيغة معينة من التوازن، تضمن مساهمة كل دولة "بدمائها وثرواتها" في حماية المصالح المشتركة. ومن الحلول الممكنة على المدى الطويل، اقامة مؤسسات لتنظيم اقتسام العبء بين مجموعة الدول السبع بالنسبة لأمن المناطق الحيوية، بما في ذلك اقتسام التكاليف المالية للعمليات العسكرية. كما تجدر الاشارة الى ان المسائل المتعلقة بالمسؤولية، في المناطق الخارجة عن نطاق عمل المجموعة، تتسم بالاهمية في زمن السلم، سواء على الصعيد الروتيني اليومي او في اوقات الازمات والحروب. وفي المقابل، سوف يضع الاقتسام الفعال للأعباء بعض القيود على سياسة الولايات المتحدة؛ اذ يعني انه سيكون على الولايات المتحدة ان تولي اهتماماً اكبر بآراء شركائها ومخاوفهم، وتتحمل المخاطرة بارواح الجنود الأمريكيين في سبيل حماية المصالح المشتركة.

الخلاصة

بامكان الولايات المتحدة اختيار واحدة من الاستراتيجيات الثلاث الكـــبرى التي بحثناها في هذا الفصل. ويمكنها ايضاً الا تختار، وان تلجأ بدلاً من ذلك الـــى الاستجابة للتطورات الجارية في العالم، على اساس كل قضية علـــى حـــدة، وان تصدر احكامها على احداث معينة بناء على الاوضاع، المحلية والدولية، الســـائدة في حينه. ومن الواضح ان الخيار الأخير - أي الزعامة العالمية - ســـوف يُلقـــي على كاهل القوات المسلحة الأمريكية اعباء اضافية، الى جانب ضياع الفرصة من يد الولايات المتحدة لتحديد شكل المستقبل. وما لم تمتلـــك الامكانيـــات اللازمـــة، استعداداً لمواجهة جميع الصراعات المحتملة في العالم - وهو أمر غير مرجـــح - فسوف تصبح في موقف اضعف عند وضع خططها على المدى الطويل.

الفصل الثالث

لمن القرن الحادي والعشرين

في القرن الحادي والعشرين قد تتقارب متوسطات المداخيل الفردية في الدولة الصناعية الرئيسية، تماما مثلما تقاربت متوسطات المداخيل الفردية الإقليمية داخل الولايات المتحدة في السنوات الستين الماضية. وبينما تلحق اليابان بأمريكا واوروبا، فإن معدل نموها قد ينخفض ويمنعها من الركض بأقصى سرعة تجعلها في مقدمة الجماعة. ولكن ليست هناك آليات للتغذية الاسترجاعية الذاتية في الاقتصاديات تؤدي إلى التقارب. والعكس هو الصحيح، فكلما كان النمو سريعا اليوم، سهل النمو السريع غدا، وكلما كان النمو بطيئا اليوم كلما زاد بطئا غدا.

ومن الصعب قلب قوة الاندفاع الحالية، سواء إلى أعلى أو إلى أدنى، رأسا على عقب. وإذا كانت المداخيل ترتفع بسرعة مع نمو مرتفع، يمكن القيام باستثمارات ضخمة في المستقبل بدون التضحية بمستوى معيشة مرتفع اليوم. ويمكن تحقيق الأمرين بالنمو السريع، وبالعكس، يتطلب تحويل مجتمع بطيء النمو، قليل الاستثمار، إلى مجتمع ذي نمو سريع واستثمار مرتفع، تضحيات في الاستهلاك الحالي لضمان الاستثمار اللازم لنمو أسرع غدا.

في السباق المقبل، من المرجح أن تتقدم إحدى القوى الاقتصادية العظمى الثلاث على القوتين الأخريين، ومن يتقدم قد يبق متقدما. وستمتلك هذه الدولة أو المطلقة، من بين دول أو مناطق المعمورة، القرن الحادي والعشرين كما امتلكت المملكة القرن التاسع عشر، وكما امتلكت الولايات المتحدة القرن العشين. وستتبنى تلك الدولة أو المنطقة أفضل نظام اقتصادي للعالم في القرن الحادي والعشرين.

وفي حين أن التقارب غير محتمل، إلا أنه من غير المحتمل أيضا في القرن الحادي والعشرين، أن تكون هناك قوة اقتصادية مهيمنة، كما كانت بريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، أو كما كانت الولايات المتحدة في القرن العشرين. إذ إن هيمنة بريطانيا في القرن التاسع عشر استندت إلى أنها كانت البادئة بالثورة الصناعية قبل أية دولة أخرى بخمسين سنة. وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر لم يكن أمام بريطانيا أية منافسة، وعندما بدأت الثورة الصناعية في دول أخرى، ظلت بريطانيا القوة الأقوى، غير أن موقفها كان مختلفا جدا عما كان عليه الحال عندما كانت تمتلك ميدان اللعب الاقتصادي بمفردها. لقد ظلت الأولى، ولكن بضغوط شديدة من جانب الآخرين، لا سيما من قبل ألمانيا والولايات المتحدة.

وبالمثل، كانت الهيمنة الأمريكية في النصف الثاني من القرن العشرين، مبنية على تجربة تاريخية فريدة. ففي النصف الأول من القرن كانت أمريكا القوة الاقتصادية الرائدة. لقد كان لديها أكبر ناتج قومي إجمالي، وأعلى متوسط فردي في مستوى المعيشة، وكان هناك من يتحداها، ألمانيا الغربية والمملكة المتحدة. وفي صناعات مثل الكيماويات، كانت الولايات المتحدة متخلفة بالتأكيد. وكانت العلوم الراقية، الكيمياء والفيزياء، من اختصاص الألمان الغربيين.

ولكن في النصف الثاني من القرن، ترك دمار الحرب العالمية الثانية ساحة اللعب الاقتصادية خالية إلا من الولايات المتحدة. وأصبح الآخرون متخلفين كثيرا، يكافحون من أجل الأعمار. ولم يشهد العالم مثيلا للهيمنة الاقتصادية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية (كان لديها أكثر من نصف الناتج القومي

الإجمالي العالمي، وكانت رائدة تكنولوجيا في كل منتج صناعي هام) منذ الإمبراطورية الرومانية، وربما لن يعرف مثلها مرة أخرى في الألفي سنة المقبلة.

ونتيجة لذلك، من المتوقع أن تظهر في القرن الحادي والعشرين دولة تتمتع بالريادة الاقتصادية الواضحة، لكنها لن تسيطر على باقي الدول.

تقييم الفرق

اليابان

ولئن كان المتنافسون الثلاثة يمتلكون سجلات رائدة متعادلة (متوسط فردي متعادل تقريبا من النواتج القومية الإجمالية، إذا ما استخرج المتوسط على أساس القوة الشرائية الخارجية والداخلية) وهم على عتبة القرن الحادي والعشرين، فإنه إذا ما نظر المرء إلى العشرين سنة الأخيرة، أمكن اعتبار اليابان الدولة المرشحة، بكل تأكيد، لاحتلال مركز الصدارة الاقتصادية، وامتلاك القرن الحادي والعشرين.

خلال فترة عشرين سنة فقط، انتقلت اليابان من كونها صاحبة متوسط دخل قومي إجمالي يعادل ٥٠% فقط من متوسط الناتج القومي الإجمالي للولايات المتحدة، إلى صاحبة متوسط دخل قومي إجمالي أعلى شكليا بنسبة ٢٢% من متوسط الدخل القومي الإجمالي للولايات المتحدة، وذلك إذا ما قدر الناتجان القوميان الإجماليان لهما باستخدام القيم الدولية للعملة. وبعد أن كانت البنوك اليابانية خارج قائمة البنوك الخمسة عشر الكبرى في العالم عام ١٩٧٠، أصبحت عشرة بنوك من البنوك الخمسة عشر الكبرى في العالم عام ١٩٩٠، بنوكا يابانية، وكانت البنوك الستة الأولى كلها يابانية. وبعد أن كانت اليابان تملك حصة ٥%

من سوق صناعة السيارات الأمريكية عام ١٩٧٠، ارتفعت حصتها عـــام ١٩٩٠ إلى ٢٨%. وفي غضون عشرين سنة فقط، قضت اليابان تمامــــا علـــى صناعـــة الإلكترونيات الاستهلاكية الأمريكية. وبعد أن كان من المعتاد وجود عجز تجـاري لدى اليابان، وكانت دولة ذات رصيد مدين (لقد انتهت من سداد آخر ديونها للبنـــك الدولي عام ١٩٩٠ فقط)، أصبحت اليوم صاحبة أكبر رصيد دائـــن فـــي العـــالم، ولديها أكبر فائض تجاري في العالم. وفي السنوات الخمس عشرة الأخـــيرة، مـــع أخذ التضخم في الحسبان، كان معدل نموها أكبر بنسبة ٧٥% مـــن معـــدل نمـــو الولايات المتحدة، وكان ضعف معدل نمو الجماعة الأوروبية. وقـــد تعـــذر فـــي منافسة التناطح إلحاق الهزيمة بشركاتها المجتمعية.

وتعتبر السوق اليابانية المحلية اصغر أسواق المتنافسين الثلاثـــة الكبـــار، ولكن لديها ميزة التاريخ الموحد الطويل. فالتماسك والتجانس يعطيان اليابان القدرة على تركيز قوتها الاقتصادية بحيث لا يستطيع الآخرون منافستها. ولا تود دولـــة تستطيع أن تنظم نفسها بشكل أفضل للسير نحو أهداف مشتركة مدروســـة جيـــدا. ويتربع طلاب المدارس الثانوية اليابانيون على القمـــة بكـــل المقـــاييس الدوليـــة للإنجاز، ولا يمكن لأية دولة أخرى أن تضاهي قدرة الدولة اليابانية علـــى تعليـــم النصف الأدنى من طلبة الصفوف الثانوية.

لا توجد دولة تستثمر في مستقبلها أكثر من اليابان. فالاستثمار الإجمـــالي الثابت، بما في ذلك الإسكان، يساوي ضعفي الاســـتثمار الإجمـــالي الثـــابت فـــي الولايات المتحدة. ويبلغ الاستثمار في الأصول الرأسمالية بالنسبة إلى الفرد ثلاثـــة أضعاف نظيره في الولايات المتحدة، وضعفي نظيره في أوروبا، ويزيـــد الإنفـــاق على البحث والتطوير المدنيين كجزء من الناتج القومي الإجمـــالي بنســـبة ٥٠%

على نظيره في الولايات المتحدة، وهو أعلى قليلا من نظيره في ألمانيا، إلا أنه أعلى بكثير من مثيله في أوروبا ككل. وعندما يتعلق الأمر بالاستثمار من أجل المستقبل، يتمتع تنظيم الشركات على أساس مبادئ "الاقتصاديات الإنتاجية" ببعض المزايا الرئيسية مقابل تلك الشركات القائمة على أساس "الاقتصاديات الاستهلاكية".

إن قوة اليابان (ثقافتها الداخلية المتماسكة القوية) هي سبب ضعفها أيضا. فقد أظهرت الشركات اليابانية قدرة من الدرجة الأولى في إدارة العمال الأجانب (يحصلون غالبا على إنتاجية من العمال الأجانب أكبر مما يستطيع المديرون الأجانب). ولكن تعاني اليابان من مشكلة تتعلق بمدى ما تحتاج إليه اللعبة الاقتصادية في القرن الحادي والعشرين من شركات يتم فيها إدماج المديرين والمهنيين المتخصصين من مختلف الثقافات والجنسيات في فريق متجانس. إذ أن تاريخ اليابان وتقاليدها وثقافتها ولغتها تجعل من الصعب جدا معاملة المديرين الأجانب والمهنيين، على قدم المساواة مع اليابانيين. وإذا ما تطلب الفوز مديرين اجانب من الدرجة الأولى بالكامل، فستواجه الشركات اليابانية مشكلة. وينطوي تعيين مديرين أجانب ممتازين جدا على إتاحة الفرصة أمام هؤلاء الأجانب للوصول إلى القمة، إلا أن مثل هذه الفرصة غير متوافرة في الثقافة المغلقة للشركات اليابانية.

وفي حين أن كل دولة تقلد محاولة اللحاق، إلا أن الدولة التي أصبحت رائدة تعلمت في النهاية أيضا أن تصبح رائدة في الاختراعات. ولم تظهر اليابان بعد أنها تملك هذه المقدرة. وبدون هذه المقدرة لا تستطيع اليابان أن تظل متقدمة إلا قليلا على الدول الأغنى في أماكن أخرى من العالم، بسبب قوتها البارزة في

مجال تكنولوجيات العمليات والمعالجات. غير أنها لا تستطيع أن تسبق كثيرا ما لم تتعلم اختراع منتجات جديدة. وإذا اكتفت اليابان بتقليد منتجات الدول الأخرى، فسيكون تقدمها الاقتصادي مقيدا بمسيرة مخترعات منافسيها.

عندما نحاول أن نقرر ما إذا كانت اليابان ستصبح، أم لا، رائدة في تكنولوجيات المنتجات الجديدة، يحسن أن نتذكر قليلا التاريخ الأمريكي. ففي القرن التاسع عشر، كانت الولايات المتحدة تعرف بأنها دولة المقلدين. وكانت المخترعات الكبرى التي آذنت ببدء الثورة الصناعية (الآلة البخارية، ودولاب الغزل، وفرن بيسمر للصلب) مخترعات بريطانية.

وقد اشتهر الأمريكيون بأنهم كانوا يأخذون هذه الابتكارات ويجعلونها تعمل أفضل من الابتكارات البريطانية بنسبة ١٠%، مثلما اشتهر اليابانيون اليوم بأخذ الابتكارت الأمريكية وجعلها تعمل أفضل بنسبة ١٠% من الابتكارات الأمريكية. وتاريخيا، كان شعار اللعبة التقليد من أجل اللحاق. وبعد أن لحقت الولايات المتحدة بالركب في نهاية القرن التاسع عشر، تعلمت في النهاية أن تكون مبدعة في القرن العشرين، ولكنها احتاجت إلى نصف قرن للقيام بذلك. ولم تكن رائدة علميا في النصف الأول من القرن العشرين، ورغم أنه كان لديها أعلى متوسط فردي من الناتج القومي الإجمالي في العالم، لم تستطع أن تتقدم على باقي العالم إلا بعد أن تصدرت الريادة العلمية في منتصف القرن.

وعندما تنجح اليابان في اللحاق، فإنها كما أعتقد، ستتعلم أيضا أن تبتكر. والمهارة المطلوبة لتحسين العمليات لا تقل عن المهارة اللازمة للانتقال إلى صنع سلع جديدة نموذجية. ويخشى اليابانيون من عدم قدرتهم على تحقيق إنجازات كبيرة، ولكن القارئ الموضوعي للتاريخ قد لا يرى مبررا لخشيتهم. والمشكلة

الوحيدة هي العنصر الزمني. ربما احتاجت اليابان إلى نصف قرن تماما مثلما احتاجت الولايات المتحدة إلى نصف قرن، لكي تصبح مبدعة.

لقد استند النجاح الياباني إلى اقتصاد موجه نحو التصدير. وكانت الصادرات هي الجزء الأسرع نموا في الاقتصاد. وكانت صناعات التصدير رائدة في الإنتاجية. ودفعت الصادرات الاقتصاد المحلي إلى الأمام. وافتقرت الصناعات المحلية غالبا إلى الكفاءة وفقا للمقاييس العالمية، غير أن الاستراتيجية الموجهة نحو التصدير لن تكون طريق النجاح الياباني في المستقبل.

لكي تنمو اليابان بوتيرة أسرع من باقي دول العالم، يجب على صناعات التصدير اليابانية أن تسيطر أكثر فأكثر على حصص في السوق الأجنبية لضمان أن تكون اليابان قادرة على تسديد أثمان الواردات من المواد الخام التي تحتاج إليها لتجعل اقتصادها قادرا على الاستمرار في السباق. ويمكن لباقي دول العالم أن تتسامح مع هذا الوضع طالما ظلت الصادرات اليابانية قليلة. ولكن تعتبر اليابان الآن قوة اقتصادية كبيرة لدرجة أن باقي العالم لا يستطيع أن يسمح للصادرات اليابانية بالتزايد والسيطرة على أسواقه بالمعدل اللازم لاستمرار اليابان في النمو بوتيرة أسرع كثيرا من باقي دول العالم. وستعمل باقي دول العالم ببساطة على منع اليابان من أن تصبح اقتصادا موجها نحو التصدير في القرن الحادي والعشرين، وذلك بوضع قيود مكشوفة إذا لزم الأمر. وإذا أرادت اليابان أن تنمو بصورة أسرع من باقي العالم في القرن الحادي والعشرين، فيجب عليها أن تجد وسيلة للقيام بذلك في الوقت الذي تنمو فيه الصادرات بمعدل أبطأ كثيرا من معدل نمو ناتجها القومي الإجمالي. ويجب على اليابان بالضرورة أن تحول نفسها إلى اقتصاد تحركه الطلبات المحلية بدلا من أن تدفعه الصادرات.

ستزداد الحاجة إلى التحول من اقتصاد موجه نحو التصدير إلى اقتصاد بحركة الطلب المحلي نتيجة لإقامة أشباه الكتل التجارية في أوروبا وأمريكا الشمالية، وسيقتضي عالم أشباه الكتل التجارية وجود شركات يابانية ينظر إليها كشركات داخلية وليس خارجية في كل من أوروبا وأمريكا، وسيعني هذا إنتاجا خارجيا أكبر وصادرات أقل من اليابان.

وإذا ما نجحت اليابان في أن تصبح اقتصادا موجها نحو الداخل، فستكون الاستثمارات في الإسكان والبنية التحتية في مقدمة الركب، حيث تعتبر اليابان دولة متخلفة أساسا في هذين المجالين. وبدون الإسكان والطرق والمتنزهات، لن ترتفع مستويات المعيشة في اليابان إلى المستويات العالمية، مهما تكن الإنتاجية التي يحققها مواطنوها في العمل. ويعتبر الإسكان عنق الزجاجة الذي يتطلب تغييرات رئيسية في التقاليد التي ادت إلى وجود أراض لزراعة الأرز في وسط طوكيو نتيجة لانخفاض ضريبة التركات على أراضي الأرز دون الأصول الأخرى، ونتيجة القوانين الصارمة للظل، وقوانين الزلازل التي تمنع إقامة المباني المرتفعة في طوكيو، وعدم الاستعداد لاستخدام قوانين حق الاستيلاء العلم لتملك قطع الأراضي اللازمة لمشروعات الإسكان الضخمة والبنية التحتية العامة. وبدون كسر هذه التقاليد لن تحدث إنجازات كبيرة في مجال بناء المنشآت السكنية، وبدونها أيضا سيبقى اليابانيون شعبا فقيرا في دولة ثرية.

قد تكون شركات الأعمال اليابانية الموجهة نحو الإقتصاديات الإنتاجية الأفضل في اللعبة الاقتصادية في القرن الحادي والعشرين، ولكن إذا ما أراد اليابانيون الفوز، فيجب أن يتم تطعيم الاقتصاديات الإنتاجية بقدر من الاقتصاديات الاستهلاكية. فيجب على المالك النهائي للقرن الحادي والعشرين أن يوازن بين

هاتين المجموعتين من الدوافع البشرية. وهناك درجة شديدة من الاستياء في مسألة الإسكان بين العمال المهنيين الشبان اليابانيين بحيث يصعب الاعتقاد بأن اليابان ستكون قادرة على مقاومة التغيير. وفي النهاية سيكون على الدول الديمقراطية، حتى لو كانت ديمقراطيات الحزب الواحد، أن تستجيب لرغبات مواطنيها.

قد يحول تاريخ اليابان وثقافتها دون أن تنشئ شبه كتلة تجارية في حوض الهادئ لمنافسة أشباه الكتل التجارية في أوروبا والأمريكيتين. وربما تفضل كوريا والاقتصاديات ذات الأساس الصيني (الصين وتايوان وهونج كونج وسنغافورة) إعداد ترتيبات خاصة مع سوقها المفضلة، الولايات المتحدة، بدلا من منافستها الرئيسية، اليابان.

وتنطوي الكتل التجارية على قدر ما من التنقلات العمالية. ولكن هذا يعني وجوب قبول اليابانيين بفكرة العمال الضيوف. وإذا كانت أوروبا الغربية تخشى هجرة العمال من اوروبا الوسطى والشرقية، فلنتصور ما يمكن أن يحدث إذا ما فتحت الحدود بين اليابان والصين. فقد ينتقل ملايين من الصينيين إلى اليابان، بيد أن ثقافة اليابان قد تجعلها أقل دول العالم رغبة في، أو قدرة على، امتصاص مهاجرين. وإذا أرادت اليابان تحقيق النجاح، فعليها أن تغير ثقافتها التي تعتبر من أقل الثقافات في العالم تقبلا للأجانب، لكي تصبح أكثر ترحيبا بهم. وقد تظهر تركيبات تجارية خاصة محدودة، ولكن لا يبدو أن اليابان ستكون قادرة على إقامة سوق مشتركة في حوض الهادئ لمنافسة المجموعة الأوروبية، وليس هناك أي دليل على استعداد اليابان لإجراء التعديلات الضرورية التي يجب عليها القيام بها.

ولكن سيظهر أي تحليل لقوى الفرق قبل أن تبدأ المباراة، أن اليابان تـــأتي إلى المنافسة بزخم كبير. فهي تنمو بوتيرة أسرع، وتستثمر في النمـــو المســـتقبلي مقدارا أكبر من أية دولة أخرى على وجه الأرض. وإذا كان لدى نوادي القمـــار في لاس فيجاس (Las Vegas) مراهنات اقتصادية، مثل المراهنات الرياضية، فقـــد تكون اليابان الرهان المفضل لامتلاك القرن الحادي والعشرين. وعندمـــا ينظـــر المؤرخون إلى الوراء بعد مائة سنة من الآن، سيقولون على الأرجـــح أن القـــرن الحادي والعشرين كان قرن اليابان.

أوروبا

بينما اعتبرت أوروبا أبطأ لاعب في الثمانينات، فإنـــها تبـــدأ التســـعينات بأقوى مركز استراتيجي على رقعة الشطرنج الاقتصادية العالمية. ويشبه مركزهـــا إلى حد كبير ما يشار إليه فـــي كتـــب الشـــطرنج باســـم "المباريـــات النهائيـــة" (endgames)، التي تبني للقارئ تشكيلات من اللاعبين على رقعة الشطرنج، وتقـــول له بأن الأسود يمكن أن يكسب في خمس نقلات، بغض النظر عما يفعله الأبيـــض. ولكن القارئ يواجه مهمة صعبة في اكتشاف هذه النقلات الخمس والقيام بها. ومن الناحية الاقتصادية، تحتل أوروبا مثل هذا الموقع تماما. وإذا ما قـــامت بـــالنقلات الصحيحة، يمكن أن تصبح القوة الاقتصادية المهيمنة في القرن الحادي والعشرين، بغض النظر عما تفعله كل من اليابان والولايات المتحدة. وفي هـــذه الحالـــة فـــي الإمكان رؤية النقلات الصحيحة، ولكن من الصعب القيام بها.

إذا استطاعت أوروبا حقا أن تدمج المجموعة الاقتصادية الأوروبية (EEC) (٣٣٧ مليون نسمة) في اقتصاد واحد، وأن تتحرك بالتدريج، لامتصـــاص بـــاقي

دول أوروبا (أكثر من ٥٠٠ مليون نسمة) في البيت الأوروبي، لأمكنها أن تقيم معا اقتصادا لا يمكن لأية دولة أخرى أن تجاريه. إذ إن سكان أوروبا وعددهم ٨٥٠ مليون نسمة، هم الثمانمائة والخمسون مليون نسمة الوحيدون على وجه الأرض الذين يتمتعون، في آن معا، بالتعليم الجيد ولا يعانون من الفقر. كما أن بعض الدول التي ترغب في الانضمام إلى المجموعة الاقتصادية الأوروبية، مثل السويد وسويسرا والنرويج والنمسا، هي في الحقيقة من بين أغنى دول العالم.

تتمثل الميزة الجوهرية لأوروبا في أن كل دولة فيها تقريبا انطلقت من منطلق تعليمي جيد. وربما لم يكن في مقدور الشيوعيين أن يديروا اقتصاديات جيدة، ولكنهم استطاعوا أن يديروا بعض أفضل نظم التعليم على وجه الأرض، من الروضة إلى الصف الثاني عشر (K-12). فأوروبا هي المنطقة الوحيدة التي توجد فيها دولة، وهي ألمانيا، تعتبر رائدة عالمية في الإنتاج والتجارة، وأخرى هي الاتحاد السوفياتي سابقا، تعتبر رائدة في العلم الراقي المتقدم، ولدى الاتحاد السوفياتي سابقا قذائف فضائية أكثر بكثير مما لدى الولايات المتحدة، كما أنه يعتبر رائدا عالميا في العديد من ميادين العلم النظري. وكان الفائض التجاري في ألمانيا الغربية عام ١٩٩٠، أكبر فائض في العالم حسب المتوسط الفردي، حيث كان ثلاثة أضعاف الفائض التجاري الياباني تقريبا. وبعد عقدين من الآن عندما تندمج ألمانيا تماما وتصل إلى مستويات الإنتاجية في ألمانيا الغربية، ستصبح ألمانيا أكثر قوة أيضا. كما أن أسواق ألمانيا التقليدية، في أوروبا الوسطى والشرقية، مؤهلة لأن تكون الأسرع نموا في العالم في أوائل القرن الحادي والعشرين.

وإذا ما أضيف العلم الراقي للاتحاد السوفياتي السابق وتكنولوجيات الإنتاج في العالم الناطق بالألمانية، إلى ملكتي التصميم الإيطالية والفرنسية وسوق رأس المال اللندنية ذات المستوى العالمي والتي توجه الأموال بفعالية إلى أكثر المناطق إنتاجية في أوروبا، لأمكن خلق شيء يستحيل مضاهاته، ويمكن أن يصبح البيت الأوروبي منطقة اكتفاء ذاتي، سريعة النمو نسبياً، تستطيع أن تسبق بقية العدائين بمسافة طويلة.

وحيث تمثل الدول الأوروبية كلا من النوعين المجتمعي والفردي في الرأسمالية، فقد تؤدي الحلول الوسط اللازمة لتوحيد أوروبا إلى امتزاج واتصال بين أفضل ما في النوعين، ولن يكون على الأوروبيين أن يتبنوا الأيديولوجيات الأجنبية، أمريكية كانت أم يابانية.

يتمتع الأوروبيون أيضا بميزة القدرة على وضع القواعد التجارية للقرن الحادي والعشرين. وليس مستغربا أن يضع أولئك الذين يملون القواعد، قواعد تمالئ من يلعبون المباراة بالطريقة الأوروبية.

ومع ذلك، لا يعني هذا أن أوروبا ستفوز. بل يعني فقط أن أوروبا يمكن أن تفوز إذا ما قامت بالنقلات الصحيحة تماما، بغض النظر عن كيفية لعب كل من الولايات المتحدة واليابان للمباراة الاقتصادية، وتنطوي النقلات الصحيحة على مشكلتين رئيسيتين. فاقتصاديات أوروبا الغربية يجب أن تندمج حقا، وأن يمتد هذا الاندماج بسرعة ليضم أوروبا الوسطى والشرقية. ويجب أن تصبح اقتصاديات الدول الشيوعية السابقة في أوروبا الوسطى والشرقية اقتصاديات سوق ناجحة. ولا يعتبر أي منهما عملا يسيرا. كلاهما يقتضي من المواطنين الأوروبيين الرغبة في القيام بتضحيات اليوم لإنشاء قوة دفع اقتصادية ضخمة غدا.

وسيتوجب على أوروبا الغربية أن تكون راغبة في تقديم مبالغ كبيرة من العون الاقتصادي لدول أوروبا الوسطى والشرقية، لكي تقف الرأسمالية على قدميها.

وسيكون من الضروري على أوروبا أن تطرح جانبا التناحر العرقي والتخاصم على الحدود القديمة في كل من شرقها وغربها. ويجب على كل من الإنجليز والألمان أن يصبحوا أوروبيين. وتظهر بوضوح ردود فعلهم المختلفة حيال حرب الخليج، ما تبقى من مشكلات سياسية يجب تجاوزها. وعلى الرغم من هذه العقبات، يقف البيت الأوروبي في أقوى نقطة انطلاق على رقعة الشطرنج الاقتصادية العالمية.

الولايات المتحدة الأمريكية:

كان الصراع بين الرأسمالية والشيوعية صراعا اقتصاديا أيديولوجيا وعسكريا، فالرأسمالية والديمقراطية ومجموعة أحلاف عسكرية منتشرة في العالم (مثل حلف شمال الأطلسي (NATO)، على سبيل المثال) وقفت ضد الشيوعية والكيانية ومجموعة أحلاف منتشرة في العالم، حلف وارسو على سبيل المثال (Warsaw Pact). وفي النهاية أدى الضعف الاقتصادي للشيوعية إلى انتصار الرأسمالية، وانتشار الديمقراطية والتخلي عن حلف وارسو في آذار/مارس ١٩٩١، وتفكك الاتحاد السوفياتي نفسه نهائيا.

إن الاختلاف بين الرأسمالية الفردية والرأسمالية المجتمعية هو اختلاف اقتصادي تماما. جميع الرأسماليين يؤمنون بالديمقراطية، وكلهم يؤمنون بالملكية الخاصة. وستكون أمريكا القوة العسكرية العظمى في القرن الحادي والعشرين.

ولكن هذا الأمر بالذات سيعرقل مساعيها الرامية إلى الحفاظ على موقعها كقوة اقتصادية عظمى في ذلك القرن. ولكي تكون قوة عظمى مزدوجة، يجب عليها أن تكون مستعدة لاستثمار ما يستثمره الآخرون كقوى اقتصادية عظمى، وفضلا عن ذلك أن تقوم بجميع الاستثمارات اللازمة للبقاء كقوة عسكرية عظمى.

ولأن الولايات المتحدة كانت غنية لمدة أطول من أية دول أخرى، فإنها تبدأ القرن الحادي والعشرين بموجودات اقتصادية حقيقية، يمكن تعبئتها في المنافسة الاقتصادية للقرن الحادي والعشرين، تفوق ما لدى أية دولة أخرى. ومن الناحية التكنولوجية، فهي ليست متخلفة جدا إلا في نواح قليلة، بينما لا تزال متقدمة جدا في نواح كثيرة أخرى. ويحتل متوسط الدخل الفردي ومتوسط الإنتاجية فيها المرتبة الأولى بدون منازع. كما أن قواها العاملة ذات التعليم الجامعي هي الأفضل في العالم، وسوقها المحلي أكبر بكثير من سوق اليابان، وأكثر تجانسا من السوق الأوروبي.

غير أن الولايات المتحدة بددت جزءا كبيرا من ميزة انطلاقتها بالسماح لنظامها التعليمي بالضمور، والسماح لنفسها بالاتجاه نحو الاستهلاك المرتفع، وبظهور مجتمع قليل الاستثمار والرزوح تحت عبء ديون خارجية كبيرة، وليس هناك دولة في نهاية القرن العشرين أقل استعدادا منها للمنافسة المقبلة في القرن الحادي والعشرين.

لم يصل الاستثمار الأمريكي إلى مستوى عالمي. فمتوسط الاستثمار في الأصول الرأسمالية بالنسبة إلى الفرد من القوة العاملة، يعادل نصف نظيره في ألمانيا، وثلث نظيره في اليابان. ويقل الإنفاق على البحث والتطوير المدنيين بنسبة ٤٠% إلى ٥٠% عنه في ألمانيا واليابان. وتمثل الاستثمارات في البنية التحتية

المادية نصف الاستثمارات التي تمت في أواخر الستينات. وبينما توظف أوروبا أموالا لإقامة شبكة سكك حديد فائقة السرعة لتربط مدنها الرئيسية، إذا بالأموال غير المستغلة في صناديق ودائع الطرق السريعة والمطارات تتكدس في الولايات المتحدة، ولا تعتبر أمريكا رائدة في بناء وسائل الاتصالات عن بعد الحديثة الملائمة للمستقبل.

في الثمانينات كان النمو البطيء للإنتاجية في أمريكا مختفيا في النمو السريع للقوى العاملة وطاقة الاقتراض غير المستخدمة، والتي أمكن تخصيصها لرفع مستويات المعيشة الحقيقية للعائلة بوتيرة أسرع مما كان يبرره نمو الإنتاجية. وفي التسعينات لن تنمو القوى العاملة الأمريكية بسرعة، وتقترب طاقتها الافتراضية من الاستنفاد الكامل بالفعل. ونتيجة لذلك، فإن المشكلة التي لم تظهر ولم تحل في الثمانينات، وهي النمو البطيء للإنتاجية، ستنتقل إلى الواجهة، وتحتل مركز الصدارة في التسعينات. وتتوقف فرص امتلاك أمريكا للقرن الحادي والعشرين على الإجابة عن سؤال بسيط: هل تستطيع أن ترفع معدل نمو إنتاجيتها إلى مستويات منافسيها الرئيسيين؟

ومن المفارقات أنه يتوجب على أمريكا، إذا أرادت تحقيق مستوى معيشة استهلاكي لا يقل عن المستوى العالمي في القرن الحادي والعشرين، أن تتحول من كونها مجتمعا عالي الاستهلاك منخفض الاستثمار في الثمانينات، إلى مجتمع كثير الاستثمار وقليل الاستهلاك في التسعينات. ويجب أن تتحول من كونها ذات توجه آني لتصبح ذات توجه مستقبلي. ولكي ترفع الاستثمار، يجب أن ينمو الاستهلاك (العام والخاص) وتائر أبطأ بكثير من الناتج لفترة زمنية طويلة إلى حد

ما، حتى يمكن للاستثمار (العام & الخاص) أن يرتفع باعتباره نسبة من الناتج القومي الإجمالي

وتختلط الصورة عندما يتعلق الأمر بالمهارات والمؤهلات العلمية للقوى العاملة وهي اللاعب الثاني الاحتياطي للفريق الأمريكي، حيث تتمتع الشريحة الجامعية من اليد العاملة بمستوى عالمي. والكلية هي المكان الذي تلحق فيه اليد العاملة الأمريكية بباقي دول العالم. ويعمل الأمريكيون جاهدين، وينفقون أكثر من غيرهم للمحافظة على مستوى رفيع في هذا المجال. ومن حسن حظ الأمريكيين أن معظم الدول التي توافرت فيها نظم تعليمية من الروضة إلى الصف الثاني عشر (K-12)، لم تبن نظما جامعية جيدة على نطاق واسع لكي تواكب تلك النظم التعليمية وقد أصبحت نظم تعليم النخبة نظما تعليمية جماهيرية غالبا مع استثمار محدود. سواء في المرافق البشرية أو المادية. فالطلاب الذين يدرسون بجد واجتهاد لاجتياز الامتحانات القاسية للتخرج من المدرسة الثانوية، غالبا ما يقضون الأعوام الأولى من حياتهم الجامعية في اللهو، أما القسم الآخر من اليد العاملة الأمريكية الذي لم يذهب إلى الكلية، فلا يتمتع بمستوى عالمي على أية حال، كما أن القسم الذي لم يتخرج من المرحلة الثانوية (٢٩%) يهبط إلى مستوى العالم الثالث، بالتأكيد، في ما يتعلق بالمهارات التعليمية. وإذا أراد الأمريكيون الفوز، فعليهم رفع مستوى التعليم.

في لعبة الشطرنج يعتبر الوزير أقوى قطعة على الرقعة. ومن الناحية الاقتصادية ربما كان الوزير هو القطعة التي نسي الأمريكيون كيف يحركونها. وفي المصطلحات الاقتصادية فإن تحريك الوزير يعني "اللحاق والعودة". كيف تعوض دولة ما فاتها في صناعة رئيسية هي متخلفة فيها؟ وكيف تعود دولة ما

إلى صناعة رئيسية أبعدها عنها المنافسون الأجانب المهاجمون. وما هي الاستراتيجية التي تستخدمها الدولة لضمان حصولها على حصتها أو أكثر من حصتها، من القيمة المضافة المرتفعة الجديدة والإنتاجية المرتفعة، والصناعات ذات الدخل المرتفع، والطلب المرن، التي تنبع من الميزة المقارنة التي يصنعها البشر؟

ربما نسي الأمريكيون كيف يلعبون اللحاق والعودة، حيث لم يضطروا إلى لعب أي منهما لمدة نصف قرن. وكان بإمكانهم في الماضي أن يفوزوا بدون خطة للمباراة. غير أن دول العالم الأخرى، التي توجب عليها التكيف مع الهيمنة الأمريكية على مدى نصف قرن، اكتسبت من أجل اللحاق بأمريكا، مهارة عالية في تحريك (وزرائها) على رقعة الشطرنج الاقتصادية.

إن الشريك التجاري الطبيعي المجاور جغرافيا لأمريكا، وهو أميركا اللاتينية، شريك فقير وضعيف تعليميا. كما أن متوسط الفرد من الناتج القومي الإجمالي في أمريكا اللاتينية آخذ في التراجع وتحول مشاكل الديون دونها ودون النمو السريع مطلع القرن الحادي والعشرين. وحتى إذا ما أقيمت سوق مشتركة بين أمريكا الشمالية والجنوبية، فإن هذه السوق لن تساعد الولايات المتحدة كثيرا. غير أن إقامة أسواق مشتركة بين دول ذات مستويات دخول شديدة التباين المتحدة كثيرا. غير أن إقامة أسواق مشتركة بين دول ذات مستويات دخول شديدة التباين أمر يصعب تحقيقه أيضا، لأن التنقل الحر للعمال، الذي يشكل جزءا من السوق المشتركة، يؤدي إلى انتقال أعداد كبيرة من الناس من الدول ذات الأجر المنخفض إلى الدول ذات الأجر المرتفع. وسوف تنجز أمريكا بعض الترتيبات التجارية الخاصة مع المكسيك لكي تزيد من فرص العمل فيها لإيقاف الهجرة إلى

الولايات المتحدة، ولكنها لن تكون قادرة على إقامة سوق مشتركة حقيقية مع المكسيك، ناهيك بسائر دول أمريكا اللاتينية. وقد تدفع مثل هذه السوق المشتركة من الناس إلى الانتقال إلى الولايات المتحدة والتسبب بانخفاض شديد للغاية في أجور الأمريكيين غير المهرة.

وفي الوقت ذاته تتمتع الولايات المتحدة ببعض جوانب القوة الثقافية الحقيقية. وإذا كانت الثقافة اليابانية تجعل منها دولة يجد فيها الأجانب صعوبة في المشاركة على قدم المساواة، فإن الثقافة الأمريكية تجعل من أمريكا دولة يسهل فيها على الدخلاء أن يصبحوا أصلاء. وربما لا يكون الأمريكيون مصدرين ممتازين، ولكنهم يعتبرون الأفضل في العالم، في ما يتعلق بإدارة مرافق الإنتاج الخارجية. وإذا عوملت مبيعات المرافق الإنتاجية الخارجية الأمريكية على أنها صادرات، فقد يتحول العجز التجاري الأمريكي عام ١٩٨٦، البالغ ١٤٤ مليار دولار، إلى فائض تجاري مقداره ٥٧ مليار دولار . ويستطيع الأمريكيون بسهولة أن يجعلوا المواطنين المحليين رجال أعمال أمريكيين ناجحين.

لقد استجاب الأمريكيون على نحو رائع في الأزمات (بيرل هاربور Pearl Harbor)أو في المواقف التي كانت تبدو شبيهة بالأزمات (سبوتنيك (Sputnik)). وجوبهت المشكلات الواضحة (سبوتنيك، والغزو العراقي للكويت) بحلول واضحة وساطعة وحسنة الإدارة، وتستطيع أمريكا بالتأكيد أن تنسب ملكية القرن الحادي والعشرين إلى نفسها. والمشكلة الأمريكية ليست في الفوز، بل في إجبار نفسها على الإدراك بأن المباراة قد تغيرت، بمعنى أنها يجب أن تلعب مباراة جديدة، ووفق استراتيجيات جديدة.

الفائز هو...؟

يمكن أن نسوق الحجج المؤيدة لكل واحد من المتنافسين الثلاثة. وتقف قوة الزخم في صف اليابانيين. ومن الصعب المراهنة ضدهم. ولدى الأمريكيين مرونة وقدرة لا تضاهيان في التنظيم إذا ما تم تحديهم مباشرة. وهم يباشرون انطلاقتهم بثروة أكبر وقوة أعظم من أية دولة أخرى. إلا أن الوضع الاستراتيجي يميل إلى صالح الأوروبيين. وهم الأوفر حظا في أن يسبغ عليهم شرف الريادة في القرن الحادي والعشرين.

وفي النهاية سيفعل الأوروبيون ما هو ضروري لاستكمال دمج الدول الموجودة الآن في السوق المشتركة، وضم باقي دول أوروبا الغربية إليها، ودفع الضرائب اللازمة للسماح لمعظم دول أوروبا الوسطى والشرقية بالانضمام إلى البيت الأوروبي، لا لأنهم حكماء وذوو بصيرة بعيدة المدى، بل لأنهم لا يملكون خيارا آخر. ولمنع البولنديين وغيرهم من الأوروبيين الشرقيين من الانتقال بالكلية إلى باريس ولندن وروما وفرانكفورت، سيفعل الأوروبيون الغربيون ما تفرضه عليهم الاعتبارات الاستراتيجية.

كما يجب على اليابانيين وأمريكا أيضا، أن تنتهزا الفرص الاستراتيجية التي تتاح امامهما من أجل الفوز، ولكن يجب عليهما أن تكونا قادرتين على إدراك الفوائد الإيجابية للتغيير. وهما لا تواجهان أية ضغوط سلبية، مثل الهجرة الأوروبية، ما يساعدهما على اتخاذ القرارات الصائبة رغما عنهما. ويعلمنا التاريخ والطبيعة البشرية بأنه سيسهل جدا على الأمريكيين واليابانيين أن يتجنبوا القيام بما يجب أن يقوموا به للفوز، وسوف يسجل مؤرخو المستقبل أن القرن الحادي والعشرين هو قرن البيت الأوروبي.

فهرس الخرائط

فهرس الجداول

قائمة المصادر والمراجع

R. Hartshorn " Political Geography" in American geography Inventory and Prospected Press, 1984.
L. D stamp " Applied Geography " Penguin 1980.
T. W. Freeman " A hundred year of Geography " Methuem London 1975.
S.B.Cohen " Geopraphy and Politics in divided world Methuen London 1984.
H. Weigert et al " Principles of political Geagraphy" New York, Appleton 1977.
Gottmann " La Politique des etats et lear Geography Paris , colin 1972.
Peake, H & Eleure H. Times Places . London 1976.
Reinhard M. et Armengaud. A. Histoire fenerale de la population mondiate, paris 1981.
Childe G, Man Makes himself London, 1971.
Reinhard, M; et Armengual; A op Cit,
Clark world Prehistory Cambridge 1982.
Nougier, L. Geographic humaine Prehistorique Paris 1979.
Sauer, G. Early Relation of Man to Plants Geography 1977.
Woytinskky . W. Woytinskey, E. World Population and Production N. Y. 1973.
Covr – Sauders, A The Population Proplem 1962.
Reed, S World Population Trends" Most of the World Linton N.Y. 1980.
A. Vogest W. The Road + Surival N. Y. 1988.
B. Oshon. F. Our plundered planet, Boston, 1978
The Nation state " The Economist, 1990
Michael silve and Betrial Jogren Europe 1992.
OECD Main Economic Indicators, 1991.
The Banker " American Banker" 1991.
Automotive News.

Council of Economic Advisors Economies and Public Policy London 1990.

Builder, Carl, " Nontraditional Military Missions," in Charles F. Hermann, ed., American Defense Annual , 1994 ed., New York: Lexington Books, 1994.

Davis, Paul K., " Protecting the Great Transition,' in Davis((1996).

, ed., New Challenges for defence planning, Santa Monica, Calif. Rand, M-400RC, 1994.

Huntington, Samuel, " The Clash of Civilization, " Foreign Affairs, Vol, 72 No.3, 1992

The Initial Draft of the Defense Department's Planning Guidance," New York Time, March 8,1992.

Kassing , David, Transporting the army for operation restore hope, santa monica, Calif. RAND, MR-384-A, 1994.

Kennedy, Paul , The Rise and Fall of the Great Power, New York: Random House, 1987.

Kissinger, Henery, Diplomacy , New York· Simon and Schuster, 1994.

Krauthammer, Charles , " The Unipolar Moment, " Foreign Affairs: America and the World, Vol 70, No.1, 1990-1991.

Lempert, R., D. Lewis, B Wolf, and R. Bitzinger, Air Force Noncombat Operations: Lessons From the Past, Thoughts for the Future, Santa Monica, Calif. RAND, N-3519-A, 1992.

Levin Norman D. ed Prisms, and policy 1994 .

Lewis Kevin " The Piscipline Gap and Other Reasons for Humility and Realism in Pefence planning 1994.

Strategy and the Internationalists three viesns 1994.

Times Mirror center of the people and the press the press politics , Washington 1994.

Reporting the Arab- Israeli Conflict– How hegemony works – Tamer Liebes-1997.

F. J. Turner, the frontier in American History N.Y. 1993.

C.F.G. Whebell, Models of Political territory proc. A ssoc Am Geography 1980.

D. Wishart, The changing position of the Frontier of Settlement on the estern margins of the central 1979.

D Wood conflict in the Twentieth century – Institute for strategic studies London 1978 Levin Norman D. ed Prisms, and policy 1994

.

Lewis Kevin " The Piscipline Gap and Other Reasons for Humility and Realism in Pefence planning 1994.

Strategy and the Internationalists three viesns 1994.

Times Mirror center of the people and the press the press politics , Washington 1994.

Reporting the Arab- Israeli Conflict– How hegemony works – Tamer Liebes-1997.

F. J Turner, the frontier in American History N.Y. 1993

C.F.G. Whebell, Models of Political territory proc. A ssoc Am Geography 1980.

D. Wishart, The changing position of the Frontier of Settlement on the estern margins of the central 1979.

D. Wood conflict in the Twentieth century – Institute for strategic studies London 1978.











هذا الكتاب

اعتمد المؤلف في كتابه هذا على النهج الحديث
في رسم صوره واضحة لمعالم الجغرافيا السياسية،
فاستند على الماضي لوصله بالحاضر عبر قنوات التاريخ،
فمن التاريخ رسم المؤلف معالم المستقبل،
وقد اعتمد المؤلف على احدث الارقام والاحصائيات التي استقصاها
من مراكز الدراسات العربية والاجنبية وعبر شبكة الانترنت ليضع بين
يدي القارىء الكريم ما يروى ظمأه من معلومات يستفيد منها
الباحث والطالب والمثقف.

الناشر

مركز الكتاب الاكاديمي
للنشر والتوزيع
الاردن - عمان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري
تلفاكس ٤٦١٩٥١١ ص ب ١٠٦١ عمان ١١٧٣٢